

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصلبيّة

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٨)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق
١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

الجزء الحادي العشرون

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع

- من وفيات الأعيان لابن خلكان
- من التاريخ المظفري لابن أبي الدم الحموي
- من التاريخ المنصوري لابن نظيف الحموي
- من التاريخ الصالحى لابن واصل الحموي

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

رأينا من قبل أن عددا كبيرا من المؤرخين العرب عاصروا بداية قيام الحروب الصليبية ، وعاشوا أحداث ذروتها في حطين وتحرير الساحل والقدس وملحمة عكا حتى وفاة صلاح الدين ، لكن بعض كتابات هؤلاء المؤرخين ما تزال بحكم المفقود، ثم ان الصراع ضد الصليبيين مرّ - بعد صلاح الدين - بمراحل متميزة انتهت بتحرير عكا من قبل الأشرف خليل، وعاش أيضا هذه الاحداث مجموعة من المؤرخين العرب الكبار لم يقتصر نشاطهم على التأريخ لما عاصروه، بل نقلوا عن كتابات الذين تقدموهم ، وعلى هذا لتناهم أهمية مزدوجة ، ويتصدر جيل القرن السابع من المؤرخين العرب الشاميين أربعة هم: ابن خلكان، وابن أبي الدم الحموي، وابن نظيف الحموي، وابن واصل الحموي.

وابن خلكان هو: أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكي الإربلي كان يكنى أبا العباس، ولد بمدينة إربل سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م بدأ في تحصيل العلم في بلدته ثم قصد سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م مدينة حلب لتلقي العلم فيها، خاصة على ابن شداد، صاحب صلاح الدين والمؤرخ لحياته، وذكر ابن خلكان هذا لدى ترجمته لحياته ابن شداد في كتابه وفيات الأعيان.

غادر ابن خلكان مدينة حلب الى دمشق، وقد اتخذها داراً له، فيها أكمل تحصيله العلمي، وفيها تسلم منصب قاضي القضاة، وبات في مقدمة أعيانها لاسيما أيام السلطان الملك الظاهر بيبرس، وفي دمشق مات سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢ م . وبالنسبة للمهتم بالتاريخ ، ان مكانة ابن خلكان وشهرته صادرة عن تصنيفه لكتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » وهذا الكتاب من أهم كتب التراجم العامة وأشهرها، صنف من ترجم له حسب حروف المعجم ألفبائياً، ودعاه بوفيات الأعيان ، على أساس أن معظم الشخصيات لإتعرف بالتأكيد سنوات ولادتهم، بل سنوات وفياتهم، لأنهم يحظون بالاهتمام بعد نيلهم الشهرة، وهكذا تضبط سنوات وفياتهم.

وفضلاً عن المعاصرة، عاد ابن خلكان الى محتويات المكتبة العربية في بلاد الشام ومصر، فهو قد عاش بالقاهرة سبع سنوات عمل فيها بالتدريس بالمدرسة الفخرية، ونال كتاب وفيات الأعيان شهرة واسعة واتخذ قاعدة اما للاكمال أو لاستدراك بعض مافات المصنف، وقد قمت بانتزاع جميع التراجم التي حواها الكتاب لأعلام تاريخ الحروب الصليبية ومقدماتها، وهي غنية المادة كثيرة الفوائد، فيها أمانة بالنقل ونزاهة ، ذلك أن سلوك ابن خلكان الصارم في القضاء انعكس ايجابياً على عمله في التاريخ.

ولدى عرض مواد موسوعتنا حول الدولة الايوبية أيام صلاح الدين رأينا أن هذه الدولة فقدت مركزيتها وتحولت الى عدة ممالك، كان أبرزها وأطولها عمراً مملكة حماه.

وتعد مدينة حماه من أهم مدن بلاد الشام وأقدمها ، وغالبا ما تنافست مع حمص لقصر المسافة بينهما ولارتباطهما بنهر العاصي،

ونظراً لموقع حمص المتميز، فقد تفوقت على حماه قبل ظهور الاسلام وبعيد نجاح حركة الفتوحات العربية، لكن الفتوحات العربية غيرت كما - هو معلوم - البنية الاستراتيجية: السياسية والعسكرية لمدن بلاد الشام، حيث سرعان ما تقدمت كل من دمشق وحلب نحو الصدارة، وتراجعت القدس وأنطاكية، ومع الأيام قام تنافس شديد بين حلب ودمشق حول السيادة في بلاد الشام، ولم يحسم هذا لصالح أي من المدينتين، وفي الوقت نفسه عانت حمص من الاهمال وتعرضت لكوارث عسكرية الأمر الذي أفاد حماه، حيث تولت دور الحاجز بين دمشق وحلب، وبين قلاع جبال بهراء إلى الغرب منها والبادية في الشرق، وإلى حماه هاجر كثير من علماء معرة النعمان، لابل قدم إليها علماء من العراق ومن الأندلس أيضاً ولدى استقرار الحكم الأيوبي فيها رعى هذا الحكم العلم والعلماء، وتوفرت اهتمامات كبيرة بعلم التاريخ حتى من قبل ملوك المدينة، فقد كتب الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، ثاني ملوك حماه [٥٦٧ - ٦١٧هـ / ١١٧٢ - ١٢٢٠م] كتاباً كبيراً في التاريخ اسمه «مضمار الحقائق وسر الخلائق» ، وصلتنا قطعة منه نشرت بالقاهرة عام ١٩٦٨، وسيمر بنا أبو الفداء المؤرخ والجغرافي الكبير .

ومن أوائل المؤرخين الحمويين شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم ففي حماه ولد سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وبها نشأ وتربى وثقف ، وقد تسلم القضاء في حماه وتكلف بأكثر من مهمة رسمية مما مكنه من زيارة حلب ودمشق والقاهرة، ونال مكانة عليية في حماه، وعاصر أربعة من ملوكها الأيوبيين هم: تقي الدين عمر، ثم ابنه المنصور محمد، ثم ولده الملك الناصر قليج أرسلان (٦٢٦ - ٦٤٢ هـ / ١٢٢٠ - ١٢٢٩م) وأخيراً أخيه الملك المظفر الثاني محمود (٦٢٦ - ٦٤٢ هـ / ١٢٢٩ - ١٢٤٤م) .

وكانت علاقة ابن أبي الدم جيدة مع هذا الملك ، على عكس علاقته مع قليج أرسلان، وهذا واضح من خلال كتابه في التاريخ الذي نقدم للقسم المتعلق بالحروب الصليبية منه، وبما أن علاقات المنصور الثاني كانت جيدة مع الكامل الأيوبي ، فقد سوغ ابن أبي الدم تسليم الكامل القدس الى الصليبيين، وهذا التسويغ ضعيف يتنافى مع موقف علماء الاسلام آنذاك من هذا الحدث الجلل ويتعارض تماما .

ولعلاقات ابن أبي الدم الجيدة بالمظفر الثاني فقد أسهم في شؤون حماته السياسية وسواها، وهذا الجانب واضح بعض الشيء من خلال مادته التاريخية وكتب ابن أبي الدم بالقضاء وبالتاريخ والفقه والحديث والملل والنحل ، وأهم ما كتبه بالتاريخ: التاريخ المظفري، والتاريخ الكبير أو المقفى، ثم اختصر المظفري بكتاب عرض فيه للتاريخ الاسلامي حتى أيامه.

وكنت قد رأيت في مكتبة أياصوفيا نسخة مخطوطة من التاريخ المظفري في مجلدين ، لكن ترجمة فارسية له، وليس النص العربي ، ووصلنا من مختصره للتاريخ الاسلامي أكثر من نسخة خطية ، اعتمدت منها نسخة مكتبة البودليان مارش ٦٠ ، وفيها / ١٨٧ / ورقة.

وكان الدكتور حامد زيان غنيم قد نشر في القاهرة عام ١٩٨٩ قطعة صغيرة من الكتاب، وأبلغني مؤخرا أن في نيته متابعة العمل في نشرته وأخبرته بدوري أنني قد أعمد الى نشر الكتاب دفعة واحدة.

وعاش ابن أبي الدم حتى سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م، وعلى هذا عاصر جملة احداث العصر الأيوبي ، وكان شاهد عصر لها، ومن هذا المنطلق تتأتى أهمية ما كتبه عن عصره، وإن كان مختصراً ، وإنها المرة الأولى التي تنتشر بها هذه المادة في موسوعتنا.

ومن الحمويين الذين عاصروا ابن أبي الدم محمد بن علي بن نظيف ، ونحن لانعرف عن هذا المؤرخ سوى الاشارات التي أشار بها إلى نفسه في كتابه التاريخ المظفري، لانعرف متى ولد ، ولاسنة وفاته بالتأكيد ، وإن كنا نرجح أنها كانت سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م ، وابن نظيف لم يمض حياته في حماء بل في الجزيرة وسواها، وعاش فترة طويلة في حمص، وتوطدت علاقته بملكها المنصور ابراهيم بن المجاهد [ت: ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م]، وله أهدى كتابه « التاريخ المنصوري».

وجاء هذا الكتاب بمثابة اختصار لكتاب كبير بالتاريخ اسمه «الكشف والبيان في حوادث الزمان» ، وهو كما يبدو تاريخ عام للإسلام ، أهم ما فيه ما عاصره المؤلف.

ونعرف من كتاب « التاريخ المنصوري » نسخة خطية واحدة تحتوي على ٢٢٧ ورقة، سلف أن نشرت كما هي صورة طبق الأصل في موسكو عام ١٩٦٠، وقام فيما بعد د. أبو العيد دودو بنشر قطعة من الكتاب تتضمن ما حدث بعد وفاة صلاح الدين حتى نهاية الكتاب ، وطبعت هذه القطعة بدمشق عام ١٩٨٢، وقد اثقل المحقق نص الكتاب بحواشي لا طائل تحتها لا فائدة تذكر منها، واستعار أحد الاصدقاء مني صورة المخطوطة وأعلمني عن نيته بتحقيق نص الكتاب كله، وسيكون هذا مفيدا، والذي قمت به الآن أنني أعدت تحقيق ما نشر بدمشق عام ١٩٨٢ مضيفا إليه ما تعلق بأحداث الحروب الصليبية ومقدماتها قبل وفاة صلاح الدين.

ولدى ابن نظيف بعض الروايات قد انفرد بها، إنما حوادثه تدعم على العموم روايات المؤرخين الآخرين، وفي ذلك فائدة كبيرة.

وأشهر ممن قدمنا ذكرهما من الحمويين ابن واصل جمال الدين ، أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل ، الذي ولد بحماه سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٨ م وفيها توفي سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م لقد زار ابن واصل مدن بلاد الشام وبغداد والقاهرة والحجاز ، وأقام بالقاهرة عدة سنوات أيام الصالح نجم الدين أيوب ، وكان من شهود حملة الملك الفرنسي لويس التاسع ، وعاش سقوط الحكم الأيوبي في مصر ثم في الشام وتأسست له صلات متينة بالسلطان الملك الظاهر بيبرس ، الذي أرسله سفيراً إلى منفرد بن فردريك الثاني ملك صقلية وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة.

كان ابن واصل موسوعي المعارف، كتب بالأدب، والهندسة وعلم الهيئة والجغرافيا والطب والتاريخ، واختص بالتأريخ لبني أيوب ، ويحكى أنه أرخ لجزيرة صقلية، وتعد جل مؤلفاته بحكم المفقود، ونظر إلى كتابه « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » على أنه أهم ما صنّفه بالتاريخ ، وقد شرع في نشر هذا الكتاب بالقاهرة منذ ما يزيد على الأربعين سنة، وما يزال جزء منه لم ينشر بعد، قيل لي إنه بالمطبعة منذ أكثر من عامين.

وعلى أهمية كتاب مفرج الكروب، أرى أن أصالة ابن واصل في التدوين التاريخي تظهر في كتاب آخر له بالتاريخ اسمه « التاريخ الصالحى »، وهو كتاب في التاريخ الاسلامي العام، عرض مواده بشكل مختصر، فابن واصل في كتابه مفرج الكروب مصنف جماعة لروايات الآخرين، لكنه هنا شخص آخر ، هو فعلاً مؤرخ بكل ما تعنيه الكلمة بالمقاييس الاسلامية.

وعرفت من كتاب التاريخ الصالحى نسخة غير كاملة تضم بعض أول الكتاب وهي محفوظة بالمكتبة البريطانية (المتحف البريطانى

- ٩٤٦٩ -

بلندن) وأخرى كاملة موجودة في مكتبه الفاتح باستانبول، ومن نسخة
استانبول هذه انتزعت ما تعلق بموضوع الحروب الصليبية وحقيقته
ونشرته ، ولا أعرف أنه سلف لغيري أن نشر منه شيئاً.

من الله تعالى أرجو التوفيق والعون وله جل وعلا الحمد والشكر
والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين

١٣ - جمادى الأولى ١٤١٦هـ

دمشق ٧ / ١٠ / ١٩٩٥م

سهيل زكار

من وفیات الأعیان
لابن خلكان

أرتق بن أكسب جد الملوك الأرتقية

هو رجل من التركمان تغلب على حلوان والجبل ثم سار إلى الشام مفارقاً لفخر الدولة أبي نصر محمد بن جهير، خائفاً من السلطان محمد بن ملكشاه وذلك في سنة ثمان أو تسع وأربعين وأربعمائة، وملك القدس من جهة تاج الدولة تتش السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولما توفي أرتق في التاريخ المذكور فيه تولاه بعده ولداه سكرمان وإيل غازي ابنا أرتق، ولم يزلأ به حتى قصدهما الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش الآتي ذكره إن شاء الله تعالى من مصر بالعساكر، وأخذ منهما في شوال سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وتوجه إلى بلاد الجزيرة الفراتية وملكاً ديار بكر، وصاحب قلعة ماردين الآن من أولاده، وملك ولده نجم الدين إيل غازي مدينة ماردين سنة إحدى وخمسمائة وكان ولاه السلطان محمد شحنكية بغداد، وتوفي سكرمان بن أرتق بعلة الخوانيق في طريق الفرات بين طرابلس والقدس سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

وكان أرتق رجلاً شهماً ذا عزيمة وسعادة وجد واجتهاد، وتوفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة رحمه الله تعالى، وهو بضم الهمزة وسكون الراء، وضم التاء المثناة من فوقها بعدها قاف، وأكسب بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح السين المهملة وبعدها باء موحدة، وقيل هو كسك بالكاف بدل الباء والله أعلم.

أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي مقدم الأتراك ببغداد

يقال إنه كان مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه والله أعلم. وهو الذي خرج على الإمام القائم بأمر الله ببغداد، وكان قد قدمه على جميع الأتراك وقلده الأمور بأسرها وخطب له على منابر العراق وخوزستان، فعظم أمره وهابته المملوك، ثم خرج على الإمام القائم وأخرجه من بغداد وخطب للمستنصر العبيدي صاحب مصر، فراح الإمام القائم إلى أمير العرب محيي الدين أبي الحارث مهارش بن المجلي العقيلي صاحب الحديث وعانة فآواه، وقام بجميع ما يحتاج إليه مدة سنة كاملة حتى جاء طغرل بك السلجوقي المذكور بعد هذا، وقاتل البساسيري المذكور، وقتله وعاد القائم إلى بغداد، وكان دخوله إليها في مثل اليوم الذي خرج منها بعد حول كامل، وكان ذلك من غرائب الاتفاق وقصته مشهورة وقتله عسكر السلطان طغرل بك السلجوقي ببغداد يوم الخميس خامس عشر ذي الحجة.

وقال ابن العظيمي: يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة سنة احدى وخمسين وأربعمائة، وطيف برأسه في بغداد، وصلب قبالة باب النوب.

والبساسيري بفتح الباء الموحدة والسين المهملة، وبعد الألف سين مهملة مكسورة ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها، وبعدها راء، هذه النسبة إلى بلدة بفارس يقال لها بسا، وبالعربية فسا، والنسبة إليها بالعربي فسوي، ومنها الشيخ أبو علي الفارسي النحوي صاحب الايضاح، ويقال له فسوي أيضا وأهل فارس يقولون في النسبة إليها البساسيري، وهي نسبة شاذة على خلاف الأصل، وكان سيد أرسلان المذكور من بسا فنسب المملوك إليه، واشتهر بالبساسيري هكذا ذكره السمعاني نقلا عن

- ٩٤٧٤ -

الأديب أبي العباس أحمد بن علي بن بابہ القاساني، وفي هذه اللفظة زيادة ليست في الأصل.

ومات الأمير مهارش بن المجلي في صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقد ناهز ثمانين سنة وهو مهارش بن المجلي بن عكيث بن قباث بن شعب بن المقلد بن جعفر بن عمرو بن المهنا، وبقيّة نسبه ستأتي في ترجمة المقلد بن المسيب إن شاء الله تعالى.

أبو الحارث أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب
الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقي سنقر صاحب
الموصل المعروف بأتابك الملقب بالملك العادل نور الدين
وسياتي ذكر جماعة من آل بيته إن شاء الله تعالى كل واحد
في حرفة

ملك نور الدين المذكور الموصل بعد وفاة أبيه في التاريخ المذكور
هناك، وكان ملكا شهيا عارفا بالأمور وانتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله
عنه، ولم يكن في بيته شافعي سواه، وبنى مدرسة للشافعية بالموصل قل
ان توجد مدرسة في حسننها، وتوفي ليلة الأحد التاسع والعشرين من رجب
سنة سبع وستائة في شبارة بالشط ظاهر الموصل، والشبارة عندهم هي
الحراقة بمصر، وكنتم موته حتى دخل به إلى دار السلطنة بالموصل ودفن
في تربته التي بمدرسته المذكورة رحمه الله تعالى، وخلف ولدين: هما الملك
القاهر عز الدين مسعود، والملك المنصور عماد الدين زنكي، وهما
مذكوران في ترجمة جدهما عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، فليطلب
منه إن شاء الله تعالى.

وقام بالمملكة بعده ولده الملك القاهر، كما هو مشروح هناك، وهو
أستاذ الأمير بدر الدين أبي الفضائل لؤلؤ، الذي تغلب على الموصل
وملكها في سنة ثلاثين وستائة في أواخر شهر رمضان، وكان قبل نائباً
بها، ثم استقل وهو المذكور في ترجمة عماد الدين بن المشطوب.

أبو سعيد آق سنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف
بالحاجب جد البيت الأتابكي أصحاب الموصل، وهو والد
عماد الدين زنكي بن آق سنقر الآتي ذكره إن شاء الله تعالى

كان مملوك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي هو وبزان
صاحب الرها، ولما ملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقي في
مدينة حلب استناب فيها آق سنقر المذكور، واعتمد عليه لأنه مملوك
أخيه فعصى عليه، فقصده تاج الدولة وهو صاحب دمشق يومئذ فخرج
لقتاله وجرى بينهما مصاف وحرب شديد، وانجلت عن قتل آق سنقر
المذكور، وذلك في جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وأربعمائة، ودفن
بالمدرسة المعروفة بالزجاجية داخل حلب رحمه الله تعالى، ورأيت عند قبره
خلقا كثيرا يجتمعون كل يوم جمعة لقراءة القرآن الكريم، وقالوا: إن لهم
على ذلك وقفا عظيما يفرق عليهم، ولأعلم من وقفه، ثم إني وجدت
الذي وقفه ولد ولده نور الدين محمود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى،
وسأتي في ترجمة تاج الدولة تتش خبر آق سنقر المذكور، على خلاف هذه
الواقعة والله أعلم بالصواب.

والزجاجية بناها أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب
حلب، وكان أولا مدفونا بقرنييا، فلما ملك ولده عماد الدين زنكي
حلب نقله إلى المدرسة ودلاه من سور البلد، وكان قتل آق سنقر على
قرية يقال لها رويان بالقرب من سبعين من أعمال حلب، ذكرها ياقوت
الحموي.

أبو سعيد آق سنقر البرسقي الغازي الملقب قسيم الدولة سيف الدين

صاحب الموصل والرجبة وتلك النواحي، وملكها بعد اسباسلار مودود، وكان مودود بها وببلاد الشام من جهة السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فقتل مودود بجامع دمشق يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وخمسمائة، وكان قد وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه، وآق سنقر يومئذ شحنة بغداد، كان ولاه إياها السلطان محمد المذكور في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة لما استقرت له السلطنة بعد موت أخيه بركياروق.

وفي سنة تسع وتسعين وجهه السلطان محمد لمحاصرة تكريت وكان بها كيقباذ بن هزارسب الديلمي المنسوب إلى الباطنية، فأصعد آق سنقر إليه في رجب من السنة المذكورة، وحاصره إلى المحرم من سنة خمسماية، فلما كاد أن يأخذها أصعد إليه سيف الدولة صدقة فتسلمها، وانحدر كيقباذ صحبتته، ومعه أمواله وذخائره، فلما وصل إلى الحلة مات كيقباذ، فلما وصل خبر قتل مودود تقدم السلطان محمد إلى آق سنقر بالتجهز إلى الموصل والاستعداد لقتال الفرنج بالشام، فوصل إلى الموصل وملكها وغزا ودفع الفرنج عن حلب وقد ضايقوها بالحصار، ثم عاد إلى الموصل وأقام بها إلى أن قتل. وهو من كبراء الدولة السلجوقية، وله شهرة كبيرة بينهم، قتله الباطنية بجامع الموصل يوم الجمعة التاسع من ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة.

وذكر ابن الجوزي في تاريخه أن الباطنية قتله في مقصورة الجامع بالموصل سنة تسع عشرة وخمسمائة، وقال العماد: سنة عشرين وذكر أنهم جلسوا له في الجامع بزي الصوفية، فلما انفتل من صلاته قاموا إليه

وأثخنوه جراحا في ذي القعدة، وذلك لأنه كان تصدى لاستئصال شأفتهم وتتبعهم وقتل منهم عصابة كبيرة رحمه الله تعالى.

وتولى ولده عز الدين مسعود موضعه ثم توفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسة رحمه الله تعالى وملك بعده عماد الدين زنكي بن آق سنقر المذكور قبله كما سيأتي في حرف الزاي إن شاء الله تعالى.

والبرسقي بضم الباء الموحدة وسكون الراء وضم السين المهملة وبعدها قاف ولأعلم هذه النسبة إلى أي شيء هي، ولم يذكرها السمعاني، ثم إني وجدت نسبته بعد هذا إلى برسق، وكان من ممالك السلطان طغرل بك أبي طالب محمد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وتقدم في الدولة السلجوقية، وكان من الأمراء المشار إليهم فيها، المعدودين من أعيانهم.

تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي.

كان صاحب البلاد الشرقية، فلما حاصر أمير الجيوش بدر الجمالي مدينة دمشق، من جهة صاحب مصر، وكان صاحب دمشق يومئذ أئمز ابن أوق الخوارزمي التركي، سير أئمز المذكور إلى تتش، فاستنجد به، فأنجده وسار إليه بنفسه، فلما وصل إلى دمشق خرج إليه أئمز، فقبض عليه تتش، واستولى على مملكته، وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر، وكان قد ملك دمشق في ذي القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة.

ورأيت في بعض التواريخ أن ذلك كان سنة اثنتين وسبعين، والله أعلم.

ثم ملك حلب بعد ذلك في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما تقدم في ترجمة أقي سنقر، واستولى على البلاد الشامية، ثم جرى بينه وبين ابن أخيه بركياروق، المقدم ذكره منافرات ومشاجرات أدت إلى المخاربة، فتوجه إليه فتصافا بالقرب من مدينة الري، في يوم الأحد سابع عشر صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فانكسر تتش المذكور، وقتل في المعركة ذلك النهار.

ومولده في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وخلف ولدين - أحدهما فخر الملوك رضوان، والآخر شمس الملوك أبو نصر دقاق، فاستقل رضوان بمملكة حلب، ودقاق بمملكة دمشق، وتوفي رضوان في سلخ جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، ومن نوابه أخذ الفرنج أنطاكية في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة.

وتوفي دقاق في ثامن عشر شهر رمضان سنة سبع وتسعين وأربعمائة،

ودفن في مسجد بحكر الفهاديين بظاهر دمشق الذي على نهر بردى، وكان قد حصل له مرض متناول، وقيل إن أمه سمته في عنقود عنب، فلما مات قام بالملك ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وكان أتابكه وتزوج أمه في حياة أبيه، وزوجه إياها، وهو عتيق تتش، رحمهم الله تعالى.

وأولاد الملك رضوان المقيمون بظاهر حلب هم أولاد رضوان المذكور، ولم يزل ظهير الدين طغتكين مالك دمشق، إلى أن توفي يوم السبت لثمان خلون من صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وتولى الأمر بعده ولده تاج الملوك أبو سعيد بوري إلى أن توفي يوم الاثنين الحادي والعشرين من رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة من جراحة أصابته من الباطنية، وتولى بعده ولده شمس الملوك اسماعيل إلى أن قتل يوم الأربعاء رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وخمسمائة قتله أمه خاتون زمر بنت جاولي، وأجلست أخاه شهاب الدين أبا القاسم محمود بن بوري فتولى الأمر بعده بدمشق إلى أن قتل ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، قتله غلامه البقش ويوسف الخادم والفراش الخركاوي، وصبيحة قتله وصل أخوه جمال الدين محمد بن بوري من بعلبك، وكان صاحبها فملك دمشق، وأقام بها إلى أن توفي ليلة الجمعة ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وتولى بعده مملكة دمشق ولده مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين إلى أن نزل عليها نور الدين محمود بن زنكي في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى وأخذها منه وعرضه عوضه عنها حمص، فأقام بها يسيرا ثم انتقل إلى بلس التي على الفرات بأمر نور الدين وأقام بهامدة ثم توجه إلى بغداد واقتبل عليه الامام المقتفي ولا أعلم متى مات، ولما كان بدمشق كان مدبر دولته معين الدين أنر بن عبد الله مملوك جده طغتكين، وهو الذي ينسب إليه قصر معين الدين ببلاد الغور من أعمال دمشق، وتوفي معين الدين المذكور في ليلة الثالث

والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وهو الذي تزوج نور الدين محمود ابنته، تزوجها من بعده السلطان صلاح الدين رحمهم الله اجمعين، وله بدمشق مدرسة ثم وجدت تاريخ وفاة مجير الدين أبق فذكرتها في ترجمة نور الدين محمود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب بن شاذي بن مروان الملقب فخر الدين

وقد تقدم ذكر أبيه وأخيه تاج الملوك، وهو أخو السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى، وكان أكبر منه وكان السلطان يكثر الثناء عليه ويرجحه على نفسه، وبلغه أن باليمن انسانا يسمى عبد النبي بن مهدي يزعم أنه ينتشر ملكه حتى يملك الأرض كلها، وكان قد ملك كثيرا من بلادها، واستولى على حصونها وخطب لنفسه، وكان السلطان قد ثبتت قواعده وقوي عسكره، فجهز أخاه شمس الدولة المذكور بجيش اختاره وتوجه إليها من الديار المصرية في أثناء رجب سنة تسع وستين وخمسة، فمضى إليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجي الذي كان فيها، وملك معظمها وأعطى وأغنى خلقا كثيرا، وكان كريما أريحيما، ثم إنه عاد من اليمن والسلطان على حصار حلب، فوصل إلى دمشق في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين، ولما رجع السلطان من الحصار وتوجه إلى الديار المصرية استخلفه بدمشق، فأقام بها مدة ثم انتقل إلى مصر.

وذكر ابن شداد في سيرة صلاح الدين أنه توفي يوم الخميس مستهل صفر، وقال في موضع آخر من السيرة أيضا: خامس صفر سنة ست وسبعين وخمسة بئر الاسكندرية المحروس، ونقلته أخته شقيقته ست الشام بنت أيوب إلى دمشق ودفنته في مدرستها التي أنشأتها بظاهر دمشق، فهناك قبره وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين، وقبر زوجها ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وكانت تزوجته بعد لاجين رحمهم الله أجمعين، وكانت وفاة حسام الدين المذكور ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان سنة سبع وثمانين وخمسة.

وهذا حسام الدين المذكور هو سيد شبل الدولة كافور بن عبد الله

الحسامي الخادم صاحب المدرسة والخانقاه الشبلية اللتين في ظاهر دمشق على طريق جبل قاسيون، ولهما شهرة في مكانها وله أوقاف كثيرة ومعروف نافع في الدنيا والآخرة، وكانت وفاته في رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة ودفن في تربته المجاورة لمدرسته المذكورة وسيأتي ذكر ناصر الدين محمد بن شيركوه في ترجمة أبيه في حرف الشين إن شاء الله تعالى.

وتوفيت ست الشام المذكورة في سادس عشر ذي القعدة سنة ست عشرة وستمائة.

وبعد الفراغ من هذه الترجمة وجدت بخط بعض الفضلاء ممن له عناية بهذا الفن زيادة على ما ذكرته ههنا، فتركت ماهو مذكور في هذا المكان، وأتيت بتلك الزيادة فقال: لما تمهدت بلاد اليمن لشمس الدولة، واستقامت له أمورها كره المقام بها لكونه تربية بلاد الشام وهي كثيرة الخير، واليمن بلاد مجدبة من ذلك كله، فكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقيل منها ويسأله الأذن له في العود إلى الشام، ويشكو حاله وما يقاسيه من عدم المرافق التي يحتاج إليها فأرسل إليه صلاح الدين رسولا مضمون رسالته ترغيبه في الإقامة، وأنها كثيرة الأموال ومملكة كبيرة، فلما سمع الرسالة قال لمتولي خزانته: أحضر لنا ألف دينار فأحضرها، فقال لأستاذ داره والرسول حاضر عنده: أرسل هذا الكيس إلى السوق يشترون لنا بما فيه قطعة ثلج، فقال أستاذ الدار: يامولانا هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج، فقال: دعهم يشترون بها طبق مشمش لوزي، فقال: من أين يوجد هذا النوع ههنا، فجعل يعدد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يظهر التعجب من كلامه، وكلما قال له عن ذلك نوع يقول له: يامولانا من أين يوجد هذا ههنا؟ فلما استوفى الكلام إلى آخره قال للرسول: ليت شعري ماذا أصنع بهذه الأموال إذا لم أنتفع بها في ملاذي وشهواتي، فإن المال لا يؤكل بعينه بل الفائدة فيه أنه يتوصل به الانسان

إلى بلوغ أغراضه، فعاد الرسول إلى صلاح الدين، وأخبره بما جرى، فأذن له في المجيء وكان القاضي الفاضل يكتب إليه الرسائل الفائقة ويودعها شرح الأشواق، فمن ذلك أبيات مشهورة ذكرها في ضمن كتاب، وهي:

لاتضجرن مما أتيت فإنه
صدر لأسرار الصبابة ينفث
أما فراقك واللقاء فإن ذا
منه أموت وذاك منه أبعث
حلف الزمان على تفرق شملنا
فمتى يرق لنا الزمان ويحنث
كم يلبث الجسم الذي ما نفسه
فيه ولا أنفاسه كم يلبث
حول المضاجع كتبكم فكأنني
ملسوعكم وهي الرقاة النفث

ولما وصل إلى دمشق في التاريخ المقدم ذكره، ناب عن أخيه صلاح الدين بها، لما عاد صلاح الدين إلى الديار المصرية، ثم انتقل إلى الديار المصرية في سنة أربع وسبعين وخمسة، وكان أخوه صلاح الدين قد سيره في سنة ثمان وستين وخمسة إلى بلاد النوبة ليفتحها، قبل سفره إلى اليمن، فلما وصل إليها وجدها لاتساوي المشقة فتركها، ورجع وقد غنم شيئاً كثيراً من الرقيق، وكانت له من أخيه اقطاعات، ونوابه باليمن يجبون له الأموال، ومات وعليه من الديون مائتا ألف دينار، فقضاها عنه صلاح الدين.

وحكى صاحبنا الشيخ مهذب الدين أبو طالب محمد بن علي المعروف بابن الخيمي الحلي، نزيل مصر، الأديب الفاضل، قال: رأيت في النوم شمس الدولة توران شاه بن أيوب، وهو ميت فمدحته بأبيات، وهو في القبر، فلف كفه ورماه إلي وأنشدني:

لا تستقلن معروفنا سمحت به
ميتافأ مسيت منه عاريا بدني
ولا تظنن جوذي شابه بخل
من بعد بذلي ملك الشام واليمن
إني خرجت من الدنيا وليس معي
من كل ما ملكت كفي سوى كفي

ولما كان في اليمن استناب في زبيد سيف الدولة أبا الميمون المبارك بن
منقذ الآتي ذكره في حرف الميم، إنشاء الله تعالى.

وتوران بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو، وبعدها راء ثم بعد
الألف نون، وهو لفظ أعجمي، وشاه بالشين المعجمة، هو الملك باللغة
العجمية، ومعناه ملك المشرق، وإنما قيل للمشرق توران، لأنه بلاد
الترك، والعجم يسمون الترك تركمان، ثم حرفوه فقالوا: توران، والله أعلم.

أبو سليمان داود الملقب الملك الزاهر مجير الدين ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمهم الله تعالى.

كان صاحب قلعة البيرة التي على شاطئ الفرات، وكان يحب العلماء وأهل الفضل ويقصدونه من البلاد، ولما ولد بالقاهرة كان السلطان صلاح الدين بالشام، وكان الثاني عشر من أولاده، فكتب إليه القاضي الفاضل رسالة يبشره بولادته من جملتها: « وهذا المولود المبارك هو الموفى لاثني عشر ولدا، بل لاثني عشر نجما متقددا فقد زاده الله تعالى في أنجمه عن أنجم يوسف عليه السلام نجما، ورآهم المولى يقظة ورأى يوسف تلك الأنجم حلما، ورآهم يوسف ساجدين له، ورأينا الخلق لهم سجودا، وهو تعالى قادر أن يزيد في جدود المولى إلى أن يراهم آباء وجدودا » وقد ألم القاضي الفاضل في آخر هذا الكلام بقول البحري في مدح الخليفة المتوكل، وقد ولد له المعتز من قصيدة:

وبقيت حتى تستضيء برأيه
وترى الكهول الشيب من أولاده

وحكى عنه جماعة أنه كان يقول من أراد أن يبصر صلاح الدين فليصبرني فأنا أشبه أولاده به، وكانت ولادته لسبع بقين من ذي الحجة، وقيل القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وهو شقيق الملك الظاهر الآتي ذكره في حرف الغين المعجمة إن شاء الله تعالى، وتوفي بالبيرة في ليلة التاسع من صفر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وكنت بحلب وقد وصل نعيه إليها فتوجه الملك العزيز ابن الملك الظاهر أخيه إلى القلعة المذكورة وملكها رحمه الله تعالى، والبيرة بكسر الباء الموحدة، وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح الراء وبعدها هاء ساكنة، وهي قلعة بقرب سميساط من ثغور الروم على الفرات من جانب الجزيرة الفراتية. وسميساط في بر الشام بين قلعة الروم وملطية، والفرات يفصل بين الجهتين والله أعلم.

أبو الأغر ديبس بن سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن
منصور بن ديبس بن علي بن مزيد الأسدي الناصري
الملقب نور الدولة

ملك العرب صاحب الحلة المزيديّة، كان جوادا كريما عنده معرفة
بالأدب والشعر، وتمكّن في خلافة الإمام المسترشد، واستولى على كثير من
بلاد العراق، وهو من بيت كبير وسيّاتي ذكر أبيه وأجداده في حرف
الصاد إن شاء الله تعالى، وديبس المذكور هو الذي عناه الحريري
صاحب المقامات في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله: أو الأسدي ديبس
لأنه كان معاصره كما نذكره في حرف القاف إن شاء الله تعالى، فرام
التقرب إليه بذكره في مقاماته، ولجلالة قدره أيضا، وله نظم حسن،
ورأيت العماد الكاتب في الخريدة وابن المستوفي في تاريخ إربل وغيرهما
قد نسبوا إليه الأبيات اللامية التي من جملتها:

أسلمه حسب سلميّا نكم

إلى هـوى أسره القتلى

ورأيت ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة قد
ذكرها لابن رشيق القيرواني، وقد ذكرتها في ترجمته في حرف الحاء، والظاهر
أنها لابن رشيق لأن ابن بسام ذكر في الذخيرة أنه ألفها في سنة اثنتين
 وخمسمائة، وفي هذا التاريخ كان ديبس شابا يبعد أن يصل شعره في ذلك
السن إلى الأندلس، وينسب إلى مثل ابن رشيق مع معرفة ابن بسام
بأشعار أهل المغرب، وذكر ابن المستوفي في تاريخه أن بدران أخا ديبس
كتب إلى أخيه المذكور وهو نازح عنه:

إلا قل لمنصور وقل لمسيب

وقل لديبس إنني لغريب

هنيئالكم ماء الفرات وطيبه

إذا لم يكن لي في الفرات نصيب

فكتب اليه ديبس:
إلا قل لبدران الذي حن نازعا
إلى أرضه والحر ليس يجيب
تمتع بأيام السرور فإنما
عذار الأمان بالهموم يشيب
ولله في تلك الحوادث حكمة
وللأرض من كأس الكرام نصيب

وذكر غير ابن المستوفي أن بدران بن صدقة المذكور لقبه تاج الملوك،
ولما قتل أبوه تغرب عن بغداد ودخل الشام فأقام بها مدة، ثم توجه إلى
مصر ومات بها في سنة اثنتين وخمسة، وكان يقول الشعر، وذكره العماد
الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة: وكان ديبس في خدمة السلطان
مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وهم نازلون على باب المراغة من
بلاد أذربيجان، ومعهم الإمام المسترشد بالله لسبب سنذكره في ترجمة
مسعود المذكور إن شاء الله تعالى، فهجموا خيمته أعني المسترشد بالله
وقتلوه يوم الخميس الثامن والعشرين.

وقال ابن المستوفي: الرابع عشر من ذي القعدة سنة تسع وعشرين
 وخمسة، وخاف أن تنسب القضية إليه وأراد أن تنسب إلى ديبس
المذكور فتركه إلى أن جاء إلى الخدمة وجلس على باب خيمة السلطان،
فسير بعض مماليكه فجاءه من ورائه وضرب رأسه بالسيف فأبانه، وأظهر
السلطان بعد ذلك أنه إنما فعل هذا انتقاما منه بما فعل في حق الإمام،
وكان ذلك بعد قتل الإمام بشهر رحمه الله تعالى، وذكر المأموني في تاريخه
أنه قتل في رابع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة على باب خوي،
وكان قد أحس بتغيير رأي السلطان فيه منذ قتل المسترشد، وعزم على
الهرب مرارا وكانت المنية تثبطه.

وذكر ابن الأزرقي في تاريخه أن قتله كان على باب تبريز، وأنه لما قتل

حمل إلى ماردين إلى زوجته كهار خاتون فدفن بالمشهد عند نجم الدين
إلغازي صاحب ماردين، والد كهار خاتون المذكورة، ثم تزوج السلطان
المذكور زبيدة بنت الوزير نظام الملك، وسيأتي ذكر ذلك في ترجمة فخر
الدولة بن جهير إن شاء الله تعالى.

والناشري بفتح النون، وبعد الألف شين معجمة مكسورة، وبعدها
راء ثم ياء، هذه النسبة إلى ناشرة بن نصر، بطن من أسد بن خزيمة.

أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور المعروف والده بالحاجب

كان صاحب الموصل، وقد تقدم ذكر أبيه في حرف الهمة، وكان من الأمراء المقدمين، وفوض إليه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ولاية بغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسة، وكان لما قتل آق سنقر البرسقي المذكور في حرف الهمة، وتوفي أيضا ولده مسعود حسبما ذكرناه في ترجمته ورد مرسوم السلطان محمود من خراسان بتسليم الموصل إلى ديبس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة، وقد تقدم ذكره أيضا فتجهز ديبس للمسير، وكان بالموصل أمير كبير المنزلة يعرف بالجاولي، وهو مستحفظ قلعة الموصل ومتولي أمورها من جهة البرسقي، فطمع في البلاد وحدثه نفسه بتملكها، فأرسل إلى بغداد بهاء الدين أبا الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد اليغسياني لتقرير قاعدته، فلما وصلا إليها وجدا الإمام المسترشد قد أنكر تولية ديبس، وقال: لاسبيل إلى هذا، وترددت الرسائل بينه وبين السلطان محمود، ف، ذلك، وآخر ما وقع اختيار المسترشد عليه تولية زنكي المذكور، فاستدعى الرسولين الواصلين من الموصل وقرر معهما أن يكون الحديث في البلاد لزنكي، ففعلا ذلك وضمنا للسلطان مالا وبذل له على ذلك المسترشد من ماله مائة ألف دينار، فبطل أمر ديبس وتوجه زنكي إلى الموصل وتسلمها، ودخلها في عاشر رمضان سنة إحدى وعشرين وخمسة كذا قال ابن العظيمي في تاريخه، وقد قيل إن انتقاله إلى الموصل كان في سنة اثنين وعشرين وخمسة، والأول أصح وسيأتي ذكر السلطان محمود في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

ولما تقلد زنكي الموصل سلم إليه السلطان محمود ولديه ألب أرسلان، وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما، فلهذا قيل له أتابك، لأن الأتابك هو الذي يربي أولاد الملوك وقد تقدم ذكر ذلك في حرف الجيم

عند ذكر جقر، ثم استولى زنكي على ماوإلى الموصل من البلاد، وفتح الرها يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسة، وكانت لجوسلين الأرمني، ثم توجه إلى قلعة جعبر وملكها يوم ذاك سيف الدولة أبو الحسن علي بن مالك، فحاصرها وأشرف على أخذها، فأصبح يوم الأربعاء خامس عشر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسة مقتولا، قتله خادمه وهو نائم على فراشه ليلا، ودفن بصفين.

وذكر شيخنا عز الدين بن الأثير الجزري في تاريخه الأتابكي أن زنكي المذكور لما قتل والده كان عمره تقديراً عشر سنين، وقد تقدم تاريخ قتل والده في ترجمته، فيكون مولده سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وصفين بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، وهي أرض على شاطئ الفرات بالقرب من قلعة جعبر إلا أنها في بر الشام، وقلعة جعبر في بر الجزيرة الفراتية بينهما مقدار فرسخ وأقل وفيها مشهد في موضع الوقعة التي كانت بها المشهورة التي بين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومعاوية بن أبي سفيان، وبهذه الأرض قبور جماعة من الصحابة رضي الله عنهم حضروا هذه الوقعة وقتلوا بها منهم عمار بن ياسر رضي الله عنه.

وتوفي القاضي بهاء الدين الشهرزوري الرسول المذكور يوم السبت سادس عشر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسة بـ حلب، وحمل إلى صفين ودفن بها رحمة الله تعالى عليه.

أبو الفتح عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي المذكور قبله المعروف بصاحب سنجار

قد ملك حلب بعد ابن عمه الملك الصالح نور الدين اسماعيل بن محمود بن زنكي، وكانت وفاة الصالح المذكور في سنة سبع وسبعين وخمسمائة، ثم إن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب نزل على حلب وحاصرها في سنة تسع وسبعين، وآخر الأمر وقع الاتفاق على أنه عوض عماد الدين زنكي المذكور سنجار وتلك النواحي، وأخذ منه حلب، وذلك في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وانتقل زنكي إلى سنجار، ولم يزل بها إلى أن توفي في المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

أبو الحارث شيركوه بن شادي بن مروان، الملقب الملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى.

قد تقدم من حديثه نبذة في أخبار شاور، وكان شاور قد وصل إلى الشام يستنجد بنور الدين في سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وذكر بهاء الدين بن شداد أن ذلك كان في سنة ثمان وخمسين، وأنهم وصلوا إلى مصر في الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، حكاة في سيرة صلاح الدين، فسير معه جماعة من عسكره وجعل مقدمهم أسد الدين شيركوه، وقدموا مصر، وغدر بهم شاور، ولم يف بها وعدهم به فغادروا إلى دمشق، وكان رحيلهم عن مصر في السابع من ذي الحجة من السنة المذكورة، ثم إنه عاد إلى مصر، وكان توجهه إليها في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين لأنه طمع في ملكها في الدفعة الأولى، وسلك طريق وادي الغزلان، وخرج عند أطفيج وكانت في تلك الدفعة وقعة البابين عند الأشمونين، وتوجه السلطان صلاح الدين إلى الاسكندرية، واحتوى بها، وحاصره شاور وعسكر مصر، ثم رجع أسد الدين من الصعيد إلى بلبس، وجرى الصلح بينه وبين المصريين وسيروا له السلطان صلاح الدين، وعاد إلى الشام، ولما وصل الفرنج إلى بلبس وملكوها وقتلوا أهلها في سنة أربع وستين سيروا إلى أسد الدين، وطلبوه ومنوه ودخلوا في مرضاته لأن ينجدهم، فمضى إليهم وطرد الفرنج عنهم، وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وعزم شاور على قتله، وقتل الأمراء الكبار الذين معه فبادروه وقتلوه كما تقدم في ترجمته، وتولى أسد الدين الوزارة يوم الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهرين وخمسة أيام، ثم توفي فجأة يوم السبت الثاني والعشرين، وقال الروحي يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة بالقاهرة، ودفن بها ثم نقل إلى مدينة الرسول

صلى الله عليه وسلم بعد مدة بوصية منه رحمه الله تعالى وتولى مكانه صلاح الدين.

وقال ابن شداد في سيرة صلاح الدين: إن أسد الدين كان كثير الأكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله في التاريخ المذكور، ولم يخلف ولدا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب الملك القاهر، ولما مات أسد الدين أخذ نور الدين حمص منهم في رجب سنة أربع وستين وخمسة، فلما ملك صلاح الدين الشام أعطى حمص لناصر الدين المذكور ولم يزل ملكها حتى توفي يوم عرفة سنة إحدى وثمانين وخمسة، ونقلته زوجته بنت عمه ست الشام بنت أيوب إلى تربتها بمدرستها بدمشق ظاهر البلد ودفنته عند أخيها شمس الدولة توران شاه بن أيوب المقدم ذكره، وملك حمص بعده ولده أسد الدين شيركوه ومولده في سنة تسع وستين وخمسة، وتوفي يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب سنة سبع وثلاثين وستة، بحمص، ودفن في تربته داخل البلد، وكانت له أيضا الرحبة وتدمر وماكسين من بلد الخابور، وخلف جماعة من الأولاد، فقام مقامه في الملك ولده الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم، ولم يزل حتى توفي يوم الجمعة عاشر صفر سنة أربع وأربعين وستة بالنيرب من غوطة دمشق، ونقل إلى حمص ودفن ظاهر البلد في مسجد الخضر عليه السلام من جهتها القبليّة، وترتب مكانه ولده الملك الأشرف مظفر الدولة أبو الفتح موسى، وأخبرني الأشرف المذكور بدمشق في أواخر سنة إحدى وستين وستة أن مولده في السنة التي كسر فيها الخوارزمية بالروم وأن والده بشر به وهم راجعون من هناك، وكانت الواقعة في شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستة حسبا هو مشروح في ترجمة الأشرف بن العادل، وقال لي: إن والده لما بشر به قال للملك الأشرف بن العادل: ياخوند قد زاد في ماليكك واحد، فقال: سمه باسمي فسماه الأشرف مظفر الدين أبا الفتح

موسى، وكانت وفاة الأشرف بن المنصور المذكور بحمص يوم الجمعة
عاشر صفر سنة اثنتين وستين وستمائة، ودفن عند قبر أسد الدين
شركوه جده داخل حمص، فيكون تقدير ولادته في شوال أو ذي القعدة
سنة سبع وعشرين، وشركوه لفظ عجمي تفسيره بالعربي أسد الجبل،
فشير أسد وكوه جبل، وحج شركوه في سنة خمس وخمسين وخمسمائة من
دمشق على طريق تيماء وخيبر، وفي تلك السنة حج زين الدين علي بن
بكتكين على طريق العراق واجتمع بالخليفة.

سيف الاسلام أبو الفوارس طغتكين بن أيوب بن شاذي بن مروان المنعوت بالملك العزيز ظهير الدين صاحب اليمن

كان أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملك الديار المصرية قد سير أخاه شمس الدولة توران شاه المقدم ذكره في حرف التاء إلى بلاد اليمن، فملكها واستولى على كثير من بلادها، ورجع عنها حسبا هو المذكور في ترجمته، ثم سير السلطان إليها بعد ذلك أخاه سيف الاسلام المذكور، وذلك في سنة سبع وسبعين وخمسة و كان رجلا شجاعا كريما مشكور السيرة، حسن السياسة، مقصودا من البلاد الشاسعة لاحسانه وبره، ورحل إليه شرف الدين أبو المحاسن بن عنين الدمشقي الآتي ذكره في حرف الميم، ومدحه بغرر القصائد فأحسن إليه وأجزل صلته، واكتسب من جهته مالا وافرا، وخرج به من اليمن، فلما وصل إلى الديار المصرية وسلطانها يومئذ الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين ألزمه أرباب ديوان الزكاة بدفع الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته فعمل في ذلك:

ماكل من يتسمى بالعزيز لها
أهل ولاكل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون في فعالها
هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقة

وكانت وفاة سيف الاسلام في شوال التاسع عشر من سنة ثلاث وتسعين وخمسة بالمنصورة، وهي مدينة اختطها باليمن رحمه الله تعالى.

وتولى بعده ولده الملك المعز فتح الدين اسماعيل، وللمعز المذكور صنف أبو الغنائم مسلم بن محمود بن نعمه بن أرسلان الشيزري كتابه الذي سماه «عجائب الأسفار وغرائب الأخبار» وأودع فيه من أشعاره وأخبار الناس كثيرا، وذكر العز بن عساكر أنه مات بالحمراء من بلاد

اليمن، وذكر أبو الغنائم المذكور في كتابه الذي سماه « جمهرة الاسلام ذات النثر والنظم » أنه مات بتعز ودفن بها بالمدرسة، ثم قال: وقتل ولده فتح الدين أبو الفداء اسماعيل في رجب سنة ثمان وتسعين بمكان يقال له عجمي شامي زبيد، وتولى مكانه أخوه الملك الناصر أيوب.

وكان أبو الغنائم المذكور أديبا شاعرا، وكان موجودا في سنة سبع عشرة وستمائة، فقد توفي في هذه السنة أو بعدها، وكان أبوه أبو الشناء محمود نحويا متصديرا بجامع دمشق لاقراء النحو، وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير، وذكره العماد الكاتب في كتاب الخريدة، وقال: توفي بعد سنة خمس وستين وخمسمائة، وقال شرف الدين بن عنين: أنشدني محمود المذكور لنفسه:

يقولون كافات الشتاء كثيرة

وما هي إلا واحد غير مفترى

إذا صح كاف الكيس فالكل حاصل

لديك وكل الصيد يوجد في الفرا

وكان جده أرسلان مملوك ابن منقذ صاحب شيزر.

وطغتكين بضم الطاء المهملة، وسكون الغين المعجمة، وكسر التاء المثناة من فوقها، والكاف وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون، وهو اسم تركي.

أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب الملك الصالح وزير مصر

كان واليا بمنية بني خصيب من أعمال صعيد مصر، فلما قتل الظاهر اسماعيل صاحب مصر كما تقدم في حرف الهمزة، سير أهل القصر إلى الصالح واستنجدوا به على عباس وولده نصر المتفقين على قتله، فتوجه الصالح إلى القاهرة ومعه جمع عظيم من العربان فلما قربوا من البلد هرب عباس وولده وأتباعهما ومعهما أسامة بن منقذ المذكور في حرف الهمزة أيضا، لأنه كان مشاركا لهما في ذلك على ما يقال، ودخل الصالح إلى القاهرة وتولى الوزارة في أيام الفائز، واستقل بالأمور وتدير أحوال الدولة، وكانت ولايته في التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسة، وكان فاضلا سمحا في العطاء، سهلا في اللقاء، محبا لأهل الفضائل جيد الشعر، وقفت على ديوان شعره وهو في جزأين ومن شعره قوله:

كم ذا يرينا الدهر من أحداثه
عبرا وفينا الصدد والإعراض
نسسى الممات وليس يجري ذكره
فينا فتذكرنا به الأمراض

ومن شعره أيضا:
ومهفف ثم مل القوام سرت إلى
أعطافه النشوات من عينيه
ما ضي اللحاظ كأنما سلت يدي
سيفي غداة الروع من جفنيه
قد قلت إذ خط العذار بمسكة
في خده ألفيه لالاميه
ما الشعر دب بعارضيته وإنما
أصدغه نفضت على خديه

الناس طوع يدي وأمرني ذافذ
فيهم وقلبي الآن طوع يدي
فأعجب لسلطان يعم بعدله
ويجور سلطان الغرام عليه
والله لولا اسم الفرار وأنه
مستقبح لفررت منه إليه

وروى عنه أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري
الملقب زين الدين الحنبلي، المعروف بابن نجية الواعظ المشهور
الدمشقي، قال أنشدني طلائع بن رزيك لنفسه بمصر:
مشييك قد نضض اصبغ الشباب
وحل الباز في وكر الغراب
تمام ومقللة الحدثان يقظي
وماناب النوائب عنك نابي
وكيف بقاء عمرك وهو كنز
وقد أنفقت منه بلا حساب

وكان المهذب عبد الله بن أسعد الموصلني نزيل حمص قد قصده من
الموصل، ومدحه بقصيدته الكافية التي أولها:
أماكفالك تلاف في تلافيك
ولست تنقسم إلا فرط حييك

وهي من نخب القصائد ومخلصها:
وفيم تغضب إن قال الوشاة سلا
وأنت تعلم أني لست أسلوكا
لأنك وصلك إن كان الذي زعموا
ولاشفى ظمئي جودا بن رزيكا

وهي طويلة طائلة، ولولا خوف الإطالة لكتبتها.

ولما مات الفائز وتولى العاضد مكانه، استمر الصالح على وزارته، وزادت حرمة، وتزوج العاضد ابنته فاغتر بطول السلامة، وكان العاضد تحت قبضته وفي أسره، فلما طال عليه ذلك أعمل الحيلة في قتله، فاتفق مع قوم من أجناد الدولة يقال لهم أولاد الراعي، وتقرر ذلك بينهم، وعين لهم موضعاً في القصر يجلسون فيه مستخفين فإذا مر بهم الصالح ليلاً أو نهاراً قتلوه، ففعدوا له ليلة وخرج من القصر فقاموا ليخرجوا إليه، فأراد أحدهم أن يفتح غلق الباب فأغلقه وما علم، فلم يحصل مقصودهم تلك الليلة لأمر أراه الله تعالى في تأخير الأجل، ثم جلسوا له يوماً آخر فدخل القصر نهاراً فوثبوا عليه وجرحوه جراحات عديدة بعضها في رأسه، ووقع الصوت، فعاد أصحابه إليه فقتلوا الذين جرحوه وحمل إلى داره مجروحاً ودمه يسيل، وأقام بعض يوم ومات يوم الاثنين تاسع عشر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وكانت ولادته في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وخرجت الخلع لولده العادل محيي الدين رزيق المقدم ذكره في ترجمة شاور يوم الثلاثاء ثاني يوم وفاة أبيه، وكنيته أبو شجاع، ولما تولى الوزارة لقبوه العادل الناصر، ولما مات رثاه الفقيه عمارة اليميني بقصيدة أولها:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني لما بي ذاهب اللب ذاهله

سمعت حديثاً أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه ويخرس قائله
فهل من جواب يستغيث به المنى
ويعلو على حق المصيبة باطله
وقدر ابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوباً وما فيه كافله
فهل غاب عنه واستتاب سليله
أم اختار هجر الأيرجى توأصله

فإني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن الوجوه ثواكله

ومنها:

دعوني فهاهنا أوان بكائه
سيأتيكم طل البكاء ووابله
ولا تنكروا حزني عليه فإنني
تقشع عني وإبل كنت آمله
ولم لا نبكيه ونندب فقده
وأولادنا أيتامه وأرامله
فياليت شعري بعد حسن فعاله
وقد غاب عنا ما بنا الله فاعلة
أيكرم مشوى ضيفكم وغريبكم
فيمكنث أم تطوى بين مراحل

وهي طويلة، وكان قد دفن بالقاهرة، ثم نقله ولده العادل من دار
الوزارة التي دفن فيها وهي المعروفة بإنشاء الأفضل شاهنشاه المقدم
ذكره، وكان نقله في تاسع عشر صفر سنة سبع وخمسين في تابوت،
وركب خلفه العاضد إلى تربته التي بالقرافة الكبرى، فعمل في ذلك
الفقيه عمارة أيضا قصيدة طويلة وأجاد فيها، ومن جملتها في صفة
التابوت:

وكانه تابوت موسى أودعت
في جانبيه سكينه ووقار

وله فيه مرث كثيرة، وهذا الصالح هو الذي بنى الجامع الذي على
باب زويلة بظاهر القاهرة، وأما ولده العادل رزيك فقد ذكرت في ترجمة
شاور تاريخ هربه من القاهرة وكان قد حمل معه من الذخائر ما لا يحصى
ومعه أهله وحاشيته، واستجار بسليمان وقيل بيعقوب بن البيض

اللخمي، وكان من خواص أصحابهم وحصل من جهتهم نعمة وافرة، فأنزلهم عنده وهو بأطفيح، وسار من ساعته إلى شاور وأعلمه بهم، فندب معه جماعة ومضوا إلى العادل وأخذوه أسيرا وأحضره إلى باب شاور، فوقف زمانا طويلا، ثم حبسه ثم قال شاور لابن البيض: لقد خباك الصالح ذخيرة صالحة لولده، وأنا أخبوك أيضا لولدي ثم شنقه، وبقي العادل في الاعتقال مدة مديدة، ثم قتله وأخرج رأسه لأمرأء الدولة.

ومن العجائب أن الصالح ولي الوزارة في التاسع عشر، وقتل في التاسع عشر، ونقل تابوته في التاسع عشر، وزالت دولتهم في التاسع عشر، ورزيك بضم الراء، وتشديد الزاء المكسورة، وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها كاف.

وكانت ولادة زين الدين الواعظ المذكور سنة ثمان وخمسمائة بدمشق، ونشأ بها، وقدم بغداد مرارا، وصاهر أبا الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد البلنسي الانصاري الاندلسي على ابنته أم عبد الكريم فاطمة، وانتقل قبل وفاته إلى مصر وحدث بها، وتوفي يوم الأربعاء ثامن رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة بمصر، وهو المعروف بابن نجية رحمه الله تعالى.

الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب

كان نائبا عن أبيه في الديار المصرية، لما كان أبوه بالشام، وتوفي أبوه بدمشق، فاستقل بملكها باتفاق من الأمراء كما هو مشهور، فلا حاجة إلى شرحه وكان ملكا مباركا كثير الخير، واسع الكرم محسنا إلى الناس، معتقدا في أرباب الخير والصلاح، وسمع بالاسكندرية الحديث من الحافظ السلفي، ويقال إن والده كان يؤثره على بقية أولاده، ولما ولد له الملك المنصور ناصر الدين محمد، كان والده بالشام، والقاضي الفاضل بالقاهرة فكتب إليه يهته: «المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر دام رشدته وإرشاده وزاد سعده وإسعاده، وكثرت أوليائه وعبيده وأعداده، واشتد باعضاده فيهم اعضاده، وأنمى الله عدده حتى يقال هذا آدم المملوك، وهذه أولاده، وينهى أن الله تعالى، وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولدا مباركا عليا ذكرا سريا برا زكيا نقيًا من ذرية كريمة بعضها من بعض، وبيت شريف كادت ملوكه تكون ملائكة في السماء، وماليكه ملوكا في الأرض».

وكانت ولادة الملك العزيز بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة، وكان قد توجه إلى الفيوم، فطرد فرسه وراء صيد، فتقنطر به فأصابته الحمى من ذلك، وحمل إلى القاهرة فتوفي بها في الساعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

نقلت من خط القاضي الفاضل فصلا يتعلق بالملك العزيز بن صلاح الدين رحمه الله تعالى، مأمثاله: «لما كان يوم السبت تاسع عشر المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة اشتد المرض بالملك العزيز، وخيف عليه، وأدركه في ليله فواق وأخذ نبضه في الضعف، وأصبح الطبيب على يأس

منه، ثم لما كان وقت الظهر وقعت البشرى أنه أفاق وحضر ذهنه، وكلم من حوله، وحضر إليه الأمراء والخوفاص» ثم قال بعد ذلك: «إلى أن كان وقت العتمة من ليلة الأحد فبدت قوته تصغر، والفواق يشتد، وبغته الأمر، وعظمت الحمى، وصغر النبض، وكثر عليه الغشي وكانت وفاته في الساعة السابعة من ليلة الأحد، ولما كان في آخر الليل خرج فخر الدين جهار كس، وأسد الدين سراسنقر وجماعة من المماليك واستدعوا الأمراء فأحضرت، وأعلمت بوفاته، وقال المذكورون: إنا قد اجتمعت كلمتنا على أن يكون ولد العزيز الأكبر، وتقدير عمره عشر سنين واسمه محمد، ولقبه ناصر الدين المنتصب في السلطنة، والقائم بالأمر، وأن يكون أتابكه بهاء الدين قراقوش، وقالوا قد كان السلطان استناب هذا الولد، واستخلف على تربيته قراقوش، ونريد أن نجتمع الأمراء ونخرج الخدام يبلغونهم رسالة عن السلطان، وأنه حي ومعنى الرسالة: إن هذا ولدي سلطانكم من بعدي، فاحلفوا له واحفظوني فيه، فقلت لهم: فإن طالبكم الأمراء بسماع هذه المقالة من السلطان ما الذي تقولون لهم؟ فرجعوا إلى أن يخاطبوا الأمراء إذا حضروا بأن السلطان وصى بهذه الوصية، وأنه قد قضى ويدخلون عليهم من جانب الموافاة لجد هذا الصبي وأبيه، فقلت لهم: لا تنتظروا اجتماع الأمراء فإنهم إن حضروا جملة فلا تأمنوا أن يتمنعوا جملة، بل كل من حضر من الأمراء تقولون له قد اتفقنا فكن معنا، وقد حلفنا، فاحلف كما حلفنا، وقدموا المصحف وأسرعوا في تلقيه، فجري الأمر على هذا، فلما تكامل الحلف أو أكثره أحضروا الولد، فبكى الناس لما رأوه وصاحوا وقاموا إليه ووقفوا بين يديه، جميع ذلك قبل أن يسفر صباح الأحد، ثم صليت فريضة الفجر، وشرعوا في تجهيز الملك العزيز إلى قبره، وغسل في مكان موته، واجتمع الناس فيما بين الظهر والعصر للصلاة عليه، وكثر الزحام وقامت الواعية، فلم يخلص من دفنه إلى قريب المغرب، وخوطب ولده بالملك الناصر بلقب جده في هذا اليوم»، ولما مات كتب القاضي الفاضل إلى عمه الملك العادل رسالة

يعزيه من جملتها:» فنقول في توديع النعمة بالملك العزيز لاحول ولا قوة
إلا بالله قول الصابرين، ونقول في استبقائها بالملك العادل الحمد لله رب
العالمين قول الشاكرين ، وقد كان من أمر هذه الحادثة ما قطع كل قلب،
وجلب كل كرب، ومثل وقوع هذه الواقعة لكل أحد ولا سيما لأمثال
المملوك، ومواعظ الموت بليغة وأبلغها ما كان في شباب المملوك، فرحم الله
ذلك الوجه ونضره ثم السبيل إلى الجنة يسره.
وإذا محاسن أوجهه بليت
فعفا الثرى عن وجهه الحسن

والمملوك في حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضي قلب
وجسد، ووجع أطراف وغليل كبد، فقد فجع المملوك بهذا المولى، والعهد
بوالده غير بعيد، والأسى في كل يوم جديد، وما كان ليندمل ذلك القرح
حتى أعقبه هذا الجرح، فالله تعالى لا يعدم المسلمين بسلطانهم الملك
العادل السلوة، كما لم يعدمهم بنبيهم صلى الله عليه وسلم الأسوه» ودفن
في القرافة الصغرى في قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقبره معروف
هناك.

أبو هاشم علي الملقب الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم
ابن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد
الله صاحب مصر.

وقد تقدم ذكر جماعة من أهل بيته. كانت ولايته بعد فقد أبيه
بمدة، لأن أباه فقد في السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة
وأربعمئة، كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى، وكان الناس يرجون
ظهوره ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه، فأقاموا ولده المذكور في يوم
النحر من السنة المذكورة، وكانت مملكته الديار المصرية وإفريقية وبلاد
الشام، فقصد صالح بن مرداس الكلبي مدينة حلب وحاصرها، وفيها
مرتضى الدولة بن لؤلؤ الجراحي غلام أبي الفضائل بن شريف بن سيف
الدولة الحمداني، نيابة عن الظاهر المذكور، فانتزعها منه واستولى على
ما يليها، وتغلب حسان بن مفرج بن دغفل البدوي صاحب الرملة على
أكثر بلاد الشام، وتضعضعت دولة الظاهر وجرت أمور وأسباب يطول
شرحها، واستوزر نجيب الدولة أبا القاسم علي بن أحمد الجرجاني، وكان
أقطع اليدين من المرفقين، قطعها الحاكم والد الظاهر في شهر ربيع
الآخر سنة أربع وأربعمئة على باب القصر البحري بالقاهرة المحروسة،
وحمل إلى داره، وكان يتولى بعض الدواوين، فظهرت عليه خيانة قطع
بسببها، ثم بعد ذلك ولي ديوان النفقات سنة تسع وأربعمئة، ثم وزر
للظاهر سنة ثمان عشرة وأربعمئة، وهذا كله بعد أن تنقل في الخدم
بالأرياف والصعيد، ولما استوزر كان يكتب عنه العلامة القاضي أبو عبد
الله القضاعي صاحب كتاب الشهاب، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى،
وكانت علامته: « الحمد لله شكرا لنعمته » واستعمل في وزارته العفاف
والأمانة الزائدة والاحتراز والتحفظ، وفي ذلك يقول جاسوس الفلك:

يا أحمق اسمع وقل
ودع الرقاعة والتحامق

أَقَمْتُ نَفْسَكَ فِي الثَّقَا
ت وَهَبَكَ فِيمَا قَلَّتْ صَادِق

فَمَنْ الْأَمَانَةَ وَالتَّقَى
قَطَعْتَ يَدَاكَ مَنْ الْمَرَا فِق

وهو منسوب إلى جرجرايا بفتح الجيمين، بينهما راء ساكنة، ثم راء مفتوحة، وبين الألفين ياء مثناة من تحتها، وهي قرية من أرض العراق، وكانت ولادة الظاهر في يوم الأربعاء عاشر شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بالقاهرة، وتوفي آخر ليلة الأحد منتصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، وسمعت أنه توفي ببستان الدكة، وكان بالمقس في الموضع المعروف بالدكة، وتوفي وزيره الجرجرائي سنة ست وثلاثين وأربعمائة في سابع شهر رمضان، وكانت مدة وزارته للظاهر وولده المستنصر سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما.

أبو القاسم عيسى الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ
ابن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز
ابن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي.

وقد تقدم ذكر والده، وجماعة من أهل بيته وكيف قتل نصر بن عباس
أباه حسبما شرح هناك، وهذا نصر ابن عباس هو الذي قتل العادل بن
السلار، وقد رفعت هناك نسبه، فمن أراد معرفته، فليُنظر هناك، ولما كان
صبيحة ليلة قتل فيها الظافر أقبل عباس إلى القصر على جاري عادته في
الخدمة، وأظهر عدم الاطلاع على قضيته، وطلب الاجتماع به ولم يكن
أهل القصر قد علموا بقتله بعد، فإنه خرج من عندهم في خفية كما ذكر
ثم، وما علم أحد بخروجه، فدخل الخدم إلى موضعه ليستأذنوا العباس،
فلم يجدوه فدخلوا إلى قاعة الحرم فقبل إنه لم يبت ههنا، وحاصل الأمر
أنهم طلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يقعوا له على خبر، فتحققوا
عدمه فأخرج عباس المذكور أخوي الظافر وهما جبريل ويوسف، وهو
أبو العاضد المقدم ذكره في جملة من اسمه عبد الله وقال لهما: أنتما قتلتما
إما منا وما نعرف حاله إلا منكما، فأصرا على الإنكار، وكانا صادقين في
ذلك فقتلتهما في الوقت لينفي عن نفسه وابنه التهمة، ثم استدعى ولده
الفائز المذكور، وتقدير عمره خمس سنين وقيل ستان، فحمله على كتفه
ووقف في صحن الدار وأمر أن تدخل الأمراء، فدخلوا فقال لهم: هذا
ولد مولاكم، وقد قتل عماء أباه، وقد قتلتهما به كما ترون، والواجب
اخلاص الطاعة لهذا الطفل، فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا،
وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس،
وسموا الفائز وسيروه إلى أمه واختل من تلك الصيحة، فصار يصزع في
كل وقت ويختلج، وخرج عباس إلى داره ودبر الأمور، وانفرد بالتصرف ولم
يبق على يده، يد، وأما أهل القصر فلم يطلعوا على باطن الأمر وأخذوا
في إعمال الحيلة في قتل عباس وابنه نصر، وكاتبوا الصالح بن رزيك
الأرميني المذكور في حرف الطاء، وكان إذ ذاك والي منية ابن خصيب

بالصعيد، وسألوه الانتصار لهم ولبلولاهم، والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب، وسودوا الكتاب، فلما وقف الصالح عليه أطلع من حوله من الأجناد وتحدث معهم في المعنى فأجابوا إلى الخروج معه، واستمال جمعا من العرب، وساروا قاصدين القاهرة، وقد لبسوا السواد فلما قاربوها خرج إليهم جميع من بها من الأمراء والأجناد والسودان، وتركوا عباسا وحده، فخرج عباس في ساعته من القاهرة هاربا ومعه شيء من ماله، وخرج معه ولده نصر قاتل الظافر وأسامة بن منقذ المذكور في حرف الهمزة، فقد قيل أنه الذي أشار عليهما بقتل الظافر، وشرح ذلك يطول، وقد تقدم في ترجمة العادل بن السلار ذكره أيضا وأنه الذي أشار بقتله، والله العالم بالخفيات، وكان معهم جماعة يسيرة من أتباعهم، وقصدوا طريق الشام على إيلة وذلك في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

أما الصالح بن رزيك فإنه دخل القاهرة بغير قتال، وما قدم شيئا على النزول بدار عباس المعروفة بدار المأمون بن البطائحي، وهي اليوم مدرسة للطائفة الحنفية، وتعرف بالسيوفية، واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله، وسأله عن الموضع الذي دفن فيه فعرفه به، وقلع البلاطة التي كانت عليه وأخرج الظافر ومن معه من المقتولين، وحملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد، ومشى الصالح والخلق قدام الجنازة إلى موضع الدفن، وهو تربة آبائه، وهي معروفة في قصرهم، وتكفل الصالح بالصغير، ودبر أحواله.

وأما عباس فإن أخت الظافر كاتبت فرنج عسقلان بسببه، وشرطت لهم مالا جزيلا إذا أمسكوه فخرجوا عليه وصادفوه فتواقعوا وقتلوا عباسا، وأخذوا ماله وولده وانهمز بعض أصحابه، إلى الشام وفيهم ابن منقذ، فسلموا، وسيرت الفرنج نصر بن عباس إلى القاهرة تحت الحوطة في قفص حديد، فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطوا لهم من المال، فأخذوا

نصرا المذكور وضربوه بالسياط، ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويلة، ثم أنزلوه يوم عاشوراء من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وأحرقوه. هذه خلاصة الواقعة وإن كان فيها طول.

وكان دخول نصر بن عباس إلى القصر بالقاهرة في السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة، وأخرج من القصر يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، وكان قد قطعت يده اليمنى، وقرضوا جسمه بالمقاريض، والله أعلم، وقيل كان ذلك اليوم يوم الجمعة ثامن الشهر المذكور، ولم تطل مدة الفائز في ولايته، وكانت ولادته يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وتولى في تاريخ وفاة والده وهو مذكور في ترجمته في حرف الهمزة، واسمه اسماعيل وتوفي ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتولى بعده العاضد، وقد سبق ذكره وهو آخرهم.

الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق.

كان عالي الهمة، حازما شجاعا مهيبا فاضلا جامعاً شمل أرباب الفضائل، محبا لهم، وكان حنفي المذهب متعصباً لمذهبه، وله فيه مشاركة حسنة، ولم يكن في بني أيوب حنفي سواه، وتبعه أولاده، وكان قد حج إلى بيت الله الحرام في سنة إحدى عشرة وستائة، سار من الكرك على الهجن في حادي عشر ذي القعدة في جماعة من خواصه، وسلك طريق العلا وتبوك، وفي هذه السنة أخذ المعظم صرخد من ابن قراجا، وأعطاه مملوكه عز الدين أيك المعروف بصاحب صرخد، ولم يزل بها إلى أن أخذها منه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل في سنة أربع وأربعين وستائة، وحمله إلى القاهرة واعتقله بدار الطواشي صواب.

وكان المعظم يحب الأدب كثيرا، ومدحه جماعة من الشعراء المجيدين فأحسنوا في مدحه، وكانت له رغبة في فن الأدب، وسمعت أشعارا منسوبة إليه ولم اتثبتها فلم أثبت منها شيئا، وقيل إنه كان قد شرط لكل من يحفظ المفصل للزخشي مائة دينار وخلعة، فحفظه لهذا السبب جماعة، ورأيت بعضهم بدمشق، والناس يقولون إنه كان سبب حفظهم له هذا، وقيل إنه لما توفي كان قد انتهى بعضهم إلى أواخره، وبعضهم إلى أثنائه وهم على قدر أوقات شروعاتهم فيه، ولم أسمع مثل هذه المنقبة لغيره، وكانت مملكته متسعة من حدود بلاد حمص إلى العريش، يدخل في ذلك بلاد الساحل الإسلامية منها وبلاد الغور وفلسطين والقدس والكرك والشوبك وصرخد وغير ذلك، وكانت ولادته في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

وذكر أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي في تاريخه مرآة الزمان أن المعظم ولد في سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة، وولد أخوه الأشرف

موسى قبله بليلة واحدة، وتوفي المعظم ليلة مستهل ذي الحجة سنة أربع وعشرين وستمائة، والله أعلم بالصواب.

وقال غيره: بل توفي يوم الجمعة ثامن ساعة من نهار سلخ ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة بدمشق، ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى جبل الصالحية ودفن في مدرسة هناك بها قبور جماعة من أخوته، وأهل بيته تعرف بالمعظمية، وكان نقله ليلة الثلاثاء مستهل المحرم سنة سبع وعشرين، وكان كثيرا ما ينشد هذا المقطوع:

ومورد الوجنات أغيد حاله
بالحسن من فرط الملاحاة عمه
كحل العيون وكان في أجفانه
كحل فقلت سقى الحسام وسمه

وهذا ينظر إلى قول عبد الجبار بن حمديس الصقلي المقدم ذكره:
زادت على كحل العيون تكحلا

وبسم نصل السيف وهو قاتل

رحمه الله تعالى، فلقد كان من النجباء الأذكياء، أخبرني جماعة عن شرف الدين بن عنين بأمور كانت تجري بينهما، تدل على حسن الإدراك وإصابة القصد، منها أنه كان ابن عنين قد مرض فكتب إليه:
انظر إلي بعين مـسـوـلى لم يـزـل

يولي الندى وتلاف قبل تلاف
أنا كالذي أحتاج ما يحتاجه
فاغنم ثوابي والثناء الوافي

فجاء بنفسه إليه يعوده ومعه صرة فيها ثلاثمائة دينار فقال: هذه الصلة، وأنا العائد، وهذه لو وقعت لأكابري النحاة ومن هو في ممارسته

طول عمره لاستعظم منه لاسيما مثل هذا الملك، وأشياء كثيرة غير هذه يطول شرحها، وكان المقصود ذكر نموذج منها ليستدل به على الباقي.

وتولى موضعه ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، وتوفي في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وستمائة في قرية يقال لها البويضا على باب دمشق ودفن عند والده، وكانت ولادته يوم السبت سابع عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستمائة بدمشق، وتوفي عز الدين أيبك صاحب صرخد المذكور في أوائل جمادى الأولى من سنة ست وأربعين وستمائة، في موضع اعتقاله بالقاهرة، ودفن خارج باب النصر في مدرسة شمس الدولة، وحضرت الصلاة عليه ودفنه ثم نقل إلى تربته في مدرسته التي أنشأها ظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير.

الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف
ابن القاسم بن عيسى بن محمد بن القاسم بن محمد بن
الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله
عنه.

هكذا أُملي علي نسبه ولد ولد أخيه، ويقال له الهكاري الملقب ضياء الدين. كان أحد الأمراء بالدولة الصلاحية، كبير القدر وافر الحرمة، معولا عليه في الآراء والمشورات، وكان في مبدأ أمره يشتغل بالمدرسة الزجاجية بمدينة حلب، فاتصل بالأمير أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين المقدم ذكره، وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمس، ولما توجه الأمير أسد الدين إلى الديار المصرية، وتولى الوزارة بها كما سبق شرحه، كان في صحبته.

ولما توفي أسد الدين اتفق الفقيه عيسى المذكور والطواشي بهاء الدين قراقوش الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، على ترتيب السلطان صلاح الدين موضعه في الوزارة، ودققا في الحيلة في ذلك حتى بلغا المقصود، وشرح ذلك يطول، فلما تولى صلاح الدين رأى له ذلك، واعتمد عليه ولم يكن يخرج عن رأيه، وكان كثير الادلال عليه يخاطبه بهالا يقدر عليه غيره من الكلام، وكان واسطة خير للناس، نفع بجأه خلقا كثيرا، ولم يزل على مكانته وتوفر حرمة إلى أن توفي يوم الثلاثاء عند طلوع الشمس التاسع من ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة بالمخيم بمنزلة الخروبة، ثم نقل إلى القدس ودفن بظاهرها رحمه الله تعالى، وكان يلبس زي الأجناد، ويعتم بعائم الفقهاء، فيجمع بين اللباسين، ورأيت أخاه الأمير مجد الدين أبا حفص عمر أيضا على هذه الصفة، والخروبة بفتح الخاء المعجمة وتشديد الراء وضمها وسكون الواو وفتح الباء الموحدة، وبعدها هاء ساكنة، موضع بالقرب من عكا.

- ٩٥١٥ -

وكانت ولادة أخيه مجد الدين عمر في رجب سنة ستين وخمسمائة،
وتوفي في الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثلاثين وستمائة
بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم وحضرت الصلاة عليه رحمه الله تعالى.

سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل.

وقد تقدم ذكر والده في حرف الزاء وأنه قتل على حصار قلعة جعبر، فلما قتل وكان معه ألب أرسلان ابن السلطان محمود المعروف بالخفاجي السلجوقي المذكور في ترجمة عماد الدين زنكي، اجتمع أكابر الدولة وفيهم الوزير جمال الدين محمد الأصبهاني المعروف بالجواد، والقاضي كمال الدين أبو الفضل محمد الشهرزوري، وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى، وقصدوا خيمة ألب أرسلان المذكور، وقالوا له: كان عماد الدين زنكي غلامك ونحن غلمانك، والبلاد لك وصمتوا الناس بهذا الكلام، ثم إن العسكر افترق فرقتين، فطائفة منهم توجهت صحبة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الآتي ذكره، إن شاء الله تعالى إلى الشام، والطائفة الثانية سارت مع ألب أرسلان وعساكر الموصل وديار ربيعة إلى الموصل، فلما انتهوا إلى سنجار تخيل ألب أرسلان منهم الغدر فتركهم، وهرب فلحقه بعض العسكر وردوه، فلما وصلوا إلى الموصل وصلهم سيف الدين غازي المذكور، وكان مقيماً بشهرزور لأنها كانت إقطاعاً من جهة السلطان مسعود السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فلما استقر بالموصل قبض على ألب أرسلان المذكور، وسيره إلى بعض القلاع وملك الموصل، وما كان لأبيه من ديار ربيعة، وترتبت أحواله، وأخذ أخوه نور الدين محمود وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى حلب وما والاها من بلاد الشام، ولم تكن دمشق يومئذ لهم، وكان غازي المذكور منطوياً على خير وصلاح، يحب العلم وأهله وبنى بالموصل مدرسته المعروفة بالعتيقة، ولم تطل مدته في المملكة حتى توفي آخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقد قارب من العمر أربعين سنة، ودفن في مدرسته المذكورة رحمه الله تعالى، وتولى بعده أخوه قطب الدين مودود، وسيأتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل.

وهو ابن أخي المذكور قبله، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود، وهو والد سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر، ولما توفي والده في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته بلغ الخبر نور الدين وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل، فوصل إلى الرقة في المحرم سنة ست وستين وخمسة، وملكها، وسار منها إلى نصيبين فملكها في بقية الشهر، وأخذ سنجار في شهر ربيع الآخر منها، ثم قصد الموصل، وقصد أن لا يقاتلها فعبر بعسكره من مخاضة بلد وهي بلدة بقرب الموصل، وسار حتى خيم قبالة الموصل، وراسل ابن أخيه سيف الدين المذكور وعرفه صحة قصده فصالحه، ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى، وأقر صاحبها فيها، وزوجه ابنته وأعطى أخاه عماد الدين زنكي المذكور في ترجمة جده عماد الدين زنكي سنجار، وخرج من الموصل، وعاد إلى الشام ودخل حلب في شعبان من السنة المذكورة، ولما مات نور الدين، وملك صلاح الدين دمشق ونزل على حلب يحاصرها، سير سيف الدين المذكور جيشا مقدمه أخوه عز الدين مسعود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، والتقوا عند قرون حماة، وسيأتي تفصيل ذلك هناك، فلما انكسر عز الدين مسعود تجهز سيف الدين بنفسه، وخرج إلى لقائه، وتصافا على تل السلطان وهي قرية بين حلب وحماة، وذلك في بكرة الخميس عاشر شوال سنة إحدى وسبعين وخمسة.

قال العماد الأصبهاني في البرق الشامي، وابن شداد في سيرة صلاح الدين إنه انكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين بن زين الدين فإنه كان في ميمنة سيف الدين، ثم حمل صلاح الدين بنفسه، فانهزم جيش سيف الدين وعاد إلى حلب، ثم رحل إلى الموصل، ومظفر الدين المذكور هو صاحب إربل، وترجمته في حرف الكاف وأقام غازي في المملكة عشر

- ٩٥١٨ -

سنتين وشهوراً، وأصابه مرض مزمن وتوفي يوم الأحد ثالث صفر سنة
ست وسبعين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتولى بعده عز الدين مسعود،
وسياتي ذكره إن شاء الله تعالى، وكان مرضه السل، وطال به وعاش
مقدار ثلاثين سنة.

أبو الفتح غازي ويكنى أبا منصور أيضا ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الملقب الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب.

كان ملكا مهيبا حازما متيقظا، كثير الاطلاع على أحوال رعيته، وأخبار
الملوك، عالي الهمة حسن التدبير والسياسة باسط العدل، محبا للعلماء مجيزا
للشعراء، أعطاه والده مملكة حلب في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، بعد
أن كانت لعمه الملك العادل، فنزل عنها وتعوض غيرها كما قد شهر،
ويحكى عن سرعة ادراكه أشياء حسنة، منها أنه جلس يوما لعرض
العسكر، وديوان الجيش بين يديه، وكان كلما حضر أحد من الأجناد
سأله الديوان عن اسمه لينزلوه حتى حضر واحد فسأله عن اسمه،
فقبل الأرض فلم يفتن أحد من أرباب الديوان لما أراد، فعاودوا سؤاله،
فقال الملك الظاهر: اسمه غازي، وكان كذلك، وتأذب الجندي أن
يذكر اسمه لما كان موافقا لاسم السلطان، وعرف هو مقصوده، وله من
هذا الجنس شيء كثير لاحتاجة إلى التطويل فيه، وكانت ولادته بالقاهرة
في منتصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة، وهي السنة الثانية من
استقلال أبيه بمملكة الديار المصرية، وتوفي بقلعة حلب ليلة الثلاثاء
العشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة، ودفن بالقلعة، ثم
بنى الطواشي شهاب الدين طغريل الخادم أتاك ولد له الملك العزيز
مدرسته تحت القلعة، وعمر فيها تربة، ونقله إليها رحمه الله تعالى،
والعجب أنه دخل حلب مالكا لها في الشهر بعينه، واليوم من سنة اثنتين
وثمانين وخمسمائة، ورثاه شاعره الشرف راجح بن اسماعيل بن أبي القاسم
الأسدي الحلي، وكنيته أبو الوفاء بهذه القصيدة، ومدح ولديه السلطان
الملك العزيز محمدا وأخاه الملك الصالح صاحب عين تاب، وما قصر
فيها وهي:

مضى من أقام الناس في ظل عدله
وأمن من خطب تدب عقاربه
فكم من حمى صعب أباح سيوفه
ومن مستباح قد حتمه كتائبه
أرى اليوم دست الملك أصبح خاليا
أما فيكم من مخبر أين صاحبه
فمن سائل عن سائل الدمع لم جرى
لعل فؤادي بالوجيب يجاوبه
فكم من ندوب في قلوب نضيجة
بنار كرب أجتته أنواد به
أسلم ولم يحطم صدور رماحه
ببدب ولم يثلم بضرب قواضيه
ولا اصطدمت عند الختوف كياته
ولا ازدحمت بين الصفوف جنائبه
ولاسيم أخذ الثار يوم كرميه
يشق مشار النقع فيها سلاحيه
فيما ملبسي ثوبا من الحزن مسبلا
أحس أني أن التسلي سالبه
خدمتك روض المجد تصفو ظلاله
علي وحوض الجود تصفو مشاريه
وقد كنت تدنيني وترفع مجلبي
لمفروض مدح ما تعداك واجبه
فما بال اذني قد تمادى ولم يكن
إذا جئت يثني عن الباب حاجبه
أرى الشمس أخفت يوم فقدك نورها
فلا كان يوما كاشف الوجه شاحبه
فكيف نباسيف اعتزامك أو كبا
جواد من الحزم الذي أنت راكبه

سل الخطب إن أصغى إلى من يخاطبه
بمن علقته أنيابيه ومخالبه
نشدتك عاتيه على نائباته
وإن كان ينأى السمع عمن يعاتبه
لي الله كم أرمي بطرفي ضلالة
إلى أفق مجد قد ثاوت كواكبه
فما لي أرى الشهباء قد حال صبحها
على دجى لا تستنير غياها به
أحقا هي الغازي الغياث بن يوسف
أبيح وعادت خائبات مواكبه
نعم كورت شمس المدائح وانطوت
سواء العلا والنجح ضاقت مذاهبه
فمن مخبري عن ذلك الطود هل وهت
قواعده أم لأن للخطب جانب به
أجل ضعفت بعد الثبات زعزعت
بريح المنايا العاصفات مناكبه
وغيض ذاك البحر من بعد ما طمت
وطمت لغيبان البلاد غواربه
فشلت يمين الخطب أي مهند
برغم العلا سلت وفلت مضاربه
لئن حبس الغيث الغياثي قطره
فقد سحبت في كل قطر سحائبه
فأنى يلذ العيش بعد ابن يوسف
أخو أمل أكدت عليه مطالبه
فلا أدركت نيل المنى طالباته
ولا بركت في أرض يمن ركائبه
ولا انتجعت إلا بعيس حقيبه
من الجذب لا تشي عليه حقائبه

فمن لليتامى ياغيث يغثهم
إذا الغيث لم ينفع صدى العام ساكبه
ومن للوك كنت ظلا عليهم
ظليلا إذا ما الدهر نابت نوائبه
أيأتاركي ألقى العدو مسالما
متى ساءني بالجد قمت لأعبه
سقت قبرك الغر الغواذي وجاده
من الغيث ساريه الملت وساربه
فإن يك نور من شهابك قد خبا
فيأطالما جلى دجى الليل ثاقبه
فقد لاح بالملك العزيز محمد
صباح هدى كنا زمانا نراقبه
فتى لم يفتنه من أبيه وجده
إباء وجد غالباً من يغالبه
ومن كان في المسعى أبوه دليله
تداني له الشأ والذي هو طالبه
وبالصالح استعلى صلاح الدين رعية
لها منه رعي ليس يقلع راتبه
فحسب الورى من أحمد ومحمد
مليكان من عاذاهما ذل جانبه
هما حرزا علياء غازي بن يوسف
وماضيعة المجد الذي هو كاسبه
فافق الورى لولاها كان أظلمت
مشارقه من بعده ومغاربه
ستحمي على رغم الليالي حاهما
عوالي قناتردي الاسود ثعالبه
فكم من ملم جل موقع خطبه
فساءت مباديه وسرت عواقبه

فياقمري سعد أطلا على الدجى
فولى وما ألوى على الأرض هاربه
أيمكث في الشهباء عبد أيبكيا
ومادحه أم تستقل نجائبه
فإن شتيا بعد الغيات أغثيا
مصاب سهام فوقتها مصائبه
كأن لم أقف أجلو التهاني أمامه
وتضحك في وجه الأمانى مواهبه
فهنتما _____ نانلتما وبقيتيا
لأعلاء ملك ساميات مراتبه

وهذه القصيدة مع جودتها فيها مواضع مأخوذة من مرثية الفقيه عمارة اليميني في الصالح بن رزيك، وبعضها مذكور في ترجمة الصالح، وكأنه قد نسخ على منوالها فإنها على وزنهما، وإن كان حرف الروي مختلفا، فقد استعمل بها الوصل كما استعمله عمارة، والظاهر أنه كان قد وقف عليها، فقصد مضاهاتها.

وقام بالأمر في مملكة حلب من بعده ولده الملك العزيز غياث الدين أبو المظفر محمد بن الملك الظاهر، ومولده يوم الخميس خامس ذي الحجة سنة عشر وستمائة بحلب، وتوفي بها يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستمائة، وكنت بحلب في ذلك الوقت، ودفن بالقلعة، وترتب مكانه ولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن الملك العزيز، واتسعت مملكته فإنه ملك عدة بلاد من الجزيرة الفراتية لما كسر الخوارزمية، وكان مقدم جيشه الملك المنصور صاحب حمص، وذلك في أواخر سنة إحدى وأربعين وأوائل سنة اثنتين وأربعين، ملك دمشق والبلاد الشامية يوم الأحد سابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة، ومولده بقلعة حلب في تاسع عشر رمضان

سنة سبع وعشرين وستمائة، وقصده التتر وملكوا الشام، فخرج من دمشق في صفر سنة ثمان وخمسين وقتل في الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين بالقرب من المراغة من أعمال أذربيجان على ما نقل الناقل، والله أعلم، وقصته مشهورة.

وتوفي عمه الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن الملك الظاهر صاحب عين تاب في شهر شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة، وكانت ولادته في صفر سنة ستمائة بحلب، ومات بعين تاب رحمهم الله تعالى أجمعين، وإنما قدموا العزيز، وهو الأصغر على أخيه الصالح، لأن أمه ضيفة خاتون بنت الملك العادل بن أيوب، فقدموه في الملك لأجل جده وأخواله أولاد العادل وأما الصالح فإن أمه جارية، وتوفي الشرف الحلي المذكور في ليلة السابع والعشرين من شعبان سنة سبع وعشرين وستمائة بدمشق، رحمه الله تعالى، ودفن بظاهرها بجوار مسجد النارنج شرقي مصلى العيد، ومولده في منتصف ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة بالحلة، وهو من مشاهير شعراء عصره.

أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين

كان خادماً صلاح الدين، وقيل خادماً أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، فأعتقه، وقد تقدم ذكره في ترجمة الفقيه عيسى الهكاري، ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية وفوض أمورها إليه، واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكان رجلاً مسعوداً، وصاحب همة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثار دالة على علو الهمة، وعمر بالمقس رباطاً على باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل، وله وقف كثير لا يعرف مصرفه، وكان حسن المقاصد جميل النية، ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج سلمها إليه، ثم لما عادوا واستولوا عليها حصل أسيراً في أيديهم ويقال إنه افتك نفسه بعشرة آلاف دينار.

وذكر شيخنا القاضي بهاء الدين بن شداد في سيرة صلاح الدين أنه انفك من الأسر في يوم الثلاثاء حادي عشر شوال سنة ثمان وثمانين وخمسائة، ومثل في الخدمة الشريفة السلطانية، ففرح به فرحاً شديداً، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين، واستأذن في المسير إلى دمشق ليحصل مال القطيعة، فأذن له في ذلك، وكان على مذكر ثلاثين ألفاً، والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته، حتى أن الأسعد بن مماتي المقدم ذكره له جزء لطيف سماه الفاشوش في أحكام قراقوش، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه، وكانت وفاته في مستهل رجب سنة سبع وتسعين وخمسائة بالقاهرة، ودفن في تربته المعروفة به بسفح المقطم رحمه الله تعالى بقرب البئر والحوض اللذين أنشأهما على شفير الخندق.

- ٩٥٢٦ -

وقراقوش بفتح القاف والراء، وبعد الألف قاف ثانية ثم واو بعدها
شين معجمة، وهو لفظ تركي تفسيره بالعربي العقاب الطائر المعروف،
وبه سمى الانسان.

أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي بن بكتكين بن
محمد الملقب الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل.

كان والده زين الدين علي المعروف بكجك صاحب إربل، رزق أولادا
كثيرة، وكان قصيرا ولهذا قيل له كجك، وهو لفظ عجمي معناه بالعربي
صغير، أي صغير القدر، وأصله من التركمان وملك إربل وبلادا كثيرة في
تلك النواحي، وفرقها على أولاد أتابك قطب الدين مودود بن زنكي
صاحب الموصل، ولم يبق له سوى إربل، والشرح يطول وعمر طويلا،
يقال إنه جاوز مائة سنة، وعمي في آخر عمره، وانقطع بإربل إلى أن
توفي ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

وقال ابن شداد في سيرة صلاح الدين: مات في ذي الحجة من السنة،
ودفن في تربته المعروفة به المجاورة للجامع العتيق داخل البلد رحمه الله
تعالى، وكان موصوفا بالقوة المفرطة والشهامة، وله بالموصل أوقاف كثيرة
مشهورة من مدارس وغيرها.

قال شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي المعروف بابن الأثير
الجزري في تاريخه الصغير، الذي عمله لبني أتابك ملوك الموصل: إن
زين الدين المذكور سار عن الموصل إلى إربل سنة ثلاث وستين
 وخمسمائة، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى أتابك قطب
الدين، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية، وقلاع الهكارية
جميعها، وتكريت وشهرزور وغير ذلك، وماترك لنفسه سوى إربل، وكان
قد حج هو وأسد الدين شيركوه بن شاذي في سنة خمس وخمسين
 وخمسمائة.

ولما توفي ولي موضعه ولده مظفر الدين المذكور، وعمره أربع عشرة
سنة، وكان أتابكه مجاهد الدين قايباز المذكور في حرف القاف، فأقام

أخاه زين الدين أبا المظفر يوسف، وكان أصغر منه، ثم أخرج مظفر الدين من البلاد فتوجه إلى بغداد، فلم يحصل له بها مقصود، فانتقل إلى الموصل ومالكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود المقدم ذكره في حرف العين، فاتصل بخدمته وأقطعه مدينة حران فانتقل إليها، وأقام بها مدة.

ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين وحظي عنده، وتمكن منه وزاده في الإقطاع الرها في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وأخذ صلاح الدين الرها من ابن الزعفراني وأعطاه مظفر الدين مع حران، وأخذ الرقة من ابن حسان وأعطاه ابن الزعفراني، والشرح في ذلك يطول، ثم أعطاه سميساط وزوجه أخته الست ربعة خاتون بنت أيوب، وكانت قبله زوجة سعد الدين مسعود بن معين الدين صاحب قصر معين الدين الذي بالغور، وتوفي سعد الدين المذكور سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وشهد مظفر الدين مع صلاح الدين مواقف كثيرة، وأبان فيها عن نجدة وقوة نفس وعزة، وثبت في مواضع لم يثبت فيها غيره، على ماتصمته تواريخ العباد الأصبهاني وبهاء الدين بن شداد وغيرهما وشهرة ذلك تغنى عن الإطالة فيه، ولو لم يكن إلا وقعة حطين لكفته، فإنه وقف هو وتقي الدين صاحب حماة المقدم ذكره، وانكسر العسكر بأسره ثم لما سمعوا بوقوفهما تراجعوا حتى كانت النصرة للمسلمين، وفتح الله سبحانه عليهم، ثم لما كان السلطان صلاح الدين منازل عكا بعد استيلاء الفرنج عليها، وردت عليه ملوك الشرق تنجده وتخدمه، وكان في جملتهم زين الدين يوسف أخو مظفر الدين، وهو يومئذ صاحب إربل فأقام قليلا ثم مرض وتوفي في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة بالناصرية، وهي قرية بالقرب من عكا، يقال إن المسيح عليه الصلاة والسلام ولد بها على الاختلاف الذي في ذلك، فلما توفي التمس مظفر الدين من السلطان أن ينزل عن حران والرها وسميساط ويعوضه إربل فأجابه إلى ذلك وضم إليه شهرزور، فتوجه

إليها ودخل إربل في ذي الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة، هذه خلاصة أمره.

وأما سيرته فلقد كان له في فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحدا فعل في ذلك ما فعله، لم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة، كان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرقها على المحاويج في عدة مواضع من البلد، يجتمع في كل موضع خلق كثير يفرق عليهم في أول النهار، وكان إذ نزل من الركوب يكون قد اجتمع عند الدار جمع كثير فيدخلهم إليه ويدفع لكل واحد كسوة على قدر الفصل من الشتاء والصيف أو غير ذلك، ومع الكسوة شيء من الذهب من الدينار والاثني والثلاثة، وأقل وأكثر وكان قد بنى أربع خانقاهات للزمنى والعميان وملاها من هذين الصنفين، وقرر لهم ما يحتاجون إليه كل يوم، وكان يأتيهم بنفسه في كل عصرية اثنين وخميس، ويدخل عليهم، ويدخل إلى كل واحد في بيته ويتفقده بشيء من النفقة ويسأله عن حاله، وينتقل إلى الآخر وهكذا حتى يدور على جميعهم، وهو يياسطهم ويمزح معهم ويجبر قلوبهم، وبنى دارا للنساء الأرامل، ودارا للصغار الأيتام، ودارا للملاقيط، رتب بها جماعة من المراضع، وكل مولود يلتقط يحمل إليه فيرضعنه وأجرى على أهل كل دار ما يحتاجون إليه في كل يوم، وكان يدخل إليها في كل وقت ويتفقد أحوالهن ويعطينهن النفقات زيادة على المقرر لهن، وكان يدخل إلى البيمارستان ويقف على مريض مريض ويسأله عن مبيته وكيفية حاله وما يشتهي، وكان له دار مضيف يدخل إليها كل قادم على البلد من فقيه أو فقير أو غيرهما، وعلى الجملة فما كان يمنع منها كل من قصد الدخول إليها ولهم الراتب في الدار في الغداء والعشاء، وإذا عزم الإنسان على السفر أعطوه نفقة على ما يليق بمثله.

وبنى مدرسة رتب فيها فقهاء الفريقين من الشافعية والحنفية، وكان كل وقت يأتيها بنفسه ويعمل السباط بها ويبيت بها، ويعمل السماع،

وإذا طاب خلع شيئاً من ثيابه وسير للجماعة بكرة شيئاً من الإنعام، ولم يكن له لذة سوى السماع، فإنه كان لا يتعاطى المنكر، ولا يمكن من إدخاله إلى البلد، وبنى للصوفية خانقاهين فيهما خلق كثير من المقيمين والواردين، ويجتمع في أيام المواسم فيهما من الخلق ما يعجب الإنسان من كثرتهم، ولهما أوقاف كثيرة تقوم بجميع ما يحتاج إليه ذلك الخلق، ولا بد عند سفر كل واحد من نفقة يأخذها، وكان ينزل بنفسه إليهم ويعمل عندهم الساعات في كثير من الأوقات وكان يسير في كل سنة دفعتين جماعة من أمنائه إلى بلاد الساحل، ومعهم جملة مستكثرة من المال يفتك بها أسرى المسلمين من أيدي الكفار، فإذا وصلوا إليه أعطى كل واحد شيئاً وإن لم يصلوا فالأمناء يعطونهم بوصية منه في ذلك، وكان يقيم في كل سنة سبيلاً للحاج، ويسير معه جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه في الطريق، ويسير صحبته أمينا معه خمسة أو ستة آلاف دينار ينفقها بالحرمين على المحاويع وأرباب الرواتب، وله بمكة حرسها الله تعالى آثار جميلة، وبعضها باق إلى الآن، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف، وغرم عليه جملة كثيرة، وعمر بالجبل مصانع للماء، فإن الحاج كانوا يتضررون من عدم الماء، وبنى له تربة أيضاً هناك.

وأما احتفاله بمولد النبي صلى الله عليه وسلم فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به، لكن نذكر طرفاً منه، وهو أن أهل البلاد كانوا قد سمعوا بحسن اعتقاده فيه، فكان في كل سنة يصل إليه من البلاد القريبة من إربل مثل بغداد، والموصل، والجزيرة، وسنجار، ونصيبين، وبلاد العجم وتلك النواحي خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، ولا يزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب، كل قبة، أربع أو خمس طبقات، ويعمل مقدار عشرين قبة، وأكثر منها قبة له والباقي للأمرء وأعيان دولته لكل واحد قبة فإذا كان أول صفر زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المتجملّة، وقعد في كل قبة جوق من الأغاني وجوق من

أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي، ولم يتركوا طبقة من تلك الطباق حتى رتبوا فيها جوقا، وتبطل معاش الناس في تلك المدة، وما يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم، وكانت القباب منصوبة من باب القلعة إلى باب الخانقاه المجاورة للميدان، فكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر، ويقف على قبة قبة إلى آخرها، ويسمع غناءهم، ويتفرج على خيالاتهم وما يفعلونه في القباب، ويبست في الخانقاه ويعمل السماع فيها، ويركب عقيب صلاة الصبح يتصيد، ثم يرجع إلى القلعة قبل الظهر، هكذا يعمل كل يوم إلى ليلة المولد، وكان يعمل سنة في ثامن الشهر، وسنة في ثاني عشره لأجل الاختلاف الذي فيه، فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم شيئا كثيرا زائدا عن الوصف، وزفها بجميع ماعنده من الطبول والأغاني والملاهي حتى يأتي بها إلى الميدان، ثم يسرعون في نحرها، وينصبون القدور ويطبخون الألوان المختلفة، فإذا كانت ليلة المولد عمل الساعات، بعد أن يصلي المغرب في القلعة، ثم ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيء كثير، وفي جملتها شمعتان أو أربع أشك في ذلك، من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل، ومن ورائها رجل يسندها وهي مربوطة على ظهر البغل حتى ينتهي إلى الخانقاه، فإذا كان صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه على أيدي الصوفية، على يد كل شخص منهم بقجة، وهم متتابعون كل واحد وراء الآخر، فينزل من ذلك شيء كثير لأتحقق عدده، ثم ينزل إلى الخانقاه وتجتمع الأعيان والرؤساء وطائفة كبيرة من بياض الناس، وينصب كرسي للوعاظ، وقد نصب لمظفر الدين برج خشب له شبابيك إلى الموضع الذي فيه الناس، والكرسي وشبابيك آخر للبرج أيضا إلى الميدان، وهو ميدان كبير في غاية الاتساع ويجتمع فيه الجند ويعرضهم ذلك النهار، وهو تارة ينظر إلى عرض الجند، وتارة إلى الناس والوعاظ، ولا يزال كذلك حتى يفرغ الجند من عرضهم، فعند ذلك يقدم السباط في الميدان للصعاليك، ويكون

سماطا عاما فيه من الطعام والخبز شيء كثير لا يجد ولا يوصف، ويمد سماطا ثانيا في الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسي، وفي مدة العرض ووعظ الوعاظ يطلب واحدا واحدا من الأعيان والرؤساء والوافدين لأجل هذا الموسم ممن قدمنا ذكره من الفقهاء والوعاظ والقراء والشعراء، ويخلع على كل واحد منهم، ثم يعود إلى مكانه، فإذا تكامل ذلك كله حضروا السماط وحملوا منه لمن يقع التعيين على الحمل إلى داره، ولا يزالون على ذلك إلى العصر أو بعدها، ثم يبيت تلك الليلة هناك، ويعمل الساعات إلى بكرة، هكذا دأبه في كل سنة، وقد لخصت صورة الحال فإن الاستقصاء يطول، فإذا فرغوا من هذا الموسم تجهز كل إنسان للعود إلى بلده، فيدفع لكل شخص شيئا من النفقة، وقد ذكرت في ترجمة الحافظ أبي الخطاب بن دحية، في حرف العين وصوله إلى إربل وعمله لكتاب «التنوير في مولد السراج المنير» لما رأى من اهتمام مظفر الدين به، وأنه أعطاه ألف دينار غير ما غرم عليه مدة إقامته من الإقامات الوافرة، وكان رحمه الله متى أكل شيئا واستطابه لا يختص به بل كان إذا أكل من زبدية لقمة طيبة قال لبعض من بين يديه من أجناده: احمل هذا إلى الشيخ فلان أو فلانة ممن هم عنده مشهورون بالصلاح، وكذلك يعمل في الحلوى والفاكهة وغير ذلك من المطاعم والمشارب والكساء، وكان كريم الأخلاق كثير التواضع حسن العقيدة، سالم البطانة، شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة، لا ينفق عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين، ومن عداهما لا يعطيه شيئا إلا تكلفا، وكذلك الشعراء لا يقول بهم ولا يعطيهم إلا إذا قصدوه، فما كان يضيع قصدهم ولا يخيب أمل من يطلب به، وكان يميل إلى علم التاريخ وعلى خاطره منه شيء يذاكر به، ولم يزل رحمه الله تعالى مؤيدا في مواقفه ومصافاته مع كثرتها، لم ينقل أنه انكسر في مصاف قط ولو استقصيت في تعداد محاسنه لطال الكتاب وفي شهرة معروفة غنية عن الإطالة، وليعذر الواقف على هذه الترجمة، ففيها تطويل، ولم يكن سببه إلا ماله علينا من الحقوق التي لا نقدر على القيام

بشكر بعضها، ولو عملنا مهما عملناه، وشكر المنعم واجب فجزاه الله عنا أحسن الجزاء، فكسب له علينا من الأيادي ولأسلافه على أسلافنا من الإنعام، والانسان صنيعه الإحسان، ومع الإعتراف بجميله فلم أذكر عنه شيئاً على سبيل المبالغة بل كل ماذكرته عن مشاهدة وعيان، وربما حذفت بعضه طلباً للإيجاز، وكانت ولادته بقلعة الموصل ليلة الثلاثاء السابعة والعشرين من المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وتوفي وقت الظهر يوم الأربعاء ثامن عشر شهر رمضان سنة ثلاثين وستمائة بداره في البلدة التي كانت لمملوكه شهاب الدين قراجا فلما قبض عليه في سنة أربع عشرة وستمائة أخذها وصار يسكنها بعض الأوقات فمات بها، ثم نقل إلى قلعة إربل ودفن بها، ثم حمل بوصية منه إلى مكة شرفها الله تعالى وكان قد أعد له بها قبة تحت الجبل في ذيله يدفن فيها، وقد سبق ذكرها، فلما توجه الراكب إلى الحجاز سنة إحدى وثلاثين سيروه في الصحبة، فاتفق أن رجع الحاج تلك السنة من لينة ولم يصلوا إلى مكة، فردوه ودفنوه بالكوفة بالقرب من المشهد رحمه الله تعالى، وعوضه خيراً وتقبل مباره، وأحسن منقلبه.

وأما زوجته ربيعة خاتون بنت أيوب فإنها توفيت في شعبان سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وغالب ظني أنها جاوزت ثمانين سنة، ودفنت في مدرستها الموقوفة على الحنابلة بسفح قاسيون، وكانت وفاتها بدمشق، وأدركت من محارمها من الملوك من أخوتها وأولادهم أكثر من خمسين رجلاً، غير محارمها من غير الملوك ولولا خوف الإطالة لذكرتهم مفصلاً، فإن إربل كانت لزوجها المذكور، والموصل لأولاد بنتها، وخلاط وتلك الناحية لابن أخيها، وبلاد الجزيرة الفراتية للأشرف ابن أخيها، وبلاد الشام لأولاد أخوتها، والديار المصرية والحجاز واليمن لأخوتها وأولادهم، ومن تأمل ذلك عرف الجميع.

وكوكبوري بضم الكافين بينهما واوا ساكنه، ثم باء موحدة مضمومة، ثم

واوا ساكنة، وبعدها راء، وهو اسم تركي معناه بالعربي ذئب أزرق، وبكتيكن بضم الباء الموحدة وسكون الكاف، وكسر التاء المثناة من فوقها، والكاف، وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون، هو اسم تركي أيضا، ولينة بكسر اللام وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح النون وبعدها هاء ساكنة، منزلة في طريق الحجاز من جهة العراق، وكان الركب في تلك السنة قد رجع منها لعدم الماء، وقاسوا مشقة عظيمة.

أبو بكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شادي بن مروان
الملقب بالملك العادل سيف الدين أخو السلطان صلاح
الدين رحمهما الله تعالى.

وقد تقدم ذكر والده في حرف الهمزة، وسيأتي ذكر أخيه صلاح الدين
في حرف الياء إن شاء الله تعالى، وكان الملك العادل قد وصل إلى الديار
المصرية صحبة أخيه وعمه أسد الدين شيركوه المقدم ذكره، وكان يقول
لما عزمنا على المسير إلى مصر احتجت إلى جرمدان^(١) فطلبته من والدي
فأعطاني، وقال: يا أبا بكر إذا ملكتم مصر أعطني ملأه ذهباً، فلما جاء إلى
مصر قال: يا أبا بكر أين الجرمدان؟ فرحت وملأته من الدراهم السود
وجعلت أعلاها شيئاً من الذهب وأحضرتة إليه، فلما رآه اعتقده ذهباً
فقلبه فظهرت الفضة السوداء، فقال: يا أبا بكر تعلمت زغل المصريين.

ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية كان ينوب عنه في
حال غيبته في الشام، ويستدعى منه الأموال للانفاق في الجند وغيرهم،
ورأيت في بعض رسائل القاضي الفاضل أن الحمول تأخرت مدة،
فتقدم السلطان إلى العماد الأصبهاني أن يكتب إلى أخيه الملك العادل
يستحثه على إنفاذها حتى قال: يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فلما
وصل الكتاب إليه ووقف على هذا الفصل شق عليه وكتب إلى القاضي
الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك، فكتب القاضي الفاضل جوابه
وفي جملة: «وأما ما ذكره المولى من قوله يسير لنا الحمل من مالنا أو من
ماله، فتلك لفظة مالمقصود بها من الملك النجعة وإنما المقصود بها من
الكاتب السجعة، وكم من لفظة فظة، وكلمة فيها غلظة حيرت عبي
الأقلام، وفستدت خلل الكلام، وعلى المملوك الضمان في هذه النكتة،
وقد فات لسان القلم منها أي سكتة، وكان المملوك حاضراً وقد جرت
قوارع الاستحثاث، وصرصر البازي، وقوت نفس العماد قوة نفس البغاث
والسلام».

ولما ملك السلطان مدينة حلب في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة
كما تقدم في ترجمة عماد الدين زنكي أعطاها لولده الملك الظاهر غازي،
ثم أخذها منه وأعطاه للملك العادل، فانتقل إليها وقصد قلعتها يوم
الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة ثم
نزل عنهما للملك الظاهر غازي ابن السلطان المقدم ذكره لمصلحة وقع
الاتفاق عليها بينه وبين أخيه صلاح الدين وخرج منها في سنة اثنتين
وثمانين وخمسمائة ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، ثم
أعطاه السلطان قلعة الكرك، وتنقل في الممالك في حياة السلطان وبعد
وفاته وقضاياه مشهورة مع الملك الأفضل، والملك العزيز، والملك
الظاهر، فلا حاجة إلى الإطالة بشرحها، وآخر الأمر أنه استقل بمملكة
الديار المصرية، وكان دخوله إلى القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من
شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة، واستقرت له القواعد.

وقال أبو البركات بن المستوفي في تاريخ إربل في ترجمة ضياء الدين
أبي الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الوزير الجزري مامثاله: «وجدت
بخطه خطب للملك العادل أبي بكر بن أيوب بالقاهرة ومصر يوم
الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة،
وخطب له بحلب يوم الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة سنة ثمان
وتسعين وخمسمائة، وملك معها البلاد الشامية والشرقية، وصفت له
الدنيا، ثم ملك بلاد اليمن في سنة اثنتي عشرة وستائة، وسير إليها ولد
ولده الملك المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف المعروف بأطسيس
ابن الملك الكامل الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وكان ولده الملك الأوحـد
نجم الدين أيوب ينوب عنه في ميفارقين وتلك النواحي، فاستولى على
مدينة خلط وبلاد أرمينية، واتسعت مملكته وذلك في سنة أربع وستائة،
ولما تمهدت البلاد له قسمها بين أولاده، فأعطى الملك الكامل الديار
المصرية، والملك المعظم البلاد الشامية، والملك الأشرف البلاد المشرقية،
والأوحـد في البلاد التي ذكرناها، وكان ملكا عظيما ذا رأي ومعرفة تامة

قد حنكته التجارب، حسن السيرة، وجميل الطوية، وافب العقل، حازما في الأمور، صالحا محافظا على الصلوات في أوقاتها متبعا لأرباب السبنة مائلا الى العلماء حتى صنف له فخر الدين الزازي كتاب «تأسيس التقديس» وذكر اسمه في خطبته، وسيره إليه من بلاد خراسان، وبالجمله فإنه كان رجلا مسعودا، ومن سعاده أنه خلف أولادا لم يخلف أحدا من الملوك أمثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم، ودانت لهم العباد، وملكوا أخيار البلاد، ولما مدح ابن عنين المقدم ذكره الملك العادل بقصيدته الرائية المذكور بعضها في ترجمته جاء منها في مديح أولاده المذكورين قوله:

ولله البنون بكل أرض منهم
ملك يقود إلى الأعادي عسكرا
من كل وضاح الجبين تحاله
بدرا وإن شهد الوغى فغضنفر
متقدم حتى إذا النقع انجل
بالبيض عن سبي الحریم تأخرا
قوم زكوا أصلا وطابوا احتدا
وتدفقوا جودا وراقوا منظرا
وتعاف خيلهم الورود بمنهل
ما لم يكن بدم الوقائع أحمر
يعشوا إلى نار الوغى شغفأها
ويجل أن يعشوا إلى نار القرى

وكم للشعراء فيهم من القصائد المختارة لكن ذكرت هذه لكونها جامعة لجميعهم ومن جملة هذه القصيدة مدح الملك العادل قوله ولقد أحسن فيه:

العادل الملك الذي أسماه
في كل ناحية تشرف منبرا

وبكل أرض جنة من عدله الـ
— ضافي أسال نداه فيها كوثر
عدل يبيت الذئب منه على الطوى
غرثان وهو يرى الغزال الأعفرا
مافي أبي بكر لمعت قد الهدى
شك مريب أنه خير الورى
سيف صقال المجد أخلص منته
وأبان طيب الأصل منه الجوهر
مامدحه بالمستعار له ولا
آيات سؤدده حديث يفترى
بين الملوك الغابرين وبينه
في الفضل ما بين الثريا والثرى
نسخت خلائقه الحميدة ما أتى
في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا
ملك اذا خفت حلوم ذوى النهى
في الروع زاد رصانة وتوقرا
ثبت الجنان ترع من وثباته
وثباته يوم الوغى اسد الشرى
يقظيك اذ يقول عما في غد
بيديه اغتته أنه يتفكرا
حلم تخف له الحلوم وراءه
رأي وعزم يحقرا الاسكندرا
يعفو عن الذنب العظيم تكريما
ويصد عن قول الخنى متكبرا
لاتسمع من حديث ملك غيره
يروى فكل الصيد في جوف الفرا (٢)

وبالجمله فإنها من القصائد المختارة، ولما قسم البلاد بين أولاده، كان
يتردد بينهم ويتنقل إليهم من مملكة إلى أخرى، وكان بالغالب يصيف

بالشام لأجل الفواكة والثلج والمياة الباردة، ويشتهي في الديار المصرية لا اعتدال الوقت فيها وقلة البرد، وعاش في أرغد عيش، وكان يأكل كثيرا خارجا عن المعتاد حتى يقال إنه يأكل وحده خروفا لطيفا مشويا، وكان له في النكاح نصيب وافر، وحاصل الأمر أنه كان ممتعا في دنياه، وكانت ولادته بدمشق في المحرم سنة أربعين، وقيل ثمان وثلاثين وخمسمائة، وتوفي في سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة بعاليقين ونقل إلى دمشق، ودفن بالقلعة ثاني يوم وفاته ثم نقل إلى مدرسته المعروفة به، ودفن في التربة التي بها، وقبره على الطريق يراه المجتاز من الشباك المركب هناك رحمه الله تعالى.

وعاليقين بفتح العين المهملة، وبعد الألف لام مكسورة وقاف مكسورة أيضا وياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها نون، وهي قرية بظاهر دمشق، وكان ذلك عند وصول الفرنج إلى ساحل الشام، وقصدوا أولا لقاء الملك العادل فتوجه قدامه إلى جهة دمشق ليتجهز ويتأهب إلى لقائهم، فلما وصل إلى الموضع المذكور توفي به، فحينئذ أعرض جميع الفرنج عن الشام وقصدوا الديار المصرية فكانت وقعة دمياط المشهورة في ذلك التاريخ وتاريخها مضبوط في ترجمة يحيى بن منصور المعروف بابن جراح في حرف الياء، وأطسيس بفتح الهمزة وسكون الطاء المهملة وكسر السين المهملة وبعدها ياء مثناة من تحتها، ثم سين ثانية، وهي كلمة تركية معناها بالعربية ماله اسم، ويقال إنما سمي بذلك لأن الملك الكامل ما كان يعيش له ولد، فلما ولد له المسعود المذكور قال بعض الحاضرين في مجلسه من الأتراك: في بلادنا إذا كان الرجل لا يعيش له ولد سماه أطسيس، فسماه أطسيس، والناس يقولون أقسيس بالقاف وصوابه بالطاء كذا قالوا والله أعلم، ثم ظفرت بتاريخ تسلم حلب محررا وهو أن عماد الدين زنكي نزل من قلعتها يوم الخميس الثاني والعشرين من صفر، وصعد صلاح الدين إليها يوم الاثنين السادس والعشرين من صفر المذكور، والله أعلم.

أبو المعالي محمد ابن الملك العادل المذكور الملقب بالملك الكامل ناصر الدين

قد سبق في ترجمة والده طرف من خبره، ولما وصل الفرنج إلى دمياط كما تقدم ذكره كان الملك الكامل في مبدأ استقلاله بالسلطنة، وكان عنده جماعة كثيرة من أكابر الأمراء وفيهم عماد الدين أحمد بن المشطوب المذكور في حرف الهمزة، فاتفقوا مع أخيه الملك الفائز سابق الدين إبراهيم ابن الملك العادل، وانضموا إليه وظهر للملك الكامل منهم أمور تدل على أنهم عازمون على تفويض السلطنة إليه وخلع الملك الكامل واشتهر ذلك بين الناس، وكان الملك الكامل يداريهم لكونه في قبالة العدو، ولا يمكنه المناظرة والمنافرة وطول روحه معهم ولم يزل على ذلك حتى وصل إليه أخوه الملك المعظم صاحب دمشق المذكور في حرف العين يوم الخميس تاسع عشر ذي القعدة سنة خمس عشرة وستائة، فأطلعه الملك الكامل في الباطن على صورة الحال وأن رأس هذه الطائفة ابن المشطوب، فجاء يوما على غفلة إلى خيمته واستدعاه فخرج إليه، فقال له: أريد أن أتحدث معك سرا في خلوة، فركب فرسه وصار معه وهو جريدة وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق إليهم، وقال لهم: اتبعونا ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء إلى شيء حتى أبعد عن المخيم، ثم قال له: ياعماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي أن تهبها لنا، ثم أعطاه شيئا من النفقة وقال لأولئك المجردين: تسلموه حتى تخرجوه من الرمل، فلم يسعه، إلا امتثال الأمر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال، ثم عاد المعظم إلى أخيه الكامل وعرفه صورة ماجرى، ثم جهز أخاه الملك الفائز المذكور إلى الموصل لاحتضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار، وكان ذلك خديعة لإخراجه من البلاد، فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الأمراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرها لا طوعا، وجرى في قضية دمياط ما هو مشهور، فلا حاجة

إلى الإطالة بذكره، ولما ملك الفرنج دمياط وصارت في قبضتهم خرجوا منها قاصدين القاهرة ومصر، ونزلوا في رأس الجزيرة التي دمياط في برها، وكان المسلمون قبالتهم في القرية المعروفة بالمنصورة، والبحر حائل بينهم وهو بحر أشموم، ونصر الله سبحانه وتعالى بمنه وجميل لطفه المسلمين عليهم كما هو مشهود، وجلال الفرنج عن منزلهم ليلة الجمعة سابع شهر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة، وتم الصلح بينهم وبين المسلمين في حادي عشر الشهر المذكور، ورحل الفرنج عن البلاد في شعبان من السنة المذكورة، وكانت مدة إقامتهم في بلاد الاسلام ما بين الشام والديار المصرية أربعين شهرا وأربعة عشر يوما، وكفى الله شرهم والحمد لله على ذلك، وقد فصلت ذلك في ترجمة يحيى بن جراح فيكشف هناك، فلما استراح خاطر الملك الكامل من جهة هذا العدو تفرغ للأمراء الذين كانوا متحاملين عليه فتفاهم عن البلاد وبدد شملهم وشردهم، ودخل إلى القاهرة وشرع في عمارة البلاد واستخراج الأموال من جهاتها، وكان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر محبا للعلماء، متمسكا بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشرا لأرباب الفضائل حازما في أموره لا يضيع الشيء إلا في موضعه من غير اسراف ولا اقتار، وكان يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ويشاركهم في مباحثاتهم، ويسألهم عن المواضع المشككة من كل فن وهو معهم كواحد منهم، وكان يعجبه هذان البيتان وينشدهما كثيرا وهما:

ماكنت من قبل ملك قلبي
تصد عن مدنف حزين
ولما قد طمعت لما
حللت في موضع حصين

وبنى بالقاهرة دار حديث، ورتب لها وقفا جيدا، وكان قد بنى على ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه قبة عظيمة، ودفن أمه عنده وأجرى إليها الماء من النيل ومدده بعيدا، وأنفق على ذلك مالا عظيما، ولما مات

أخوه الملك المعظم صاحب الشام في التاريخ المذكور في ترجمته، وقام الملك الناصر صلاح الدين داود مقامه، خرج الملك الكامل من الديار المصرية قاصداً أخذ دمشق منه، وجاءه أخوه الملك الأشرف مظفر الدين موسى الآتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى، فاجتمعوا على أخذ دمشق بعد فصول جرت يطول شرحها، وملك دمشق في أول شعبان سنة ست وعشرين وستمائة، وكان يوم الاثنين، فلما ملكها دفعها إلى أخيه الملك الأشرف وأخذ عوضها من بلاد الشرق: حران، والرها، وسروج، والركة، ورأس عين، وتوجه إليها بنفسه في تاسع شهر رمضان المعظم من السنة، واجتازت بحران في شوال سنة ست وعشرين وستمائة والملك الكامل مقيم بها بعسكر الديار المصرية، وجلال الدين خوارزم شاه يوم ذاك محاصر خلاط، وكانت لأخيه الملك الأشرف، ثم رجع إلى الديار المصرية ثم تجهز في جيش عظيم وقصد آمد في سنة تسع وعشرين وستمائة فأخذها مع حصن كيفا وتلك البلاد من الملك المسعود ركن الدين مودود ابن الملك الصالح أبي الفتح محمد بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن ركن الدولة داود بن نور الدولة سقمان، ويقال سقمان بن أرتق، وقد تقدم ذكر جدتهم أرتق.

أخبرني بعض أهل آمد ممن عنده معرفة أن آمد انبرم أمرها وتسلمها الملك الكامل في تاسع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة، ودخلها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب في العشرين من الشهر المذكور، ودخلها الكامل في مستهل المحرم سنة ثلاثين وستمائة، ولما مات الملك الأشرف في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في ترجمته جعل ولي عهده أخاه الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل، فقصد الملك الكامل وانتزع منه دمشق بعد مصالحة جرت بينهما وذلك في التاسع من جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأبقى له بعلبك وأعمالها وبصرى وأرض السواد وتلك البلاد، ولما ملك البلاد الشرقية وأمد وتلك النواحي استخلف فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أبا المظفر أيوب،

واستخلف ولده الأصغر الملك العادل سيف الدين أبا بكر بالديار المصرية وقد تقدم في ترجمة الملك العادل أنه سير الملك المسعود إلى اليمن وكان أكبر أولاد الملك الكامل، وملك الملك المسعود مكة حرسها الله تعالى وبلاد الحجاز مضافة إلى اليمن، وكان رحيل الملك المسعود عن الديار المصرية متوجها إلى اليمن يوم الاثنين سابع عشر رمضان المعظم سنة إحدى عشرة وستائة، ودخل مكة شرفها الله تعالى في الثالث من ذي القعدة من السنة، وخطب له بها وحج ودخل زبيد وملكها مستهل المحرم سنة اثنتي عشرة، ثم ملك مكة شرفها الله تعالى في ربيع الآخر من سنة عشرين وستائة أخذها من الشريف حسن بن قتادة الحسني، واتسعت المملكة للملك الكامل، ولقد حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة شرفها الله تعالى أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال: «مالك مكة وعبيدها واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين خادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين» وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود، ولقد رأيته بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستائة عند رجوعه من بلاد الشرق واستنقاذه إياها من يد علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بن قلعج أرسلان ابن مسعود بن قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш بن اسرائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي صاحب الروم، وهي وقعة مشهورة يطول شرحها، في خدمته يومئذ بضعة عشر ملكا منهم أخوه الملك الأشرف، ولم يزل في علو شأنه وعظم سلطانه إلى أن مرض بعد أخذه دمشق ولم يركب، وكان ينشد في مرضه كثيرا:

يـا خـلـيـلـي خـبـرـانـي بـصـدق

كـيـف طـعـم الكـرى فـإنـي نـسـيت

ولم يزل كذلك إلى أن توفي يوم الأربعاء بعد العصر، ودفن في القلعة بدمشق يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين

وستمائة، وكنت بدمشق يومئذ، وحضرت الصبحة يوم السبت في جامع دمشق لأنهم أخفوا موته إلى وقت صلاة الجمعة، فلما حضرت الصلاة قام بعض الدعاة على العريش الذي بين يدي المنبر وترحم على الملك الكامل، ودعا لولده الملك العادل صاحب مصر، وكنت حاضرا في ذلك الموضع فضج الناس ضجة واحدة، وكانوا قد أحسوا بذلك، لكنهم لم يتحققوه إلا ذلك اليوم، وترتب ابن أخيه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل في نيابة السلطنة بدمشق عن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر، باتفاق الأمراء الذين كانوا حاضرين ذلك الوقت بدمشق، ثم بني له تربة مجاورة للجامع ولها شباك إلى الجامع ونقل إليها وكانت ولادته في سنة ست وسبعين وخمسمائة في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول كذا وجدته بخط من يعتني بالتاريخ، والله أعلم.

وتوفي ولده الملك المسعود بمكة شرفها الله تعالى في ثالث جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة، ومولده في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان بمكة رجل من المجاورين يقال له الشيخ صديق بن بدر بن جناح، من أكراد بلد إربل، وكان من كبار الصالحين، فلما حضرت الملك المسعود الوفاة أوصى أنه إذا مات لا يجهز بشيء من ماله بل يسلم إلى الشيخ صديق يجهزه من عنده بما يراه، فلما مات تولى الشيخ صديق أمره وكفنه في إزار كان يحرم فيه بالحج والعمرة سنين عديدة، وجهزه تجهيز الفقراء على حسب قدرته، وكان أوصى أنه لا يبنى عليه قبة بل يدفن في جانب المعلى جبانة مكة شرفها الله تعالى، ويكتب على قبره هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى أطسيس بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب، ففعل به ذلك ثم أن عتيقه الصارم قاياز المسعودي الذي تولى القاهرة بعد ذلك بنى عليه قبة.

ولما بلغ الملك الكامل ما فعله الشيخ صديق كتب إليه وشكره، فقال:

ما فعلت ما أستحق به الشكر، فإن هذا رجل سألني القيام بأمره فساعدته بما يجب على كل أحد القيام به من موارد الميت، فقليل له: تكتب جواب الملك الكامل فقال: ليس لي إليه حاجة، وكان قد سأله أن يسأله حوائجه كلها فما رد له جوابا، أخبرني بذلك كله من كان حاضرا ويعرف ما يقول، والله أعلم.

وأما ولده الملك العادل فإنه أقام في المملكة إلى يوم الجمعة ثامن ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وستمائة، فقبض عليه أمراء دولته بظاهر بلبس وطلبوا أخاه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان الصالح قد صالح الملك الجواد على أن أعطاه دمشق، وعوضه عنها سنجار وعانه، وقدم الصالح دمشق متملكا لها في مستهل جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وستمائة، ثم إن عمه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب بعلبك اتفق مع الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص على أخذ دمشق. اغتيلالا، وكان الملك الصالح نجم الدين قد خرج منها قاصدا الديار المصرية ليأخذها من أخيه الملك العادل، فلما استقر بنابلس وأقام بها مدة جرت هذه الكائنة في سنة سبع وثلاثين وستمائة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر، فهجما دمشق بعساكرهما وأخذها وهي قضية مشهورة، فلما أخذوا دمشق رجعت العساكر التي كانت مع الصالح نجم الدين إليها ليدرك كل واحد منهم أهله وبنيه، وتركوا الملك الصالح بنابلس وحيدا في نفر قليل من غلمانهم وأتباعه، فجاءه الملك الناصر ابن الملك المعظم صاحب الكرك وقبض عليه ليلة السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة، وأرسله إلى الكرك واعتقله بها، ثم إنه أفرج عنه في ليلة السبت السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وشرح ذلك يطول، واجتمع هو والملك الناصر على نابلس، فلما قبض الملك العادل في التاريخ المذكور، طلب الأمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب فجاءهم ومعه الملك الناصر صاحب الكرك، ودخلا القاهرة في

الساعة الثانية من يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة، وكنت إذ ذاك بالقاهرة، وأدخل أخاه الملك العادل في محفة وحوله جماعة كثيرة من الأجناد يحفظونه، وحمله من خارج البلد إلى القلعة واعتقله عنده في داخل الدار السلطانية، وبسط العدل في الرعية، وأحسن إلى الناس، وأخرج الصدقات ورسم ماتهدم من المساجد، وسيرته طويلة، ثم إنه أخذ دمشق من عمه الملك الصالح في يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وأبقى عليه بعلبك، ومضى بعد ذلك إلى الشام في سنة ست وأربعين بعد أن كان عاد إلى مصر، ودخل دمشق في أوائل شعبان من السنة، وسير العساكر لحصار حمص، وقد كان الملك الناصر صاحب حلب أخذها من صاحبها الأشرف ابن صاحب حمص، ثم رجع في أوائل سنة سبع وأربعين وهو مريض، وقصد الفرنج دمياط وهو مقيم بأشموم ينتظر وصولهم، وكان وصولهم إليها يوم الجمعة العشرين من صفر سنة سبع وأربعين وستمائة، وملكوا بر الجزيرة يوم السبت، وملكوا دمياط يوم الجمعة ثلاثة أيام متوالية لأن العسكر وجميع أهلها تركوها وهربوا منها، وانتقل الملك الصالح من أشموم إلى المنصورة ونزل بها وهو في غاية المرض، وأقام بها على تلك الحال إلى أن توفي هناك ليلة الاثنين نصف شعبان من السنة المذكورة، وحمل إلى القلعة الجديدة التي في الجزيرة، وترك بها في مسجد هناك، وأخفي موته مقدار ثلاثة أشهر والخطبة باسمه إلى أن وصل ولده الملك توران شاه من حصن كيفا على البرية إلى المنصورة فعند ذلك أظهروا موته، وخطب لولده المذكور، ثم بعد ذلك بني له بالقاهرة إلى جنب مدارس تربة ونقل إليها في رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة.

وكانت ولادته في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستمائة هكذا وجدته بخط ابنه مكتوبا، ورأيت في مكان آخر أنه ولد في ليلة الخميس الخامس عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وفي

مكان آخر أنه ولد في الرابع من المحرم سنة أربع وستمائة، والله تعالى أعلم، وأمه جارية مولدة سمراء اسمها ورد المنى رحمه الله تعالى.

وكانت ولادة الملك العادل في ذي الحجة سنة سبع عشرة وستمائة بالمنصورة، ووالده في قبالة العدو على دمياط، وتوفي في الاعتقال يوم الاثنين ثاني عشر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة بقلعة القاهرة، ودفن في تربة شمس الدولة خارج باب النصر رحمه الله تعالى.

هذه الفصول ذكرت خلاصتها، ولو فصلتها لطال الشرح، والمقصود الاختصار، وطلب الإيجاز مع أني كنت حاضرا أكثر وقائعها.

وكان للملك العادل ولد صغير يقال له الملك المغيث مقيما بالقلعة، فلما وصل ابن عمه الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة سيره من هناك، ونقله إلى قلعة الشوبك، فلما جرت الكائنة على المعظم أحضر متسلم قلعة الكرك الملك المغيث من الشوبك وسلم إليه الكرك والشوبك وتلك النواحي، وهو الآن ملكها، ولم يزل مالكةا إلى سنة إحدى وستين وستمائة، فنزل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس المذكور في ترجمة القاضي مجلي صاحب كتاب الذخائر بالغور، وراسله وبذل له من تسليم البلد بدلا وحلف له، ويقال إنه ورى في اليمن ولم يستقض فيها فنزل إليه إلى منزله بالطور من الغور فقبض عليه ساعة وصوله وجهزه إلى قلعة الجبل بمصر، واعتقله بها، وكان للمغيث ولد ينعت بالعزیز فخر الدين عثمان صغير السن، فأمره الملك الظاهر ولم يزل في خدمته أميرا إلى أن فتح أنطاكية في شهر رمضان سنة ست وستين وستمائة، وتوجه من الشام بعد ذلك إلى مصر، فلما دخل إليها قبض عليه واعتقله وهو الآن معتقل بقلعة الجبل المذكورة، وهذه قلعة الكرك هي المذكورة في ترجمة القاضي المجلي أيضا، وكان الملك الظاهر يخاف على أولاده فكان يبالغ في تحصين القلعة المذكورة، ويملؤها بالذخائر ووجدها عونا له على زمانه، ولما توفي

الملك السعيد ابن الملك الظاهر في الكرك كما ذكرنا في الترجمة المذكورة ملكها بعده أخوه الملك المسعود نجم الدين خضر ابن الملك الظاهر باتفاق ممن كان بها من مماليك أبيه، ومن أمرائه، وهو الآن متملكها مقيم بها، ثم نزل بالأمان بعد حصاره فيها في مدة الأمير حسام الدين طربطر المنصوري كان نائب المملكة، وتقدم العساكر ونزل معه أخوه الملك العادل سلامش بعد أخيه الملك السعيد، وتوجه إلى الديار المصرية إلى خدمة السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى المذكور في ترجمة القاضي مجلي في أوائل هذا الحرف، فأحسن السلطان إليهما، وجعل الملك خضرا وأخاه سلامش أميرين، وأقطعهما الاقطاعات الجيدة، وأسكنهما بقلعة الجبل المنصورة واستمر الأمر على ذلك وهما مختلطان به في جملة أهله ملازمان للركوب مع ولديه السلطان الملك الصالح علاء الدين والملك الأشرف صلاح الدين خليل، ولم يزل الأمر كذلك إلى سنة ثمان وثمانين وستمئة فجرى من الأمر ماقتضى الحال معه القبض على الأميرين: نجم الدين خضر وبدر الدين سلامش المذكورين واعتقلهما بقلعة الجبل، والملك الصالح الملك المنصور المذكور فإنه كان ولي عهد أبيه وكان حازما شديدا الرأي وتوفي في حياة والده في شهر شعبان سنة سبع وثمانين وستمئة، ثم إن والده جعل ولاية العهد إلى ولده الملك الأشرف المذكور، وقلده الملك في شهر شوال سنة سبع وثمانين المذكورة، وهو من الملوك المشهورين بعلو الهمة والسعادة والحزم، وتوفي الملك المنصور قلاوون في يوم السبت من شهر ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمئة في دهليزه بمسجد التين، وكان قد خرج على نية الغزاة إلى عكا فعرض له مرض فقضى به نحوه، وعادت العساكر إلى مستقرها واستقر ولده السلطان الملك الأشرف بالمملكة يجمع المعامل والبلاد، ولم ير في الملوك أكثر سعادة منه ولا أعلى همة، ولا أكرم نفسا، ولا أكثر وفاء لمن خدمه ولاذ به.

وفي أيام الملك المنصور فتحت طرابلس الشام يوم الثلاثاء تاسع ربيع

الآخر سنة ثمان وثمانين وستمائة، وكان نازها بنفسه وعساكره، وفتحها قهرا بالسيف، واستولى القتل والأسر والنهب على أهلها، وملك ماجاورها من قلعة جيبيل والبترون وغير ذلك.

ثم إن الملك الأشرف المذكور بعد استقلاله بالملك بمدة يسيرة خرج بنفسه، وجمع عساكره وتوجه إلى عكا فنازها في يوم الخميس ثالث ربيع الآخر، وكان خروجه من مصر في يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأول واجتمع على عكا جميع الناس الجند والمتطوعة وغيرهم من سائر البلاد، ويسر الله فتحها في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى سنة تسعين وستمائة في مثل الساعة من اليوم من الشهر الذي أخذت فيه من المسلمين إلا أن الشهر كان الأولى، وأخذت من المسلمين في أيام صلاح الدين يوسف ابن أيوب في الآخرة سنة ثمان وخمسين، وإن السلطان الملك الأشرف صلاح الدين أخرج أهلها منها وقتلهم جميعا بالسيف، وكذلك عمل الفرنج بالذي كان فيها من المسلمين لما ملكوها في أيام صلاح الدين، فانظروا إلى هذا الاتفاق العجيب في أمور كثيرة، كما أخذت من صلاح الدين ملكها صلاح الدين، وقتل المسلمون بها ثم قتل الكافرون بها، وأخذت من المسلمين ثاني ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، ثم ملكها المسلمون ثاني ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى فسبحان مقدر الأمور، ثم أخوت عزائم الفرنج بأخذ عكا، فهرب من كان ببيروت وعثليت وهما حصنان عظيمان لا تطرق الأوهام إليهما، وملكها المسلمون بحول الله وقوته من غير منازع، وملكوا أيضا بيروت وحيفا، فلم يبق للفرنج من الساحل قلعة ولا بلد ولا قرية ولا جزيرة إلا وملك المسلمون ذلك جميعه.

وتوفي المعظم توران شاه يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم من سنة ثمان وأربعين وستمائة والله تعالى أعلم.

أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي الملقب مغيث الدين أحد الملوك السلجوقية المشاهير

وقد تقدم ذكر والده وجماعة من أهل بيته، وسيأتي ذكر جده وغيره منهم إن شاء الله تعالى، وتقدم طرف من خبره في ترجمة العزيز أبي نصر أحمد بن حامد الأصبهاني عم العماد الكاتب، تولى أبو القاسم المذكور السلطنة بعد وفاة والده، وخطب له بمدينة بغداد على جاري عادة الملوك السلجوقية يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة اثنتي عشرة وخمسمائة في خلافة المستظهر بالله، وهو يومئذ في سن الحلم، وكان متوقدا ذكاء قوي المعرفة بالعربية، حافظاً للأشعار والأمثال، عارفاً بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير، وكان حيص بيص الشاعر المقدم ذكره قد قصده من العراق ومدحه بقصيدته الدالية المشهورة التي أولها:

ألق الحدايج ترعى الضمر القود
طال السرى وتشكت وخدك اليد
ياسارى الليل لاجدب ولا فرق
فالنبت أغيد والسلطان محمود
قيل تألفت الاضداد خيفته
فالمورد الضنك فيه الشاء والسيد

وهي طويلة من غرر القصائد، وأجازه عليها جائزة سنية، وقد كان تزوج بنتي عمه سنجر المقدم ذكره حسبما شرحناه في ترجمة العزيز الأصبهاني، واحدة بعد الأخرى، وكانت السلطنة في أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعي، فدفعوا له يوماً بعض صناديق الخزانة حتى باعها، وصرف ثمنها في حاجته، وكان في آخر مدته قد دخل بغداد ثم خرج منها، فمرض في الطريق واشتد به

المرض وتوفي يوم الخميس خامس شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة
رحمه الله تعالى.

وذكر ابن الأزرقي الفارقي في تاريخه أنه مات خامس عشر شوال سنة
أربع وعشرين بباب أصبهان، ودفن بها، وولي السلطنة أخوه طغرل بك،
ومات سنة سبع وعشرين، وتولى أخوه مسعود وسيأتي ذكره إن شاء الله
تعالى، وابنه محمد شاه بن محمود بن محمد هو الذي حاصر بغداد ومعه
زين الدين أبو الحسن علي بن بكتكين صاحب إربل في سنة اثنتين
 وخمسين وخمسمائة.

وقال شيخنا ابن الاثير في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، قال ذلك في
تاريخه الصغير المعروف بالأتابكي: ومات محمد شاه المذكور في ذي
الحجة سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وتاريخ وفاة زين الدين المذكور
مذكور في ترجمة ولده مظفر الدين صاحب إربل في حرف الكاف، ومات
محمد شاه بباب همذان، ومولده في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين
 وخمسمائة.

أبو القاسم محمود بن عمار الدين زنكي بن آق سنقر الملقب الملك العادل نور الدين

قد تقدم ذكر أبيه في حرف الزاي، ولما حاصر أبوه قلعة جعبر حسبها تقدم ذكره في ترجمته، كان ولده نور الدين المذكور في خدمته، فلما قتل أبوه سار نور الدين وفي خدمته صلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني وعساكر الشام إلى مدينة حلب فملكها في ذلك التاريخ، وملك أخوه سيف الدين غازي المذكور في حرف الغين مدينة الموصل وماوالها من تلك النواحي، ثم إنه نزل على دمشق محاصرا لها وصاحبها يومئذ مجير الدين أبو سعيد أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين، وهو أتابك الملك دقاق بن تتش المقدم ذكره في ترجمة تتش في حرف التاء، وكان نزوله عليها ثالث صفر سنة تسع وأربعين وخمسة، وملكها يوم الأحد تاسع الشهر المذكور وعوض مجير الدين أبق عوضا عن دمشق حمص، ثم أخذها وعوضه عنها بالس فانتقل إليها وأقام بها مدة، ثم قصد بغداد في أيام الإمام المقتفي، وكان أتابكه معين الدين بن عبد الله عتيق جد أبيه ظهير الدين طغتكين هناك أيضا، ثم استولى نور الدين محمود على بقية بلاد الشام من حماة وبلعبك، وهو الذي بنى سورها وماين ذلك، وافتتح من بلاد الروم عدة حصون منها مرعش وبهسنا وتلك الأطراف، وكان فتحه مرعش في ذي القعدة من سنة ثمان وستين وخمسة والبهسنا في ذي الحجة من السنة، وافتتح أيضا من بلاد الفرنج حارم، وكان فتحها في أواخر شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسة، وفتح عزاز وبانياس وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا، ثم سير الأمير أسد الدين شيركوه المقدم ذكره إلى مصر ثلاث دفعات، وملكها السلطان صلاح الدين في الدفعة الثالثة نيابة عنه، وضرب باسمه السكة والخطبة، وهي قضية مشهورة فلا حاجة إلى الإطالة في شرحها، وسيأتي ذلك في ترجمة صلاح الدين إن شاء الله تعالى، وكان ملكا عادلا زاهدا عابدا ورعا مستمسكا بالشرعية مائلا إلى

أهل الخير مجاهدا في سبيل الله تعالى، كثير الصدقات بنى المدارس
بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعليبك
ومنج و الرحبة، وقد تقدم ذلك في ترجمة الشيخ شرف الدين بن أبي
عصرون، وبنى بمدينة الموصل الجامع النوري، ورتب له مايكفيه وبحماة
الجامع الذي على ظهر العاصي، وجامع الرها، وجامع منبج، وبيمارستان
دمشق، ودار الحديث بها أيضا، وله من المناقب والمآثر والمفاخر
مايستغرق الوصف، وكان بينه وبين أبي الحسن سنان بن سليمان بن
محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الاسماعيلية، ومقدم الفرقة
الباطنية بالشام، وإليه تنسب الطائفة السنانية مكاتبات ومحاورات بسبب
المجاورة، فكتب إليه نور الدين في بعض الأزمدة كتابا يتهدده فيه
ويتوعده لسبب اقتضى ذلك، فشق على سنان فكتب جوابه أبياتا ورسالة
وهما:

يا ذا الذي بقرع السيف هددنا
لاقام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البـ ازي يهدده
واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى بأصبعه
يكفيه ما قد تلاقي منه أضبعه

وقفنا على تفاصيله وجمله، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله، فيالله
العجب من ذبابة تطن في أذن فيل، وبعوضة تعد في التماثيل، ولقد قالها
من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين، أو للحق
يدحضون، وللباطل تنصرون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)
وأما ما صدر من قولك في قطع رأسي، وقلعك لقلاعي من الجبال
الرواسي، فتلك أماني كاذبة، وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزول
بالاعراض، كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض، كم بين قوي وضعيف،
ودني وشريف، وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن

والمعقولات، فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «ما أؤذي نبي ما أؤذيت» ولقد علمتم ماجرى على عترته، وأهل بيته وشيعته، والحال ماحال، والأمر مازال والله الحمد في الأولى والآخرة إذ نحن مظلومون لا ظالمون، ومغصوبون لا غاصبون، وإذا جاء الحق (زهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) ولقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفية رجالنا، وما يتمنونه من الفوت، ويتقربون به إلى حياض الموت قل (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) ولن يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) وفي أمثال العامة السائرة: أو للبط تهددون بالشط، فهيء للبلايا جلباباً، وتدرع للرزايا أثواباً، فلا تظهرن عليك منك، ولأغنيهم فيك عنك، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه، «وما ذلك على الله بعزيز» وهذه الرسالة نقلت من خط القاضي الفاضل على هذه الصورة، ورأيت في نسخة زيادة على هذا وهي: «إذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد، ومن حالك على اقتصاد، وأقرأ أول النحل، وآخر صاد» والصحيح أنه كتبها إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والله أعلم، ورأيت في بعض النسخ زيادة بيت في أول الأبيات الثلاثة وهو:

يا للرجال لأمر هال مفظعه

ما مر قط على سمعي توقعه

وكتب سنان المذكور مرة أخرى إليه وقد جرت بينهما وحشة:

بنانلت هذا الملك حتى تأللت

بيوتك فيهما واشمخر عمودها

فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى

مغارسها منا وفيها حديدنا

وبالجملة فإن محاسن نور الدين كثيرة، وكانت ولادته يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة بقلعة دمشق بعلّة

الخوانيق، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، ودفن في بيت بالقلعة كان يلزم الجلوس فيه والمبيت أيضاً، ثم نقل إلى تربته بمدرسته التي أنشأها عند باب سوق الخواصين، وسمعت من جماعة من أهل دمشق يقولون إن الدعاء عند قبره مستجاب ولقد جربت ذلك فصبح رحمه الله تعالى.

وكان أسمر اللون، طويل القامة، حسن الصورة، وليس بوجهه شعر سوى ذقنه، وكان قد عهد بالملك إلى ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة، فقام بالأمر من بعده وانتقل من دمشق إلى حلب، ودخل قلعتها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة سبعين وخمسة، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ولم يبق عليه سوى مدينة حلب، ولم يزل الصالح بها إلى أن توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسة، ذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة والله أعلم .

وكان مبدأ مرضه في تاسع شهر رجب من السنة المذكورة، وحدث له قولنج في مستهل جمادى الأولى، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس، وتأسفوا عليه لأنه كان محسناً محمود السيرة ودفن في المقام الذي في القلعة، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة، وهو مشهور هناك، رحمه الله تعالى.

وتوفي مجير الدين أبق المذكور في سنة أربع وستين وخمسة ببغداد، ودفن في داره، كذا وجدته في بعض المسودات التي بخطي ، والله أعلم ، ومولده يوم الجمعة ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسة ببعلبك، والله تعالى أعلم.

أبو الفتح وأبو المظفر مسعود بن قطب الدين مودود بن
عماد الدين زنكي بن أبق سنقر أتابك صاحب الموصل
الملقب عز الدين

قد تقدم خبر جده وجد أبيه وخبر ولده نور الدين أرسلان شاه وغيرهم من أهل بيته، وسيأتي ذكر أبيه في هذا الحرف إن شاء الله تعالى، ولما توفي والده قام بالملك ولده سيف الدين غازي المقدم ذكره لأنه كان أكبر الأخوة، وكان قد خلف هذين الولدين وعماد الدين زنكي صاحب سنجار المذكور عقيب ترجمة جده عماد الدين زنكي، وكان عز الدين المذكور مقدم الجيوش في أيام أخيه غازي، ولما خرج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية بعد وفاة الملك العادل نور الدين محمود المقدم ذكره، وأخذ دمشق، وتقدم إلى حلب وحاصرها فخاف غازي منه، وعلم أنه قد استفحل أمره، وعظم شأنه، واستشعر أنه متى استحوذ على الشام تعدى الأمر إليه، فجهز جيشاً عظيماً، وقدم عز الدين مسعود المذكور، وسار يريد لقاء السلطان وضرب المصاف معه ليرده عن البلاد، فلما بلغ السلطان خروجه رحل عن حلب وذلك في مستهل رجب الفرد سنة سبعين وخمسة، وسار إلى حمص وأخذ قلعتها، وكان قد أخذ البلاد في جمادى الأولى من السنة المذكورة بعد خروجه من دمشق قاصداً حلب، ووصل عز الدين مسعود إلى حلب لينجد ابن عمه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صاحب حلب هذا ماكان في الصورة الظاهرة، وفي الباطن كان غرضهم ماذكرناه من خوفهم على بلادهم، فانضم إلى عز الدين مسعود عسكر حلب، وخرج في جمع كثير، ولما عرف السلطان مسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حماة وراسلهم وراسلوه واجتهد في أن يصالحوه فلم يفعلوا، ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به الغرض الأكبر، والمقصود الأوفر، وألقضاء يجر إلى أمور لايشعرون بها، فقام المصاف بين العسكرين، وقضى الله تعالى أن انكسر جيش عز الدين وأسر السلطان جماعة من أمرائه، ثم أطلقهم وذلك يوم الأحد التاسع

عشر من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وهذه الواقعة من الوقائع المشهورة، ثم سار السلطان عقيب الكسرة إلى حلب ونزل عليها وهي الدفعة الثانية، فصالحه الملك الصالح اسماعيل على أخذ المعرة وكفر طاب وبارين، ثم رحل عنها، وشرح ذلك يطول، وتتمه هذه القضية مذكورة في ترجمة أخيه سيف الدين غازي.

ولما توفي أخوه سيف الدين في التاريخ المذكور في ترجمته استقل عز الدين المذكور بالملك من بعده، ولم يزل إلى أن حضرت الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الوفاة في التاريخ المذكور في ترجمة أبيه نور الدين، فأوصى بمملكة حلب وما معها لابن عمه عز الدين مسعود المذكور، واستحلف له الأمراء والأجناد، فلما توفي وبلغ الخبر عز الدين مسعود بادر متوجها إليها خوفا من صلاح الدين أن يسبقه في أخذها، وكان وصوله إليها في العشرين من شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وصعد القلعة واستولى على ما بها من الخزائن والحواصل، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة وأقام إلى سادس عشر شوال، ثم علم إنه لا يمكنه حفظ الشام والموصل، وخاف من جانب صلاح الدين، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات وتبسطوا عليه في المطالب، وضاق عنهم عطنه، وكان المستولي على أمره مجاهد الدين قايازالزيني المقدم ذكره في حرف القاف، فرحل عن حلب وخلف بها مظفر الدين ولده، ومظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل المذكور في حرف الكاف، ولما وصل إلى الرقة لقيه بها أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار فقرر معه مقايضة حلب بسنجار، وتحالفا على ذلك وسير عماد الدين من يتسلم حلب، وسير عز الدين من يتسلم سنجار، وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة صعد عماد الدين إلى قلعة حلب، وكان قد تقرر الصلح بين عز الدين المذكور وابن عمه الملك الصالح وبين صلاح الدين على يد قليج أرسلان صاحب الروم، وصعد السلطان صلاح الدين إلى الديار المصرية واستتاب بدمشق ابن أخيه عز

الدين فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب، فلما بلغه خبر وفاة الملك الصالح وهذه الأمور المتجددة عاد إلى الشام، وكان وصوله إلى دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين، وبلغه بها أن رسول عز الدين مسعود وصل إلى الفرنج يحثهم على قتال السلطان ويبيعهم على قصده، فعلم أنه قد غدر به ونكث اليمين، فعزم على قصد حلب والموصل، وأخذ في التأهب للحرب، فبلغ عماد الدين صاحب حلب ذلك فسير إلى أخيه صاحب الموصل يعلمه ذلك ويستدعي منه العساكر، فسار السلطان صلاح الدين من دمشق ونزل على حلب في ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وأقام عليها ثلاثة أيام ثم رحل في الحادي والعشرين من الشهر، ثم جاء مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، وكان يوم ذلك في خدمة صاحب الموصل وهو صاحب حران، وكان قد استوحش من عز الدين مسعود صاحب الموصل، وخاف من مجاهد الدين قايمار الزيني المذكور في حرف القاف، فالتجأ إلى السلطان صلاح الدين، وقطع الفرات وعبر إليه وقوى عزمه على قصد بلاد الجزيرة وسهل أمرها عليه، فعبر السلطان صلاح الدين الفرات، وأخذ الرها والرقه ونصيبين وسروج، ثم أشحن على بلاد الخابور وأقطعها، فأقام أياماً وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة، وأن طريق أخذه أخذ قلاعه وبلاده وإضعاف أهله على طول الزمان، فرحل عنها ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان من السنة وأخذها في شهر رمضان المعظم، وأعطاه لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر المقدم ذكره، وشرح ذلك يطول، وخلاصة الأمر أنه رجع إلى الشام، فكان وصوله إلى حران في أول ذي القعدة، ثم عاد إلى منازل الموصل وكان وصوله إليها في أول شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين، ونزلت إليه والدته عز الدين ومعها جماعة من نساء بني أتابك وابنة نور الدين أرسلان شاه بن مسعود، وقد سبق ذكره في حرف الهمزة، وطلبت منه المصالحة فردها خائبة ظناً منه إلى أن عز الدين أرسلها عجزاً عن

حفظ الموصل، واعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك، وبذل أهل الموصل نفوسهم في القتال لكونه رد النساء والولد بالخيبة، فأقام عليها إلى أن أتاه خبر وفاة شاه أرمن ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سكران القطبي صاحب خلاط وقيام مملوكه بكتمر بالأمر من بعده، وطمع فيه من جاوره من الملوك وعزموا على قصده فسير إلى السلطان وأطعمه في خلاط، وقرر معه تسليمها إليه وأن يعوضه عنها ما يرضيه، وكانت وفاة شاه أرمن يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، فرحل السلطان صلاح الدين عن الموصل لهذا السبب في العشرين من الشهر المذكور، وتوجه نحو خلاط في مقدمته مظفر الدين، فنزلوا بالطوابة البليدة التي هي بالقرب من خلاط، وسير الرسل إلى بكتمر لتقرير القاعدة فوصلت الرسل إليه وشمس الدين بهلوان بن الدكر صاحب أذربيجان وأران وعراق العجم قد قرب من خلاط ليحاصرها، فبعث إليه بكتمر يعرفه أنه إن لم يرجع عنه وإلا سلم البلاد إلى السلطان صلاح الدين فصالحه وزوجه ابنته ورجع عنه، وسير بكتمر إلى السلطان صلاح الدين يعتذر عما قاله من تسليم خلاط، وكان السلطان قد نزل على ميافارقين يحاصرها فقاتلها قتالا شديدا، ثم أخذها عن صلح بالخديعة في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة، وكان صاحبها قطب الدين غازي بن ألبي بن تمرش بن غازي بن أرتق، فمات وتركها لولده حسام الدين يولق أرسلان وهو طفل صغير فطمع في أخذها من واليها، فأخذها ولما أيس السلطان من خلاط عاد إلى الموصل وهي الدفعة الثالثة، ونزل بعيدا عنها، بموضع يقال له كفر زمار، فأقام به مدة، وكان الحر شديدا فمرض السلطان مرضا شديدا أشفى على الموت، فرحل طالبا حران في مستهل شوال من السنة، ولما علم عز الدين مسعود المذكور بمرض السلطان وأنه رقيق القلب انتهز الفرصة وسير القاضي بهاء الدين بن شداد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الياء، ومعه بهاء الدين الريب فوصلا إلى حران في الرسالة والتماس الصلح،

فأجاب إلى ذلك، وحلف يوم عرفة من السنة، وقد تماثل الصحة ولم يتغير عن تلك اليمين إلى أن مات رحمه الله تعالى، ثم رحل إلى الشام فأمن حيثئذ عز الدين مسعود، وطابت نفسه، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة بعلّة الاسهال، وكان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة وقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية فدفن بهذه المدرسة في تربة هي داخلها رحمه الله تعالى، ورأيت المدرسة والتربة وهي من أحسن المدارس والترب، ومدرسة ولده نور الدين أرسلان شاه في قبالتها وبينهما ساحة كبيرة، ولما مات خلف ولده نور الدين المذكور، وقد تقدم ذكره في حرف الهمزة، ولما مات نور الدين في التاريخ المذكور في ترجمته خلف ولدين: أحدهما الملك القاهر عز الدين مسعود، والآخر المنصور عماد الدين زنكي، ولما حضرته الوفاة قسم البلاد بينهما فأعطى الملك القاهر، وهو الأكبر الموصل وأعمالها، وأعطى عماد الدين العمادية والعقر وتلك النواحي، فأما الملك القاهر، فكانت ولادته في سنة تسعين وخمسمائة بالموصل، وتوفي بها فجأة يوم الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وستائة، وكان قد بنى مدرسة أيضا فدفن بها، وأما عماد الدين فإنه أخذ بعد موت أخيه الملك القاهر قلعة العمادية، ثم أخذت منه وهي من أحسن القلاع بجبل الهكارية من أعمال الموصل، وكذلك عدة قلاع مما يجاورها، وانتقل إلى إربل، وكان زوج ابنة مظفر الدين صاحب إربل، فأقام بها زمانا وكنا في جواره، وكان من أحسن الناس صورة، ثم قبض عليه مظفر الدين لأمر يطول شرحه، وسيره إلى سنجار إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فأفرج عنه الملك الأشرف، وعاد إلى إربل وقايبه مظفر الدين عن العقر بشهرزور وأعمالها، فانتقل إليها وأقام بها إلى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وستائة، وخلف ولدا أقام بعده قليلا ثم مات رحمه الله تعالى، ولما مات عز الدين مسعود بن أرسلان شاه خلف ولدين: نور الدين أرسلان شاه، وكان سمي عليا في حياة جده

أرسلان شاه، فلما مات جده نور الدين سموه باسمه، وناصر الدين محمود فتولى بعده نور الدين المذكور وكان تقدير عمره عشر سنين، وبقي بعد أبيه قليلا، وتوفي في بقية السنة، وتولى أخوه بعده ناصر الدين محمود، والمدير لأمر المملكة بدر الدين لؤلؤ الذي ملك الموصل فيما بعد، وتوفي بهلوان بن الدكر المذكور في سلخ ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتوفي والده شمس الدين الدكر الأتابك في أواخر شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتوفي والده شمس الدين الدكر الأتابك في أواخر شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة بنقجوان، ودفن بها رحمه الله تعالى، وكان أتابك السلطان أرسلان شاه بن طغرل بك بن محمد بن ملكشاه بن محمد السلجوقي، وبعد الدكر بمقدار شهر توفي أرسلان شاه المذكور بهمدان رحمه الله تعالى، وقتل قزل بن الدكر المذكور في أوائل شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وكان ملكا كبيرا وهو ابن الدكر المذكور، رحمه الله تعالى أجمعين، والله تعالى أعلم بالصواب.

أبو علي المنصور الملقب الأمر بأحكام الله بن المستعلي ابن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي المذكور قبله .

وقد تقدم بقية نسبه، وذكر والده في الأحمدين في حرف الهمزة، وبويع الأمر بالولاية يوم مات أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته، وأقام بتدبير دولته الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش المذكور في حرف الشين، وكان وزير والده، وقد ذكرنا في ترجمته طرفاً من أخبار الأمير المذكور، ولما اشتد الأمر وفطن لنفسه قتل الأفضل حسبها تقدم شرحه، واستوزر المأمون أبا عبد الله محمد بن أبي شجاع فاتك البطائحي، فاستولى هذا الوزير عليه وقبح سمعته وأساء سيرته، ولما كثر ذلك منه قبض عليه الأمر أيضاً ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة، واستصفى جميع أمواله، ثم قتله في رجب سنة إحدى وعشرين ووصلب بظاهر القاهرة وقتل معه خمسة من أخوته أحدهم يقال له المؤمن، وكان متكبراً متجبراً خارجاً عن طوره وله أخبار مشهورة، وكان الأمر سيء الرأي جائر السيرة مستهتراً متظاهراً باللهو واللعب.

وفي أيامه أخذ الفرنج مدينة عكا في شعبان سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وأخذوا طرابلس الشام بالسيف يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة، وكان أخذهم لها بالسيف ونهبوا مافيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها وكتب دار علمها وماكان في خزائن أربابها مالا يحصى ولا يحصى، وعوقب من بقي من أهلها واستصفيت أموالهم، ثم وصلتها نجدة المصريين بعد فوات الأمر فيها، وفي هذه السنة ملكوا عرقة، وكان نزولهم عليها أول شعبان من السنة المذكورة، وفيها ملكوا بانياس وفيها تسلموا جبلة بالأمان وتسلموا قلعة تبين يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، ثم تسلموا مدينة صور يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وكان الوالي بها

من جهة الأتابك ظهير الدين طغتكين المذكور في حرف التاء في ترجمة
تنش بن ألب أرسلان، وكان يومئذ صاحب دمشق وماوالاها، ولما ملكوا
صور ضربوا السكة باسم الأمر المذكور مدة ثلاث سنين، ثم قطعوا
ذلك، وأخذوا بيروت يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ثلاث
 وخمسة بالسيف، وأخذوا صيدا لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربع
 وخمسة.

وفي أيام الأمر أيضا سنة أربع وخمسة وقيل سنة إحدى عشرة والله
أعلم قصد بردويل الفرنجي الديار المصرية ليأخذها، وانتهى إلى الفرما
 ودخلها وأحرقها وأحرق جامعها ومساجدها، ورحل عنها وهو مريض،
 فهلك في الطريق قبل وصوله إلى العريش، فشق أصحابه بطنه، ورموا
 حشوته هناك، فهي ترجم إلى اليوم، ورحلوا بجثته فدفنوها بقمامة،
 وسبخة بردويل التي في وسط الرمل على طريق الشام منسوبة إلى بردويل
 المذكور والحجارة الملقاة هناك والناس يقولون هذا قبر بردويل إنما هي
 هذه الحشوة، وكان بردويل صاحب بيت المقدس وعكا ويافا وعدة بلاد
 من ساحل الشام، وهو الذي أخذ هذه البلاد المذكورة من المسلمين.

وفي هذه السنة أيضا خرج المهدي محمد بن تومرت المقدم ذكره من
 مصر، وصاحبها الأمر المذكور إلى بلاد المغرب في زي الفقهاء، وجرى له
 هناك ماسبق شرحه في ترجمته.

وكانت ولادة الأمر يوم الثلاثاء ثالث عشر محرم سنة تسعين وأربعمائة
 بالقاهرة، وتولى وعمره خمس سنين، ولما انقضت أيامه خرج من القاهرة
 صبيحة يوم الثلاثاء ثالث ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسة، ونزل إلى
 مصر وعدى على جسر الجزيرة التي قبالة مصر، فكمن له قوم بالأسلحة
 وتواعدوا على قتله في السكة التي يمر فيها إلى فرن هناك، فلما مر بهم
 وثبوا عليه فلعبوا عليه بأسيا فهم، وكان قد جاوز الجسر وحده مع عدة

قليلة من غلمانہ وبطانتہ وخاصتہ وشيعتہ، فحمل في النيل في زورق، ولم يمت وأدخل القاهرة وهو حي وجيء به إلى القصر فمات من ليلته، ولم يعقب، وهو العاشر من أولاد المهدي عبيد الله القائم بسجلهاسه المقدم ذكره، وانتقل الأمر إلى ابن عمه الحافظ عبد المجيد المقدم ذكره رحمهم الله تعالى.

وكان قبيح السيرة ظالماً للناس يأخذ أموالهم ويسفك دمائهم، وارتكب المحظورات، واستحسن القبائح فابتهج الناس بقتله، وكان ربعة شديد الأدمة جاحظ العينين حسن الخط والمعرفة والعقل، وأما المأمون ابن البطائحي الوزير المذكور فهو الذي بنى الجامع الأحمر بالقاهرة سنة خمس عشرة وخمسمائة، وكان الأفضل ابن أمير الجيوش قد شرع في عمارة جامع النيل بظاهر مصر عند الرصد المطل على بركة الحبش في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، ولم يكمله فأكملة المأمون بعده في مدة وزارته والله أعلم.

قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر المعروف بالأعرج صاحب الموصل.

وقد تقدم ذكر طرف من خبره في ترجمة أخيه نور الدين محمود صاحب الشام، وذكر أولاده الثلاثة وهم سيف الدين غازي الذي تولى السلطنة بعده، وعز الدين مسعود وعماد الدين زنكي صاحب سنجار، واستوعبت في ترجمة غازي ماجرى من نور الدين عقيب موت قطب الدين، وأنه قصد الموصل، ثم قرر أمر غازي المذكور فيها ورتب أحوال أولاد أخيه كلهم، وفي تلك السفرة بنى نور الدين الجامع النوري داخل الموصل، وهو مشهور هناك تقام فيه الجمعة، وكان سبب عمارته ما حكاه العماد الأصبهاني في البرق الشامي عند ذكره لوصول نور الدين إلى الموصل أنه كان بالموصل خربة متوسطة البلد واسعة، وقد أشاعوا عنها ما ينفر القلوب منها وقالوا: ما شرع في عمارتها إلا من ذهب عمره، ولم يتم على مراده أمره فأشار عليه الشيخ الزاهد معين الدولة عمر الملاء وكان من كبار الصالحين بابتناء الخبرة، وبنى بها جامعا وأنفق فيها أموالا جزية، ووقف على الجامع ضيعة من ضياع الموصل، وكان قطب الدين قد تولى السلطنة بالموصل وتلك البلاد عقيب موت أخيه سيف الدين غازي الأكبر المقدم ذكره أيضا، وكان حسن السيرة عادلا في حكمه، وفي دولته عظم شأن جمال الدين محمد الوزير الأصبهاني المعروف بالجواد المقدم ذكره، وهو الذي قبض عليه حسبا سبق شرحه، وكان مدبر دولته وصاحب رأيه الأمير زين الدين علي كجك، والد مظفر الدين صاحب إربل، وكان نعم المدبر والمشير لصلاحه وخيره وحسن مقاصده، مع شجاعة تامة وفروسية مشهورة، وقد تقدم أيضا ذكره في ترجمة ولده مظفر الدين في حرف الكاف، ولم يزل قطب الدين المذكور على سلطنته ونفاذ كلمته إلى أن توفي في شوال سنة خمس وستين وخمسمائة وقيل في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة.

وذكر أسامة بن منقذ في كتاب له صغير ذكر فيه من أدركه في عمره من ملوك البلاد أن قطب الدين المذكور توفي سلخ شهر ربيع الآخر، سنة ست وستين وخمسمائة، وليس بصحيح فإن أخاه نور الدين كان بالموصل في شهر ربيع الآخر، وجاءته رسل الخليفة وهو نخيم على الموصل في الشهر المذكور، ولم يتوجه نور الدين إليها إلا بعد وفاة أخيه قطب الدين، وكانت وفاته بالموصل ومدة عمره أكثر من أربعين سنة بقليل، وخلف عدة أولادة وأكثرهم ملك البلاد، وقد تقدم ذكر أبيه وجده وجماعة من أهل بيته رحمهم الله كلهم.

أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر ابن أيوب الملقب الملك الأشرف مظفر الدين

أول شيء ملكه من البلاد مدينة الرها سيره إليها والده من الديار المصرية في سنة ثمان وتسعين وخمسة، ثم أضيفت إليه حران، وكان محبوباً إلى الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب من يومه لقي نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل المذكور في حرف الهمة، وكان يوم ذاك من الملوك المشاهير الكبار وتواقعا في مصاف فكسره، وذلك في سنة ستمائة وهي وقعة مشهورة، فلا حاجة إلى تفصيلها، ولما توفي أخوه الملك الأوحـد نجم الدين أيوب صاحب خلاط وميا فارقين وتلك النواحي، أخذ الملك الأشرف مملكته مضافة إلى ملكه، وذلك في سنة تسع وستمائة، وكان الملك الأوحـد قد ملك خلاط في سنة أربع وستمائة، فاتسعت حينئذ مملكته وبسط العدل على الناس وأحسن إليهم إحساناً لم يعهدوه ممن كان قبله، وعظم وقعه في قلوب الناس وبعد صيته، وكان قد ملك نصيبين الشرق في سنة ست وستمائة، وأخذ سنجار سنة سبع، وكذلك الحابور، وملك معظم بلاد الجزيرة، وكان يتنقل فيها، وأكثر إقامته بالركة لكونها على الفرات.

ولما مات ابن عمه الملك الظاهر صاحب حلب في التاريخ المذكور في ترجمته في حرف الغين عزم عز الدين كيكاوس صاحب الروم على حلب، فسير أرباب الأمر بحلب إلى الملك الأشرف وسأله الوصول إليهم لحفظ البلد فأجابهم إلى سؤالهم وتوجه إليهم، وأقام بالياروقية بظاهر حلب مدة ثلاث سنين، وجرت له مع صاحب الروم وابن عمه الملك الأفضل صاحب سميساط وقائع مشهورة لاحاجة إلى الإطالة في شرحها، ولما أخذت الفرنج دمياط في سنة ست عشرة وستمائة حسبما شرحناه في ترجمة الملك الكامل توجهت جماعة من ملوك الشام إلى الديار المصرية لانجاء الملك الكامل، وتأخر عنه الملك الأشرف لمنافرة كانت بينهما، فجاءه

أخوه الملك المعظم المقدم ذكره في حرف العين بنفسه وأرضاه، ولم يزل يلاطفه حتى استصحبه معه فصادف عقيب وصوله إليها انتصار المسلمين على الفرنج وانتزاع دمياط من أيديهم، وكانوا يرون ذلك بسبب من غرته.

ولما مات الملك المعظم في التاريخ المذكور في ترجمته، قام بالأمر من بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، فقصد عمة الملك الكامل من الديار المصرية ليأخذ دمشق منه، فاستنجد بعمه الملك الأشرف، وكان يومئذ ببلاد المشرق، فوصل إليه واجتمع به بدمشق، ثم خرج منها متوجهاً إلى أخيه الملك الكامل واجتمع به، وجرى الاتفاق بينهما على أخذ دمشق من الملك الناصر وتسليمها إلى الملك الأشرف، ويبقى للملك الناصر الكرك والشوبك ونابلس وبيسان وتلك النواحي، وينزل الملك الأشرف عن حران والرها وسروج والرقه ورأس عين ويسلمها إلى الملك الكامل، فاستتب الحال على ذلك، وتسلم الملك الأشرف دمشق لاستقبال رجب سنة ست وعشرين وستمائة، وانتقل الملك الكامل إلى بلاده التي تسلمها بالشرق ليكشف أحوالها ويرتب أمورها، واجتازت في التاريخ المذكور بحران وهو بها، وانتقل الأشرف إلى دمشق واتخذها دار إقامة وأعرض عن بقية البلاد، ونزل جلال الدين خوارزم شاه على خلاط وحاصرها وضايقها أشد مضايقة وأخذها في سنة ست وعشرين من نواب الملك الأشرف، وهو مقيم بدمشق، ولم يمكنه في ذلك الوقت قصدها للدفع عنها لاعتذار كانت له، ثم عقيب ذلك دخل إلى بلاد الروم بالاتفاق مع سلطانها علاء الدين كيخباد أخي عز الدين كيكاوس المذكور، وتظاهرا على قصد خوارزم شاه، وضرب المصاف معه، فإن صاحب الروم أيضاً كان يخاف على بلاده منه لكونه مجاوره، فتوجه نحوها في جيش عظيم من جهة الشام والشرق في خدمة الملك الأشرف وعسكر صاحب الروم، والتقوا بين خلاط وأرزنكان بموضع يقال له باسى حمارة في يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة،

وانكسر خوارزم شاه وهي وقعة مشهورة، وعادت خلاط إلى الملك الأشرف وقد خربت، ثم رجع إلى الشام وتوجه إلى الديار المصرية وأقام عند أخيه الملك الكامل مدة، ثم خرج في خدمته قاصدين آمد، ونزلوا عليها وفتحوها في مدة يسيرة، وذلك في سنة تسع وعشرين وستمائة، وأضافها الملك الكامل إلى مملكته ببلاد الشرق، ورتب فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب المذكور في ترجمة والده، وفي خدمته الطواشي شمس الدين رضوان الخادم العادي ثم عاد كل واحد إلى بلاده، ثم كانت واقعة ببلاد الروم وهي مشهورة، ورجع الكامل والأشرف ومن معهما من الملوك بغير حصول مقصود، ولما رجعا خرج عسكر صاحب الروم على بلاد الكامل بالشرق فأخذها وأخربها، ثم عاد الكامل والأشرف وأتباعهما ومن معهما من الملوك إلى بلاد الشرق واستنقذوها من نواب صاحب الروم، ثم رجعوا إلى دمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكنت يومئذ بدمشق في تلك السفرة، ورأيت الكامل والأشرف وكانا يركبان معا ويلعبان بالكرة بالميدان الأخضر الكبير كل يوم، وكان شهر رمضان، وكانا يقصدان بذلك تعبير النهار لأجل الصوم، ولقد كنت أرى من تأدب كل واحد منهما مع الآخر شيئاً كثيراً، ثم وقعت بينهما وحشة، وخرج الأشرف عن طاعة الكامل، ووافقته الملوك بأسرها، وتعاهد هو وصاحب الروم وصاحب حلب وصاحب حماه وصاحب حمص وأصحاب الشرق على الخروج على الملك الكامل، ولم يبق مع الملك الكامل سوى ابن أخيه الملك الناصر صاحب الكرك فإنه توجه إلى خدمته بالديار المصرية، فلما تحالفوا وتحزبوا واتفقوا على الخروج على الملك الكامل، مرض الملك الأشرف مرضاً شديداً وتوفي يوم الخميس رابع المحرم سنة خمس وثلاثين وستمائة بدمشق ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى التربة التي أنشئت له بالكلاسة في الجانب الشمالي من جامع دمشق.

وكانت ولادته سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالديار المصرية بالقاهرة، وقيل بقلعة الكرك رحمه الله تعالى، هذه خلاصة أحواله، وكان سلطاناً

كريباً حليماً واسع الصدر كريم الاخلاق، كثير العطاء لا يوجد في خزائنه
شيء من المال مع اتساع مملكته، ولا تزال عليه الديون للتجار وغيرهم،
ولقد رأى يوماً في دواة كاتبه وشاعره الكمال أبي الحسن علي بن محمد
المعروف بابن النبيه المصري قلماً واحداً فأنكر عليه ذلك، فأنشده في
الحال دوبيت

قال الملك الأشرف قـولاً رشداً
أقلامك يا كمال قلت عدداً
جاوبت لعظم كتب ما تطلقه
تحفى فتقط فهى تنفى أبداً

وطرب ليلة في مجلس أنسه على بعض الملاحى، فقال لصاحب الملهى:
تمن على، فقال تمنيت مدينة خلاط فأعطاه، وكان نائبه بها الأمير حسام
الدين المعروف بالحاجب علي بن حماد الموصلى، فتوجه ذلك الشخص
إليه ليتسلمها منه فعوضه الحاجب عنها جملة كثيرة من المال وصالحه
عنها، وكان له في ذلك غرائب، وكان يميل إلى أهل الخير والصلاح،
ويحسن الاعتقاد فيهم، وبنى بدمشق دار حديث فوَّض تدريسها إلى
الشيخ تقي الدين عثمان المعروف بابن الصلاح المقدم ذكره.

وكان بالعقبة ظاهر دمشق خان يعرف بابن الزنجاري قد جمع أنواع
أسباب الملاذ، ويجرى فيه من الفسوق والفجور ومالاً يحد ولا يوصف،
فقليل له عنه إن مثل هذا لا يليق أن يكون في بلاد المسلمين فهدمه
وعمره مسجداً جامعاً غرم عليه جملة مستكثرة، وسماه الناس جامع
التوبة، كأنه تاب إلى الله تعالى وأتاب مما كان فيه، وجرت في خطابه
نكتة لطيفة أحببت ذكرها وهي أنه كان بمدرسة ست الشام التي خارج
البلد إمام يعرف بالجمال البستي، أعرفه شيخاً حسناً، ويقال كان في صباه
يلعب بشيء من الملاحى، وهي التي تسمى الجفانة، ولما كبر حسنت
طريقته، وعاشر العلماء وأهل الصلاح حتى صار معدوداً في الاخيار، فلما

احتاج الجامع المذكور إلى خطيب ذكر للملك الأشرف جماعة وشكر
الجمال المذكور، فتولى خطابته، فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي
الواعظ، وكان يتهم باستعمال الشراب، وكان صاحب دمشق يومئذ
الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب، فكتب إليه
الجمال عبد الرحيم المعروف بابن زوتينية الرحبي أبياتاً وهي:

يا ملىكاً أوضح الحـ
ق لـدينا وأبـانه
جامع التوبة قد
قلـدي منه أمـانه
قال قل للملك الصا
لـح أعلى الله شـانه
يا عماد الدين يا من
حمد الناس زمـانه
كم إلى كم أنـافي
ضر وبـؤس وإهـانه
لي خطيب واسطـي
يعشق الشرب ديـانه
والذي قد كان من قبـ
ل يغني بيـانه
فكـما نحن فـما زلـ
نـا ولا أبـرح حـانه
ردني للنمـط الأ
ول واستبـق ضـانه

وهذه الأبيات في بابها في غاية الظرف، وكان الرحبي المذكور قد
وصل إلى الديار المصرية في رسالة من عند صاحب حمص، وأنشدني
هذه الأبيات وحكى السبب الحامل عليها، وذلك في بعض شهور سنة
سبع وأربعين وستمائة.

ومدح الملك الأشرف أعيان شعراء عصره وخلدوا مدائحه في
دواوينهم، فمنهم شرف الدين محمد بن عنين وقد سبق ذكره، والبهاء
أحمد النجار وقد سبق ذكره أيضاً والشرف راجح الحلبي، وقد ذكرته في
ترجمة الملك الظاهر، والكمال بن النبيه المذكور، وكانت وفاته سنة تسع
عشرة وستمائة بمدينة نصيبين الشرق، وعمره تقديراً مقدار ستين سنة،
كذا أخبرني صهره بالقاهرة، والمهذب محمد بن أبي الحسين بن يمن بن
علي بن أحمد بن محمد بن عثمان بن عبد الحميد الأنصاري، المعروف
بابن الاردخل الموصلي الشاعر المشهور، ومولده سنة سبع وسبعين
 وخمسمائة بالموصل، وتوفي في شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وستمائة
بميفارقين رحمه الله تعالى.

ياروق بن أرسلان التركماني

كان متقدماً جليل القدر في قومه، وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخلقة هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبليّة، وبني على شاطئ قويق فوق تل مرتفع هو وأهله وأتباعه أبنية كثيرة مرتفعة وعمائر متسعة، وتعرف الآن بالياروقية، وهي شبه القرية وسكنها هو ومن معه وهي إلى اليوم معمورة مسكونة أهلة يتردد إليها أهل حلب في أيام الربيع، ويتنزهون هناك في الخضرة على قويق وهو موضع كثير الانشراح والأنس، وتوفي ياروق المذكور في المحرم عام أربع وستين وخمسمائة رحمه الله تعالى، هكذا ذكره بهاء الدين المعروف بابن شداد في سيرة السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى.

وياروق بفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء مضمومة، ثم واوساكنة، وفي الآخر قاف، وقويق بضم القاف وفتح الواو. وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها قاف، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع، وينقطع في الصيف وقد ذكرته الشعراء في أشعارهم كثيراً خصوصاً أبا عبادة البحتري فإنه كرر ذكره في عدة قصائد فمن ذلك قوله في جملة قصيدة:

يابرق أسفر عن قويق فطرق
حلب فأعلى القصر من بطيئاس
عن منبت الورد المعصر صبغة
في كل ناحية ومحبنى الآس
أرض إذا استوحشت ثم أيتها
حشدت عليّ فاكثرت ايناسي^(٤)

وبطيئاس بفتح الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها، وبعد الألف سين مهملة، وهي قرية كانت بظاهر حلب،

ودثرت، ولم يبق لها اليوم أثر، وكان صالح بن علي بن عبد الله بن عباس
ابن عبد المطلب رضي الله عنهم قد بنى بها قصراً، وسكنه هو وبنوه وهو
بين النيرب والصالحية وهما قريتان في شرق حلب، وكان القصر على
الرابية المشرفة على النيرب، ولم يبق منه في هذا الزمان سوى آثار دارسة،
هكذا وجدته مضبوطاً بخط بعض الفضلاء من أهل حلب، والله تعالى
أعلم .

أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد
ابن عتاب الأسدي قاضي حلب المعروف بابن شداد
الملقب ببهاء الدين الفقيه الشافعي

توفي أبوه وهو صغير السن، فنشأ عند أخواله بني شداد فنسب إليهم، وكان شداد جده لأمه، وكان يكنى أولاً أبا العز، ثم غير كنيته وجعلها أبا المحاسن كما ذكرته، ولد بالموصل ليلة العاشر من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وحفظ بها القرآن الكريم في صغره، ثم قدم الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي المقدم ذكره إلى الموصل فلازمه، وقرأ عليه بالطرق السبع، وأتقن عليه القراءات

قال أبو المحاسن المذكور في بعض تواليفه، أول من أخذت عنه شيخني الحافظ ضياء الدين أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي، رحمه الله تعالى، فإني لازمت القراءة عليه إحدى عشرة سنة، فقرأت عليه معظم ما رواه من كتب القراءات وقراءة القرآن العظيم ورواية الحديث وشروحه والتفسير، حتى كتب لي خطه بذلك وشهد لي بأنه ماقراً عليه أحد أكثر مما قرأت، وعندني خطه بجميع ما قرأته عليه في قريب من كراسين، وفهرست ما رواه جميعه عندي، وأنا أرويه عنه ومما يشتمل عليه الفهرست البخاري، ومسلم من عدة طرق، وغالب كتب الحديث وغالب كتب الأدب وغيره، وآخر روايتي عنه شرح الغريب لأبي عبيد القاسم بن سلام قرأته عليه في مجالس آخرها في العشر الأخير من شعبان سنة سبع وستين وخمسمائة، قلت: وهي السنة التي مات فيها الشيخ القرطبي حسبما ذكرته في ترجمته.

ثم قال: ومنهم الشيخ أبو البركات عبد الله بن الخضر بن الحسين المعروف بابن الشيرجي، سمعت عليه بعض تفسير الثعلبي، وأجازني أن

أروي عنه جميع مارواه على اختلاف أنواع الروايات، وكتب لي خطه بذلك في فهرست سماعي مؤرخاً بخامس جمادى الأولى سنة ست وستين وخمسة، وكان مشهوراً بعلمي الحديث والفقه، ولي قضاء البصرة ودرس بالأتابكية القديمة يعني بالموصل.

ومنهم الشيخ مجد الدين أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب بالموصل، وهو مشهور بالرواية حتى يقصد لها من الآفاق، وعاش نيلاً وتسعين سنة، قلت: وكانت ولادة أبي الفضل ابن الطوسي الخطيب المذكور في منتصف صفر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ببغداد بباب المراتب، وتوفي ليلة الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة ثمان وسبعين وخمسة بالموصل، ودفن بمقبرة باب الميدان رحمه الله تعالى.

رجعنا إلى تنمة كلام أبي المحاسن بن شداد: وسمعت عليه يعني على الخطيب المذكور كثيراً من مسموعاته وأجاز لي جميع مارواه في السادس والعشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وخمسة، ومنهم القاضي فخر الدين أبو الرضا سعيد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري سمعت عليه مسند الشافعي رضي الله عنه، ومسند أبي عوانة ومسند أبي يعلى الموصل، وسنن أبي داود، وكتب لي خطه بذلك وهو في فهرستي، وسمعت عليه الجامع لأبي عيسى الترمذي وأجاز لي رواية مارواه، وكتب لي خطه بذلك في شوال سنة سبع وستين وخمسة، ومنهم الحافظ مجد الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الأشيري الصنهاجي، وأجاز لي جميع ما يرويه على اختلاف أنواعه، وفي فهرستي خطه بذلك مؤرخاً بشهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسة، وفهرسته عندي بذلك.

قلت: توفي أبو محمد عبد الله الأشيري المذكور في شوال سنة إحدى وستين وخمسة بالشام، ودفن ببعلبك ظاهر باب حمص شمالي البلد.

ومنهم الحافظ سراج الدين أبو بكر محمد بن علي الجياني قرأت عليه صحيح مسلم من أوله إلى آخره بالموصل، والوسيط للواحي وأجاز لي رواية ما يرويه في تاريخ سنة تسع وخمسين وخمسمائة، فهذه أسماء من حضر في خاطري، وقد سمعت من جماعة لم تحضرني روايتهم عند جمع هذا الكتاب كشهادة الكاتبة في بغداد وأبي الغيث في الحربية، والشيخ رضي الدين القزويني المدرس بالنظامية، وجماعة شذت عني طرقهم، فلم أذكرهم إذ كان في هؤلاء غنية.

هذا آخر ما ذكره عن نفسه وقال غيره: إنه قرأ الفقه على أبي البركات عبد الله بن الشيرجي المذكور، فقيه الموصل، وكان عالماً زاهداً متقشفاً وتوفي في جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسمائة بالموصل، ودفن بظاهرها، ثم اشتغل بالخلاف على الضياء بن أبي حازم صاحب محمد ابن يحيى الشهيد النيسابوري، ثم باحث في الخلاف متفني أصحابه كالفخر النوقاتي والبروي والعماد النوقاتي والسيف الخواري والعماد المناجي، ثم انحدر إلى بغداد بعد التأهل التام، ونزل بالمدرسة النظامية وترتب فيها معيدا بعد وصوله إليها بقليل، وأقام معيداً نحو أربع سنين والمدرس بها يوم ذاك أبو نصر أحمد بن عبيد الله بن محمد الشاشي، وكانت ولاية ابن الشاشي المذكور التدريس بالنظامية في شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة، وعزل عنها في سلخ شهر رجب سنة تسع وستين وتولاها بعده رضي الله عنه أبو الخير أحمد بن اسماعيل القزويني في التاريخ المذكور، وأبو المحاسن المذكور مستمر بها على الإعادة، وكان رفيقه في الإعادة السيد محمد السلمي، وقد تقدم ذكره، ثم أصعد إلى الموصل في سنة تسع وتسعين، فترتب مدرسا في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري المقدم ذكره، ولزم الاشتغال، وانتفع به جماعة، وله كتاب في الأفضية سماه ملجأ الحكام عند التباس الأحكام، ذكر في أوائله أنه حج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وزار بيت المقدس والخليل عليه السلام بعد الحج

والزيارة للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب، فذكر أنه سمع بوصوله فاستدعاه إليه فظن أنه يسأله عن كيفية قتل الأمير شمس الدين المقدم ذكره، فإنه كان أمير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين، وقتل على جبل عرفات لأمر يطول شرحه وليس هذا موضع ذكره، فلما دخل عليه ذكر أنه قابله بالاكرام التام، ووما زاد على السؤال عن الطريق، ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل، وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه، فأخرج له جزءاً جمع فيه أذكار البخاري وأنه قرأه عليه بنفسه، فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الأصبهاني وقال له: السلطان يقول لك إذا عدت من الزيارة وعزمت على العود فعرّفنا بذلك فلنا إليك مهم فأجابه بالسمع والطاعة، فلما عاد عرفه بوصوله فاستدعاه وجمع له في تلك المدة كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين يحتوي على مقدار ثلاثين كراسة، فخرج إليه واجتمع به بقلعة حصن الأكراد وقدم له الكتاب الذي جمعه وقال إنه كان عزم على الانقطاع في مشهد بظاهر الموصل إذا وصل إليها.

ثم إنه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ثم ولاء قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف، ولما كنت متولي الحكم بدمشق المحروسة جاءني في بعض شهور سنة ست وستين وستمائة اسجّال قد ثبت مضمونه عند القاضي أبي المحاسن المذكور، وهو يومئذ قاضي العسكر الصلاحي، وقد انقطع ثبوته بموت شهوده فتعذر إثباته عندي لذلك وتأملت إلى آخره لأنني استغربته، فقد كان شيخنا وأخذنا عنه كثيراً وحصل الانتفاع بصحبته.

عدنا إلى بقية ما ذكره أبو المحاسن المذكور فقال : إنه كان قد حضر إلى خدمة صلاح الدين في صحبة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل، والقاضي محيي الدين بن الشهرزوري لما وصلا إليه

في رسالة، واتفق في تلك الدفعة وفاة البهاء الدمشقي المدرس ، كان بمصر في مدرسة منازل العز، وخطيب مصر، وأن صلاح الدين عرض عليه تدريس المدرسة المذكورة فلم يفعل، وأنه حضر عند السلطان دفعة ثانية في رسالة من الموصل وهو على حران، وكان صلاح الدين مريضاً يومئذ، وذكر أنه لما توفي صلاح الدين كان حاضراً وتوجه إلى حلب لجمع كلمة الأخوة أولاد صلاح الدين، وتحليف بعضهم لبعض، وأن الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين صاحب حلب كتب إلى أخيه الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين صاحب دمشق يطلبه منه، فأجابه إلى ذلك، فأرسله الظاهر إلى مصر لاستحلاف أخيه الملك العزيز عماد الدين بن صلاح الدين، وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك، فلما عاد من هذه الرسالة، كان القاضي بحلب قد مات فعرض عليه فأجاب، هكذا ذكره في كتاب ملجأ الحكام.

وذكر القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم في تاريخه الصغير الذي سماه زبدة الحلب من تاريخ حلب ما مثاله، وفي سنة إحدى وتسعين يعني وخمسمائة اتصل القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بخدمة الملك الظاهر، وقدم إليه إلى حلب، وولاه قضاءها ووقوفها وعزل عن قضائها زين الدين أبا البيان نبأ بن البانياسي نائب محيي الدين بن الزكي، وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشاورة. انتهى كلامه.

قلت: وهذا القاضي نبأ هو ابن الفضل بن سليمان الحميري يعرف بيهتم بدمشق ببيت البانياسي، وكان السلطان صلاح الدين قد ولي القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن الزكي الدمشقي المقدم ذكره القضاء بحلب، فاستتاب فيها زين الدين نبأ بن البانياسي المذكور، واستمر بها إلى التاريخ المذكور، وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة

المدارس، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة، وكان الملك الظاهر قد قرر له اقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة، ولم يكن له خرج كثير فإنه لم يولد له، ولا كان له أقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى للشافعية، ورأيت تاريخ عمارتها مكتوباً على سقف مسجده وهو الموضع المعد للإلقاء الدروس، وذلك في سنة إحدى وستمائة، ثم عمر في جوارها داراً للحديث النبوي، وجعل بين المكانين تربة برسم دفنه فيها، ولها بابان باب إلى المدرسة، وباب إلى دار الحديث وشباكان إلى الجهتين، وهما متقابلان بحيث أن الذي يقف في أحد المكانين يرى من يكون في المكان الآخر، ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدتها الفقهاء من البلاد، وحصل بها الاشتغال والاستفادة، وكثر الجمع بها، وكان بين والدي رحمه الله تعالى وبين القاضي أبي المحاسن المذكور موانسة كثيرة وصحبة صحيحة المودة من زمن الاشتغال بالموصل، فجئت إليه وكان أخي قد سبقني بمدة قليلة، وكتب سلطان بلدنا الملك المعظم مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري بن علي بن بكتكين رحمه الله تعالى، المقدم ذكره في حرف الكاف كتاباً بليغاً في حقنا يقول فيه: أنت تعلم ما يلزم من أمر هذين الولدين، وإنهما ولدا أخي، وولدا أخيك ولا حاجة مع هذا إلى تأكيد وصية، وأطال القول في ذلك، فتفضل القاضي أبو المحاسن وتلقانا بالقبول والإكرام، وأحسن حسب الامكان، وعمل ما يليق بمثله وأنزلنا في مدرسته، ورتب لنا أعلى الوظائف، وألحقنا بالكبار مع الشبيبة في السن والابتداء في الاشتغال، وقد تقدم في ترجمة الشيخ موفق الدين ابن يعيش النحوي تاريخ دخوله إلى حلب فأغنى عن الاعادة، ولم نزل عنده إلى أن توفي في التاريخ الآتي ذكره، ولم يكن في مدرسته في ذلك الزمان درس عام لأنه كان المدرس بنفسه، وكان قد طعن في السن وضعف عن الحركة وحفظ الدروس والقائها، فرتب أربعة من الفقهاء الفضلاء برسم الإعادة، والجماعة

يشتغلون عليهم وكنت أنا وأخي نقرأ على الشيخ جمال الدين أبي بكر الماهاني لأنه كان من بلدنا، ورفيق والدنا في الاشتغال عند الشيخ عماد الدين أبي حامد محمد بن يونس المقدم ذكره، فمات في ثالث شوال سنة سبع وعشرين وستمائة وقد نيف على ثمانين سنة، فترددت إلى الشيخ نجم الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي المعروف بابن الخباز الموصلية الفقيه الإمام، وهو إذ ذاك مدرس المدرسة السيفية، فقرأت عليه من أول كتاب الوجيز للغزالي إلى الإقرار، وعلى الجملة فقد خرجنا عما نحن بصدده لسبب اتصال الكلام.

وكان القاضي أبو المحاسن المذكور بيده حل الأمور وعقدها، لم يكن لأحد معه في الدولة كلام، وكان سلطانها الملك العزيز أبو المظفر محمد ابن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين، وهو صغير السن تحت حجر الطواشي شهاب الدين أبي سعيد طغرل وهو أتابكه ومتولي أمور الدولة بإشارة القاضي أبي المحاسن لا يخرج عنها شيء من الأمور، وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة، خصوصاً جماعة مدرسته، فإنهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سباطه، وكنا نسمع عليه الحديث ونتردد إليه في داره، وقد كانت له قبة تختص به وهي شتوية لا يجلس في الصيف والشتاء إلا فيها لأن الهرم كان قد أثر فيه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف لا يقدر على الحركة للصلوات وغيرها إلا بمشقة عظيمة، وكانت النزلات تعتريه في دماغه فلا يفارق تلك القبة، وفي الشتاء يكون عنده منقل كبير عليه من الفحم والنار شيء كثير، ومع هذا كله لا يزال مزكوما وعليه الفرجية البرطاسي والثياب الكثيرة وتحت الطراحة الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل الثخينة بحيث كنا نجد عنده الحر والكرب، وهو لا يشعر به لكثرة استيلاء البرودة عليه من الضعف، وكان لا يخرج لصلاة الجمعة إلا في شدة القيظ وإذا قام إلى الصلاة بعد التجهد يكاد يسقط، ولقد كنت أنظر إلى ساقه إذا وقف للصلاة كأنهما عودان دقيقان لا لحم عليهما، وكان عقيب صلاة الجمعة

يسمع المصلون عنده الحديث عليه، وكان يعجبه ذلك، وكان حسن
المحاضرة جميل المذاكرة، والأدب غالب عليه، وكان كثيراً ما ينشد في
مجالسه:

إن السلامة من ليل وجارتها
أن لا تمر على حال بنـاديا

وكان يتمثل أيضاً كثيراً بقول صردر الشاعر المقدم ذكره في حرف
العين، وهذا البيت من جملة قصيدة طويلة وهو:
وعهودهم بالرمـل قد نقضت
وكذاك ما ينـى على الرمل

فأنشده في بعض الأيام فقال له بعض الحاضرين: يا مولانا قد
استعمل ابن المعلم العراقي هذا المعنى استعمالاً مليحاً فقال: ابن المعلم
هو أبو الغنائم؟ فقال: نعم فقال: صاحبنا كان، فكيف قال فأنشده:
نقضوا العهد وحق ما ينـى على
رمل اللوى بيد الهوى أن ينقضاً

فقال: ما أقصر، ولقد تلطف في قوله: «بيد الهوى» فقال له: يا مولانا،
وقد استعمله في قصيدة أخرى، فقال: هات، فأنشده
ولم يـن على الرـمـل
فكيف انتقض العهد

فاستحسنه.

وكان كثيراً ما ينشد أبيات أبي الفوارس سعد بن محمد المعروف
بحيـص بيـص المقدم ذكره، وكان يقول إنه سمعها منه ويرويها عنه، وقد
تقدم ذكرها في ترجمة الحيـص بيـص فأعنى عن الإعادة وأوها:
لاتضع من عظيم قدر وان كنـ
ت مشاراً إليه بالتعظيم

وكان يقول: أنشدني القاضي الفاضل لبعضهم ونحن نزول على قلعة
صفد:

قلت للنـزلة لما
أن ألت بلهـ
بحيـاتي خلـ حلقي
نهر دهليـز حيـاتي

قلت: هذان البيتان منسوبان إلى ابن الهبارية المقدم ذكره والله أعلم

وكان كلما نظر إلى نفسه على تلك الحالة من الضعف والعجز عن
القيام والقعود والصلاة وسائر الحركات ينشد:

من يتمن العمر فليدرع
صبرا على فقـد احبائه
ومن يعمري في نفسه
ما يتمناه لأعدائه

ثم وجدت هذين البيتين للظهير أبي اسحق ابراهيم بن نصر بن
عسكر قاضي السلامة المقدم ذكره في هذا الكتاب، والله أعلم. ذكر ذلك
صاحبنا الكمال بن الشعار الموصلي في كتابه عقود الجمان في ترجمة الظهير
المذكور، وهذا ينظر إلى قول أبي العلاء المعري

تدعو بطول العمر أفواهنا
لمن تنهاهـى القلب في وده
يسر إن مد بقاء له
وكل ما يكره في مده

والأصل في هذا قول الآخر:
كانت قناتي لاتلين لغمامز
فالأنها الإصبياح والامساء

ودعوت ربي بالسلامة جاهداً
ليصحنني فإذا السلامة داء

ودخل عليه يوماً رجل من أهل المغرب يقال له: أبو الحجاج يوسف،
وكان قريب العهد ببلاده، ورد حلب في تلك الأيام وكان فاضلاً في
الأدب والحكمة، فلما رآه على تلك الهيئة من الهزال والنحافة أنشده:
لو يعلم الناس ما في أن تعيش لهم
بكوا لأنك من ثوب الصبا عاري
ولو أطاقوا انتقا صام من حياتهم
لما فـ_____دوك بشيء غير أعمار

فأعجبه ذلك ودمعت عيناه، وشكر له.

وقال لي بعض أصحابنا: سمعته يوماً وهو يحكي للجماعة الحاضرين
عنده، قال: لما كنا في المدرسة النظامية ببغداد اتفق أربعة أو خمسة من
الفقهاء المشتغلين على استعمال حب البلاذر لأجل سرعة الحفظ والفهم،
فاجتمعوا ببعض الأطباء وسألوه عن مقدار ما يستعمل الإنسان منه،
وكيف يستعمله، ثم اشتروا القدر الذي قال لهم الطبيب الجاهل وشربوه
في موضع خارج عن المدرسة، فحصل لهم الجنون، وتفرقوا وتشتتوا ولم
يعلم ما جرى عليهم، وبعد أيام جاء إلى المدرسة واحد منهم، وكان
طويلاً وهو عريان ليس عليه شيء يستر عورته، وعلى رأسه بقبار كبير له
عذبة طويلة خارجة عن العادة، وقد ألقاها وراءه فوصلت إلى كعبه وهو
ساكن ساكن عليه السكينة والوقار لا يتكلم ولا يعبث، فقام إليه من
كان حاضراً من الفقهاء وسألوه عن الحال فقال لهم: كنا قد اجتمعنا
وشربنا حب البلاذر، فأما أصحابي فأنهم جنوا وما سلم منهم إلا أنا
وحدي وصار يظهر العقل العظيم والسكون وهم يضحكون منه وهو لا
يشعر بهم ويعتقد أنه سالم مما أصاب أصحابه، وهو على تلك الحالة لا
يفكر فيهم، ولا يلتفت إليهم.

وأخبرني جماعة ممن كانوا عنده قبل وصولنا إليه أنه قدم عليه الأديب
نظام الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن مسعود القيسي
القرطبي المعروف بابن خروف الشاعر المشهور، فكتب إليه رسالة، وفي
أولها أبيات يستجديه فروة قرظ (٥) وهي:
بهاء الدين والدين
ونور المجد والحسب

طلبت مخافة الأنسوا
ممن نعاك جلد أبي
وفضلك عالم أني
خروف بارع الأدب
حلبت الدهر أشطره
وفي حلب صفاحلبي

ذو الحسب الباهر، والنسب الزاهر، يسحب ذيول سير السرى، ويجب
النجاة من أجل الفراء، ويمن على الخروف النبيه بجلد أبيه، قاني الصباغ،
قريب عهد بالدباغ، ماضل طالب قرظة ولا ضاع، بل ذاع ثناء صانعه
وضاع، أثيث خمائل الصوف، يهزأ من الرياح بكل هو جاء عصوف، إذا
ظهر إهابه يخافه البرد ويهابه، مافي الثياب له ضريب، إذا نزل الجليد
والضريب، ولا في اللباس له نظير إذا عري من ورقه الغصن النضير، لا
كطيلسان ابن حرب، ولا جلد عمرو الممزق بالضرب، كأنه من جلد
حمل الخرباء، الذي يراعي البدر والنجم، لا من جلد السخلة الجرباء،
التي ترعى الشجر والنجم، فرجي النوع، أرجي الضوع لتكون تارة لحافا،
وتارة بردا وهو في الحالين يحبي حرا، ويميت بردا، لا يزال مهديه
سعيدا، ينجز للأولياء، وعدا، وللأعداء وعيدا، إن شاء الله تعالى
والسلام.

قلت: وقد ذكرت في ترجمة أبي الفتح محمد سبط ابن التعاويذي رسالة كتبها إلى عماد الدين الكاتب الأصبهاني المقدم ذكره يطلب فروة قرظ أيضاً، وكل واحدة من الرسالتين بديعة في بابها، وفي هذه الرسالة كلام يحتاج إلى إيضاح، وهو قوله: لا كطيلسان ابن حرب، وهو أن أحمد بن حرب ابن أخي يزيد المهلبى أعطى أبا علي إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصري الحمدوي الشاعر الأديب طيلساناً خليقاً، فعمل فيه الحمدوي مقاطيع عديدة طريفه، سارت عنه وتناقلتها الرواة، فمن ذلك قوله من أبيات:

يا بن حرب كسوتني طيلسانا
مل من صحبة الزمان فصداً
طال ترده إلى الرفو حتى
لو بعثناه وحده لتهدا

وقوله أيضاً من أبيات
لقد حالف الرفاء حتى كأنه
يحاول منه أن يعلمه الرفوا

وقوله أيضاً:
يا بن حرب كسوتني طيلسانا
أنحلتني الأزمان وهو سقيم
فإذا ما رفوته قال سبحاً
نك عيى العظام وهي رميم

وقوله أيضاً:
يا بن حرب أطلت وتري برفوي
طيلسانا قد كنت عنه غنيا
فهو في الرفو آل فرعون في العر
ض على النار بكرة وعشياً

وله أيضاً:

رأينا طيلسانك يا بن حرب
يزيد المرء للضعفة اتضاعاً
إذا الرفاء أصلح منه بعضاً
تداعى بعضه الباقي انصداً
يسلم صاحبني في قدشيراً
بسه وأقصد في ردي ذراعاً
أجبل الطرف في طرفيه طولاً
وعرضاً ما أرى إلا رقاعاً
فلست أشك أن قد كان دهرنا
لنوح في سفينته شراعاً
وقد غنيت إن أبصرت منه
بقاياها على كتفي تداعى
ففي قبل التفريق يا ضباعاً
ولا يك موقف منك الوداعاً

وله فيه أيضاً:

يا بن حرب كسوتني طيلسانا
يزرع الرفو فيه وهو سباح
مات رفاؤه ومات بنوه
وبدا الشيب في بنيهم وشاخوا

وقال فيه أيضاً، وكتبها إلى بعض الرؤساء:
دعني أبكي كسوتي إذ ودعت
فلأزمعن على البكاء إذا أزمعت
يا بن الحسين أماتني ذراعتي
سملات تردت بالبل وتدرعت

فيه امن التمزيق مالمو أنه
مرت بهار يبح الصبا لتشعت
يحكي تخرق طيلسانا أنها
منه تعلمت البلى فتضعضعت
لا فرج الرحمن عنه إنه
أعدى ثيابي كلها ففتقطعت
فلتحمد الله الجبال فلإنها
لوقارنته لخشعت وتصدعت

وقال فيه أيضاً:

طيلسان لو كان لفظاً إذن ما
شك خلق في أنه بهتان
فهو كالطور إذ تجلى له الـ
له فدكت قواه والأركان
كم رفوناه إذ تمزق حتى
بقي السرفو وانقضى الطيلسان

وله فيه أيضاً:

يابن حرب إني أرى في زوايا
بيتنا مثل ما كسوت جماعة
طيلسان رفوته ورفوت السر
فومنه وقد رقت رقاعه
فأطاع البلى فصار خليعاً
ليس يعطي الرفاء في الرفوطاعه
فلذا سائل رأني فيه
ظن أني فتى من أهل الصناعة

وله في ذلك أيضاً:

قل لابن حرب طيلسا
نك قوم نوح منه أحدث
هو طيلسان لم يزل
عمن مضى من قبل يورث
فإذا العيون لحظته
فكأنه باللحظ يحرث
يودي إذا لم أرفه
فإذا رفوت فليس يلبث
كالكلب أن تحمل عليه
فيه الدهر أو تتركه يلهث

ويقال إنه عمل في هذا الطيلسان مائتي مقطوع في كل مقطوع معنى
بديع ، وأما قوله ولا جلد عمرو الممزق بالضرب، فيريد قول النحاة
ضرب زيد عمرا فإنهم أبدا يستعملون هذا المثال ولا يمثلون غيره،
فكأنهم يمزقون جلده لكثرة الضرب، وكان الأصل الذي حمل الحمدوي
المذكور على عمل هذه المقاطيع أنه وقف على أبيات عملها أبو حمران
السلي - بضم الجاء المهملة - في طيلسانه، وكان قد أخلق حتى بلي
فقال فيه:

يا طيلسان أبي حمران قد برمت
منك الحياة فما تلتذذ بالعمر
في كل يومين رفاء تجده
هيهات ينفع تجديد مع الكبر
إذا ارتداه لعيده أو لجمعه
تنكب الناس أن يبلى من النظر

وهذا البيت الثالث أخذه من قول النظام - بفتح النون وتشديد الظاء
المعجمة - أ بي اسحق ابراهيم بن سيار البلخي المتكلم المعتزلي ، في
وصف غلام رقيق البشرة:

- ٩٥٩٠ -

رق فلـوبـوزت سراييلـه
عقلـه الجؤـمـن اللطـف
تجرحه الناس بالحاظهم
ويشككي الاياء بالكـف

وأنشدني بعض الأدباء بمدينة الموصل في شهر رمضان سنة ست
وعشرين وستائة في هذا المعنى لبعض الشعراء:
توهمها طري فأصبح خدها
وفيه مكان الوهم من نظري أثر
وصافحها قلبي فأدمى بنائها
فمن لمس قلبي في اناملها عقر

وأنشدني الشيخ أيدمر الصوفي السلمي ابراهيم لنفسه دو بيت في هذا
المعنى:

كلفـت صبا العـراق لما خـطرت
أن تـحمل لي تحية ما قدـرت
قالت لي خيفتي على وجـتـه
إن جرت بها جرحتها فاعتذرت

ولبعض الادباء الفقراء من جملة أبيات شكا فيها رقة حاله، ورثاة
ثيابه ما يقرب من هذا المعنى، وهو قوله:
ولي ثياب رثا لست أغسلها
أخاف أعصرها تجري مع الماء

وقد قيل في هذا المعنى شيء كثير، والاختصار أولى والله أعلم

عدنا إلى ما كنا فيه، وكان القاضي أبو المحاسن المذكور سلك طريق
البغادة في ترتيبهم وأوضاعهم، حتى أنه كان يلبس ملبوسهم، والرؤساء
يترددون إليه، وكانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم لكل واحد

منهم مكان معين لا يتعداه، ثم أنه تجهز إلى الديار المصرية لاحتضار ابنة الملك الكامل ابن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب، وكان قد عقد نكاحه عليها، فسار في أول سنة تسع وعشرين وأواخر سنة ثمان وعشرين وستمائة، وعاد وقد جاء بها في شهر رمضان من السنة، ولما وصل كان قد استقل الملك العزيز بنفسه، ورفعوا عنه الحجر، ونزل الأتابك طغرل من القلعة إلى داره تحت القلعة واستولى على الملك العزيز جماعة من الشباب الذين كانوا يعاشره ويجالسونه، واشتغل بهم، ولم ير القاضي أبو المحاسن وجهها يرتضيه، فلأزم داره إلى حين وفاته، وهو باق على الحكم واقطاعه جار عليه غاية ما في الباب أنه لم يبق له حديث في الدولة، ولا كانوا يراجعونه في الأمر، فكان يفتح بابه لاسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين، وظهر عليه الخوف بحيث أنه صار إذا جاءه الإنسان لا يعرفه، وإذا قام سأل عنه ولا يعرفه، واستمر على هذا الحال مديدة، ثم مرض أياماً قلائل، وتوفي يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى بحلب، ودفن في التربة المقدم ذكرها، وحضرت الصلاة عليه، ودفنه وما جرى بعد ذلك.

وصنف كتاب ملجأ الحكام عند التباس الأحكام يتعلق بالأقضية في مجلدين، وكتاب دلائل الأحكام تكلم فيه على الأحاديث المستنبط منها الأحكام في مجلدين، وكتاب الموجز الباهر في الفقه وغير ذلك، وكتاب سيرة صلاح الدين بن أيوب رحمه الله تعالى وجعل داره خانقاه للصوفية لأنه لم يكن له وارث، ولأزم الفقهاء والقراء تربته مدة طويلة يقرأون عند قبره، وكان قد قرر قدام كل واحد من الشباكين المذكورين اللذين للتربة سبعة قراء، وكان غرضه أن يقرأ عنده كل ليلة ختمة كاملة، فكان كل واحد من القراء الأربعة عشر يقرأ نصف سبع بعد صلاة العشاء الآخرة، وفارقت حلب متوجهاً إلى الديار المصرية في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وستمائة والأمور جارية على هذه

الأوضاع، ثم بعد ذلك تغيرت تلك الأمور وانتقضت قواعدها، وزال جميع ذلك على ما بلغني.

وتوفي الشيخ نجم الدين بن الخباز المذكور في السابع من ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وستمائة بحلب، ودفن بظاهرها خارج باب الأربعين، وحضرت الصلاة عليه ودفنه رحمه الله تعالى، وكان مولده في التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمائة بالموصل، وتوفي الأتابك شهاب الدين طغرل المذكور ليلة الاثنين الحادي عشر من محرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة بحلب، ودفن بمدرسة الحنفية خارج باب الأربعين، وكان خادماً أرمني الجنس أبيض حسن السيرة محمود الطريقة، وحضرت الصلاة عليه ودفنه رحمه الله تعالى، وتوفي أبو الحسن بن خروف الأديب المذكور بحلب في سنة أربع وستمائة متردياً في جب، رحمه الله تعالى.

أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي الملقب الملك
الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والبلاد
الشامية والعراقية واليمينية

قد تقدم في هذا الكتاب ذكر أبيه أيوب، وجماعة من أولاده، وعمه
أسد الدين شيركوه، وأخيه الملك العادل أبي بكر محمد وجماعة من أولاده
وغيرهم من أهل بيته، وصلاح الدين كان واسطة العقد، وشهرته أكثر
من أن يحتاج إلى التنبيه عليه. إتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من
دوين - بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها
وبعدها نون - وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد
الكرج، وأنهم أكراد روادية، بفتح الراء والواو وبعد الألف دال مهملة
مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها مشددة وبعدها هاء - والروادية بطن من
الهدانية، بفتح الهاء والذال المعجمة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء
مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء - وهي قبيلة كبيرة من الأكراد، وقال
لي رجل فقيه عارف بها يقول، وهو من أهل دوين أن على باب دوين
قرية يقال لها أجد انقان - بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال
المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف، وبعد الألف الثانية نون أخرى -
وجميع أهلها أكراد روادية، ومولد أيوب والد صلاح الدين بها وشادي
أخذ ولديه منها: أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب، وخرج بهما إلى
بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شادي بها وعلى قبره قبة داخل
البلد، ولقد تتبععت نسبهم كثيراً فلم أجد أحداً ذكر بعد شادي أباً آخر
حتى أني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب،
فلم أرفيها سوى شيركوه بن شادي وأيوب بن شادي لاغيره.

وقال لي بعض كبراء بيتهم: هو شادي بن مروان، وقد ذكرت ذلك
في ترجمة أيوب وشيركوه، ورأيت مدرجاً رتبة الحسن بن غريب بن
عمران الجرشى يتضمن أن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن

عنتر بن الحسن بن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن هذبة بن
الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن
نہش بن حارثة - صاحب الحمالة - بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن
نشة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث
ابن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن
معد بن عدنان، ثم رفع بعد هذا في النسب حتى انتهى إلى آدم عليه
السلام، ثم ذكر بعد ذلك أن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز يقال
إنه ممدوح المتنبي، ويعرف بالخراساني وفيه يقول من جملة قصيدته
شرف الجؤب الغبار إذا سار

ر علي بن أحمد القمعة

وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة فهو الذي حمل
الدماء بين عبس وذبيان، وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان أخو هرم
ابن سنان، وفيهما قال زهير بن أبي سلمى المزي قصائد منها قوله:
على مكثريهم حق من يعتريهم
وعند المقلين السباحة والبذل
وهل ينبت الخطي إلا وشيجة
وتغرس إلا في منابتها النخل

هذا آخر ما ذكره في المدرج، وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شرف
الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولده
الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود ابن الملك المعظم، وكتب
لها بسماعها عليه آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة، والله أعلم. انتهى
ما نقلته من المدرج.

ورأيت في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم
عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي بعد أن ذكر الاختلاف في
نسبهم فقال: وقد كان المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ابن أيوب ملك

اليمن إدعى نسباً في بني أمية وإدعى الخلافة، وسمعت شيخنا القاضي بهاء الدين - عرف بابن شداد - يحكي عن السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك، وقال: ليس لهذا أصل أصلاً

قلت: ذكر شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد، المعروف بابن الاثير الجزري صاحب التاريخ الكبير في تاريخه الصغير الذي صنفه للدولة الأتابكية ملوك الموصل في فصل يتعلق بأسد الدين شيركوه ومسيره إلى الديار المصرية فقال: كان أسد الدين شيركوه، ونجم الدين أيوب وهو الأكبر ابناً شادي من بلد دوين، وأصلهما من الأكراد الروادية، قدما العراق وخدموا مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياثي شحنة العراق.

قلت: وهذا مجاهد الدين كان خادماً رومياً أبيض اللون تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدم ذكره، وذكر والده وجماعة من أهل بيته، وكان صاحب مهمة في عمل المصالح الجليلة، وعمارة البلاد واسع الصدر والصبر في البذل والانفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض، وكانت تكريت إقطاعاً له، وكان خادماً السلطان محمد والد مسعود المذكور وبنى في بغداد رباطاً وقف عليه وقفاً جيداً، ومات يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة أربعين وخمسمائة - وبهروز بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء وضم الراء وسكون الواو وبعدها زاي - وهو لفظ عجمي معناه يوم جيد علي التقديم والتأخير على عادة كلام العجم - قال شيخنا ابن الاثير فرأى مجاهد الدين في نجم الدين أيوب عقلاً ورأياً حسناً وحسن سيرة فجعله دز دار تكريت إذ هي له - قلت: دز دار بضم الدال المهملة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة، وبعد الألف راء، وهو لفظ عجمي، معناه حافظ القلعة وهو الوالي، ودز بالعجمي القلعة، ودار الحافظ - فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين شيركوه فلما انهزم

أتابك الشهيد عماد الدين زنكي بالعراق من قراجا - قلت: وهي قصة مشهورة - وخلاصتها أن مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدم ذكره، وعماد الدين زنكي صاحب الموصل قصدا حصار بغداد في أيام الامام المسترشد فأرسل إلى قراجا الساقبي واسمه برس صاحب بلاد فارس وخوزستان يستنجد به، فأتاه وكبس عسكرهما، وانهزموا ما بين يديه وانكسروا، وذكر في تاريخ الدولة السلجوقية أنها كانت في شهر ربيع الآخر يوم الخميس ثاني عشر الشهر المذكور من سنة ست وعشرين وخمسمائة على تكريت.

وقال أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها الذين كانوا في زمانه: أنه حضر هذه الواقعة مع زنكي في التاريخ المذكور، وذكر ذلك في موضعين أحدهما في ترجمة إربل والثاني في ترجمة تكريت.

رجعنا إلى ما كنا فيه: فوصل زنكي إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن فعبّر دجلة هناك، وتبعه أصحابه فأحسن نجم الدين إليهم وسيرهم، وبلغ ذلك بهروز فسير إليه وأنكر عليه وقال له: كيف ظفرت بعدونا فأحسنتم إليه وأطلقته، ثم إن أسد الدين شيركوه قتل إنسانا بتكريت لكلام جرى بينهما فأرسل مجاهد الدين إليهما فأخرجهما من تكريت فقصدا عماد الدين زنكي.

قلت: وكان إذ ذاك صاحب الموصل، قال: فأحسن عماد الدين إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطع لهما إقطاعا حسنا، وصارا من جملة جنده، فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك جعل نجم الدين دز دارها، فلما قتل زنكي - قلت: وقد سبق ذكر ذلك في ترجمته - قال: فحصره عسكر دمشق - قلت: وكان صاحب دمشق يومئذ مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ابن الاتابك ظهير الدين طغتكين وهو الذي حاصره نور الدين

محمود بن زنكي في دمشق وأخذها منه - قال شيخنا ابن الاثير: فأرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل، وقد قام بالملك بعد والده ينهي إليه الحال، ويطلب منه عسكرياً ليرحل صاحب دمشق عنه، وكان سيف الدين في ذلك الوقت في أول ملكه، وهو مشغول باصلاح ملوك الأطراف المجاورين له فلم يتفرغ له، وضاق الأمر على من في بعلبك من الحصار، فلما رأى نجم الدين أيوب الحال، وخاف أن تؤخذ قهراً أرسل في تسليم القلعة، وطلب اقطاعاً ذكره فأجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه وسلم له القلعة، ووفى له صاحب دمشق بما حلف عليه من الأقطاع والتقدم، وصار عنده من أكبر الأمراء، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل أبيه زنكي.

قلت: هو نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب، وكان يخدمه في أيام والده، فقربه نور الدين، وأقطعه، وكان يرى منه في الحروب آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجراته، فصارت له حمص، والرحبة وغيرها وجعله مقدم عسكريه .

قلت: ثم خرج شيخنا ابن الاثير بعد هذا إلى حديث سفر أسد الدين إلى الديار المصرية، وما تجدد لهم هناك وليس هذا موضع هذا الفصل، بل نتم حديث صلاح الدين صاحب هذه الترجمة من مبدأ أمره حتى نصير إلى آخره إن شاء الله تعالى، ويندرج فيه حديث المملكة وما صار حالهم إليه، وإن كان قد سبق في ترجمة أسد الدين شيركوه طرف من أخبارهم، لكن ما استوفيته هناك اعتماداً على استيفائه ههنا إن شاء الله تعالى.

قلت: اتفق أرباب التواريخ أن صلاح الدين مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسةائة بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها، والظاهر أنهم ما

أقاموا بها بعد ولادة صلاح الدين إلا مدة يسيرة لأنه قد سبق القول أن نجم الدين وأسد الدين لما خرجا من تكريت كما شرحناه وصلا إلى عماد الدين زنكي فأكرمهما وأقبل عليهما، ثم إن عماد الدين زنكي قصد حصار دمشق فلم تحصل له فرجع إلى بعلبك فحاصرها أشهراً وملكها في رابع عشر صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، كما ذكر أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها.

وذكر أبو يعلى حمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي الدمشقي في تاريخه الذي جعله ذيلًا على تاريخ أبي الحسين هلال ابن الصابئ أن عماد الدين حاصر بعلبك يوم الخميس العشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين، ثم ذكر في مستهل سنة أربع وثلاثين ومائة ورود الخبر بفراغ عماد الدين من ترتيب بعلبك وقلعتها وترميم ما تشعث منها والله أعلم، وإذا كان كذلك فيكونون قد خرجوا من تكريت في بقية سنة اثنتين وثلاثين التي ولد فيها صلاح الدين، أو في سنة سنة ثلاث وثلاثين لأنها أقاما عند عماد الدين بالموصل، ثم لما حاصر دمشق وبعدها بعلبك وأخذها رتب فيها نجم الدين أيوب وذلك في أوائل سنة أربع وثلاثين كما شرحته فيتعين أن يكون خروجهم من تكريت في المدة المذكورة تقريباً والله أعلم.

قلت: ثم أخبرني بعض أهل بيتهم وقد سألته: هل تعرف متى خرجوا من تكريت؟ فقال: سمعت جماعة من أهلنا يقولون إنهم خرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فتشاءموا به وتطيروا منه فقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وما تعلمون، فكان كما قال والله أعلم، ولم يزل صلاح الدين تحت كنف أبيه حتى ترعرع، ولما ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ المذكور في ترجمته لازم نجم الدين أيوب خدمته، وكذلك ولده صلاح الدين، وكانت مخايل السعادة عليه لائحة والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة ونور الدين يرى له ويؤثره،

ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير، وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد حتى تجهز للمسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية، كما سنشرحه إن شاء الله تعالى.

ووجدت في بعض تواريخ المصريين أن شاور المقدم ذكره هرب من الديار المصرية من الملك المنصور أبي الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري، لما استولى على الديار المصرية، وقهره وأخذ مكانه في الوزارة لعادتهم في ذلك وقتل ولده الأكبر طي بن شاور، فتوجه شاور إلى الشام مستغيثا بالملك العادل نور الدين أبي القاسم محمود بن زنكي، وذلك في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ودخل دمشق في الثالث والعشرين من ذي القعدة من السنة فوجه معه نور الدين الأمير أسد الدين شيركوه بن شادي في جماعة من عسكره، كان صلاح الدين في جملتهم في خدمة عمه، وهو كاره للسفر معهم، وكان لنور الدين في إرسال هذا الجيش غرضان أحدهما قضاء حق شاور لكونه قصده ودخل عليه مستصرخا، والثاني أنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة في جهة الجند، وأحوالها في غاية الاختلال، فقصد الكشف عن حقيقة ذلك، وكان كثير الاعتماد على شيركوه لشجاعته ومعرفته وأمانته، فانتدبه لذلك وجعل أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين مقدم عسكره، وشاور معهم فخرجوا من دمشق في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين، فدخلوا مصر، واستولوا على الأمر في رجب من السنة.

وقال شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد المقدم ذكره في كتابه الذي وسمه بسيرة صلاح الدين : إنهم دخلوا مصر في ثاني جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، والقول الأول أصبح لأن الحافظ أبا طاهر السلفي ذكر في معجم السفر أن الضرغام بن سوار قتل في سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وزاد غيره فقال يوم الجمعة

الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من السنة عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، فيما بين القاهرة ومصر واحتز رأسه وطيف به على رمح وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب، ثم دفن عند بركة الفيل، وعمرت عليه قبة.

قلت: والقبة باقية إلى الآن في موضعها تحت الكباش المستحدث بناؤه ورأيت فيها جماعة من الفقراء الجوالقية مقيمين بها، وقد قيل إن الضرغام قتل في رجب سنة تسع وخمسين، وقد اتفقوا أن الضرغام إنما قتل عند وصول أسد الدين شيركوه وشاور إلى مصر فما يمكن أن يكون دخولهم في سنة ثمان وخمسين لأن الضرغام لاختلاف في قتله سنة تسع وخمسين، وأنه كان في أول وصولهم، والحافظ السلفي أخبر بذلك لأنه كان مقيماً بالبلاد أول وصولهم، وهو أضبط لهذه الأمور من غيره لأن هذا فنه، وهو من أقعد الناس به، ولما وصل أسد الدين شيركوه وشاور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام، وحصل الشاور مقصوده وعاد إلى منصبه وتمهدت قواعده، واستمرت أموره غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنجة عليه، وحصلوه في بلبس، وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها وأنها مملكة بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيham، والمحال، فطمع فيها، وعاد إلى الشام في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وخمسين.

وقال شيخنا ابن شداد: في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين بناء على ما قرره أولاً أن دخولهم البلاد كان في سنة ثمان وخمسين وأقام أسد الدين بالشام مدة مفكراً في تدبير عوده إلى مصر محدثاً نفسه بالملك لها، مقررراً قواعده ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين وخمسة، وبلغ شاور حديثه وطمعه في البلاد فخاف عليها، وعلم أن أسد الدين لا بدله من قصدها، فكاتب الفرنج، وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد، ويمكنهم منها تمكيناً كلياً ليعينوه على استئصال أعدائه، وبلغ

نور الدين وأسد الدين مكاتبة شاور للفرنج وما تقرر بينهم، فخافا على الديار المصرية أن يملكوها، ويملكوا بطريقها جميع البلاد، فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر، وصالح الدين في خدمة عمه أسد الدين شيركوه، وكان توجههم من الشام في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسة، وكان وصول أسد الدين إلى البلاد مقارنا لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور والمصريون بأسرهم والفرنج على أسد الدين وجرت حروب كثيرة، ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن البلاد، وانفصل أسد الدين راجعاً إلى الشام، وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين جرد العساكر إلى بلادهم وأخذ المنيطرة منهم في رجب من هذه السنة، وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم، فعادوا إليها، وكان سبب عود أسد الدين إلى الشام ضعف عسكره بسبب واقعة الفرنج والمصريين وما عاينوه من الشدائد، وعانوه من الأهوال، وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السنة وقد انضاف إلى قوة الطمع في الديار المصرية شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها، كما قد كشفها، وعرفوها كما عرفها، فأقام بالشام على مضض وقلبه قلق، والقضاء يقوده إلى شيء قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك، وكان عوده في ذي القعدة من السنة المذكورة إلى الشام وقيل إنه عاد في ثامن عشر شوال من السنة والله أعلم.

ورأيت في بعض المسودات التي بخطي، ولا أعلم من أين نقلته، أن أسد الدين لما طمع في الديار المصرية توجه إليها في سنة اثنتين وستين وسلك طريق وادي الغزلان، وخرج عند أطفيح، فكانت فيها وقعة البابين عند الأشمونين، وتوجه صلاح الدين إلى الاسكندرية، فاحتمي بها وحاصره شاور في جمادى الآخرة من السنة، ثم عاد أسد الدين من جهة الصعيد إلى بلبيس، وتم الصلح بينه وبين المصريين، وسيروا له صلاح الدين فساروا إلى الشام، ثم إن أسد الدين عاد إلى مصر مرة ثالثة.

قال: شيخنا ابن شداد وكان سبب ذلك أن الفرنج جمعوا فارسهم وراجلهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين طمعا في البلاد ، فلما بلغ ذلك أسد الدين ونور الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد، وأما نور الدين فبالمال والرجال، ولم يمكنه المسير بنفسه خوفا على البلاد من الفرنج، ولأنه كان قد حدث له نظر إلى جانب الموصل بسبب وفاة علي بن بكتكين.

قلت: هو زين الدين والد السلطان مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وقد تقدم ذكره في ترجمة ولده كوكبوري، قال: فإنه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسة وسلم ما كان في يده من الحصون لقطب الدين أتابك ما عدا إربل فإنها كانت له من أتابك زنكي.

وأما أسد الدين فسار بنفسه وماله وأخوته وأهله ورجاله، ولقد قال لي السلطان صلاح الدين قدس الله روحه: كنت أكره الناس للخروج في هذه الواقعة وما خرجت مع عمي باختياري، وهذا معنى قوله تعالى: (عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) ، وكان شاور لما أحس بخروج الفرنج إلى مصر على تلك القاعدة سير إلى أسد الدين شيركوه يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعا، وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسة، ولما علم الفرنج بوصول أسد الدين إلى مصر على اتفاق بينه وبين أهلها، رحلوا راجعين على أعقابهم ناكسين، وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بهال في مقابلة ما خسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئا وعلمت مخالبا أسد الدين في البلاد، وعلم أنه متى وجد الفرنج فرصة أخذوا البلاد، وأن شاور يلعب به تارة، وبالفرنج أخرى، وملاكها وقد كانوا على البدعة المشهورة، وتحقق أسد الدين أنه لاسبيل لاستيلائه على البلاد مع بقاء شاور فأجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه، وكان الأمراء الواصلين مع أسد

الدين يترددون إلى خدمة شاور، وهو يخرج في بعض الأحيان إلى أسد الدين مجتمع به، وكان يركب على عادة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم، ولم يتجاسر على قبضه أحد من الجماعة إلا السلطان بنفسه، وذلك أنه لما سار إليه تلقاه راكباً وسار إلى جنبه، وأخذ بتلابيبه، وأمر العسكر بأن يقصدوا أصحابه ففروا ونهبهم العسكر فأنزل شاور إلى خيمة مفردة، وفي الحال ورد توقيع على يد خادم خاص من جهة المصريين يقول: لا بد من رأسه جرياً على عادتهم في وزرائهم فحز رأسه، وأرسل إليهم وسيروا إلى أسد الدين خلع الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر ورتب وزياراً، وذلك في سابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة، ودام أمراً وناهياً، والسلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى يباشر الأمور مقررأ لها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته، إلى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة فمات أسد الدين.

قلت: وقد تقدم حديث أسد الدين وصورة موته فلا حاجة إلى شرحها ههنا، وكذلك وفاة شاور، وهذا كله نقلته من كلام شيخنا ابن شداد في سيرة صلاح الدين، لكنني أتيت بالمقصود، وحذفت الباقي ورأيت بخطي في جملة مسوداتي أن أسد الدين دخل القاهرة يوم الأربعاء سابع شهر ربيع الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة، وخرج إليه العاضد عبد الله العبيدي آخر ملوك مصر المقدم ذكره، وتلقاه وحضر يوم الجمعة التاسع من الشهر إلى الإيوان وجلس إلى جانب العاضد وخلع عليه، وأظهر له شاور ودا كثيراً فطلب أسد الدين منه مالاً ينفقه في عسكره فدافعه، فأرسل إليه إن الجند تغيرت قلوبهم عليه بسبب عدم النفقة فإذا خرجت فكن على حذر منهم، فلم يكثرث شاور بكلامه وعزم على أن يعمل دعوة يستدعي إليها أسد الدين والعساكر الشامية ويقبض عليهم فأحس أسد الدين بذلك، فاتفق صلاح الدين وعز الدين جورديك النوري وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين فنهاهم عنه، وخرج شاور إلى أسد الدين، وكانت خيامهم على شاطئ

النيل بالمقدس، فلم يجده في خيمته، وكان قد راح إلى زيارة قبر الامام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة، فقال شاور: نمضي إليه فالتقوه فساروا جميعاً فاكتنفه صلاح الدين وجورديك فأنزلاه عن فرسه وكتفوه، فهرب أصحابه فأخذوه أسيراً ولم يمكنهم قتله بغير إذن، وجعلوه في خيمة ورسموا عليه جماعة، فأرسل العاضد يأمرهم بقتله فقتلوه، وسيروا رأسه على رمح إلى العاضد، وذلك يوم السبت لسبع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، وقيل إن أسد الدين لم يحضر ذلك بل لما قصد شاور جهة أسد الدين لقيه صلاح الدين وجورديك ومعهما بعض العسكر، فسلم بعضهم على بعض، وساروا ثم فعلا به هذه الفعلة، والله أعلم.

ثم إن العاضد استدعى أسد الدين عقيب قتل شاور، وكان في المخيم، فدخل القاهرة فرأى جمعا كثيراً من العامة فخافهم فقال لهم إن مولانا العاضد أمركم بنهب دار شاور فتفرقوا ومضوا لنهبها، ودخل على العاضد فتلقاها وأفاض عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، ثم إنه مات يوم الأحد لسبع بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بعلّة الخوانيق، وقيل إنه سم في حلق الوزارة لما خلع عليه، وكانت وفاته بالقاهرة ودفن بدار الوزارة، ثم نقل إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فكانت مدة وزارته شهرين وخمسة أيام، وقيل إن أسد الدين دخل على العاضد يوم الاثنين التاسع عشر من شهر ربيع الآخرة من السنة المذكورة والله أعلم.

قلت: قد تقدم في ترجمة كل واحد من شاور وأسد الدين ذكر شيء من هذه الأمور التي ذكرتها ههنا، وإنما أعدت الكلام فيها لأني استوفيتها ههنا أكثر من هناك، وأيضاً فإن المقصود في هذا كله ذكر سيرة صلاح الدين وتنقلاته وما جرى له من أول أمره إلى آخره، فأحببت ذكر ذلك على سياقة واحدة كي لا ينقطع الكلام فيبقى أبتر فأقول: ذكر

المؤرخون أن أسد الدين لما مات استقرت الأمور بعده للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الأوضاع وبذل الأموال وملك قلوب الرجال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بقميص الجد والاجتهاد، وما زال على قدم الخير وفعل ما يقربه إلى الله تعالى إلى أن مات.

قال شيخنا ابن شداد: سمعته يقول رحمه الله تعالى: لما يسر الله تعالى لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه وقع ذلك في نفسي، ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وغيرهما من البلاد، وغشي الناس من سحائب الافضال والانعام ما لم يؤرخ عن غير تلك الايام، وهذا كله وهو وزير متابع القوم، لكنه يقول بمذهب أهل السنة، مارس في البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصداً، ولا يعدم وافداً إلى سنة خمس وستين وخمسة، ولما عرف نور الدين استقرار السلطان صلاح الدين بمصر، أخذ حمص من نواب أسد الدين شيركوه، وذلك في رجب سنة أربع وستين.

ولما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تم للسلطان من استقامة الأمر بالديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم، ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك، واجتمع الفرنج والروم جميعاً، وقصدوا الديار المصرية، فقصدوا دمياط، ومعهم آلات الحصار وما يحتاجون إليه من العدد، ولما سمع فرنج الشام ذلك اشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبه، وكان مملوكاً لنور الدين يقال له خطلخ العلم دار، وذلك في شهر ربيع الآخر من سنة خمس وستين، ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط

قصد شغل قلوبهم، فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من السنة المذكورة، فقصد فرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم، فلم يقفوا له ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية، وكانت وفاته بحلب في شهر رمضان سنة خمس وستين، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره، وعاد يطلب الشام فبلغه أمر الزلازل بحلب التي اخرجت كثيراً من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال منها، فسار يطلب حلب، فبلغه خبر موت أخيه قطب الدين بالموصل.

قلت: وقد ذكرت ذلك في ترجمته واسمه مودود.

قال: وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل، ولما بلغ صلاح الدين قصد الفرنج دمياط استعد له بتجهيز الرجال وجمع الآلات إليها ووعدهم بالامداد بالرجال إن نزلوا عليهم وبالغ في العطايا والهبات، وكان وزيراً متحكماً، لا يرد أمره في شيء، ثم نزل الفرنج عليها واشتد زحفهم وقتلهم عليها، وهو رحمه الله تعالى يشن الغارات عليهم من خارج والعسكر يقاتلهم من داخل ونصر الله تعالى المسلمين به وبحسن تدبيره فرحلوا عنها خائبين فأحرقت مناجيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل من رجالهم خلق كثير، واستقرت قواعد صلاح الدين، وسير يطلب والده نجم الدين أيوب ليتسم له السرور، وتكون قصته مشاكلة لقصة يوسف الصديق عليه السلام، فوصل والده إليه في جمادى الآخرة من سنة خمس وستين.

قلت: هكذا ذكر ابن شداد في تاريخ وصوله إلى مصر، والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته، وسلك معه من الأدب ما جرت به عادته، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه، وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، ولا ينبغي أن تغير موضع السعادة فحكمه في الخزائن كلها، ولم يزل وزيراً حتى مات العاضد في التاريخ المقدم ذكره.

قلت: أكثر ما ذكرته في هذا الفصل منقول من كلام شيخنا ابن شداد في سيرة صلاح الدين، وفيه زوائد من غير ها، والذي ذكره شيخنا الحافظ عز الدين بن الأثير المذكور قبل هذا في تاريخه الأتابكي أن كيفية ولاية صلاح الدين: أن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، يعني بعد موت أسد الدين، منهم الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن بليل، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهداني الذي كان صاحب إربل.

قلت: وهو صاحب المدرسة القطبية التي بالقاهرة، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، جده كان صاحب القلاع الهكارية.

قلت: هو المعروف بالمشطوب والد عماد الدين أحمد بن المشطوب، وتقدم ذكره في ترجمة مستقلة، قال: ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، وكل واحد من هؤلاء يخطبها لنفسه، وقد جمعها ليغالب عليها، فأرسل العاضد صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين والقصة مشهورة؛ أردت عمرا وأراد الله خارجه (٦).

قلت: هذا المثل مشهور بين العلماء وسيأتي الكلام عليه بعد الفراغ من هذه الترجمة إن شاء الله تعالى.

عدنا إلى تمام الكلام الأول فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن

هذا المقام فلزمه وأخذه كارهاً، إن الله تعالى يعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل، فلما حضر في القصر خلع عليه خلع الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه .

قلت: وقد سبق ذكره في ترجمة مفردة، وقال ابن الاثير: فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى في اخراجه عنه ولم يصل إليك، فلم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلفه، ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير اليازوقي، وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك ووعدته وزاد في إقطاعه، فأطاع صلاح الدين، وعدل أيضاً إلى عين الدولة اليازوقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فلم ينفعه رقاؤه ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه، وقد فات الأمر (ليقضي الله أمراً كان مفعولاً) وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ولا يتصرفون إلا عن أمره، وكان نور الدين يكتب يكاتب صلاح الدين بالأمير إلا سفهسلار، ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهلار صلاح الدين، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا، واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئاً يخرج به فلم يمكنه منعه، فمال

الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر العاضد فكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

قال ابن الأثير في تاريخه الكبير: قد اعتبرت التواريخ، ورأيت كثيراً من التواريخ الإسلامية، فرأيت كثيراً ممن يبتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه منهم في أول الإسلام معاوية بن أبي سفيان أول من ملك من أهل بيته، فانتقل الملك عن أعقابه إلى بني مروان من بني عمه، ثم من بعده السفاح أول من ملك من بني العباس انتقل الملك عن أعقابه إلى أخيه المنصور، ثم السامانية أول من استبد فيهم نصر بن أحمد، فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وأعقابه، ثم يعقوب الصفار، وهو أول من ملك من أهل بيته وانتقل الملك عنه إلى أخيه عمرو، وأعقابه، ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهل بيته، ثم انتقل الملك عنه إلى أخويه معز الدولة وركن الدولة، ثم السلجوقية أول من ملك منهم طغرل بك، ثم انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود، ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك إلى ولد أخيه نجم الدين أيوب، ولو لا خوف الاطالة لذكرنا أكثر من هذا، والذي أظنه السبب في ذلك أن الذي يكون أول دولته يكثر القتل فيأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به، لهذا يحرم الله أعقابه ويفعل ذلك لاجلهم عقوبة له.

نعود إلى ذكر صلاح الدين: وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر، وفيهم أخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب.

قلت: وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة، قال: وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له نور الدين: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر

إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك، وأنت قاعد ، فلا تسر فإنك تفسد البلاد، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر، وقائم مقامى، وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر إليه، واشدد أزره وساعده على ما هو بصدد، فقال: أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يتصل بك إن شاء الله تعالى، فكان معه كما قال.

ثم قال شيخنا ابن الأثير بعد هذا بأوراق، في فصل يتعلق بانقراض الدولة المصرية وإقامة الدولة العباسية، فقال: في المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة قطعت خطبة العاضد صاحب مصر، وخطب فيها للإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وكان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه في مصر، وأزال المخالفين له وضعف أمر العاضد، ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر، وامتناعهم من الاجابة إلى ذلك لميلهم إلى دولة المصريين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لافسحة له فيه، واتفق أن العاضد مرض، وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة، فاستشار أمراء كيف الابتداء بالخطبة العباسية، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين، وكان قد دخل إلى مصر رجل عجمي يعرف بالأمير العالم، وقد رأيناه بالموصل كثيراً، فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال: أنا أبتدىء بها، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله تعالى فلم ينكر أحد ذلك، فلما كان الجمعة الثالثة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك، ولم يتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله

وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننقص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم، ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصره وجميع ما فيه، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصي يحفظه،

قلت: وقد تقدم ذكره في ترجمته أيضاً، قال: وجعله كأستاذ دار العاضد فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكل بحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في إيوان بالقصر، وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان فيه من العبيد والإماء فأعتق البعض، ووهب البعض، وباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسكانه فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور، ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين فظن أن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه.

وكان ابتداء الدولة العبيدية بإفريقية والمغرب في ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين، وأول من ظهر منهم المهدي أبو محمد عبيد الله، وبنى المهديّة وملك إفريقية كلها - قلت: هكذا ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخ استيلاء المهدي عبيد الله على إفريقية، والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته فيكشف منه - ثم إنه قال: ولما مات المهدي عبيد الله قام بالأمر بعده ولده القائم أبو القاسم محمد، ثم ذكرهم واحداً واحداً حتى انتهى إلى العاضد المذكور فقال: وانقرضت دولتهم، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستين سنة وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثمانين سنة، وملك منهم أربعة عشر، وهم المهدي، والقائم، والمنصور والمعز، والعزیز والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والأمير، والحافظ، والظافر، والفائر، والعاضد آخرهم.

قلت: وقد ذكرت كل واحد من هؤلاء في ترجمة مستقلة في هذا الكتاب فمن اختار الوقوف على أحوالهم فليطلبه في اسمه ولا حاجة إلى ذكره ههنا، قال: شيخنا ابن الأثير: وقد أتينا على ذكر ما أجهلنا مستقصى في التاريخ الكبير، يعني كتابه الذي سماه الكامل، وهو مشهور، ومن أنفع الكتب في بابيه، قال: ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد، ووهب أهله ما أراد، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جمع على طول السنين، وعمر الدهور فمنه القضيبي الزمرد طوله نحو قصبة ونصف، والجبل الياقوت وغيرهما، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة، والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد، ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر أرسل نور الدين إليه يعرفه ذلك فحل عنده أعظم محل وسير إليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتضوي إكراماً له، لأن عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية، وكذلك أيضاً سير خلعا لصلاح الدين إلا أنها أقل من خلع نور الدين، وسيرت الأعلام السود لتنصب على المنابر وكانت هذه أول أهبة عباسية قد دخلت مصر بعد استيلاء العبيديين عليها، انتهى ما قاله شيخنا ابن الأثير.

قلت: ولما وصل الخبر إلى الامام المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن الامام المستنجد، وهو والد الامام الناصر لدين الله بما تجدد من أمر مصر، وعود الخطبة والسكة بهاباسمه بعد انقطاعها بمصر هذه المدة الطويلة، نظم أبو الفتح محمد سبط ابن التعاويذي المقدم ذكره قصيدة طنانة، مدح بها الامام المستضيء، وذكر هذه الفتوح المتجددة، وفتوح بلاد اليمن أيضاً، وهلاك الخارجي بها الذي سمى نفسه المهدي، وذلك في سنة إحدى وسبعين وخمسة، وكان صلاح الدين قد أرسل له من ذخائر مصر وأسلاب المصريين شيئاً كثيراً وأولها:

قل للسحاب إذا مرت
— به يد الجنايب فإرحجن
عج باللوى فاسمح بدم
— عك للمعاهد والدم من
يامنزل الانس الجمي
— سع وملعب الحي الاغن
سكنت بك الأرام من
بعد الاجبة والسكن
أين استقلت بالحيي
— بركابه ومتى ظعن
شوقي إلى زم من الحمى
سقى الغوادي من زم
شوقي المغرب شردته
العباد عن الوطن
ولقد عهدتك والزما
ن يشملنا بك ما قطن

وتراك ما اغبرت مسا
رحه وماؤك ما أجن
وظب ماؤك الاتراب لي
وطر وتربك لي وطن
لام العذل ومادري
وجدي وبلبالي بمن
وجدي بمن فضح القضي
— ب وأخجل الرشا الأغن
ماض من هوفتنني
لو كان يرحم ما فتن
دمعي طليق في محب
— ته وقلبي مـرتن

يسامحتني أودى الصددو
دلعا شق بك ممتحن
غادرته وقفه على الـ
عبرات بعدك والخرن
كان الفؤاد معذبا
بين الاقامة والظعن
عطفه على قرح الجفو
ن يعيد عهد بالوسن
لا تبخلي فالبخل يذل
هب بهجة الوجه الحسن
ولرب ليل بيث فيـ
ه صريع باطية ودن
لكنني كفرت لـ
يلة زرتـه عني وعن
بمـدائحـي للمستضيء
أبي محمد الحسن
المستقر من الخلا
فة في الشواهد والقنن
يا جاريا في العدل من
سنن النبي على سنن
يا جامعاً خلق النبؤ
ة والخلافة في قرن
دانست لهيتك المما
لك والمعاقيل والمدن
بالمشرفيات الصوا
رم والمثقفـة اللـدن
وأنتك أسلاب الملو
ك من الصعيـد إلى عدن
سلب السدعي بأرض مصـ
ر والمضلـل في اليمن

فسكـرت مـن ألـحـاظـهـا
وغنـيت مـن صـهـبـائـهـا
بيضـاء قـتـلـي دأبـهـا
فـي نـأبـيـهـا وئـسـوائـهـا
فـإـذا رنـت بـجـفـوائـهـا
وإـذا نـأت بـجـفـائـهـا
لـاتـلـتـقـي أبـسـدـامـوائـهـا
عـدـمـا بـيـوم وفـائـهـا
الـشـمـس مـن ضـرائـهـا
والبـدر مـن رـقـبـائـهـا
والصـبـح فـسـوق لـثـامـهـا
واللـيـل تـحـت رـدائـهـا
مـضـريـة تـتمـسـي إـذا انـسـا
تـسـبـت إـلى حـمـرائـهـا
بـاتـت وأطـراف الـرـمـا
ح تـجـول حـول خـبـائـهـا
فـالمـوت دـون فـراقـهـا
والمـوت دـون لـقـائـهـا
ولـقـد مـررت بـرـبـعـهـا
بـعد النـوى وفـنائـهـا
والعـين فـي الأظـلال سـا
كـبـة عـلى أظـلالـهـا
فـوقـفت أنـشـد فـي مـطـا
لـعـهـا بـدور سـمائـهـا
وبـكـيت حـتى كـدت أعـا
طـف بـانـتـي جـرعائـهـا
يـامـوحـش العـين التـي
أنـسـت بـطـول بـكـائـهـا

غادرت بين جوانحي
نفساً تموت بدائها
تشتاق عيني أن تـرا
ك وأنت من سودائها
وإذا بخلت بنظرة
سمحت بجمة مائها
فسكانها كـف الخلي
سفة أسبلت بعطائها (٨)

وبعد هذا شرع في المديح وأبدع فيها جميعها، وسأذكر بعد هذا عند
أواخر هذه الترجمة شيئاً من مدائحه في صلاح الدين إن شاء الله تعالى،
فقد كان يسير قصائده إليه من بغداد فتصل أولاً إلى القاضي الفاضل،
ومعها مديح للفاضل، وهو الذي يعرض قصائده على صلاح الدين
رحمه الله تعالى.

ثم ذكر شيخنا ابن الأثير بعد هذا فصلاً يتضمن حصول الوحشة بين
نور الدين وصلاح الدين باطناً فقال: وفي سنة سبع وستين أيضاً حدث
ما أوجب نفرة نور الدين عن صلاح الدين، وكان الحادث أن نور الدين
أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد
الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع أيضاً هو عساكره ويسير
إليه، ويجمعان هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم، فبرز
صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم، وكتب إلى نور الدين
يعرفه أن رحيله لا يتأخر، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام
ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر
بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك، فوصل إليه وأقام ينتظر
وصول صلاح الدين إليه، فأرسل كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال
البلاد المصرية لأمر بلغته عن بعض شيعة العلويين، وأنهم عازمون على
الوثوب بها، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها أن يقوم أهلها على من

تخلف بهاء فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه، وتغير عليه، وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين، فحيث لم يمثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها فبلغ الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله ومنهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه، واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين -قلت: وقد تقدم ذكره أيضاً في ترجمة مستقلة - وقال: إذا جاء قاتلنا ومنعنا عن البلاد، ووافقه غيره من أهله فشتهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر وعقل وقال لتقي الدين: أقعد وسبه وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وخالك شهاب الدين نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فكيف يكون غيرنا، وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر من الثبات على سرجه، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، وإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب إليه كتاباً وتقول: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأني حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتني منديلاً ويأخذني إليك فما ههنا من يمتنع عليك، وقال لجماعته كلهم: قوموا عنا فنحن ممالك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد ففرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر، ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على شرك وما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه، وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك أحداً

من هذا العسكر، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون إليه، ويعرفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل إليه في المعنى، وتقول: أي حاجة إلى قصدي يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واستعمل ما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله كل وقت في شأن، والله لو أراد نور الدين قسبة من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل، ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين أيوب، وتوفي نور الدين ولم يقصده، وملك صلاح الدين البلاد، وهذا كان من أحسن الآراء، وأجودها. انتهى ما ذكره ابن الأثير.

وقال شيخنا ابن شداد في السيرة: لم يزل صلاح الدين على قدم بسط العدل ونشر الاحسان وإفاضة الإنعام على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسة، فعند ذلك خرج بالعسكر يريد بلاد الكرك والشوبك وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تعبر قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها، فأراد توسيع الطريق وتسهيلها فحاصرها في هذه السنة، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات وعاد ولم يظفر منها بشيء، فلما عاد بلغه خبر وفاة والده نجم الدين أيوب قبل وصوله إليه.

قلت: وقد ذكرت تاريخ وفاته في ترجمته، قال: ولما كانت سنة تسع وستين رأى قوة عسكره، وكثرة عدده، وكان بلغه أن باليمن إنسانا استولى عليها وملك حصونها يسمى عبد النبي بن مهدي، فسير أخاه توران شاه إليه فقتله وأخذ البلاد منه، وقد بسطت القول في ذلك في ترجمته، ثم توفي نور الدين في سنة تسع وستين حسبما شرحت في ترجمته فلا حاجة إلى إعادته.

وبلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له الكنز جمع بأسوان خلقاً كثيراً من السودان، وزعم أنه يعيد الدولة المصرية، وكان أهل مصر يؤثرون عودهم فإنضافوا إلى الكنز المذكور، فجهز صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً، وجعل مقدمه أخاه الملك العادل وساروا فالتقوا وكسروهم، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين وخمسة، واستقرت له قواعد الملك، وكان نور الدين رحمه الله قد خلف ولده الملك الصالح اسماعيل المذكور في ترجمة أبيه، وكان بدمشق عند وفاة أبيه، وكان بقلعة حلب شمس الدين علي بن الداية وشاذبخت، وكان ابن الداية قد حدث نفسه بأمور فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب، فوصل إلى ظاهرها في المحرم من سنة سبعين ومعه سابق الدين فخرج بدر الدين حسن بن الداية فقبض على سابق الدين ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن المذكور، وأودع الثلاثة في السجن وفي ذلك اليوم قتل أبو الفضل ابن الخشاب لفتنة جرت بحلب، وقيل بل قتل قبل قبض أولاد الداية بيوم لأنهم تولوا تدبير ذلك.

ثم إن صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أن ولده الملك الصالح صبي لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك، واختلت الأحوال بالشام، وكاتب شمس الدين المقدم ذكره صلاح الدين، فتجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهراً أنه يتولى مصالح الملك الصالح، فدخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وخمسة، وتسلم قلعتها، وكان أول دخوله دار أبيه، قلت: وهي الدار المعروفة بالشريف العقيلي، وهي اليوم في قبالة المدرسة العادلية مشهورة هناك بالعقيلي، قال: واجتمع الناس إليه وفرحوا به وأنفق في ذلك اليوم مالاً جزيلاً، وأظهر السرور بالدمشقيين، وصعد القلعة وسار إلى حلب، فنازل حمص وأخذ مدينتها في جمادى الأولى من السنة ولم يشغل بقلعتها وتوجه إلى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من السنة، وهي الوقعة الأولى، ثم إن سيف الدين غازي بن قطب

الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل لما أحس بما جرى علم أن الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه، وخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه في الملك وتعدى الأمر إليه فأنفذ عسكرياً وافراً وجيشاً عظيماً وقدم عليه أخاه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، وساروا يريدون لقاءه ليردوه عن البلاد، فلما بلغ صلاح الدين ذلك رحل عن حلب في مستهل رجب من السنة عائدًا إلى حمّاه، ورجع إلى حمص فأخذ قلعتها ووصل عز الدين مسعود إلى حلب وأخذ معه عسكري ابن عمه الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب يومئذ، وخرجوا في جمع عظيم، فلما عرف صلاح الدين بمسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حمّاه، وراسلوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به غرضهم، والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لا يشعرون، فتلاقوا فقضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم فمنّ عليهم، وذلك في تاسع شهر رمضان من السنة عند قرون حمّاه، ثم سار عقيب كسرتهم، ونزل على حلب وهي الوقعة الثانية فصالحوه على أخذ المعرة وكفر طاب وماردين، ولما جرت هذه الوقعة كان سيف الدين غازي يحاصر أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار وعزم على أخذها منه لأنه كان قد انتمى إلى صلاح الدين، وكان قد قارب أخذها، فلما بلغه الخبر أن عسكريه انكسر خاف أن يبلغ أخاه عماد الدين الخبر فيشتد أمره ويقوى جأشه فراسله وصالحه، ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر والانفاق فيها، وساروا إلى البيرة وعبر الفرات وخيم على الجانب الشامي، وراسل ابن عمه الصالح نور الدين صاحب حلب حتى تستقر له قاعدة يصل عليها، ثم إنه وصل إلى حلب، وخرج الملك الصالح إلى لقاءه وأقام على حلب مدة، وصعد قاعته جريدة، ثم نزل وسار إلى تل السلطان — قلت: وهي منزلة بين حمّاه وحلب — قال: ومعه جمع كبير، وراسل صلاح الدين إلى مصر يطلب عسكريها فوصل إليه، وسار به حتى نزل إلى قرون حمّاه ثم تصافوا.

بكرة الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين بن زين الدين — قلت: هو صاحب إربل المقدم ذكره — قال: فإنه كان على يمينه سيف الدين، فحمل صلاح الدين بنفسه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً من كبار الأمراء، فمنّ عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزائنه، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده ومنع صلاح الدين من تتبع القوم، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيامهم، فلأنهم تركوا أثقالهم وانهزموا، ففرق صلاح الدين الاصطبلات، ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين لابن أخيه عز الدين فرخشاه — قلت: هو ابن شاهان شاه ابن أيوب وهو أخو تقي الدين عمر صاحب حمّاه وفرخشاه صاحب بعلبك وهو والد الملك الامجد بهرام شاه صاحب بعلبك — قال: وسار إلى منبج فتسلمها، ثم سار إلى قلعة عزاز يحاصرها، وذلك في رابع ذي القعدة من سنة إحدى وسبعين.

وفيها وثب جماعة من الاسماعيلية على صلاح الدين فنجاه الله سبحانه منهم وظفر بهم، وأقام عليها حتى أخذها في رابع عشر ذي الحجة من السنة، ثم سار حتى نزل على حلب في سادس عشر الشهر المذكور وأقام عليها مدة، ثم رحل عنها، وكانوا قد أخرجوا إليه ابنة صغيرة لنور الدين سأله عزاز فوهبها لها.

ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ليتفقد أحوالها، وكان مسيره إليها في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين، وكان أخوه شمس الدولة توران شاه قد وصل إليه من اليمن، فاستخلفه بدمشق، ثم تاهب للغزاة، وخرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وكانت الكسرة على المسلمين في ذلك اليوم — قلت: وذلك الأمر يطول شرحه — قال: فلما انهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق

وتبددوا، وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى الهكاري، وكان ذلك وهنا عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة.

وأما الملك الصالح صاحب حلب فإنه تخطيط أمره، وقبض على كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله، فلما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها وذلك في جمادى الأخرى من السنة، فلما رأى أهل قلعتها الخطر من جهة الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأخير من شهر رمضان من السنة، فرحل الفرنج عنها، وأقام صلاح الدين بمصر حتى لم شعثها وشعث أصحابه من أثر كسرة الرملة، ثم بلغه تخطيط الشام فعزم على العودة إليه واهتم بالغزاة، فوصله رسول قليج أرسلان صاحب الروم يلتمس الصلح ويتضرر من الأرمن، فعزم على قصد بلاد ابن لاون - قلت: وهي بلاد سويس الفاصلة بين حلب والروم من جهة الساحل - قال: لينصر قليج أرسلان عليه، فتوجه إليه واستدعى عسكر حلب لأنه كان في الصلح أنه متى استدعاه حضر إليه، ودخل بلاد ابن لاون وأخذ في طريقه حصناً وأخزبه ورغبوا إليه في الصلح فصالحهم ورجع عنهم، ثم سأل قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم فأجاب إلي ذلك، وحلف صلاح الدين في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين وخمسمائة، ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة، وعاد بعد تمام الصلح إلى دمشق، ثم منها إلى مصر، ثم توفي الملك الصالح بن نور الدين في التاريخ المذكور في ترجمة والده، وكان قد استحلف أمراء حلب وأجنادها لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل - قلت: وقد تقدم ذكره وهو ابن عم قطب الدين مودود - فلما بلغ عز الدين خبر موت الملك الصالح، وأنه أوصى له بحلب بادر إلى التوجه إليها خوفاً أن يسبقه صلاح الدين في أخذها، وكان أول قادم إليها مظفر الدين ابن زين الدين - قلت: هو صاحب إربل وكان إذ ذاك صاحب حران، وهو مضاف إلى المواصلة لأن تلك البلاد كانت لهم - قال: فوصلها مظفر

الدين في ثالث شعبان سنة سبع وسبعين، وفي العشرين منه وصلها عز الدين مسعود، وصعد إلى القلعة فاستولى على ما فيها من الخواصل، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة.

قلت: ثم إن شيخنا ابن شداد ذكر بعد هذا أموراً ذكرتها في ترجمة عز الدين مسعود بن مودود، وترجمة أخيه عماد الدين زنكي، وترجمة تاج الملوك بوري أخي صلاح الدين فلا حاجة إلى إعادتها ههنا، فمن أراد الوقوف عليها يكشفها في هذه التراجم.

قلت: وحاصل الأمر أن عز الدين مسعود قايض أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار عن حلب بسنجار، وخرج عز الدين عن حلب، ودخلها عماد الدين زنكي، فجاءه صلاح الدين وحاصره فلم يقدر عماد الدين على حفظ حلب، وكان نزول صلاح الدين على حلب في السادس والعشرين من المحرم سنة سبع وسبعين وخمسمائة.

وقال ابن شداد: نزل عليها في السادس عشر المحرم والله أعلم فتحدثت عماد الدين زنكي مع الأمير حسام الدين طمان بن غازي في السر بما يفعله، فأشار عليه بأن يطلب منه بلاداً، وينزل له عن حلب بشرط أن يكون له جميع ما في القلعة من الأموال، فقال له عماد الدين: وهذا كان في نفسي، ثم اجتمع حسام الدين طمان بصلاح الدين في السر على تقرير القاعدة في ذلك، فأجابه صلاح الدين إلى ما طلب، ودفع له سنجار، والخابور، ونصيبين، وسروج، ودفع لطمان الرقة لسفارته بينهما، وحلف صلاح الدين على ذلك في سابع عشر صفر من السنة، وكان صلاح الدين قد نزل على سنجار وأخذها في ثامن شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وأعطاه لابن أخيه تقي الدين عمر، فلما جرى الصلح على هذه الصورة أعطاه عماد الدين، وتسلم صلاح الدين قلعة حلب، وصعد إليها يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين

وخمسائة، وأقام بها حتى رتب أمورها، ثم رحل عنها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، وجعل فيها ولده الملك الظاهر المقدم ذكره في ترجمة مستقلة، وكان صبياً وولى القلعة سيف الدين يازكوج الأسدي، وجعله يرتب مصالح ولده، ثم سار صلاح الدين إلى دمشق في التاريخ المذكور.

قال ابن شداد: وتوجه من دمشق لقصد محاصرة الكرك في الثالث من رجب من السنة المذكورة، وسير إلى أخيه الملك العادل وهو بمصر يستدعيه ليجتمع به على الكرك، فسار إليه بجمع كثير وجيش عظيم واجتمع به على الكرك في رابع شعبان من السنة، فلما بلغ الفرنج الخبر حشدوا خلقاً كثيراً، وجاءوا إلى الكرك ليكونوا في قبالة عسكر المسلمين، فخاف صلاح الدين على الديار المصرية، فسير إليها ابن أخيه تقي الدين عمر، ورحل عن الكرك في سادس عشر شعبان من السنة، واستصحب أخاه الملك العادل معه ودخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان من السنة وأعطاه حلب ودخلها في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان من السنة، وخرج الملك الظاهر ويازكوج ودخلا دمشق في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شوال من السنة، وكان الملك الظاهر أحب أولاده إليه لما فيه من الخلائ الحميدة، ولم يأخذ منه حلب إلا لمصلحة رآها في ذلك الوقت، وقيل إن العادل أعطاه على أخذ حلب ثلاثمائة ألف دينار يستعين بها على الجهاد والله أعلم.

ثم إن صلاح الدين رأى عود الملك العادل إلى مصر، وعود الملك الظاهر إلى حلب أصلح، قيل كان سبب ذلك أن الأمير علم الدين سليمان بن جند ر قال لصلاح الدين وكان بينهما مؤانسة قبل أن يملك البلاد، وقد سايره يوماً، وكان من أمراء حلب، والملك العادل لا ينصفه ويقدم عليه غيره، وكان صلاح الدين قد مرض على حصار الموصل، وحمل إلى حران وأشفى على الهلاك، فلما عوفي رجع إلى الشام واجتمعوا في

المسير، قال له وكان صلاح الدين قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد: بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضي كأنك كنت خارجاً إلى الصيد وتعود فلا يخالفونك، أما تستحي أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة؟ قال: وكيف ذاك وهو يضحك؟ قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عشاءً لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض، هذه حلب وهي أم البلاد بيد أخيك، وحماة بيد ابن أخيك، وحمص بيد ابن أسد الدين، وابنك الأفضل مع تقي الدين بمصر يخرجته متى شاء، وابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد، فقال له: صدقت فاكم هذا الأمر، ثم أخذ حلب من أخيه وأعطاه ولده الملك الظاهر، وأعطى الملك العادل بعد ذلك حران والرهاوميا فارقين ليخرجه من الشام، ويتوفر الشام على أولاده فكان ما كان.

قلت: وقد تقدّم في ترجمة عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود صاحب الموصل فصل يتعلق بنزول صلاح الدين على الموصل وحصارها ثلاث مرات، ولم يقدر عليها. قال شيخنا ابن الأثير في تاريخه: إنه نزل عليها في الدفعة الثالثة، وكان زمن الشتاء، وعزم على المقام واقطاع جميع الموصل وكان نزوله في شعبان من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، فأقام شعبان وشهر رمضان، وترددت الرسل بينه وبين صاحبها فبينما هو كذلك مرض صلاح الدين فعاد إلى حران ولحقته الرسل بالإجابة إلى ما طلب، ثم الصلح على أن يسلم إليه صاحب الموصل شهر زور و أعمالها وولاية قالي قلا وماوراء الزاب من الأعمال، وأن يخطب له على المنابر وينقش اسمه على السكة فلما حلف أرسل صلاح الدين نوابه وتسلم البلاد التي استقرت القاعدة على تسليمها، وطال المرض على صلاح الدين بحران، واشتد به حتى يئسوا منه، فحلف الناس لأولاده، وكان عنده منهم الملك العزيز عماد الدين عثمان وأخوه العادل جاءه من حلب وهو ملكها يومئذ وجعل لكل واحد شيئاً من البلاد وجعل الملك

العادل وصياً على الجميع، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق في المحرم من سنة اثنين وثمانين، ولما كان مريضاً بحران كان عنده ناصر الدين محمد ابن عمه، وله من الاقطاع حمص والرحبة، فسار من عنده إلى حمص واجتاز بحلب وأحضر جماعة من الأحداث ووعدهم وأعطاهم مالا على تسليم دمشق إليه إذا مات صلاح الدين فعوفي فلم يمض إلا قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد النحر من السنة، فإنه شرب الخمر فأكثر منه فأصبح ميتاً، وقيل إن صلاح الدين وضع عليه إنساناً فحضر عنده وناداه وسقاه سماً، فلما أصبحوا من الغد لم يروا ذلك الشخص، وكان يقال له الناصح بن العميد، فسألوا عنه فقالوا : إنه سار من ليلته، وكان هذا مما قوى الظن والله أعلم، فلما توفي أعطى اقطاعه لولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف من الأموال والدواب والأثاث شيئاً كثيراً، فحضر صلاح الدين إلى حمص، واستعرض تركته، وأخذ أكثرها، ولم يترك إلا ما لا خير فيه.

ثم قال شيخنا بعد هذا كله: وبلغني أن شيركوه حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة، فقال له: إلى أين بلغت في القرآن؟ فقال له: إلى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً) فعجب الجماعة وصلاح الدين من ذكائه، والله أعلم بصحة ذلك.

قال ابن شداد: ولما وصل صلاح الدين إلى دمشق عقيب مرضه وابلاله، سير طلب أخاه الملك العادل فخرج من حلب جريدة يوم السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين، ومضى إلى دمشق فأقام في خدمة السلطان صلاح الدين، وجرت بينهما أحاديث ومراجعات وقواعد تتقرر إلى جهادى الأخرى من السنة، فاستقر الأمر على عود الملك العادل إلى مصر، وأخذت حلب منه، وسار الملك الظاهر إليها ودخل قلعتها يوم السبت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة.

وقد ذكرت في ترجمة الملك الظاهر أنه دخل حلب مالكاً لها في مثل يوم وفاته، وعينت هناك التاريخ واسم اليوم، هكذا وجدته، وما أدري من أين نقلته وسلم السلطان ولده الملك العزيز إلى العادل وجعله أتابكه.

قال ابن شداد: قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة: اجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للملك العزيز: اعلم يا مولانا أن السلطان أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم أن المقدمين كثير وما يخلو أن يقال عني مالا يجوز ويخوفونك مني فإن كان لك عزم أن تسمع منهم فقل لي حتى لا أجيء؟ فقال: كيف يتهيا لي أن أسمع منهم أو أرجع إلى رأيهم، ثم التفت إلى الملك الظاهر، وقلت له: أنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المقدمين وأنا فها لي إلا أنت وقد قنعت منك بمنيج متى ضاق صدري من جانبه فقال: مبارك، وذكر لي كل خير، وزوج السلطان ولده الملك الظاهر غازية خاتون ابنة أخيه الملك العادل ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من رمضان من السنة.

ثم كانت وقعة حطين المباركة على المسلمين، قال: وكانت في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة في وسط نهار الجمعة، وكان كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر، فسار في ذلك الوقت بمن اجتمع له من العساكر الإسلامية وكانت عدّة تجوز العدّ والحصار على تعبئة حسنة وهيئة جميلة، وكان قد بلغه عن العدو أنه اجتمع في عدّة كثيرة بمرج صفورية بأرض عكا، عندما بلغهم اجتماع العساكر الإسلامية، فسار ونزل على بحيرة طبرية على سطح الجبل ينتظر قصد الفرنج له إذا بلغهم نزوله بالموضع المذكور، فلم يتحركوا ولم يخرجوا من منزلتهم، وكان نزولهم بالموضع المذكور يوم الأربعاء الحادي والعشرين

من شهر ربيع الآخر، فلما رأهم لا يتحركون عن منزلتهم نزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حالها قبالة العدو، ونازل طبرية وهجمها وأخذها في ساعة واحدة، وانتهب الناس ما بها وأخذوا في القتل والسبي والحريق، وبقيت القلعة محتمية بمن فيها، ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية قلقوا لذلك، ورحلوا نحوها، فبلغ السلطان ذلك، فترك على طبرية من يحاصرها، ولحق بالعسكر فالتقى بالعدو على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر، وحال الليل بين العسكرين فباتا على مصاف إلى بكرة يوم الجمعة الثالث والعشرين، فركب العسكران وتصادما والتحم القتال، واشتد الأمر، وذلك بأرض قرية تعرف بلوييا، وضاق الخناق بالعدو وهم سائرون كأنهم يساقون إلى الموت، وهم ينظرون، وقد أيقنوا بالويل والثبور، وأحست نفوسهم أنهم في غد يومهم ذلك من زوار القبور، ولم تزل الحرب تضطرم والفارس مع قرنه يصطدم، ولم يبق إلا الظفر ووقع الوبال على من كفر، فحال بينهم الليل بظلامه، وبات كل واحد من الفريقين بمقامه، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد العدو، وأنهم لا ينجيهم إلا الاجتهاد في القتال، فحملت أطلاب المسلمين من كل جانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد: الله أكبر، فألقى الله تعالى الرعب في قلوب الكافرين، وكان حقا عليه نصر المؤمنين، ولما أحس القومس بالخذلان هرب منهم في أوائل الأمر وقصد جهة صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجا منهم وكفى الله شره، وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب، وأطلقوا عليهم السهام، وحكموا فيهم السيوف، وسقوهم كأس الحمام، وانهمت طائفة منهم فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها أحد، واعتصمت طائفة منهم بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام فضايقهم المسلمون، وأشعلوا حولهم النيران، واشتد بهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كادوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل لما مر بهم، فأسر مقدميهم،

وقتل الباقون، وكان ممن أسر من مقدميهم الملك كي وجفري أخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك وابن الهنفري وابن صاحب طبرية ومقدم الديوية، وصاحب جبيل، ومقدم الاسبتار.

قال ابن شداد: ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً معه نيف وثلاثون أسيراً قد ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان.

ثم إن القومس الذي هرب في أول الأمر وصل إلى طرابلس، فأصابه ذات الجنب فهلك منها، وأما مقدما الاسبتارية والديوية فإن السلطان قتلها، وقتل من بقي من صنفها حياً وأما البرنس أرناط، فإن السلطان كان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك لأنه كان قد عبر به عند الشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي، صلى الله عليه وسلم، وبلغ ذلك السلطان فحملته حميته ودينه على أن يهدر دمه، ولما فتح الله عليه بنصره جلس في دهليز الخيمة لأنها لم تكن نصبت بعد، وعرضت عليه الأسارى، وصار الناس يتقربون إليه بمن في أيديهم منهم، وهو فرح بما فتح الله تعالى على يديه للمسلمين، ونصبت له الخيمة فجلس فيها شاكراً لله تعالى على ما أنعم به عليه واستحضر الملك كي وأخاه والبرنس أرناط وناول السلطان كي شربة من جلاب وثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناوها البرنس وقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي سقيته، وأما أنا فما سقيته، وكان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن، فقصده السلطان بقوله ذلك، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عينه لهم، فمضوا بهم إليه، فأكلوا شيئاً، ثم عادوا بهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم فاستحضرهم، وأقعد الملك في دهليز الخيمة، واستحضر البرنس أرناط، وأوقفه بين يديه وقال له: ها أنا

أنتصر لمحمد منك ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل فسل النمشة، فضربه بها فحل كتفه، وتم قتله من حضر، وأخرجت جثته ورميت على باب الخيمة، فلما رآه الملك كي على تلك الحالة لم يشك في أنه يلحقه به فاستحضره وطيب قلبه، وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فقد تجاوز الحد وتجراً على الأنبياء.

وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ترتفع أصواتهم بحمد الله تعالى وشكره وتهليله وتكبيره حتى طلع الفجر، ثم نزل السلطان على طبرية يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر، وتسلم قلعتها في ذلك النهار، وأقام عليها إلى يوم الثلاثاء، ثم رحل طالباً عكا، فكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين فأخذها، واستنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين، وكانوا أكثر من أربعة آلاف أسير، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع لأنها كانت مظنة التجار، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعه، فأخذوا نابلس، وحيفا وقيسارية وصفورية والناصره، وكان ذلك لخلوها من الرجال لأن القتل والأسر أفنى كثيراً منهم، ولما استقرت قواعد عكا وقسم أموالها وأسارها سار يطلب تبين فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى، وهي قلعة منيعة، فنصب عليها المناجيق، وضيق بالزحف خناق من فيها، وكان فيها أبطال معدودون، وفي دينهم متشددون، فقاتلوا قتالاً شديداً، ونصره الله سبحانه وتعالى عليهم، فتسلمها منهم يوم الأحد ثامن عشر عنوة وأسر من بقي فيها بعد القتل، ثم رحل عنها إلى صيدا فنزل عليها وتسلمها عند نزوله عليها، وهو يوم الأربعاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى، وأقام عليها ريثما قرر قواعدها، وسار حتى أتى بيروت، فنزل عليها ليلة الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى، وركب عليها المجانيق وداوم الزحف والقتال حتى أخذها في يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر

المذكور، وتسلم أصحابه جبيل وهو على بيروت، ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها، ثم رأى أن العسكر تفرق في الساحل وذهب كل واحد يحصل لنفسه، وكانوا قد ضرسوا من القتال، وملازمة الحرب والنزال، وكان قد اجتمع في صور من بقي في الساحل من الفرنج، فرأى أن قصده عسقلان أولى لأنها أيسر من صور، فأتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة من السنة، وتسلم في طريقة إليها مواضع كثيرة كالرملة والدارون، وأقام على عسقلان المناجيق وقاتلها قتالاً شديداً وتسلمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة من السنة، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون من غير قتال، وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة فإنهم كانوا أخذوها من المسلمين في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسة، هكذا ذكر شيخنا ابن شداد في السيرة، وذكر الشهاب ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه المشترك وضعاً والمختلف صقلاً أنهم أخذوها من المسلمين في رابع عشر جمادى الآخرة من السنة.

قال ابن شداد: لما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل، فسار نحوه معتمداً على الله تعالى مفوضاً أمره إليه منتهزاً الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه بقوله صلى الله عليه وسلم: من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه، وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسة، وكان نزوله بالجانب الغربي، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، وحزر أهل الخبرة ممن كان معه من كان فيه من المقاتلة فكانوا يزدون على ستين ألفاً خارجاً عن النساء والصبيان، ثم انتقل لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب المناجيق، وضيق البلد بالزحف والقتال

حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم، ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لامدفع له عنهم، وظهرت لهم أمارات فتح المدينة، وظهور المسلمين عليهم، وكان قد اشتد روعهم لما جرى على أبطالهم وحماهم من القتل والأسر، وعلى حصونهم من التخريب والهدم، وتحققوا أنهم صائرون إلى ما صار أولئك إليه فاستكانوا وأخذوا في طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسليمه يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم، فانظر إلى هذا الاتفاق الغريب العجيب، كيف يسر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمن الأسراء بنبيهم صلى الله عليه وسلم، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى، وكان فتحه عظيماً شهدته من أهل العلم خلق ومن أرباب الحذق والزهد عالم، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسره الله تعالى على يده من فتح الساحل، وقصد القدس، قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف أحد منهم، وارتفعت الأصوات بالضجيج بالدعاء والتهليل والتكبير، وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وخطب الخطيب.

قلت: وقد تقدم في ترجمة القاضي محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن الزكي ذكر الخطبة التي خطب بها ذلك اليوم، فيكشف منه، ورأيت في رسالة القاضي الفاضل المعروفة بالقدسية أن الخطبة أقيمت يوم الجمعة رابع شعبان، وإذ قد ذكرنا فتوح القدس، وقد تقدم ذكر الخطبة التي خطب يوم الجمعة بها يليق أن نذكر الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى الامام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن الامام المستضيء بأمر الله تتضمن الفتوح فإنها بديعة بليغة في بابها ولم أذكرها بكمالها بل اخترت منها أحسنها، وتركت الباقي لأنها طويلة، وهي: «أدام الله تعالى أيام الديوان العزيز النبوي ولازال مظفر الجد بكل جاحد، غنيا بالتوفيق عن رأي كل زائد، موقوف المساعي عن اقتناء مطلقات المحامد، مستيقظ النصر والنصل في جفنه راقد وارد الجود

والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنيل غوي ورئيس راشد، لازالت غيوث فضله إلى الاولياء أنواء إلى المراتع وأنوار إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الاعداء خيلاً إلى المراقب، وخيالاً إلى المراتب، قد كتب الخادم هذه الخدمة تلوما صدر عنه مما كان يجري مجرى التبشير لصبح هذه العزمه، والعنوان لكتاب وصف النعمه، فإنها بحر للاقلام فيه سبح طويل، ولطف تحمل الشكر فيه عبء ثقیل، وبشرى للخواطر في شرحها مأرب، ويسرى للأسرار في اظهارها مشارب، والله تعالى في إعادة شكره رضاء وللنعمه الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى، ولقد صارت أمور الاسلام إلى أحسن مصائرهما وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرهما وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه، فلما وقع الشرط وقع المشروط، وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه، والفوز معروضاً قد بذلت الأنفس في ثمنه، وأمر الحق وكان مستضعفاً وأهل رعبه، وكان قد عيف حين عفا، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، وأدججت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين، واستطارت له أنوار أبايت أن الصباح عند حسان الجبين، واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم أبقاء، وظفروا يقظة بالم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً، واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة، قلوبهم كما يشفي الماء عليلهم، ولما قدم الدين عليها عرق منها سويداء قلبه، وهنا كفوها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه، وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى، ولا يناجز من يستملكه في حربه، ولا يعاتب بأطراف القنا من يتفادى في عتبه إلا لتكون الكلمة مجموعة، فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسن ربما

سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطراً، ومن رام صفقة رابحة جاسراً، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر، وإلا فإن العقود تلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فيعضها، ويضعف في أيديها مهز القوائم فيفضها هذا إلى كون القعود لا يقضى به فرض الجهاد، ولا يراعى به حقه في العباد، ولا يوفى به واجب التقليد الذي يطوّفه الخادم من أئمة قضوا بالحق وكانوا يعدلون، وخلفاء كانوا في مثل هذا اليوم يتساءلون لا جرم أنهم أورثوا أسرهم وسريهم، خلفهم الأطهر، ونجلهم الأكبر، وبقيتهم الشريفة، وطليعتهم المنيفة، وعنوان صحيفه فضلهم لأعدم سواد القلم وبياض الصحيفة، فما غابوا لما حضر، ولا غضوا لما نظر، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً، ومنه مقبولاً، وخلص إليهم إلى المضاجع فاطمأنت به جنوبها، وإلى الصحائف ماعقت به جيوبها، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميراً، والنهار به بصيراً، والشرق يهتدي بأنواره، بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأنواره فإنه نور لا تكنه اغساق السدف، وذكر لاتوازيه أو راق الصحف، وكتب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته، وطارت من فرقه فرقاً، وفل سيفه فصار عصاً، وصدعت حصاته، وكان الأكثر عدداً وحصاً، وكلت حملاته، وكان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان، وعقوبة من الله ليس لصاحب بيتها يدان، وعثرت قدمه، وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطق الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شاحخة بالمنى أو زاعقة بالمنون، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة، وكانت الطامث والرب الفرد الواحد، وكان عندهم الثالث، وبيوت الكفر مهدومه، ونيوب الشرك مهتومة، وطوائفه المحامية مجمعة على تسليم القلاع الحامية، وشجعانه المتوافية مذعنة لبذل القطائع الوافية، لا يرون في الحديد لهم عصر، ولا في

نار الألفة لهم نصر، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبديل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة، إلى أيدي أصحاب اليمين، وقد كان الخادم لقيهم اللقاء الأولى، فأمدّه الله بمداركتة وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعد هاجره، وصرعهم صرعة لا يتتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من قتلت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، وعن المصاف بخيل فالة قتلهم بالسيوف الافلاق والرماح الاكسار، فنبلوا بثار من السلاح ونالوه أيضاً بثار، فكم أهلة سيوف تقاوض الضراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القران على بعد المسافة وافترسه، فكان اليوم مشهودا، وكانت الملائكة شهودا، وكان الضلال صارخاً، وكان الاسلام مولودا، وكانت ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وأكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصليبوت، وقائد أهل الجبروت، مادهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه، لاجرم أنهم يتهافت على ناره فراشهم، ويجمع في ظل ظلاله خشاشهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عهد وأوثقه، ويعدون سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه، وفي هذا اليوم أسرت سراتهم، وذهبت دهاتهم، ولم يفلت منهم معروف إلا القومس، وكان لعنه الله ملياً يوم الظفر بالقتال، ملياً يوم الخذلان بالاختبال، فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، فكان لعدتهم فذلك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك، وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً البيضاء صنعا، الخافقة هي وقلوب أعدائها الغالبة هي

وعزائم أوليائها، المستضاء بأنوارها، إذا فتح عينها النشر وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فافتتح بلاد كذا وكذا وهذه كلها أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلادا وهي مزارع وفدن، كل هذه ذوات معاقل ومعاقر، وبحار وجزائر، وجوامع ومنابر، وجموع وعساكر، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه، بعد أن ينتهزها، ويحصدها منها كفرأ، ويزرع أياها، ويحيط من جوامعها صلبا، ويرفع أذانا، ويبدل المذابح منابر، والكنائس مساجد، ويؤوى أهل القرآن بعد أهل الصليبان، للقتال عن دين الله مقاعد، ويقر عينه وعين أهل الاسلام أن يعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجور، وأن يظفر بكل سور ما كان يخاف زلزلة ولا زاياله عسراً إلى يوم النفخ في الصور، ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليه كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعته كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيسها إلى الله سبحانه شافعتهم، فلما نزلها الخادم رأى بلدا كبلاذ، وجمعا كيوم التناد، وعزائم قد تألبت على الموت فنزلت بعرضته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته، فزاول البلد من جانب فإذا أودية عميقة، ولجج وعر غريقه، وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار، فعدل إلى جهة أخرى كان للمطالع عليها معرج، وللخيل فيها مفرج، فنزل عليها وأحاط بها، وقرب منها وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه، ويزاحه السور بأكنافه وقابلها ثم قاتلها ونزلها، ثم نازلها وحاجزها، ثم ناجزها وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح، وصدع جمعها فإذا هم لا يبصرون على عبودية الحد عن عنق الصفح، فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة، وقصدوا نظرة من شدة، وانتظار النجدة، فعرفهم الخادم في لحن القول، وأجابهم بلسان الطول، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها، وأوتر لهم فيها التي ترمي ولا تفارقها سهامها، ولكن تفارق سهامها نصالها، فصافحت السور فإذا سهمها في ثنایا شرفاتها سواك، وقدم النصر شرا من المنجنيق يخلد خلاده إلى الأرض

ويعلو علوه إلى السماك فشبح مرادع أبراجها، وسمع صوت عجيجها صم أعلاجها، ورفع منار عجاجها فأخلى السور من السياره، والحرب من النظاره، وأمكن النقب أن يسفر للحرب النقب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سربه بأنياب معموله، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة الأنملة، وأسمع الصخرة الشريفة أنينه باستغاثته إلى أن كادت ترق لمقلته وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن يبرح الأرض، وفتح من السور باباً سد من نجاتهم أبواباً، وأخذ ينقب في حجره فقال عنده (الكافر باليتنى كنت تراباً) فحيثئذ يأس الكفار من أصحاب الدور كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور ، وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمام أمرهم ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوه، وبالأمان لا بالسطوة، وألقى بيده إلى التهلكه، وعلاه ذل الهلكة بعد عز المملكة، وطرح جنبه على التراب، وكان جنباً لا يتعاطاه طارح، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليها أهل طامح، وقال: ههنا أسارى مسلمون يتجاوزون الالوف، وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار بدأبهم ففعلوا وثني بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ثم استقتلوا فلا يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف، ولا يفك سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينقص، فأشار الأمراء بأخذ الميسور من البلد المأسور، فإنه لو أخذ حرباً فلا بد أن يقتحم الرجال الأنجاد وتبذل نفوسها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد، وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفلكات، وأثقل الحركات، فقبل منهم المبدول عن يد وهم صاغرون، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون، وملك الاسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان ، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان لا جرم أن الله تعالى أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم فلم يخلوهم الله حموها بالأسل والصفاح، وبنوها بالعمد والصفاح

وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوبة والاستتارية فيها بكل غريبة من الرخام الذي لا يطر دماؤه، ولا يتطرد لألاؤه، قد لطف الحديد في تجزيعه وتفنن في توشيعه إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد كالذهب الذي فيه نعيم عتيده، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقرق، وعمدا كالأشجار لها من التنبيت أوراق، وأوعز الخادم برء الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورد، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان، فكادت السموات يتفطرن للنجوم لا للوجوم، والكواكب منها تنتشر للطرب لا للرجوم، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد، وكانت طريقها مسدودة، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدوده، وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من برمن بر، وخفق علما في حفافيه فلو طار سروراً لطار بجناحيه، وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ماضاق بتمادي الحرب من الصدور، فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها، وأيام الشقاء قد أوردت مواردها، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخائرها، وأكلت غلالها فهي بلاد ترفد ولا تسترفد، وتجم ولا تستنفد، ينفق عليها ولا ينفق منها، وتجهز الأساطيل لبحرها وتقام المرباط بساحلها، وبدأ في عمارة أسوارها، ومر مات معاقلها، وكل مشقة بالاضافة إلى نعمة الفتوح محتملة، وأطباع الفرنج بعد ذلك غير مرجئة ولا معتزلة، فإن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع، ولن يفكوا أيديهم من أطراف البلاد حتى تقطع، وهذه البشائر الزبد، لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتخلص، فلذلك نفذ الخادم لسانا شارحاً، ومبشراً صادقاً يطالع بالخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته، وهو فلان والله الموفق». هذا آخر الرسالة الفاضلية وكان في عزمي اختصارها،

والاقتصار على محاسنها، فلما شرعت فيها قلت في نفسي : عسى أن يقف عليها من يؤثر الوقوف على جميعها فأكملتها، ورجعت عن الرأي الأول، وهي قليلة الوجود في أيدي الناس، وكانت النسخة التي نقلتها سقيمة، ولقد اجتهدت في تحريرها حتى صحت هذه الصورة حسب الا مكان وقد عمل عماد الدين الاصبهاني الكاتب رسالة في فتح القدس أيضاً، فلم أر التطويل بكتابتها، فتركها، وجمع كتاباً سماه « الفتح القيسي في الفتح القدسي » وهو في مجلدين ذكر فيه جميع ما جرى في هذه الواقعة، ورأيت منذ زمان رسالة مليحة أنشأها ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزري رحمه الله تعالى المقدم ذكره في حرف النون، تتضمن فتح القدس أيضاً، وكل واحد من أرباب صناعة الإنشاء كان يريد أن يمتحن خاطره بما يعمل في ذلك. والقاضي الفاضل رئيس هذا الفن، وإذا شرع في شيء من هذا الباب لا يستطيع أحد أن يجاريه ولا يباريه، فلهذا أتيت برسالته، ورفضت غيرها خوفاً الإطالة.

وكان قد حضر الرشيد أبو محمد عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن مفرج النابلسي الشاعر المشهور هذا الفتح فأنشد السلطان صلاح الدين قصيدته المشهورة التي أولها:
هذا الذي كانت الأيام تنتظر
فليوف الله أقواماً بما نذروا

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدحه ويهنيه بالفتح، وإذا قد نجز المطلوب من هذا الأمر فلنرجع إلى تنمة ما ذكره شيخنا بهاء الدين بن شداد في السيرة الصلاحية قال: ونكس الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلاً عظيماً، ونصر الله الاسلام على يده نصراً عزيزاً.

قلت: وقد تقدم في ترجمة أرتق طرف من أخبار القدس، وأن الأفضل أمير الجيوش بمصر أخذه من ولديه سقمان وإيل غازي، ثم أن الفرنج

استولوا عليه يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقبل في ثاني شعبان، وقيل يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان من السنة، ولم يزل بأيديهم حتى استنقذه صلاح الدين في التاريخ المذكور.

نعود إلى كلام ابن شداد: وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرين ديناراً، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية، وعن كل ذكر صغيراً وأنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر قطيعته نجبا بنفسه، وإلا أخذ أسيراً وأفرج عمن كان بالقدس من أسارى المسلمين، وكانوا خلقاً عظيماً، وأقام به يجمع الأموال، ويفرقها على الأمراء والرجال، ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه، وتقدم بايصال من أقام بقطيعته إلى مأمنه، وهي مدينة صور، ولم يرحل عنه ومعه من المال الذي جبي له شيء، وكان يقارب مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامسة والعشرين من شعبان من السنة.

ولما فتح القدس حسن عنده فتح صور، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما عسر عليه، فسار نحوها حتى أتى عكا فنزل عليها، ونظر في أمورها، ثم رحل عنها متوجهاً إلى صور في يوم الجمعة خامس شهر رمضان من السنة، فنزل قريباً منها، وأرسل لإحضار آلات القتال، ولما تكاملت عنده نزل عليها في ثاني عشر الشهر المذكور، وقاتلها وضايقها قتالاً عظيماً، واستدعى أسطول مصر فكان يقاتلها في البر والبحر، ثم سير من حاصر هونين، فسلمت في الثالث والعشرين من شوال من السنة، ثم خرج أسطول صور في الليل فكبس أسطول المسلمين وأخذوا المقدم والرئيس وخمس قطع للمسلمين وقتلوا خلقاً كثيراً من رجال المسلمين، وذلك في السابع والعشرين من الشهر المذكور، وعظم ذلك السلطان، وضاق صدره، وكان الشتاء قد هجم، وتراكت الأمطار، واستشارهم فيما

يفعلون فأشاروا عليه بالرحيل لتستريح الرجال، ويجتمعوا للقتال، فرحل عنها وحلوا من آلات الحصار ما أمكن وحرقوا الباقي الذي عجزوا عن حمله لكثرة الوحل والمطر، وكان رحيله يوم الأحد ثاني ذي القعدة من السنة، وتفرقت العساكر، وأعطى كل طائفة منها دستوراً، وسار كل قوم إلى بلادهم، وأقام هو مع جماعة من خواصه بمدينة عكا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ثم نزلوا على كوكب في أوائل المحرم من السنة، ولم يبق معه من العسكر إلا القليل، وكان حصناً حصيناً، وفيه الرجال والأقوات، فعلم أنه لا يؤخذ إلا بقتال شديد، فرجع إلى دمشق ودخله في سادس شهر ربيع الأول من السنة.

قال ابن شداد: ولما كان على كوكب وصلت إلى خدمته، ثم فارقتهم ومضيت إلى زيارة القدس والخليل عليه السلام، ودخلت دمشق يوم دخول السلطان إليها — قلت: وقد ذكرت هذا في ترجمته — وأقام بدمشق خمسة أيام، ثم بلغه أن الفرنج قصدوا جبيل واغتايلوها فخرج مسرعاً وكان قد سير يستدعي العساكر من جميع المواضع، وسار يطلب جبيل، فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك، وكان بلغه وصول عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين بن زين الدين وعسكر الموصل إلى حلب قاصدين خدمته والغزاة معه فسار نحو حصن الأكراد.

قال ابن شداد في السيرة إنه اتصل بخدمة السلطان في مستهل جمادى الأولى من سنة أربع وثمانين، وجميع ما ذكرته بروايتي عمن أثق به، ومن ههنا ما أسطر إلا ما شاهدته، وأخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان، قال: لما كان يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل السلطان بلاد العدو على تعبئة حسنة، ورتب الأطلاب وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الأخير ومقدمها مظفر الدين فوصل إلى أنطرسوس ضاحي نهار الأحد سادس جمادى الأولى فوقف قبالتها ينظر إليها لأن قصده كان جبلة فاستهان أمرها فسير من

رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر والميسرة على الجانب الآخر، ونزل هو موضعه والعساكر محدقة بها من البحر إلى البحر، وهي مدينة راکبة على البحر ولها برجان كالقلعتين فركبوا وقاربوا البلد، وزحفوا واشتد القتال وباغتوها فما استتم نصب الخيام حتى صعد المسلمون سورها وأخذوها بالسيف، وغنم المسلمون جميع ما فيها وما بها، وأحرق البلد وأقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى، وسلم أحد البرجين إلى مظفر الدين، فما زال يحاربه حتى أخربه، واجتمع به ولده الملك الظاهر لأنه كان قد طلبه فجاءه في عسكر عظيم، ثم سار يريد جبلة وكان وصوله إليها في ثاني عشر جمادى الأولى، فما ستم نزول العسكر حتى أخذ البلد، وكان فيه مسلمون مقيمون وقاض يحكم بينهم، وقوتلت القلعة قتالاً شديداً، ثم سار عنها إلى اللاذقية، وكان نزوله عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى، وهو بلد خفيف على القلب غير مسور وله مينا مشهور وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، واشتد القتال إلى آخر النهار وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة لأنه كان بلد التجار، وجدوا في أمر القلعتين بالقتال والنقوب حتى بلغ طول النقب ستين ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع فلما رأى أهل القلعتين الغلبة لا ذوا يطلبون الأمان وذلك في عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر، والتمسوا الصلح على سلامة نفوسهم وذرائعهم ونسائهم وأموالهم ما خلا الغلال والذخائر والسلاح وآلات الحرب فأجابهم إلى ذلك، ورفع العلم الاسلامي عليها يوم السبت، وأقام عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر، فرحل عنها إلى صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من الشهر، واجتهد في القتال، فأخذ البلد يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، ثم تقدموا إلى القلعة وصدقوا القتال فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان، فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير ومن المرأة خمسة دنانير، ومن كل صغير ديناران الذكر والانثى سواء، وأقام السلطان بهذه الجهة حتى أخذ عدة

قلاع منها بلاطنس وغيرها من الحصون المنيعة المتعلقة بصهيون، ثم رحل عنها وأتى بكأس، وهي قلعة حصينة على العاصي ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول عليها يوم الثلاثاء سادس جمادى الأخرى، وقاتلوها قتالاً شديداً إلى يوم الجمعة تاسع الشهر، ثم يسر الله فتحها عنوة، فقتل أكثر من بها، وأسر الباقون، وغنم المسلمون جميع ما كان فيها، ولها قلعة تسمى الشغرة وهي في غاية المنعة يعبر إليها منها بجسر وليس عليها طريق فسلطت المناجيق عليها من جميع الجوانب، ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الأمان وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر، ثم سألوا المهلة ثلاثة فأمهلوا، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشر الشهر، ثم سار إلى برزية وهي من الحصون المنيعة في غاية القوة يضرب بها المثل في بلاد الفرنج، يحيط بها أودية من جميع جوانبها وعلوها خمسمائة ونيف وسبعون ذراعاً، وكان نزوله عليها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر، ثم أخذها عنوة يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه، ثم سار إلى دريساك فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب، وهي قلعة منيعة، وقاتلها قتالاً شديداً، ورفع العلم الاسلامي عليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب وأعطاه الأمير علم الدين سليمان ابن جندر. وسار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين من الشهر، ونزل على بغراس وهي قلعة حصينة بالقرب من أنطاكية، قاتلها مقاتلة شديدة وصعد العلم الاسلامي عليها في ثاني شعبان، وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر من البيكار، وكان الصلح معهم لا غير على أن يطلقوا كل أسير عندهم، والصلح إلى سبعة أشهر فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلد، ثم رحل السلطان فسأله ولده الملك الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه إلى ذلك فوصل حلب في حادي عشر شعبان وأقام بالقلعة ثلاثة أيام وولده يقوم بالضيافة حق القيام، وسار من حلب فاعترضه تقي الدين عمر ابن أخيه وأصعده إلى قلعة حماة، وصنع له طعاماً وأحضر له سماعاً من

جنس ما تعمل الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة وأعطاه جبلة واللاذقية، وسار على طريق بعلبك ودخل دمشق قبل شهر رمضان بأيام يسيرة.

ثم سار في أوائل شهر رمضان يريد صفد فنزل عليها، ولم يزل القتال حتى تسلمها بالأمان في رابع عشر شوال، وفي شهر رمضان المذكور سلمت الكرك، سلمها نواب صاحبها وخلصوه بذلك فإنه كان أسيراً من نوبة حطين.

قلت: هكذا ذكره، وهذا لا ينتظم مع ما قبله، فقد تقدم قبل هذا أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك أسر في وقعة حطين، ثم قتله السلطان بيده فيكشف عن هذا في مكان آخر ليتحقق.

قال: ثم سار إلى كوكب وضايقوها وقتلوا مقاتلة شديدة، والأمطار متوالية والوحول والرياح عاصفة، والعدو متسلط لعلو مكانة، فلما تيقنوا أنهم مأخوذون طلبوا الأمان فأجابهم اليه وتسلمها منهم في منتصف ذي القعدة من السنة، ثم نزل الغور وأقام بالمخيم بقية الشهر وأعطى الجماعة دستوراً، وسار مع أخيه العادل يريد زيارة القدس ووداع أخيه لأنه كان متوجهاً إلى مصر، ودخل القدس في ثامن ذي الحجة وصلى بها العيد، وتوجه في حادي عشر ذي الحجة إلى عسقلان لينظر إلى أمورها، وأخذها من أخيه العادل، وعوضه عنها الكرك، ثم مر على بلاد الساحل يتفقد أحوالها، ثم دخل عكا، فأقام بها معظم المحرم من سنة خمس وثمانين، وأصلح أمورها، ورتب بها الأمير بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة سورها.

وسار إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر من السنة وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من السنة ثم خرج إلى شقيف أرنون، وهو موضع حصين، فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في سابع عشر شهر ربيع

الأول، وأقام أياماً يباشر قتاله كل يوم، والعساكر تتواصل إليه، فلما تحقق صاحب الشقيف أنه طاقة له به نزل إليه بنفسه فلم يشعر به إلا وهو قائم على باب خيمته، فأذن له في دخوله إليه وأكرمه واحترمه، وكان من أكبر الفرنج وعقلائهم، وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث، وكان حسن التأقي لما حضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته وأنه يسلم إليه المكان من غير تعب، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج، واقطاعاً يقوم به وبأهله، وشروطاً غير ذلك، فأجابته إلى ذلك، وفي أثناء شهر ربيع الأول وصله الخبر بتسليم الشوبك، وكان السلطان قد أقام عليه جمعاً يحاصرونه مدة سنة

كاملة إلى أن نفذ زاد من كان فيه فسلموه بالأمان ثم ظهر للسلطان بعد ذلك أن جميع ما قاله صاحب الشقيف كان خديعة فرسم عليه، ثم ظهر له أن الفرنج قصدوا عكا ونزلوا عليها يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة خمس وثمانين، وفي ذلك اليوم سير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة، وأتى عكا ودخلها بغتة ليقوي قلوب من بها، وسير استدعى العساكر من كل ناحية فجاءته، وكان العدو بمقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل، ثم تكاثر الفرنج، واستفحل أمرهم، وأحاطوا بعكا، ومنعوا من يدخل ويخرج، وذلك يوم الخميس سلبخ رجب، فضاق صدر السلطان لذلك، ثم اجتهد في فتح الطريق إليها لتستمر السابلة بالميرة والنجدة، وشاور الأمراء فاتفقوا على مضايقة العدو لينفتح الطريق ففعلوا ذلك وانفتح الطريق، وسلكه المسلمون، ودخل السلطان عكا فأشرف على أمورها ثم جرى بين الفريقين مناوشات في عدة أيام، وتأخر الناس إلى تل العياضية، وهو مشرف على عكا، وفي هذه المنزلة توفي الأمير حسام الدين طمان المقدم ذكره في هذه الترجمة، وذلك ليلة نصف شعبان سنة خمس وثمانين وخمسة، وكان من الشجعان.

ثم إن شيخنا ابن شداد ذكر بعد هذا وقعات ليس لنا غرض في ذكرها، وتطول هذه الترجمة باستيفاء الكلام فيها إذ ليس الغرض سوى المقاصد لا غير، وإنما ذكرت فتوحات هذه الحصون لأن الحاجة قد تدعو إلى الوقوف على تواريخها، مع أني لم أذكر إلا ما يكثر التطلع إلى الوقوف عليه، وأضربت عن الباقي. قال ابن شداد: سمعت السلطان ينشد وقد قيل له أن الوحش قد عظم بمرج عكا، وأن الموت قد فشا في الطائفتين
اقتلوني وممالككم
واقتلوا ممالككم

يريد بذلك أنه قد رضي أن يتلف كما أتلف الله أعداءه

قلت: وهذا البيت له سبب يحتاج إلى شرح، وذلك أن مالك بن الحارث المعروف بالأشتر النخعي كان من الأبطال المشهورة، وهو من خواص أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تماسك في يوم وقعة الجمل المشهورة هو وعبد الله بن الزبير بن العوام، وكان أيضاً من الأبطال، وابن الزبير يومئذ مع خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وطلحة والزبير رضي الله عنهم، وكانوا يحاربون علياً رضي الله عنه فلما تماسكا صار كل واحد منهما إذا قوي على صاحبه جعله تحته وركب صدره، وفعلاً ذلك مراراً، وابن الزبير ينشد:
اقتلوني وممالككم
واقتلوا ممالككم

يريد الأشتر النخعي، هذه خلاصة القول في ذلك وإن كانت القصة طويلة، وهي في التواريخ مبسطة، وقال عبد الله بن الزبير: لاقيت الأشتر النخعي يوم الجمل، فما ضربته ضربة حتى ضربني ستاً أو سبعاً، ثم أخذ برجلي وألقاني في الخندق، وقال: والله لولا قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضو إلى عضو أبداً، وقال أبو بكر ابن أبي شيبة: أعطت عائشة رضي الله عنها الذي بشرها بسلامة ابن

الزبير لما لاقى الاشر النخعي عشرة آلاف درهم، وقيل أيضاً إن الاشر
دخل على عائشة رضي الله عنها بعد وقعة الجمل، فقالت له: يا أشر
أنت الذي أردت قتل ابن أختي يوم الوقعة، فأنشدها:
أعائش لولا أنني كنت طاوياً
ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا
غداة ينادي والرماح تنوشه
بآخر صف اقتلوني ومالكاً
فنجاه منى أكله وشبابه
وخلوة جوف لم يكن متماسكا -

وقال زهير بن قيس: دخلت مع عبد الله بن الزبير الحمام، فلإذا في
رأسه ضربة لو صب فيها قارورة دهن لاستقر، فقال لي: أتدري من
ضربني هذه الضربة؟ قلت: لا، قال ابن عمك الأشر النخعي.

رجعنا إلى ما كنا فيه، قال ابن شداد: ثم إن الفرنج جاءهم الأمداد
من داخل البحر، واستظهروا على الجماعة الإسلامية بعكا، وكان فيهم
الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري والأمير
بهاء الدين قراقوش الخادم الصلاحي، وضايقوهم أشد المضايقة إلى أن
غلبوا على حفظ البلد، فلما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأخرى
من سنة سبع وثمانين وخمسمائة، خرج من عكا رجل عوام ومعه كتب من
المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه، وأنهم قد ثيقتوا الهلاك، ومتى
أخذوا البلد عنوة ضربت رقابهم، وأنهم صالحوا على أن يسلموا البلد
وجميع ما فيه من الآلات والأسلحة والمراكب، ومائتي ألف دينار
 وخمسمائة أسير مجاهيل، ومائة أسير معينين من جهتهم، وصليب
الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال
والأقمشة المختصة بهم وذرارهم ونسائهم، وضمنوا للمركيس لأنه كان
الواسطة في هذا الأمر أربعة آلاف دينار، ولما وقف السلطان على الكتب
المشار إليها أنكر ذلك انكاراً عظيماً، وعظم عليه هذا الأمر، وجمع أهل

الرأي من أكابر دولته وشاورهم فيما يصنع، واضطربت آراؤه، وتقسم فكره، وتشوش حاله، وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه، وهو يتردد في هذا، فلم يشعر إلا وقد ارتفعت أعلام العدو وصلبانه وناره وشعاره على أسوار البلد، وذلك في ظهيرة يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من السنة، وصاح الفرنج صيحة عظيمة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين، واشتد أمرهم وحزنهم، ووقع فيهم الصياح والعيول والبكاء والنحيب.

ثم ذكر ابن شداد بعد هذا أن الفرنج خرجوا من عكا قاصدين عسقلان ليأخذوها، وساروا على الساحل والسلطان وعساكره قبالتهم إلى أن وصلوا إلى أرسوف وكان بينهما قتال عظيم ونال المسلمين منه وهن شديد، ثم ساروا على تلك الهيئة تنمة عشرة منازل من مسيرهم من عكا، وأتى السلطان الرملة وأتاه من أخبره بأن القوم على عزم حمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد والآلات، فأحضر السلطان أرباب مشورته، وشاورهم في أمر عسقلان، وهل الصواب خرابها أم إبقاؤها فاتفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل قبالة العدو، ويتوجه السلطان بنفسه ويخربها خوفا من أن يصل العدو إليها ويستولى عليها وهي عامرة، ويأخذ بها القدس، وينقطع بها طريق مصر وامتنع العسكر من الدخول وخافوا مما جرى على المسلمين بعكا، ورأوا أن جفط القدس أولى، فتعين خرابها من عدة جهات، وكان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة، فسار إليها سحرة الأربعاء ثامن عشر الشهر.

قال ابن شداد: وتحدث معي في معنى خرابها بعد أن تحدث مع ولده الملك الأفضل في أمرها أيضاً، ثم قال: لأن أفقد ولدي جميعهم أحب إلي من أن أهدم منها حجراً، ولكن إذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصلحة للمسلمين فما الحيلة في ذلك، قال: ولما اتفق الرأي على خرابها

أوقع الله تعالى في نفسه ذلك، وأن المصلحة فيه لعجز المسلمين عن حفظها، وشرع في خرابها سحرة يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة وقسم السور على المسلمين، وجعل لكل أمير من العسكر بدنة معلومة وبرجا معيناً يخر برنه، ودخل الناس البلد، ووقع فيهم الضجيج والبكاء، وكان بلداً خفيفاً على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوباً في سكنه، فلحق الناس على خرابه حزن عظيم، وعظم عويل أهل البلد عليه لفراقهم أوطانهم وشرعوا في بيع ما لا يقدرّون على حمله، فباعوا ما يساوي عشرة آلاف بدرهم، وباعوا اثني عشر طير دجاج بدرهم واحد، واختبط البلد وخرج الناس بأهلهم وأولادهم إلى المخيم وتشتتوا، فذهب قوم منهم إلى مصر، وقوم إلى الشام، وجرت عليهم أمور عظيمة، واجتهد السلطان وأولاده في خرابها كي لا يسمع العدو فيسرع إليه، ولا يمكن من خرابها، وبات الناس على أصعب حال وأشدّ تعب مما قاسوه في خرابها.

وفي تلك الليلة وصل من جناب الملك العادل من أخبر أن الفرنج تحدثوا معه في الصلح، وطلبوا جميع البلاد الساحلية، فرأى السلطان أن في ذلك مصلحة لما علم من نفوس الناس من الضجر من القتال، وكثرة ما عليهم من الديون، وكتب إليه يأذن له في ذلك، وفوض الأمر إلى رأيه، وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان، وهو مصر على الخراب، واستعمل الناس عليه وحثهم على العجلة فيه وأباحهم ما في الهري الذي كان على الميرة مذخوراً خوفاً من هجوم الفرنج والعجز عن نقله، وأمر باحراق البلد فأضرمت النيران في بيوته، وكان سورها عظيماً، ولم يزل الخراب يعمل في البلد إلى سلخ شعبان من السنة، وأصبح يوم الاثنين مستهل شهر رمضان أمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه، ولقد رأيت أنه يحمل الخشب بنفسه لأجل الاحراق، وفي يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان أتى الرملة ثم خرج إلى لد، وأشرف عليها وأمر باخرابها وإخراب قلعة الرملة، ففعل ذلك، وفي يوم السبت ثالث

عشر رمضان تأخر السلطان بالعسكر إلى جهة الجبل ليتمكن الناس من تسيير دوابهم لاحتضار ما يحتاجون إليه ، ودار السلطان حول النطرون وهي قلعة منيعة، فأمر باخراها، وشرع الناس في ذلك.

ثم ذكر ابن شداد بعد هذا أن الانكتار، وهو من أكابر ملوك الافرنج، سير رسوله إلى الملك العادل يطلب الاجتماع به، فأجابه إلى ذلك، واجتمعوا يوم الجمعة ثامن عشر شوال من السنة وتحدثا معظم ذلك النهار، وانفصلا عن مودة أكيدة، والتمس الانكتار من العادل أن يسأل السلطان أن يجتمع به فذكر ذلك العادل للسلطان فاستشار أكابر دولته في ذلك، ووقع الاتفاق على أنه إذا جرى الصلح بيننا يكون الاجتماع بعد ذلك، ثم وصل رسول الانكتار وقال إن الملك يقول إني أحب صداقتك ومودتك وأنت تذكر أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيكم، فأريد أن تكون حكما بيني وبينه، ولا بد أن يكون لنا علاقة بالقدس، وأطال الحديث في ذلك فأجابه السلطان بوعده جميل، وأذن له في العود في الحال، وتأثر لذلك تأثراً عظيماً.

قال ابن شداد: وبعد انفصال الرسول قال لي السلطان: متى صالحناهم، لم نأمن غائلتهم ولو حدث بي حادث الموت ما كانت تجتمع هذه العساكر، وتقوى الفرنج، والمصلحة أن لا نزول عن الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت، هذا كان رأيه، وإنما غلب على الصلح.

قال ابن شداد: ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح، وأطال القول في ذلك، فتركته إذ لا حاجة إليه، وجرت بعد ذلك وقعات أضربت عن ذكرها لطول الكلام فيها، وحاصل الأمر أنه تم الصلح بينهم، وكان الانجاز يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ونادى المنادي بانتظام الصلح وأن البلاد الإسلامية والنصرانية

واحدة في الأمن والمسالمة، فمن شاء من كل طائفة أن يتردد إلى بلاد الطائفة الأخرى من غير خوف ولا محذور، وكان ينوماً مشهوداً نال الطائفتين فيه من المسرة مالا يعلمه إلا الله تعالى، وقد علم الله تعالى أن الصلح لم يكن عن مرضاته وإيثاره، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأمة العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة، وكان مصلحة في علم الله تعالى فإنه اتفقت وفاته بعد الصلح، فلو اتفق ذلك في أثناء وقعاته، كان الاسلام على خطر.

ثم أعطى العساكر الواردة عليه من البلاد البعيدة برسم النجدة دستورا، فساروا عنه وعزم على الحج لما فرغ باله من هذه الجهة، وتردد المسلمون إلى بلادهم وجاؤوا هم إلى بلاد المسلمين، وحملت البضائع والمتاجر إلى البلاد، وحضر منهم خلق كثير لزيارة القدس، وتوجه السلطان إلى القدس ليتفقد أحوالها، وأخوه الملك العادل إلى الكرك، وابنه الملك الظاهر إلى حلب، وابنه الأفضل إلى دمشق، وأقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستورا، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية، وانقطع شوقه عن الحج، ولم يزل كذلك إلى أن صح عنه سير مركب الانكثار متوجهاً إلى بلاده في مستهل شوال، فعند ذلك قوي عزمه على أن يدخل الساحل جريدة يتفقد القلاع البحرية إلى بانياس، ويدخل دمشق ويقيم بها أياما قلائل، ويعود إلى القدس، ومنه إلى الديار المصرية.

قال شيخنا ابن شداد: وأمرني بالمقام في القدس إلى حين عوده لعمارة مارستان أنشأه به، وتكميل المدرسة التي أنشأها فيه، وسار منه ضاحي نهار الخميس السادس من شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ولما فرغ من افتتاح أحوال القلاع وإزاحة خللها، دخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشر شوال، وفيها أولاده: الملك الأفضل، والملك الظاهر والملك الظافر مظفر الدين الخضر المعروف بالمشمر، وأولاده الصغار، وكان يجب البلد

ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد، وجلس للناس بكرة يوم الخميس السابع عشر منه وحضروا عنده وبلوا شوقهم منه، وأنشد الشعراء ولم يتخلف أحد منهم عنه من الخاص والعام، وأقام ينشر جناح عدله، ويهطل سحاب انعامه وفضله، ويكشف مظالم الرعايا، فلما كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة عمل الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر لأنه لما وصل إلى دمشق، وبلغه حركة السلطان أقام بها ليتولى بالنظر إليه ثانياً، وكأن نفسه كانت قد أحست بدنوّ أجله، فودعه في تلك الدفعة مراراً متعددة، ولما عمل الملك الأفضل الدعوة أظهر فيها من الهمم العالية ما يليق بهمته، وكأنه أراد بذلك مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى بلده وحضر الدعوة المذكورة أرباب الدنيا والآخرة، وسأل السلطان الحضور فحضر جبراً لقلبه، وكان يوماً مشهوداً على ما بلغني، ولما تصفح الملك العادل أحوال الكرك، وأصلح ما قصد إصلاحه سار قاصداً إلى البلاد الفراتية، فوصل إلى دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعدة، وخرج السلطان إلى لقائه، وأقام يتصيد حوالي غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعاً يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق آخر نهار الأحد حادي عشر ذي الحجة سنة ثمان وثمانين، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده، ويتفرجون في أراضي دمشق، ومواطن الصبا وكأنه وجد راحة مما كان به من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل وكان ذلك كالوداع لأولاده، ونسي عزمه إلى مصر، وعرضت له أمور آخر وعزمات غير ما تقدم.

قال ابن شداد: ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني لخدمته، وكان شتاء عظيماً، ووحلاً شديداً، فخرجت من القدس في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين، وكان الوصول إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من السنة، وركب السلطان لتلقي الحاج يوم الجمعة خامس عشر صفر، وكان ذلك آخر ركوبه، ولما كان ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، وما تنصف الليل حتى غشيته همى صفراوية، وكانت

في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت متكسلاً عليه أثر الحمى، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، فدخل ولده الملك الأفضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو قلقه في الليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا وقلوبنا عنده، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل، ولم يكن للقاضي الفاضل في ذلك عادة فانصرف، ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ السباط، وابنه الملك الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وما كانت لي قوة في الجلوس استيحاشاً له وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده في موضعه، ثم أخذ المرض يتزايد من جسده، ونحن نلازم التردد طرفي النهار، وندخل أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفيراً وحضراً ورأى الأطباء فصدده ففصدوه في الرابع، فاشتد مرضه، وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلب عليه اليبس، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف، واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن، ولم يزل المرض يتزايد ويغيب ذهنه، ولما كان التاسع حدثت له غشية، وامتنع من تناول المشروب، واشتد الخوف في البلد، وخاف الناس ونقلوا أقمشتهم من الأسواق، وعلا الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته، ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين، وحصل من الحقن بعض الراحة، وفرح الناس بذلك، ثم اشتد مرضه وأيس منه الأطباء، ثم شرع الملك الأفضل في تحليف الناس، ثم إنه توفي بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله، منذ فقد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وغشي القلعة والبلاد والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا الحديث على ضرب من التجويز

والترخص إلى ذلك اليوم فلإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل
الفداء لفدي بالأنفس.

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء، وغسله الدولعي.

قلت: الدولعي المذكور هو ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن
يزيد بن ياسين بن زيد بن قائد بن جميل الثعلبي الأرقمي الدولعي
الشافعي خطيب جامع دمشق، توفي ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة
ثمان وتسعين وخمسمائة، وسئل عن مولده فقال: في سنة سبع وخمسمائة،
ثم ذكر غير هذا، والله أعلم ودفن بمقابر الشهداء بباب الصغير.

قال: وأخرج بعد صلاة الظهر رحمه الله تعالى على تابوت مسجى
بثوب فوطة، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته وأخذ الناس في البكاء
والعويل وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان، وهي
التي كان ممرضاً بها، ودفن في الصفة الغربية منها، وكان نزوله في
حفرة قريباً من صلاة العصر، ثم أطال ابن شداد القول في ذلك
فحذفته خوفاً من الملالة، وأنشد في آخر السيرة بيت أبي تمام الطائي وهو:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام

رحمه الله تعالى وقدس روحه، فلقد كان من محاسن الدنيا وغرائبها.

وذكر سبط ابن الجوزي في تاريخه في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ما
مثاله: وفي خامس المحرم خرج صلاح الدين من مصر، فنزل البركة
قاصداً الشام، وخرج أعيان الدولة لوداعه، وأنشده الشعراء أبياتاً في
الوداع فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيمة:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشيّة من عرار

فطلب القائل فلم يوجد ، فوجم السلطان وتطير الحاضرون، فكان كما قال: فإنه اشتغل ببلاد الشرق، والفرنج ولم يعد بعدها إلى مصر.

قلت: وهذا البيت من جملة أبيات في الحماسة في باب النسب.

وذكر شيخنا عز الدين ابن الأثير في تاريخه الكبير هذه القضية على صورة أخرى فقال: ومن عجب ما يحكى من التطير أنه لما برز عن القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر، وعنده أعيان دولته، والعلماء وأرباب الآداب، فمن بين مودع له وسائر معه وكل واحد منهم يقول شيئاً في الوداع والفراق، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد هذا البيت، فانقبض صلاح الدين وتطير بعد انبساطه، وتكرر المجلس على الحاضرين فلم يعد إليها إلى أن مات مع طول المدة.

وذكر ابن شداد أيضاً في أوائل السيرة أنه مات ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرماً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً لاداراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة.

وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها: «(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد

قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة، ضعيف القوة راضياً عن الله عز وجل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وبالباب من الجنود المجندة والأسلحة المغمدة مالا يدفع البلاء، ولا ملك يرد القضاء، وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا عليك يا يوسف لمحزونون، وأما الوصايا مما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام».

قلت: لله دره فلقد أبدع في هذه الرسالة الوجيزة مع ما تضمنته من المقاصد السديدة في مثل تلك الحالة التي يذهل فيها الإنسان عن نفسه.

قلت: وقد ذكرت كل واحد من أولاده المذكورين، وهم الأفضل والظاهر، والعزیز في ترجمة مستقلة، وعينت تاريخ مولده وموته سوى الملك الظافر المشهور بالمشمر فإنني لم أذكر له ترجمة مستقلة، وقد ذكرت ههنا فيحتاج إلى ذكر شيء من أحواله فأقول: لقبه مظفر الدين وكنيته أبو الدوام وأبو العباس الخضر، وإنما قيل له المشمر لأن أباه رحمه الله تعالى لما قسم البلاد بين أولاده الكبار، قال: وأنا مشمر، فغلب عليه هذا اللقب، وكان مولده بالقاهرة في سنة ثمان وستين وخمسمائة في خامس شعبان، وهو شقيق الملك الأفضل، وتوفي في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وستمائة بحران عند ابن عمه الملك الأشرف ابن الملك العادل، ولم يكن الأشرف يومئذ ملكاً، وإنما كان مجتازاً بها عند دخوله بلاد الروم لأجل الخوارزمية.

قال غير ابن شداد: ثم إن السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى بقي مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة في شمالي الكلاسة، التي هي شمالي جامع دمشق، ولها بابان أحدهما إلى الكلاسة، والآخر في زقاق غير نافذ وهو مجاور المدرسة العزيزية.

قلت: ولقد دخلت هذه القبة من الباب الذي في الكلاسة، وقرأت عنده وترجعت عليه، وأحضر لي القيم ومتولي القبة بقجة فيها ملبوس بدنه، وكان في جملة قباء أصفر قصير، ورأس كمي بهاسود فتبركت به.

قال: ثم نقل من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة في يوم عاشوراء، وكان الخميس من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ورتب عنده القراء ومن يخدم المكان، ثم إن ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان المقدم ذكره لما أخذ دمشق من أخيه الملك الأفضل بنى إلى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية، ووقف عليها وقفاً جيداً، وللقبة المذكورة شباك إلى هذه المدرسة، وهي من أعيان مدارس دمشق، وزرت قبره في أول ساعة من رمضان سنة ثمانين وستمائة، فقرأت على صندوق قبره بعد تاريخ وفاته ما مثاله « اللهم فارض عن تلك الروح وافتح له أبواب الجنة فهي آخر ما كان يرجوه من الفتوح » وذكر قيم المكان أن هذا من كلام القاضي الفاضل.

قلت: ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية، لم يكن بها شيء من المدارس فإن الدولة المصرية كان مذهبها الإمامية، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء، فعمر في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقد تقدم ذكرها في ترجمة نجم الدين الخبوشاني، وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، وجعل عليها وقفاً كبيراً، وجعل دار سعيد السعداء خادماً المصريين خاتماً، ووقف عليها وقفاً طويلاً، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظاهر العبيدي والعاقل ابن السلار مدرسة للحنفية، وعليها وقف جيد كبير أيضاً، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار وقفاً على الشافعية، وقفها جيد أيضاً، وبنى بالقاهرة داخل القصر مارستاناً، وله وقف جيد، وله مدرسة بالقدس أيضاً ووقفها كثير

وخائفها بها أيضاً، وله بمصر مدرسة للمالكية، ولقد أفكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة، وليس فيها شيء منسوباً إليه في الظاهر، فإن المدرسة التي بالقرافة ما تسميها الناس إلا بالشافعي، والمجاورة للمشهد لا يقولون أيضاً إلا المشهد، والخانقاه لا يقولون إلا خانقاه سعيد السعداء، والمدرسة الحنفية لا يقولون أيضاً إلا مدرسة السيوفية، والتي بمصر لا يقولون إلا مدرسة زين التجار، والتي بمصر أيضاً لا يقولون إلا مدرسة المالكية، وهذه صدقة السر على الحقيقة، والعجب أن له بدمشق في جوار البيمارستان النوري مدرسة يقال لها أيضاً الصلاحية، فهي منسوبة إليه، وليس لها وقف، وله بها مدرسة للمالكية أيضاً ولا تعرف به، وهذه النعم من ألطف الله تعالى به، وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف، قريباً من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال والمداواة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحن إليهم، وكان يميل إلى الفضائل ويستحسن الأشعار الجيدة، ويرددها في مجالسه، حتى قيل إنه كان كثيراً ما ينشد قول أبي منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن اسحق الحميري، وقيل إنها لأبي محمد أحمد بن علي بن خيران العامري، كان أميراً بالمرية من بلاد الاندلس وكان جده خيران من سبي المنصور بن أبي عامر، فنسبت إليه والله أعلم وهي هذه:

وزارني طيف من أهوى على حذر
من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحاً
وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وأما لي تخيل لي
نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

وقيل إنه كان أيضاً يعجبه قول نشو الملك أبي الحسن علي بن مفرج

المعروف بابن المنجم المعري الأصل، المصري الدار والوفاء، وهو في خضاب الشيب، ولقد أحسن فيه وهو:

وما خضب الناس البياض لقبحه
وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت
على الرسم من حزن عليه منازل

قالوا: فكان إذا قال مات الشباب يمسك كريمته، وينظر إليها، ويقول أي والله مات الشباب

وذكر العماد الكاتب الاصبهاني في كتاب الخريدة أن السلطان صلاح الدين في أول ملكه، كتب إلى بعض أصحابه بدمشق هذين البيتين:
أيها الغائبون عنا وإن كنتم
تم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مدفقتكم لأراكم
بعيون الضمير عندي عيانا

وأما القصيدتان اللتان ذكرت أن سبط ابن التعاويذي أنفذهما إليه من بغداد، فإن إحداهما وازن بها قصيدة صدر المقدم ذكره، وقد ذكرت منها أبياتا في ترجمة الوزير الكندري وأولها:
«أكلذا يجازي ود كل قرين»

وقصيدة سبط ابن التعاويذي أولها

إن كان دينك في الصبابة ديني
فقف المطي برملتني يرين

والثم ثرى لوشارفيت بي هضبه
أيدي المطي لثمتيه بجفوني
وأنشد فؤادي في الظباء معرضا
فبغير غزلان الصريم جنون
ونشيدتي بين الخيام وإنما
غالطت عنها بالظباء العين
لولا العدا لم أكن عن الحاظها
وقدودها بجوازىء وغصون
لله ما اشتملت عليه قباهم
يوم النوى من لؤلؤ مكنون
من كل تائهة على أترابها
في الحسن غانية عن التحسين
خود ترى قمر السماء إذا بدت
ما بين سالفة لها وجين
غادين ما لمعت بروق ثغورهم
إلا استهلت بالدموع شؤوني
إن تنكروا نفوس الصبا فلأنها
مرت بزفرة قلبي المحزون
وإذا الركائب في الجبال تلفتت
فحينئذها التفتني وحنيني
يا سلم أن ضاعت عهدتي عندكم
فأنا الذي استودعت غير أمين
أوعدت مغبونا فما أنافي الهوى
لكم بأول عاشق مغبون
رفقا فقد عسف الفراق بمطلق الـ
عبرات في أسر الغرام رهين
مالي ووصل الغانيات أرومه
ولقد بخلن علي بالماعون

- ٩٦٦٢ -

وعلام أشكو والدماء مطاحة
بلحاظهن إذ الوين ديو في
هيهات للبيض في ودامرى
أرب وقدر أربى على الخمسين
ومن البلية أن تكون مطلبى
جدوى بخيل أو وفاء خوون
ليت الضنين على المحب بوصله
لقن السباحة عن صلاح الدين^(٩)

وأما القصيدة الثانية فهي قوله
حتام أرضى في هواك وتغضب
وإلى متى تجنبي علي وتعتب
ما كان لي لولا ملالك زلة
لما مللت زعمت أني مذنب
خذ في أفانين الصدود فإن لي
قلبا على العلات لا يتقلب
أنظنني أضمرت بعدك سلة
هيهات عطفك من سلوي أقرب
لي فيك نار جوانح ما تنطفئ
حرقا وماء مدامع ما تنضب
أنسيت أيامنا ولياليا
للهم فيها والبطالة ملعب
أيام لا الواشي بعد ضلالة
ولهي عليك لا العذول يؤنب
قد كنت تنصفني المودة راكبا
في الحب من أخطاره ما ركب
واليوم أقنع أن يمر بمضجعي
في النوم طيف خيالك المتأوب

ما خلت أن جديد أيام الصبا
يبلى ولا ثوب الشبيبة يسلب
حتى انجلي ليل الغواية واهتدى
ساري الدجى وانجاب ذاك الغيب
وتنافر البيض الحسان فأعرضت
عني سعاد وأنكرتني زينب
قالت وريعت من بياض مفارقي
ونحول جسمي بان منك الأطيب
إن تنقمي سقمي فخصرك ناحل
أو تنكري شبيبي فثغرك أشنب^(١٠)

قلت: لله دره فلقد أجاد في هذا القصيدة كل الإجادة، غير أنه قد ظن أن الشنب بياض الثغر وعليه بنى هذا المعنى حتى تم له مقصوده فإنها لما عبرته بالسقم قابلها بنحول الخصر فقال لها إن كنت نحيلًا فخصرك أيضًا نحيل، فلما أنكرت شبيه قابلها بأن ثغرها أشنب، فكأنه قال لها بياض شبيبي في مقابلة ثغرك الأشنب، وليس الأمر كما ظن، فإن الشنب في اللغة ليس هو البياض، وإنما هو حدة الاسنان، ويقال بردها وعدوبتها والصحيح أنه حدثها، وهو دليل على الحداثة لأن الاسنان في أول طلوعها تكون حادة، فإذا مرت عليها السنون احتكت وذهبت حداثتها، وهذا المعنى ينظر إلى قول النابغة الذبياني في جملة قصيدته المشهورة وهو:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب^(١١)

وقد تقدم ذكر هذا البيت في ترجمة عروة بن الزبير فيكشف هناك، ومثله أيضًا ما أنشدني بهاء الدين زهير بن محمد الكاتب المقدم ذكره لنفسه من جملة أبيات وهو قوله:

مافيّه من عيب سوى
فسور عينيه فقط^(١٢)

رجع وقوله:

يا طالب بعد المشيب غضارة
من عيشه ذهب الزمان المذهب
أتروم بعد الأربعين وعدها
وصل الدمى هيهات عز المطلب
لولا الهوى العذري يادار الهوى
ما حاج لي طرباً وميض خلب
كلولا استجديت أخلاق الحيا
وندى صلاح الدين هام صيب (١٣)

وقد مدحه جميع شعراء عصره وانتجعوه من البلاد فمنهم العلم
الشاتاني واسمه الحسن، وقد تقدم ذكر مدحه بقصيدته الرائية التي أولها:

أرى النصر مقرون براكيتك الصفرا
فسروا ملك الدنيا فانت بها أحرى

ومدحه المهذب أبو حفص عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر
المعروف بابن الشحنة الموصلية الشاعر المشهور بقصيدته التي أولها:
سلام مشوق قد براه التشووق
على جيرة الحي الذين تفرقوا

وعدة أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً، وفيها البيتان السائران أحدهما:
وإني امرؤ أحببتكم لمكارم
سمعت بها والأذن كالعين تعشق

وقد أخذه من قول بشار بن برد المقدم ذكره وهو:
يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحياناً (١٤)

والبيت الثاني من قصيدة ابن الشحنة قوله:
وقالت لي الآمال إن كنت لاحقاً
بأبناء أيوب فأنت الموفق

ومما قيل فيه لبعض أهل المشرق:
الله أكبر جاء القوس بارها
ورام أسهم دين الله رامها
فكم لمصر على الأمصار من شرف
باليوسفين فهل أرض تدانيها
فبا بن يعقوب هزت جيدها طرباً
وبا بن أيوب هزت عطفها تها
قل للملوك تخلي عن ممالكها
فقد أتى أخذ الدنيا ومعطيها

فلما أنشدتها إياه أعطاه ألف دينار، ومدحه ابن قلاقس وابن الذروي،
وابن المنجم ، وابن سناء الملك، وابن الساعقي. وابن البحراي الإربلي،
وابن دهن الخصى الموصل، ومحمد بن اسماعيل بن حمدان الخيري، وغير
هؤلاء وقد ذكرت أكثر هؤلاء الجماعة في هذا التاريخ، وعذري في تطويل
هذه الترجمة قول المتنبي:
وقد أطال ثنائي طول لابسه
إن الثناء على التنبال تنبال^(١٥)

التنبال الرجل القصير، وهو بكسر التاء المثناة من فوقها، وبعدها نون
ساكنة، وباء موحدة، وبعد الألف لام.

قلت: وقد تقدم في هذه الترجمة عند ذكر إرسال العاضد إلى صلاح
الدين، وطلبه إياه ليخلع عليه ويوليه الوزارة ذكر المثل المشهور، وهو
أردت عمراً و أراد الله خارجة، وقد يقف عليه من لا يعرف سبب هذا
المثل ولا المراد منه، فأحببت أن أشرحه كيلا يحتاج من يقف عليه إلى

كشفه من مكان آخرة أقول: عمراً المذكور هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي، كنيته أبو عبد الله، وقيل أبو محمد أحد الصحابة رضي الله عنهم، أسلم سنة ثمان من الهجرة قبل فتح مكة، ومكة فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان من هذه السنة، وقيل بل أسلم بين الحديبية وخيبر، والأول أصح، وقدم هو وخالد بن الوليد المخزومي، وعثمان بن طلحة القرشي العبدري على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة مسلمين، فلما دخلوا عليه ونظر إليهم قال للصحابة: قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها، وقال الواقدي: قدم عمرو بن العاص سلماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسلم عند النجاشي ملك الحبشة، وقدم معه عثمان بن طلحة، وخالد بن الوليد فقدموا المدينة في صفر سنة ثمان من الهجرة، وقيل إنه لم يأت من أرض الحبشة إلا معتقداً الاسلام، وذلك أن النجاشي قال له: يا عمرو كيف يعزب عنك أمر ابن عمك، فوالله إنه لرسول الله حقاً، قال: أمتحقق ذلك؟ قال: أي والله فأطعني، فخرج من عنده مهاجراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرية إلى الشام يدعو أحوال أبيه إلى الاسلام فبلغ السلاسل من بلاد قضاة، وهو ماء بأرض جذام، وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل، وكان معه مائة رجل، فخاف عمرو فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده، فأمدته بجيش مائتي فارس من المهاجرين والأنصار وأهل الشرف منهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فلما قدموا على عمرو بن العاص قال: أنا أميركم وإنما أنتم مددي، فقال أبو عبيدة بل أنت أمير من معك، وأنا أمير من معي فأبى عمرو فقال أبو عبيدة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلي إذا قدمت على عمرو فتطاولاً ولا تختلفا فإن خالفتني أطعتك، قال عمرو: فإني أخالفك فسلم إليه أبو

عبدة وصلّى خلفه في الجيش كله، وكانوا خمسمائة، وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص على عثمان، وفي سنة إثنى عشرة بعث أبو بكر رضي الله عنه عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان الأموي، وأبا عبدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة إلى الشام وسار إليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق، وأول شيء فتحه من الشام بصرى صلحاً، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه، واستخلف عمر رضي الله عنه أبا عبدة فولّي الجيش، وفتح الله تعالى عليه الشام، وولى يزيد بن أبي سفيان على فلسطين وهي كورة قصبتها الرملة، ولما مات أبو عبدة استخلف معاذ بن جبل، ومات معاذ فاستخلف يزيد بن أبي سفيان، ومات يزيد، فاستخلف أخاه معاوية بن أبي سفيان، وكتب إليه عمر رضي الله عنه بعده على ما كان عليه أخوه يزيد وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس في سنة ثمان عشرة من الهجرة، وعمواس بفتح العين المهملة والميم، وفي آخرها سين مهملة وهي قرية بالشام بين نابلس والرملة، وكان الطاعون بها في العام المذكور، وقيل بل مات يزيد بن أبي سفيان في ذي الحجة من سنة تسع عشرة بدمشق، والله أعلم وذلك بعد فتح قيسارية، وكان عمر رضي الله عنه قد ولى عمرو بن العاص بعد موت يزيد بن أبي سفيان فلسطين والأردن، وولى معاوية دمشق وبلبك والبلقاء، وولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص، ثم جمع الشام كلها لمعاوية، وكتب إلى عمرو فسار إلى مصر فافتتحها في سنة عشرين للهجرة، فلم يزل عليها والياً حتى مات عمر رضي الله عنه، فأقره عثمان رضي الله عنه أربع سنين أو نحوها، ثم عزله وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وكان أخا عثمان من الرضاعة فاعتزل عمرو بن العاص في ناحية فلسطين، وكان يأتي المدينة أحياناً، فلما قتل عثمان رضي الله عنه سار إلى معاوية باستجلاب معاوية إياه، وشهد صفين مع معاوية، وكان منه في صفين و قضية التحكيم ما هو مشهور عند أهل العلم بهذا الفن، وكان قد طلب من معاوية أنه إذا تم له الأمر يوليه

مصر، وكتب إليه في بعض الأيام يطلبها من معاوية:
معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل
به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
فإن تعطني مصر فأربح بصفقة
أخذت بها شيخا يضر وينفع

ثم ولاء معاوية مصر، ولم يزل بها أميرا إلى مات يوم عيد الفطر سنة
ثلاث وأربعين للهجرة، وقيل سنة اثنتين وأربعين، وقيل سنة ثمان
وأربعين، وقبل سنة إحدى وخمسين، والأول أصح، وعمره تسعون سنة،
ودفن بسفح المقطم، وصلى عليه ابنه عبد الله، ولما رجع صلى بالناس
العيد، ثم عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص، وولى أخاه عتبة بن
أبي سفيان، فمات عتبة بعد سنة أو نحوها، فولى معاوية مسلمة بن مخلد،
وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، وكان من
الدهاة في أمور الدنيا المقدمين في الرأي، وكان عمر رضي الله عنه إذا
استضعف رجلاً في رأيه، قال: أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد،
يريد الأضداد.

وذكر أبو العباس المبرد في كتاب الكامل أن عمرو بن العاص لما
حضرته الوفاة دخل عليه ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له: يا أبا عبد
الله كنت أسمعك كثيراً تقول: وددت لو رأيت رجلاً عاقلاً حضرته الوفاة
حتى أسأله عما يجيد، فكيف تجد؟ فقال: أجد كأن السماء مطبقة على
الأرض، وكأني بينهما، وكأنما أتنفس من خرم إبرة، ثم قال: اللهم خذ
مني حتى ترضى، فدخل عليه ولده عبد الله فقال له: يا ولدي خذ لك
الصندوق، قال: لاحتاجة لي به فقال إنه مملوء مالا، فقال: لاحتاجة لي به،
فقال: ليت مملوء بعراً، ثم رفع يديه وقال اللهم إنك أمرت فعصينا،
ونهيته فارتكبنا، فلا بريء فاعتذر، ولا قوي فانتصر، ولكن لا إله إلا
أنت، ثم فاض.

قلت: يقال فاض وفاظ بالضاد والظاء أي مات، قال الشاعر:
لا يدفنون منهم من فاضا

فأما خارجة المذكور في هذا المثل فإنه خارجة بن حذافة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب القرشي العدوي. شهد فتح مصر، وكان أمير ربيع المدد الذين أمد بهم عمرو بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاص في فتح مصر، واختط بمصر، وكان على شرطة مصر في إمرة عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان الأموي، قتله خارجي بمصر سنة أربعين للهجرة، وهو يحسب أنه عمرو بن العاص، وهكذا قاله ابن يونس في تاريخ مصر.

وذكره في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر وساق نسبه على هذه الصورة ثم قال: يقال إنه كان يعد بألف فارس، ثم ذكر بعض أهل النسب والأخبار أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر رضي الله تعالى عنه يستمده بثلاثة آلاف فارس، فأمد به خارجة بن حذافة، والزيبر بن العوام، والمقداد بن الأسود الكندي، وشهد خارجة فتح مصر، وقيل إنه كان قاضياً لعمر وبن العاص بها، وقيل إنه كان على شرطة عمرو بن العاص، ولم يزل بها إلى أن قتل قتله أحد الخوارج الثلاثة الذين كانوا انتدبوا لقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص فأراد الخارجي قتل عمرو فقتل خارجة هذا وهو يظنه عمراً، وذلك أنه كان قد استخلفه عمرو بن العاص على صلاة الصبح ذلك اليوم، فلما قتله أخذ وأدخل على عمرو بن العاص، فقال: من هذا الذي أدخلتموني عليه؟ فقالوا: عمرو بن العاص، فقال: ومن قتلت؟ فقالوا: خارجة، فقال: أردت عمراً وأراد الله خارجة، وقيل إن الخارجي الذي قتله لما أدخل على عمرو قال له عمرو: أردت عمراً وأراد الله خارجة، والله أعلم بمن قال ذلك منهما، والذي قتل خارجة هذا هو رجل من بني العنبر ابن عمرو بن تميم يقال له دادويه، وقيل إنه مولى

لبنى العنبر، وقد قيل إن خارجة الذي قتله الخارجي بمصر على أنه عمرو ابن العاص رجل يسمى خارجة من بني سهم رهط عمرو بن العاص، وليس بشيء انتهى ما قاله صاحب الاستيعاب.

وقال غيره إن عمرو بن العاص أصابه شيء في بطنه فتخلف في منزله تلك الليلة، وكان خارجة يعشي الناس فضربه الخارجي فقتله، وكان عمرو يقول: ما نفعني بطني قط إلا تلك الليلة.

قلت: فهذا أصل المثل في قولهم: أردت عمراً وأراد الله خارجة وإلى هذا أشار أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الأندلسي في قصيدته التي رثى بها بني الأفطس ملوك بطليوس التي أولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر بقوله:
وليتها إذ فدت عمراً بخارجة

فدت علياً بمن شاءت من البشر (١٦)

وهي من غرر القصائد جمعت تاريخاً كبيراً، وشرحها الأديب أبو مروان عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي الأشبيلي شرحاً مستوفياً، وهذا البيت يحتاج إلى شرح أيضاً وهو من تنمة الكلام على المثل المذكور لكنني أذكره مختصراً فإنه طويل، ذكر أهل التاريخ، أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بويع بالخلافة في اليوم الذي قتل فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج عليه من قاتله في وقعة الجمل، وقد ذكرت طرفاً من هذه الوقعة في ترجمة يموت بن المزرع ساقها الكلام هناك، فذكرت المقصود منه، ثم كانت وقعة صفين عند خروج معاوية بن أبي سفيان الأمر، وعمرو بن العاص على علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فتوجه بهم من العراق وجاؤوه من الشام والتقوا على صفين، وهو موضع على شاطئ الفرات بالقرب من الرحبة، وهي وقعة مشهورة، وكانت في سنة سبع وثلاثين من الهجرة، ولما غلب أهل الشام طلبوا من

علي بن أبي طالب رضي الله عنه التحكيم، فأجابهم بعد معاودات كثيرة فخرج عليّ عليّ جماعة من أصحابه، وقالوا : حكمت في دين الله، و لا حكم إلاّ الله، ورحلوا إلى النهروان، فمضى إليهم وقاتلهم، واستأصلهم إلاّ اليسير منهم، وهي أيضا وقعة مشهورة بقتال الخوارج، ولما طال الأمر في ذلك اجتمعوا وقالوا: إن عليا ومعاوية وعمرو بن العاص قد أفسدوا أمر هذه الأمة، فلو قتلناهم لعاد الأمر على حقه، فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي أنا أقتل عليا، قالوا، فكيف لك بذلك؟ قال: أغتاله، وقال الحجاج بن عبد الله الصيرمي: أنا أقتل معاوية، ويعرف هذا الصيرمي بالبرك، وقال دادويه وقيل زادويه، وقد تقدم الكلام عليه في الكلام على خارجة بن حذافة: أنا أقتل عمراً واجمعوا أمرهم على أن يكون ذلك في ليلة واحدة، فدخل ابن ملجم الكوفة وعلي رضي الله عنه بها، واشترى سيفاً بألف درهم فسقاه السم حتى لفظه، فلما خرج عليّ لصلاة الصبح كان ابن ملجم قد كمن له فضربه به على رأسه، وقال: الحكم لله يا علي لا لك، وقيل إنه ضربه في صلاة الصبح، وذلك في صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان في سنة أربعين من الهجرة، وقيل غير هذا التاريخ، وقدم البرك الصيرمي على معاوية بدمشق فضربه فجرح إتيته، وهو في الصلاة، ويقال إنه قطع عرق النسل، فما أحبل بعدها، وأما عمرو فقد سبق الكلام عليه عند قتل خارجة، وهذا تفسير المثل والبيت الشعر على سبيل الاختصار والله أعلم.

من تاريخ ابن أبي الدم

ودخلت سنة تسعين وأربعمائة

فيها: فتح قوام الدولة الرحبة وفيها فتحت الفرنج أنطاكية وسميساط. وفيها فتح الأفضل أمير الجيوش دمشق، وفيها ولد الأمر بن المستعلي، وفيها كان الغلاء العظيم المعروف بعام الجهاجم. وفيها استولى بركيارق ابن ملكشاه على خراسان ورتب بها أخاه سنجر، وفيها قتل برسق الكبير، قتله ديلمي باطني، كان ممرضاً في مطبخه.

ودخلت سنة إحدى وتسعين

فيها: ملكت الفرنج الرها والحديثة، ومرعش، وكيسون، وقتلوا من المسلمين خلقاً عظيماً، واستنفر المسلمون لهم، واجتمعت ملوك الشام: دقاق بن تتش، وأتابكه طغتكين، وحسين صاحب حمص، وصاحب الموصل في عدد عظيم، وحصروا أنطاكية، وكان الفرنج فيها في قل فسألوا الأمان على نفوسهم ليخرجوا فلم يجيبوهم، فخرجوا إليهم محاربين فانكسر المسلمون من غير قتال، وفيها فتح الفرنج المعرة بعد حصار شديد، وأقاموا بها ستاً وثلاثين سنة، إلى سنة سبع وعشرين وخمسمائة، ففتحها المسلمون، وسنذكره إن شاء الله تعالى، وضربوا الجزية على أهلها، وأظهروا فيها عدلاً كثيراً طمعاً في بقائها في أيديهم وفتح غيرها^(١) وجلا من أهلها خلق عظيم.

ودخلت سنة اثنتين وتسعين

فيها: فتحت الفرنج بيت المقدس، ويقال أنهم قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس.

١ - كذا بالأصل وهو وهم ذلك أن الفرنجة أبادوا سكان المعرة، وهدموا المدينة.

ودخلت سنة ثلاث وتسعين

فيها: مات ابن جزلة الطبيب صاحب المنهاج، وكان من العلم والفضل بمكان عالٍ.

ودخلت سنة أربع وتسعين

فيها: ملك الفرنج سروج من المسلمين.

ودخلت سنة خمس وتسعين

فيها: توفي المستعلي صاحب مصر، وقام بالأمر بعده ابنه الأمر بأحكام الله وكنيته أبو علي، وسنه يومئذ سبع سنين.

ودخلت سنة ست وتسعين

فيها: توفي الملك دقاق، وقيل بل مات في سنة ثمان وتسعين، وفيها توفي عماد الدولة أبو المظفر إبراهيم طغماج خان بن نصر إيليك. وفيها جرت حروب بين بركيارق وبين أخيه محمد، وكان الأمر قد استقر أن يكون : بركيارق السلطان، ومحمد الملك، ويكون لمحمد كنجة وأزرنكان، وديار بكر، وديار مضر، وربيعة، ثم غدر محمد وحارب أخاه بركيارق بالقرب من الري، فكسر محمد وجاء إلى أصفهان ملك كاشغر وكيش وما يتصل بهما إلى بلا سفون، وكان متديناً ورعاً لا يأخذ من أحدٍ مالا حتى يستفتي الفقهاء، وورد عليه أبو شجاع العلوي الزاهد فوعظه وعنفه، وقال له: أنت لاتصلح لما أنت فيه، فغلق بابه قاصداً العزلة، فاجتمع الناس بسمرقند وقالوا: أخطأ هذا الزاهد، وأنت صالح ولا تسمع بما أشار به عليك، ففتح بابه، وفتح فرغانة، وأقام مالكا

لسمرقند وأعمالها والأماكن المذكورة تسعاً وعشرين سنة وولى ابنه أحمد أرسلان خان.

وفيها ظهر في السماء بالمغرب كوكب أبيض له ذؤابة، مقدارها في العين مائة وخمسون ذراعاً. وفيها قتلت الاسماعيلية جناح الدولة بجامع حمص.

ودخلت سنة تسع وتسعين

فيها: استولى الملك رضوان على أفامية، واستولى أتابك طغتكين على صلخد وبصرى.

ودخلت سنة خمسمائة

فيها: فتح السلطان محمد قلعةً للباطنية منيعة، واستنزل منها رئيس الباطنية أحمد بن عبد الملك بن عطاش، وقتله وسلخه، وقتل ابنه، وألقت زوجته نفسها من أعلى القلعة فهلكت، وكان لابن عطاش فيه اثنتي عشرة سنة، وصار كل من في نفسه ضغن على صاحبة ادعى عليه هذا المذهب فيقتل. وفيها تسلم سيف الدولة صدقة بن منصور بن ديبس قلعة تكريت ووقع بين السلطان أبي شجاع محمد وبين صدقة حروب ومكاتبات حتى قتل صدقة، وحمل قسيم الدولة، آق سنقر البرسقي شحنة بغداد إلى السلطان محمد قاتل صدقة بزعرش الأشل وسعيدا بن صدقة، وكان عمر صدقة تسعا وخمسين سنة ومدّة إمارته إحدى وعشرين سنة، وكان صدقة تاريخ الأماجد الكرماء في العرب له حلم ووفاء بالعهد، ومحافضة، وكانت داره ببغداد حرماً لكل خائف وملاذا لكل ملهوف.

ودخلت سنة إحدى وخمسة

فيها تسلم ينال بانياس.

ودخلت سنة ثلاث وخمسة

وفيها: سلمت الموصل إلى مودود، وفيها مات الخطيب أبو زكريا يحيى ابن بري النحوي، الإمام في علم النحو واللغة وغيرهما، صاحب أبي العلاء بن سليمان وتلميذه، وفيها مات ابن الخازن الخطاط واسمه أبو الفوارس الحسين بن علي بن الحسين.

ودخلت سنة خمس وخمسة

فيها توفي الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي رحمه الله، مولده سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، تفقه على أستاذه إمام الحرمين ولازمه إلى أن مات إمامه، وقد علت درجته في العلم ثم تجول، وولي التدريس بالنظامية ببغداد وكان تزهد وأقام بدمشق وبيت المقدس وبمكة مدة طويلة سالكاً طريق الزهد والعبادة، وصنف في مدة زهده كتباً جمّة في علوم الورع والزهد، كإحياء علوم الدين، وجواهر القرآن، وكميائ السعادة، ثم طلب من بغداد وولي التدريس بالنظامية. وصنف في علم المذهب والأصولين ثم توجه إلى بلده طوس فبني له خانكاه، وأقبل على علم الحديث وسماعه إلى أن مات ودرس بنيسابور، وبطوس مدة، وكان رضي الله عنه عالماً زاهداً عاملاً، جمع بين العلم والعمل، وأنجب من أصحابه خلق، وأسعد في تصانيفه، ودفن بطوس.

وفيها تسلم الفرنج طرابلس الشام من القاضي ابن عمار بعد محاربة سبع سنين، وفيها أو في التي قبلها تسلم الفرنج جبلة من المسلمين، وفيها تسلم الفرنج بيروت وصيدا، وفيها كان بدء أمر المهدي أبي عبد

الله محمد بن تومرت وقيل إن نسبه يصل إلى الحسين عليه السلام. وكان فقيهاً في ابتداء أمره، ورافق الغزالي والكنيا ، والطرطوشي، وكان رأى في منامه كأنه يشرب ماء البحر، وروي أنه ظفر بكتاب الجفر من بعض الخزائن، ورأى فيه صفة عبد المؤمن بن علي، وأنه يملك فحج ومضى إلى المهدي وسلطانها يومئذ يحيى بن تميم، ونزل في مسجد، وليس معه إلا ركوة وعصا، فبلغ يحيى خبره وأحضره وسأله الدعاء، فدعا له ، وتستمع أهل البلد وقرأ عليه العلم، ثم انتقل إلى المنستير، فنزل بالقصر، ثم انتقل إلى قرية من قرى بجاية يقال لها ملالة، فلقبه أبو محمد عبد المؤمن بن علي فصحه فأخبره المهدي عن اسمه وقبيلته فأخبره باسمه، وأنه من قيس من سليم من شعب بني الشريد، فقال له المهدي أنت الذي بشر بك النبي « صلى الله عليه وسلم » في قوله: « إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمن برجل من قيس، فقل له من قيس يارسول الله؟ فقال: من سليم » فاستبشر عبد المؤمن بذلك، وعلم أنه مقيم دعوته، فلم يزل المهدي مصاحباً له حتى توفي المهدي.

ودخلت سنة سبع وخمسة

فيها توفي الملك رضوان ملك حلب، وفيها ملك حلب تاج الدولة الأخرس بن رضوان، وفيها قتل مودود بجامع دمشق، وفيها تسلم أتابك طغتكين صور من المصريين، وفيها قتل الأمر بأحكام الله صاحب مصر، في الجزيرة بمصر، قتله الاسماعيلية، وفيها مات أبو بكر محمد بن أحمد ابن الحسين الشاشي صاحب المستظھري، الفقيه الشافعي مولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة، أخذ العلم عن الشيخ أبي إسحق الشيرازي، وكان إماماً عالماً، وولي التدريس بنظامية بغداد، وفيها مات وزير المستظهر بالله، أبو القاسم علي بن محمد بن جھير.

ودخلت سنة ثمان وخمسمائة

فيها : زلزلت الأتارب وخسف بمرعش وسميساط. وفيها كانت وقعة في الشام بين آق سنقر البرسقي وبين إيلغازي بن أرتق واتفق إيلغازي، وأخذ ابنة طغتكين صاحب دمشق، وخالفوا السلطان فأفرج عن إيلغازي وأخذ ابنه اياز وحبسه، ونفذ السلطان العساكر إلى الشام مقدمها برسق، وتقدم إليهم أن كل بلد يفتحونه يسلمونه إلى بركات بن قراجه، ويعقد له إمارة الشام، فكان ذلك مما أوجب مخامرة العساكر، وقالوا: أي حظ لنا في فتح البلاد وتسليمها إلى هذا، فخرج عليهم بروجيل الفرنجي صاحب أنطاكية، في خمس مائة فارس، وألفي راجل، فتخاذلوا وانهمزوا على كثرة جمعهم، وقتل الفرنج من المسلمين جماعة وأحرقوا الأسارى.

ودخلت سنة تسع وخمسمائة

فيها: فتح برسق حماه.

ودخلت سنة عشر وخمسمائة

فيها: مات السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، واستقرت السلطنة لولده محمود. وفيها قتل لؤلؤ الخادم صاحب حلب، قتله قوم من الأتراك وهو متوجه إلى قلعة جعبر.

ولما دخلت سنة اثنتا عشرة وخمسمائة

توفي المستظهر بالله بها لسبع بقين من ربيع الآخر ، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وأشهرًا، فكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، وخلف من الأولاد: أبامنصور الفضل ، المسترشد

بالله، وولي الخلافة بعد أبيه، وأبا عبد الله محمد، المقتضي لأمر الله، وأبا الحسن، وأبا طالب، وإبراهيم، وإسماعيل وعيسى، وابنتين.

خلافة المسترشد بالله

أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله ، ولد في رابع ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وأمه أم ولد، تدعى طرفة ، بويج بالخلافة يوم موت أبيه في سابع عشرين ربيع الآخر، سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، وفيها فتحت الفرنج أعزاز والرها، وتسلم إيلغازي حلب.

ودخلت سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

فيها: ورد سنجر بن ملكشاه من خراسان إلى الري فملكها وتسمى بالسلطنة. وفيها عبر نجم الدين صاحب ماردین الفرات، فكسر فرنج أنطاكية، وقتل ملكهم روجال، وأسر منهم على تل عفرين على ما قيل عشرة آلاف ما بين فارس وراجل، ثم بعد ستة أيام وقعت حرب بين المسلمين والفرنج على دانيث من أرض سمرين. فكسر المسلمون نصف الفرنج، وكسر الفرنج نصف المسلمين، وهلك من الفريقين خلق عظيم، ثم بعد ذلك نصر الله المسلمين، وأخذوا قلعة الآبار.

ودخلت سنة أربع عشرة

فيها: تسلم أتابك طغتكين تدمر، والشقيف، وفيها كسر إيلغازي الفرنج على البلاط من أعمال حلب، وأخذ صاحب أنطاكية أسيراً، وفيها أطلق نجم الدين بن أرتمق لأهل حلب جميع ما كان جده عليهم الملك رضوان من الكلف، فكان مقداره في كل سنة اثني عشر ألف دينار، وزاد الكيل والذراع.

ودخلت سنة خمس عشرة

فيها قتل الأفضل أمير الجيوش بمصر، وفيها تسلم الفرنج أعزاز من المسلمين.

ودخلت سنة ست عشرة

فيها: مات الحريري، صاحب المقامات، وهو أبو محمد القاسم بن علي بن عثمان، ولد في حدود سنة ست وأربعين وأربعمائة، وكان السبب في عمله المقامات أنه كان يوماً جالساً بمسجده بالبصرة، ويعرف بمسجد بني حرام، فدخل عليه شيخ، عليه أهبة السفر، رث الحالة، فصيح اللهجة، فسأله من أين هو فقال من سروج، وكنتي أبو زيد، فعمل الحريري المقامة الحرامية، فبلغ أنو شروان بن خالد، وزير المسترشد بالله، وزير السلطان محمد ذلك، وطالع المقامة فأمره أن يضم إليها غيرها، فامثل أمره وعمل المقامات المشهورة به، وفيها في صفر قتل السلطان محمد وزيره خواجا بزرگ.

ودخلت سنة سبع عشرة

فيها: برز المسترشد بالله لحرب ديبس بن صدقة، فخرج لابساً قباء أسود، وعمامة وبردة النبي — صلى الله عليه وسلم — وعلى رأسه طرحة، وتهيأ ديبس للقتال وهو بالحلة، وكان في عساكر ديبس البغايا والمخانيث، والملاهي يضرب بها، ولا يسمع في عسكر المسترشد إلا قراءة القرآن والتسبيح، فهزم ديبس أقبح هزيمة، بعد أن قتل منهم خلق عظيم، ونصر الله المسترشد وأصحابه، ونهبوا الحلة، وكان سبب ذلك عصيان ديبس وسفكه الدماء، وقطعه الطريق، حتى بطل الحجيج في سنة ست عشرة خوفاً، وبعث المسترشد إليه يخوفه ويعظه ويحذره فلم ينته فأوقع به النهب والقتل، ولما كسر ديبس انهزم إلى الملك طغرل بك

ابن أخي السلطان محمود، لما علم من طغر لبك من طلبه الملك، فسار طغر لبك ودييس معه بعسكرهما نحو بغداد. وفيها تسلم الفرنج قلعة الأثارب، وأقامت في أيديهم إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وفيها حاصر بلك حلباً وتسلمها.

ودخلت سنة ثمانى عشرة

فيها: وصل طغر لبك ودييس إلى القرب من بغداد، ولم يشعر المسترشد بذلك، فمرت جمال عليها أمتعة ومال للمسترشد فأخذها ديبس، وكان المسترشد مبرزاً على الدسكرة، فلما بلغه ذلك سار حتى أشرف على ديبس وأصحابه، فلما علم ديبس أنه لامفر له نزل وقبل الأرض بين يدي المسترشد وقال: أنا العبد المطرود المذنب، أما أن له أن يعفى عنه، فلم يجبه أحد، فعاد القول والتضرع، فرق له المسترشد وهم أن يعفو عنه، فصرفه الوزير عن ذلك، فلما رأى ديبس ذلك أخذ أصحابه وانصرف، وعاد المسترشد إلى بغداد. وفيها تسلم البرسقي حلباً، وفيها جمع الجوسلين الرومي عساكر الفرنج ونزل على حلب، وأقام أربعة أشهر، وخرب المشاهد والضياع، وخرج جماعة من أهل حلب إلى تمرتاش سألوه نصرتهم فلم يجبههم، فساروا إلى آق سنقر البرسقي، وكان قد مرض مرضة، ونذر إن عافاه الله تعالى ليفرجن عن حلب الشدة، فسار مع شيوخ الحلبيين في جيش قاصداً حلب، فلما علم الفرنج بذلك رحلوا عن حلب مرحلة إلى جبل جوشن، وضربوا الخيم عليه، ووصل آق سنقر إلى حلب في ذي الحجة من السنة، وصعد قلعة حلب، وتحولت الفرنج إلى الأثارب، وتحول المسلمون إلى السعدي. وفيها قتل بلك ملك، ضربه مجير الدولة البعلبكي صاحب منبج في ودجه فهلك، وفيها قتل الفرنج محمود بن قراجه صاحب حماة على أفامية، وفيها نزل آق سنقر البرسقي. بمجمع المروج بين حمص وحماه، وعزم المسلمون على الجهاد، فأول موضع حاصروه وفتحوه كفر طاب، فتحها آق سنقر البرسقي

وسلمها إلى صاحب حمص، ثم حاصر قلعة أعزاز ونقبوها وهرب الفرنج منها، وفيها في نصف ربيع الآخر قتل القاضي أبو الفضل بن الخشاب رحمه الله ، تبعه قوم بعد صلاة العشاء الآخرة فقتلوه ، فأمر آق سنقر البرسقي بقتل جماعة من أهل حلب ممن اتهم بالباطنية لأجله. وتوجه آق سنقر إلى الموصل.

ودخلت سنة عشرين وخمسمائة

فيها: دخل السلطان محمود بغداد، ونقل المسترشد بالله الحرم إلى الجانب الغربي، ونزل السلطان محمود بالجانب الشرقي، ونهب دار الخلافة، وجرى قتال ونهب، ثم اتفق الصلح، وحلف السلطان محمود للمسترشد بالله، واختلط الجيشان على إتفاق. وفيها وصل قتلغ آبه غلام السلطان محمود بتوقيع من مسعود بن آق سنقر البرسقي إلى نائبه بحلب تومان، حتى يسلم إليه حلب فلم يقبل التوقيع، وكان بصحبته مجد الدين الطويل، صاحب حران فدفع قتلغ آبه التوقيع إليه من مسعود وفيه صورة غزال وطال الأمر على قتلغ آبه، فعاد إلى مسعود فوجده قد مات على باب الرحبة، وهو مطروح على نطع، وقد اشتغل الناس بنهب بعضهم بعضاً، فعاد قتلغ آبه إلى حلب وحلف لتومان وتسلم قلعة حلب منه .

وفيها : قبض السلطان سنجر بن ملكشاه على ديبس بن صدقة، وكان نازلاً عليه، واعتقله في قلعة تقرباً إلى المسترشد بالله، وفيها قفز جمع من الباطنية على آق سنقر البرسقي فقتلوه بجامع الموصل في يوم جمعة ، فلما قتل ورد رسول السلطان سنجر بن ملكشاه إلى بغداد يأمرهم بتسليم الموصل إلى ديبس بن صدقة، وجميع ما كان بيد آق سنقر البرسقي فتهيأ ديبس للمسير، فبعث المسترشد إلى السلطان محمود لا يكون ذلك أبداً، ووقع اختيار المسترشد على أن يولي الموصل لعماد الدين زنكي بن آق

سنقر، وزنكي يومئذ شحنة بغداد، وبذل المسترشد للسلطان محمود مائة ألف دينار على تولية زنكي الموصل، فتسلمها وسار السلطان محمود إلى همدان.

ودخلت سنة اثنتين وعشرين

فيها: تسلم أتابك زنكي قلعة حلب والرحبة.

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وخمسة

وفيها عاد السلطان محمود إلى بغداد فدخلها وانحدر إليه أتابك زنكي من الموصل بهدايا، ثم عاد إلى الموصل ومعه توقيع السلطان محمود بالموصل والجزيرة وحلب والشام والعواصم وما اتصل بذلك، وفيها نزل الفرنج دمشق بقرية السعادة. وفيها تسلم الفرنج بانياس من الاسماعيلية، وفيها قتل المزدقاني بقلعة دمشق، وفيها قتل اخو اجا بهرام ومعه جماعة كثيرة بوادي التيم، وفيها خرج سيف الدين سوار بعسكر حماه وأوقع بالفرنج على كفر طاب، فقتل منهم خلقاً عظيماً، وفيها وصل أسطول الفرنج في البحر، وسمعوا خبر دمشق وخلوها من سلطان فطمعوا بها فجمعوا خمسين ألف فارس وراجل، وخرجوا من البحر، ونزلوا على دمشق ثم أناخوا بحوران، فأنفذ تاج الملوك إلى سيف الدين سوار، وإلى العرب، فجاء الأمير مري بن ربيعة، ومعه خلق من العرب وضربوا مع الفرنج مصاف القتال، فقتلوا من الفرنج أمماً لا تحصى، وأحرقوا خيمهم ورجالهم ورحلوهم عن بلد دمشق عرياناً، وفيها مات السلطان محمود بباب أصفهان، وولي أخوه مسعود مكانه، هكذا ذكره بعض المؤرخين، وقيل إن وفاته كانت في سنة خمس وعشرين.

ودخلت سنة أربع وعشرين

فيها قتلت الباطنية الأمر بالله أبا علي، صاحب مصر ابن المستعلي بالله، وعمره يومئذ أربع وثلاثون سنة، وتولى مكانه أبو الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم المستنصر ولقب بالحافظ الكفيل، وفي ثالث يوم من جلوسه تغلب الأفضل أبو علي ابن أمير الجيوش، بدر على الدولة، وقبض على الحافظ واعتقله بالقصر، فتحالف جماعة من مماليك الأمير على قتل أبي علي، فقتلوه بسيفه، واحتزوا رأسه، ويقال إنه كان سيف الحسين بن علي عليهما السلام، وأخرجوا الحافظ من ساعتهم وباعوه، وفيها كانت وفاة أبي عبد الله محمد بن تومرت المهدي صاحب بلاد المغرب.

ودخلت سنة خمس وعشرين وخمسة

فيها قتل تاج الملوك بوري بقلعة دمشق، وقتلت أم ولده شمس الملوك إسماعيل بعده. وفيها قبض ديبس بن صدقة بحلة حسان بن مكتوم من أعمال دمشق، وقد ضل عن طريقه إلى صرخد، وتقطع أصحابه فلم يكن له مهرب من العرب، فقبضوا عليه وحملوه إلى دمشق، فقايضه أمير دمشق ابن طغتكين من عماد الدين زنكي وكان عدواً لديبس، فظن ديبس أنه سيهلكه، فلما حصل في قبضته أكرمه وعظمه وخوله المال والسلاح والرجال حتى قدمه على نفسه، وكان المسترشد بالله لما بلغه أسر ديبس بدمشق بعث ابن الأنباري كاتب الإنشاء إلى دمشق ليأخذ ديبس من الأسر، للعداوة التي كانت بين ديبس وبين المسترشد، فلما وصل ابن الأنباري إلى الرحبة في الماء علم بحصول ديبس في يد زنكي ثم نفذ زنكي عسكرا إلى الرحبة، قبضوا على ابن الأنباري وحملوه إلى قلعة الموصل.

ودخلت سنة ست وعشرين

فيها وصل الملك مسعود بن محمد إلى بغداد في عشرة آلاف، وورد إليها قراجا الساقى صاحب فارس وخوزستان، ومعه سلجوق شاه بن محمد وهما يطلبان السلطنة . وقراجا أتابك سلجوق، وانحدر زنكي بن آق سنقر من الموصل لينضم إلى الملك مسعود، فلما بلغ إلى تكريت جهز قراجا إليه ألفي فارس، فهزموا زنكي وقتلوا من أصحابه جماعة، وأسروا جماعة، وأصلح المسترشد بالله بين الملك مسعود وبين أخيه سلجوق شاه، وخطب لهما جميعاً، وقطعت الخطبة لسنجر بالعراق، واستقر الحال على أن يخرج المسترشد بنفسه مع مسعود وسلجوق لمحاربة سنجر، وقد خطب له على منابر الشام وديار ربيعة، ومضر، وديار بكر والعراق وأصفهان وفارس، وأما خراسان فله خاصة دون سائر الناس حتى سمي ذا القرنين سنجر، وورد سنجر بالعساكر العظيمة، من خراسان، والتقى الجمعان وقامت الحرب، فقتل قراجا وانهزم مسعود وسلجوق شاه، وأما المسترشد فإنه كان بخانقين ولم يشهد حرباً، وقصد محاربة زنكي بن آق سنقر ودبيس، فالتقوا على فرسخين من غربي بغداد، ووقع بينهم الحرب نصر فيها المسترشد وكسر عسكر زنكي ودبيس، وانهزما، وعاد المسترشد إلى بغداد منصوراً، وأما سنجر فإنه عاد إلى بلاده وأخذ البلاد التي بيد قراجا، وهي بلاد فارس وخوزستان، وكاتب زنكي بن آق سنقر ودبيس ابن صدقة ليقتصدا بغداد ويفتحاها، فتوجها إليها في سبعة آلاف فارس، فلما شارفاها لقيهما المسترشد بألفي فارس وحاربهما فانتصر عليهما وغنم عسكرهما وانهزما.

ودخلت سنة سبع وعشرين

وفيها دخل السلطان مسعود بن محمود إلى بغداد، فخطب له بالسلطنة بها، وبعده لابن أخيه داود، وخرج المسترشد بالله ومعه

السلطان مسعود وابن أخيه داود فخيم على بغداد، ثم سير السلطان مسعود وداود إلى أذربيجان لحرب طغرل بن محمد، صاحب همذان، فساروا ولقوه وهزموه، واستقر مسعود بهمذان، وفيها توجه المسترشد إلى الموصل بنفسه لمحاربة زنكي، فأغلق زنكي بابها في وجه المسترشد، فضرب المسترشد عليها خيمه. وجمع عليها عالماً لا يحصى، وحاصرها قريباً من ثلاثة أشهر، فبعث إليه زنكي، وضمن له أن يحمل له عوضاً عن جميع ما خرج منه، وبذل له الطاعة.

ودخلت سنة ثمان وعشرين

فيها مات ابن تومرت بالمغرب، وظهر عبد المؤمن، وفيها مات القاضي أبو علي الحسن بن إبراهيم بن علي بن برهون الفارقي، الشافعي، ولد في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمئة، ودرس العلم في شببته على يد أبي عبد الله الكازروني، صاحب المجاملي، فلما توفي الكازروني في سنة خمس وخمسين وأربعمئة، قصد الشيخ أبا اسحق الشيرازي، إلى بغداد، والشيخ أبا نصر بن الصباغ وتفقه عليهما، وحفظ المذهب للشيخ أبي اسحق والشامل للشيخ أبي نصر، وكان يقول لأصحابه كررت البارحة الربع الفلاني من المذهب، والربع الفلاني من الشامل، وقد نيف على التسعين سنة، وولي القضاء بواسط، وتوفي فيها، وقد قارب المائة سنة، وفيها قطع المسترشد ذكر السلطان مسعود من الخطبة، وسار إلى همذان فاصداً محاربتة، فالتقوا وكسر المسترشد من غير قتال، وأخذ جميع ما معه من خيل ومالٍ وأسلحة، وأسروا جميع كبار الدولة، وضرب السلطان مسعود في دهليزه خيمة أقعد فيها المسترشد وعليه الموكلون به، وبعث شحنة له إلى بغداد فلم يردده أحداً، ثم أعاد الراشد بالله، وهو ولي عهد المسترشد بالله، الخطبة للملك مسعود، وأعاد النوبة التي تضرب بدار المملكة، وقطع خطبة داود.

ودخلت سنة تسع وعشرين

فيها قتل شمس الملوك بدمشق، قتلته أمه، وفيها قتل محمود بن بوري ابن طغتكين أخاه اسماعيل صاحب دمشق، وتقلدها بعده، وفيها قتلت الاسماعيلية بوري صاحب دمشق.

وفيها سار السلطان مسعود إلى أذربيجان والمسترشد معه أسير موكل به حتى نزلوا قريبا من مراغة، فدخل عليه جماعة من الباطنية، قيل إن السلطان سنجر أرسلهم لقتله، فدخلوا عليه فقتلوه وقتلوا معه ثلاثة من أصحابه، فلما علم السلطان مسعود بذلك ركب خائفاً وقتل الباطنية جميعهم، وأحرق جثثهم بعد أن كان الصلح استقر بين المسترشد وبين السلطان مسعود، على مال يحمل إلى السلطان مسعود، واستقر عود المسترشد إلى بغداد، ومشى السلطان مسعود بين يدي المسترشد حاملاً غاشيته، وبينما هم كذلك، إذ قتل المسترشد كما ذكرناه، وحملت جنازته إلى مراغة، فدفن بها، وخرج أهل مراغة حفاة، حاسري رؤوسهم، وكسروا المنابر، وعطلوا المساجد، ولما ورد الخبر بقتل المسترشد إلى بغداد كسروا منابر الجوامع، واقتلعوا أبواب المساجد، وناحوا في الطرقات وجهروا بسب الملكين سنجر ومسعود، وكان قتله في سادس عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وكان المسترشد بالله عالماً فصيحاً مدبراً ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وكان شديد الهيبة، مشهوراً بالشجاعة، كتب إليه مرة وزيره الحسن بن علي بن صدقة، وقد نقم عليه أمراً فصرفه:

ستعلم — إن أقصيتني — أي خادم
يفوتك إن سارت بليل كتابه
وتندم إن ظلت لغيرك أنعم
علي وقادتنني إليه مواهبه

فكتب المسترشد إليه بخطه تحت لفظه قوله: خادم « مثله كثير » ،

وتحت قوله تندم : « يا هذا الندم أولى بك » . وكتب الوزير إليه مرة كتاباً أوله :

حتى متى أنا موقوف على ظمأ
بين السيلين لا ورداً ولا صـ

فأجابه المسترشد بالله بخطه تحت هذا البيت « إذا عاودت فكرك فيما شطرتك، اعترفت بوجود الغلط والزلل فيما أثبتته والسلام»، وكانت مدة خلافه المسترشد بالله سبع عشرة سنة ونصف وأياماً.

خلافة الراشد بالله أبي جعفر منصور بن المسترشد

مولده في شهر رمضان سنة اثنتين وخمسمائة، بويج ببغداد حين قتل أبوه بمراغة، وكوتب السلطان مسعود بولايته فأجاب، ولما قتل أبوه كان هو ببغداد مستولياً عليها، وكان أبوه ولاء العهد، وهم بعزله فلم يقدر، وفي هذه السنة وهي سنة تسع وعشرين وخمسمائة قتل دبيس بن صدقة، قتله السلطان مسعود، بعث إليه غلاماً فقتله في خيمة النوبة وأبان رأسه، وذلك بعد ثمانية وعشرين يوماً من قتل المسترشد بالله، وفي هذه السنة توفي مالك بن سالم بقلعة جعبر، قتله محمود بن بوري.

ولما دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة

تظاهر الراشد بمباينة السلطان مسعود، فلما بلغ السلطان ذلك قصد بغداد وحاصرها ثلاثة أشهر، فقلق الراشد من الحصار، وخرج من بغداد خفية يريد الموصل، فلما توجه من بغداد، اجتمع الوزير أبو القاسم علي ابن طراد الزينبي وسديد الدولة ابن الأنباري الكاتب، وأحضرا القضاة والفقهاء، وكتبوا محضراً أخذوا فيه خطوط جماعة من العدول بما فعله الراشد من الظلم وسفك الدماء، وأخذ الأموال، وأنه فسق بذلك، وأخذوا خطوط الفقهاء بأنه إذا ثبت فسقه جاز لسلطان الوقت خلعه

والاستبدال بغيره من أهل بيته، ممن يصلح للخلافة، وعرضت الفتوى والمحضر على السلطان مسعود فقال: هذا أمر قد قلدتكموه، وأنا منه بريء عند الله تعالى، فخلعوه، ووقع اتفاقهم على أبي عبد الله محمد بن المستظهر فبايعه السلطان مسعود، والجماعة الحاضرون، ولقبوه المقتفي لأمر الله، ثم عاد السلطان مسعود إلى داره، وفتح الباب، وبايعه الفقهاء وأعيان الناس، وبعث السلطان مسعود الفتوى والمحضر إلى الآفاق، ليتمهد عذره عند الناس، وكان خلعه في منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، وكانت مدة خلافته، إلى أن خلع أحد عشر شهراً وأياماً، وأما الراشد فإنه أقام بالموصل، فراسل السلطان مسعود أتابك زنكي في القبض على الراشد، وانفاذه إليه إلى بغداد، فامتنع من ذلك لكونه ضعيفاً عنده، وجهز أتابك زنكي الراشد إلى مراغة، ليخرج من ولايته، فتوجه الراشد فوصل إلى مراغة، وملكها، وأقام بها ثم سار نحو الري، ثم طلب خراسان ولما قرب من ولاية الباطنية جرد السيف وقتل منهم جماعة كبيرة، ثم عاد يطلب همذان وخرج السلطان مسعود إلى الراشد يحاربه، فاتفق الراشد ومنكورس صاحب فارس وبزويه صاحب خوزستان على محاربة السلطان مسعود، فحاربوه، فكانت الكثرة على السلطان مسعود، وقتل من أصحابه خلق عظيم، ثم توجه الراشد إلى أصفهان في شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فدخل عليه جماعة من الباطنية، فقتلوه، وقيل إنه سم بها ودفن بموضع يقال له شهرستان على فرسخ من أصفهان، وقيل بل دفن بجامع المدينة القديمة التي يقال لها جي بأصفهان، وكان قتله في سابع وعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

خلافة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله

أمه أم ولد تدعى ياغي، وتلقب بست السادة، مولده في سنة تسع

وثمانين وأربعمئة، وبويع بالخلافة في سابع عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمئة، بايعه السلطان مسعود والأكابر والعامّة.

ولما دخلت سنة اثنتين وثلاثين

ولد فيها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى، وفيها كانت زلزلة عظيمة هدمت الأثارب، وفيها خيم أتابك زنكي على حمّاه، ثم ملك حمص، ومضت الروم إلى شيزر فحاصروها، فسار إليهم أتابك زنكي ومعه داود، وحسام الدين ابن أرتق، فرحلوا الروم عن شيزر، ونهبوا منهم شيئاً كثيراً.

وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية إلى الشام، ونزلوا على حلب، فلقيهم أتابك زنكي ومعه العساكر.

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين

فيها كان بحلب زلزلة عظيمة أتت على مائتي ألف نفس فهلكوا.

ودخلت سنة أربع وثلاثين

فيها ولد الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب رحمه الله تعالى.

ودخلت سنة خمس وثلاثين

فيها مات أبو بكر عبد الباقي المعروف بقاضي البيمارستان عن نيف وتسعين سنة، وكان محدثاً عالماً عالي الاسناد، عالماً بالمنطق، وعلم الهيئة، مشهوراً، وفيها توفي أبو القاسم بن أفلح الشاعر الكاتب.

ودخلت سنة سبع وثلاثين

وفيها ولد الملك العادل سيف الدين، أبو بكر بن أيوب، وقيل بل ولد في سنة إحدى وأربعين، وفيها مات سيف الدين بدمشق.

ودخلت سنة ثمان وثلاثين

فيها مات الوزير أبو القاسم بن طراد الزينبي عن ست وسبعين سنة، وكان عظيماً جليلاً، وفيها قتل السلطان داود بن السلطان محمود بن ملكشاه، على يد جماعة اغتالوه ولم يعرف قاتله، وفيها مات الزنخشي الامام في علم النحو، وهو محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم، ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة، وأخذ علم النحو عن أبي نصر النحوي، وكان هذا - أبو النصر - عالماً فاضلاً، وفيه يقول الزنخشي لما مات أبو النصر:

وقائلة ما هذه الأدمع التي
تساقط من جفنيك سمطين سمطين
فقلت هو الذي قد حشابه
أبو نصر أذن تساقط من عيني

ودخلت سنة تسع وثلاثين

فيها فتحت الرها، ودخل علي كوجك إلى الموصل، في ذي القعدة منها، وفيها تسلم أتابك زنكي سروج من الفرنج، وفيها مات الشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر، المعروف بابن الجو اليقي، الامام في علم النحو واللغة، ولد في سنة ست وستين وأربعمائة، وكان عالماً، فاضلاً، ورعاً، ديناً، ثقةً، أخذ العلم عن أبي زكريا الخطيب التبريزي وغيره، وكان يصلي بأمر المؤمنين المقتضي لأمر الله، ويؤدب أولاده، وصنف في علم الأدب تصانيف جمّة.

ودخلت سنة إحدى وأربعين

فيها قتل أتابك زنكي بن آق سنقر على قلعة جعبر، وهو محاصرها، قتله بعض غلمانه، وكانوا جماعة سلف منهم ذنب، فتوعدهم فخافوه، فقتلوه، وكان له سطوة وبأس، وخلف من الأولاد الذكور أربعة : نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود، ونصرة الدين أمير ميران، وقام بالأمر بعده ابنه سيف الدين غازي بالموصل وأكثر الولاية.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين

فيها : قتل شاهنشاه بن أيوب في حملة حملها على الفرنج، وفيها أخذ نور الدين محمود أفامية من الفرنج، وفيها نزل ملك الألمان على دمشق، في يوم السبت، ورحل يوم الأربعاء، فكانت مدة مقامه خمسة أيام، وفيها أيضاً حاصرت الفرنج دمشق، فجاء سيف الدين غازي بعسكر عظيم، فرحل الفرنج عنها، وجهز أخاه قطب الدين مودود بعسكر كبير إلى أخيه نور الدين محمود فتزلا على البارة، وأخذها في هذه السنة.

ودخلت سنة أربع وأربعين

فيها: توفي الأمير سيف الدين غازي بن أتابك زنكي، وفيها تسلم نور الدين حمص، وتل باشر، وفيها مات خليفة مصر أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، الملقب بالحافظ، وقيل بل مات في سنة ثلاث وأربعين، وجلس بعده ولده أبو المنصور إسماعيل الظافر، بنص أبيه، وكان أصغر الأولاد سناً، فأقام متولياً مدة ثم قتله وزيره عباس بن تميم المغربي وابنه ناصر الدين خفية، وأخفيا قتله، وأنكره، وأجلسا مكانه للخلافة الفائز، فكتب أهل القصر كتاباً إلى طلائع بن رزيك، وكان في الصعيد الأدنى، وأصبحوا الكتاب شعور النسوان، فلبس

طلائع السواد، وجند جمعاً عظيماً وكاتب أمراء القاهرة في طلب دم الظافر، فساعده، فتوجه إلى مصر، فلما سمع عباس وابنه بذلك هربا بأموالهما وكانت عظيمة، فلما وصلا إلى منهل يعرف بمرة وأم كعب قاصدين الشام، خرجت الفرنج عليهما فقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصرأ، وأخذوا جميع أموالهما، وأما طلائع بن رزيك فإنه وافى القاهرة، فدخلها وأجلسه أهلها للوزارة، ولقبوه الملك الصالح، واستقام أمره، واستقل بتدبير الدولة، ثم كاتب الفرنج وبعث رسولا من الفائز ومن عنده، وبعث لهم معه هدايا وأموالاً جزيلة، وطلب منهم نصر بن عباس فسلموه إلى رسوله فجعله في قفص حديد وعاد به إلى القاهرة، فأخذه الصالح طلائع وسلمه إلى النساء فأقمن يضربنه بالقباقيب، والأمدسة أياماً متوالية، ثم قطعن لحمه وأطعمنه إياه مدة شهر حتى مات، ثم صلب على باب زويلة، ثم أحرقوه، وفيها غزا نور الدين محمود بن زنكي فقتل البرنس ملك أنطاكية، ففتح كثيراً من قلاعهم، وفيها وزر عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة، وكان يلقب قبل ذلك بجلال الدين.

ودخلت سنة خمس وأربعين

فيها تسلم نور الدين محمود من الفرنج قورص والراوندان، وتسلم الملك مسعود بن قلج أرسلان بهسنا، وكيسون وقونية ورعبان والمرزبان، وفيها تسلم نور الدين من الفرنج أعزاز، وفيها تسلم الملك مسعود بن قلج أرسلان من الفرنج عين تاب.

ودخلت سنة ست وأربعين

فيها قتل علي بن مالك صاحب قلعة جعبر بموضع يقال له وادي العوسج.

ودخلت سنة سبع وأربعين

فيها مات السلطان مسعود بن محمود بهمدان، وفيها توجه السلطان سنجر إلى أترك بأطراف خراسان، يسكنون البر في خركاوات، عدة بيوتهم مائة ألف خركاه، فأعطوه لكل خركاه شيئاً من الذهب عينوه فلم يقبل، وصافوه فنصروا عليه وكسروه وقوي أمرهم، وخربوا البلاد وأخلوها وقتلوا أهلها، وأتوا مرو فقتلوا كل من فيها، وجاؤوا إلى نيسابور فقتلوا كل من فيها من الفقهاء والعوام وقتلوا في تلك النوبة الامام محيي الدين محمد بن يحيى الشافعي صاحب الغزالي - رحمه الله - وكان تاريخ العلوم الخلافية، واسروا سنجرأ واحتاطوا عليه، وخطبوا له، وقالوا له أنت السلطان ونحن عسكريك، وما زال أسيراً في أيديهم حتى مات، وفيها مات أبو منصور المظفر بن أزدشير العبادي الواعظ، كان عظيم القدر في الزهد والوعظ، له كلام مدون مذكور، وكان قد مضى من دار الخلافة في رسالة إلى الملك محمد بن محمود فهايت في الطريق، وحمل تابوته إلى بغداد، ودفن بها، وفيها أطلق نور الدين من جميع البلاد المكوس والمؤن في شهر رمضان.

ودخلت سنة ثمان وأربعين

فيها نقل رأس الحسين - عليه السلام - من عسقلان إلى مصر، وبنى عليه الظافر مشهداً عظيماً، وكانت عسقلان للمسلمين إلى أن نقل الرأس عنها، فبعده بقليل أخذت الفرنج عسقلان.

ودخلت سنة تسع وأربعين

فيها: فتح نور الدين محمود دمشق، وفيها قتل الظافر صاحب مصر، وولي الفائز.

ودخلت سنة خمسين

فيها: وصل الملك سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه إلى بغداد عبداً وضيعاً وتلقي بولد الوزير عز الدين ابن هبيرة، ولم ينزل أحدهما للآخر، فنزل سليمان شاه وقبّل عتبة الباب النوبي، وعطف عليه المقتفي لأمر الله، وقضى ذمامه وخطب له بالسلطنة، وجهزه المقتفي بجيش من عنده، فقصد أذربيجان، والتقاء ملكها ملكشاه بن محمود وتصافا، وقصدهما محمد شاه بن محمود بعساكره فانهزم سليمان شاه بجيشه وعاد طالباً العراق، فوقف له كوجك صاحب الموصل على رأس الدربند، فلما اجتاز سليمان شاه به قبض عليه كوجك، وعلى خوارزم شاه أخي زوجة سليمان شاه، وأعتقلهما بالموصل، وذلك في سنة إحدى وخمسين، واستديمت الخطبة ببغداد لسليمان شاه مع اعتقاله، وفيها مات الملك مسعود، سلطان الروم ابن قلع أرسلان، وهو هو نور الدين محمود بن زنكي، وفيها ولي نور الدين محمود مجد الدين أبا بكر بن الدايدة حلباً وجميع بلادها، وفيها ولي نور الدين محمود أسد الدين شيركوه دمشق وأعمالها.

ودخلت سنة اثنتين وخمسين

فيها فتح نور الدين محمود بانياس، وتسلم قلعة شيزر، وفيها نزلت الفرنج شيزر، وقتلوا منها خلقاً كثيراً، وفيها توفي صلاح الدين الشيخ بحمص، وكانت حماه له قبل ذلك، وفيها كانت الزلزلة الكبيرة المعروفة بزلزلة حماه، هدمت حماة، وشيزر، وبعض طرابلس واللاذقية وجبله ومصيف، والقدموس وغيرها، ونبتعت عين حارم ماء أحمر كالدم، وخسف بخمس ضياع من اللاذقية، غابت في الأرض، وخرب من حلب شيء كثير، وإنما عرفت هذه بزلزلة حماه لأن أثرها فيها كان أكثر من غيرها، وكانت في ثالث يوم من رجب.

وفيها ولد الامام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله تعالى، وفيها مرض نور الدين محمود مرضاً شديداً بحلب حتى أشرف على الموت، فسمع أخوه نصرة الدين بمرضه فقصد حلباً، فأمر مجد الدين بن الداية بغلق الأبواب في وجهه، فصاح نصرة الدين في باب قنسرين: أنا مثل أحدكم لم تغلقوا الأبواب في وجهي فكسر العوام باب المدينة ودخل نصرة الدين المدينة وقت العصر، وجاء إلى تحت القلعة وصاح إلى مجد الدين بن الداية وهو والي قلعة حلب: إن كان أخي نور الدين في عافية فأنا غلامه وجميع العساكر عبيده، وإن كان أصابه شيء فأني معني ترموني بالنشاب، فرموه بالنشاب، فحلف نصرة الدين أهل حلب أن يكونوا يداً واحدةً فحلفوا له، ونهبوا دار الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وأدر جماعة، وبقي باب القلعة مغلقاً على نور الدين، ومجد الدين ستة عشر يوماً، ولم يخطب بجامع حلب خطيب، وجمع المؤذنين على أذان حيٍّ على خير العمل، ففعلوا، وبقي السنة واقفون مع الحلبيين مع نصرة الدين، وتحالف أهل حلب على أن عدوهم مجد الدين بن الداية، ففصل أسد الدين شيركوه من دمشق، فصعد القلعة وتوسط أن يأخذ نصرة الدين حرّان وعشرة آلاف دينار أميرية، ويمضي إليها بغير اختيار الحلبيين، فرفض نصرة الدين بذلك، ورحل إلى حرّان، وترك الحلبيين وشأنهم.

ودخلت سنة ثلاث وخمسين

فيها كان المقتفي لأمر الله بايع لابنه المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بولاية العهد، فلما دخلت سنة ثلاث وخمسين قتل عامل للمقتفي على نهر ملك يعرف بالجويري، فتحدث الناس أن الجويري قتل بوضع من ولي العهد يوسف، ووقر في ذهن المقتفي شيء من ذلك، فكتب المقتفي، إلى وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة رقعة: «يا يحيى قد تحقق عندي أن الجويري قتل بوضع من ولدي أبي المظفر يوسف، وإني مراجع في نفسي

في نقض عهده، وجعل الخلافة في أخيه أبي علي فما ترى في ذلك؟» فكتب إليه الوزير عون الدين: «العبد يقبل الأرض ويعفر الخد، ويسأل مولانا، إمام المسلمين، وأمير المؤمنين ثبت الله دعوته، الثبت فيما عرض له، فإن الدعوة قد سارت في أقطار الأرض بولاية عهده لولده وقد أخرجت في ذلك أموال جمّة، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يأخذه بقول متحريض وإش، فقد قيل في الشك رب وإش غاش، والرأي أسمى وأعلى». فلما وقف المقتضي على جواب عون الدين أغضى وصفح عن ولده أبي المظفر يوسف، وبهذا الجواب الصادر عن عون الدين، انتفع عون الدين به نفعاً عظيماً حين أفضت الخلافة إلى يوسف المستنجد بالله، فإنه وقف على هذه الورقة بخط عون الدين، فشكره على صنيعه، وأعفاه من الوزارة بعد أن طلبه لها، وألح عليه فلم يفعل، وأكرمه واحترمه، وشكر له ذلك.

وفيها وهي سنة ثلاث وخمسين

مات بدر الدين محمد بن عبد اللطيف بن الخجندي، رئيس أصفهان ومفتيها، وفيها مات ابن منير الشاعر الطرابلسي، كان شاعراً مقلعاً مجوداً، وله ديوان مشهور وأخبار مستطرفة معروفة، وفيها مات القيسراني الشاعر، كان شاعراً مجوداً.

ودخلت سنة أربع وخمسين

فيها مات السلطان محمد شاه بن محمود.

ودخلت سنة خمس وخمسين

فيها مات ملكشاه. وفيها أفرج علي كوجك على سليمان شاه بن محمد، وخطب له بالسلطنة، وفيها في رجب مات الفائز صاحب مصر، وكان

صبيّاً عمره احدى عشرة سنة، والمدبر أمرة طلائع بن رزيك، وأقام مقام الفائز العاضد، وهو صبي، وفيها في أول شوال، اتفقت العساكر بباب همدان على القبض على سليمان شاه، فقبضوا عليه وخطبوا لرسالن شاه ابن طغرل وكان بكنجّة، وقطعت خطبته ببغداد في محرم سنة ست وخمسين، وفيها - وهي سنة خمس وخمسين - توفي المقتفي لأمر الله في مستهل ربيع الأول من السنة، فكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وخلف من الأولاد: أبا المظفر، وأبا جعفر.

خلافة المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله

ولد في ربيع الأول سنة ثمان عشرة وخمسة، أمه أم ولد تدعى طاووس، بويع بالخلافة في ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسة وكان مهيباً عالماً، أظهر السيرة الجميلة في ولايته، ورد الأموال المخصصة إلى أهلها، وأسقط المكوس والضرائب ببغداد، وكانت مضمنه في كل سنة بجملة عظيمة، ولما ولي الخلافة خافه عون الدين ابن هبيرة الوزير للمقتفي، فجمع منه ومن ولديه ثلاثين ألف دينار وحملها مع غلمانها إلى المخزن الشريف، وسأل قبولها وكتب صحبتها: « العبد كان في مبدأ أمره خامل الذكر، وضيع القدر، قدم إلى دار الخلافة المعظمة، وليس له من عرض الدنيا شيء سوى قميص وعمامة يساويان ديناراً يستتر بهما، فسما ذكره ورفع قدره بما شمله من الانعام النبوي، والآن فهو يضرع ويسأل مولانا أمير المؤمنين أن يأذن له في لزوم زاوية مسجد، يعبد الله سبحانه فيه، ويدعو لأيامه الزاهرة، والرأي أعلى وأسمى » فقبل ما حمله، وكتب المستنجد بالله الجواب بخطه: « وقفنا على ما ذكره، وشكرنا سعيه، فأما ما سأله في اعتزاله فلا، لكونه شقيقاً علينا، خالصاً في محبتنا من شبه الريب، حافظاً لنا بالغيب، وهو أحق بمجلسه ممن سواه، ومن يك رأيه

فينا هذا فهو أخرى أن يحفظ ويلحظ، « ثم بعث إليه بالرقعة التي كتبها إليه المقتفي - أبوه - وقد ذكرناها، وفيها جوابه إلى المقتفي أن لا يغير عليه ذلك، ولا يستبدل به أحداً، فعلم الوزير أن الله سبحانه نفعه بحسن سفارته ومشورته، وينبغي كل واحد أن لا يصدر منه إلا خير في حق أعدائه فكيف بأوليائه، ويتوكل على الله سبحانه في جميع أموره، ففيه كفاية.

ودخلت سنة ست وخمسين

فيها : قتل الملك الصالح طلائع بن رزيك، قتله سبعة أنفس من الحاشية قطع أرزاقهم في دهليز القصر، وولى العاضد موضعه ولده رزيك الوزارة، ولقبه الملك العادل مجد الاسلام وخلع عليه، وكان الصالح طلائع متشيعاً موالياً لأهل الحسين عليهم السلام ، وكان شاعراً مجيداً وله ديوان مشهور، من جملة شعره قصيدته التي وازن بها قصيدة دعبل الخزاعي التي أولها:

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزله وحى مقفر العرصات

وأول قصيدة طلائع:

أعاذل دع لومي على صبواتي
فهامات يحسوه الذي هو آتي
وما جزعي من سيئات تقدمت
ذهاباً إذا أتبعته احسناتي
إلا أنني أقلعت عن كل شبهة
وجانبت غرقى أبحر الشبهات
شغلت عن الدنيا بحبي لعشر
بهم يصفح الرحمن عن هفواتي

وقال في آخرها:

أعـارضـ من قول الخـزاعي دعبـل
وإن كنت قد أقللت من مدحاتي
مدارس آيات خلـت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العـرصـات

ولما ولي رزيك بن طلائع أظهر العدل، وتمكن من الدولة، فأشير عليه بعزل شاور السعدي وكان أبوه طلائع ولاء الصعيد الأعلى، فقبل منهم وكتب كتاباً إلى شاور يستدعيه فأوجس في نفسه خيفه وكتب إلى رزيك كتاباً أظهر فيه الطاعة واستعطفه وذكره بسابق خدمته، فلما وقف رزيك على كتابه شاور أهله فيه، فقالوا: إن أبقيته طمع فيك فخالقهم وقال: المصلحة تركه، فقالوا: لا بد من عزله فأحضر رزيك نصير الدين بن شيخ الدولة ، وولاه قوص، وكتب على يده كتاباً إلى شاور يأمره بتسليم قوص إليه، واستدعاه إليه، فلما وصل نصير الدين إلى أخميم بعث كتاب رزيك إلى شاور، فلما وقف عليه بعث إلى نصير الدين يقول له:

أنت صاحبي فارجع من حيث أتيت فهو خير لك، فعاد نصير الدين إلى القاهرة، وجاهر شاور حيثئذ بالعداوة والعصيان، وأحضر خلقاً من العرب وخالقهم فحشد وقصد مصر ومعه خلق فانهزم رزيك بخاصته وأمواله متشتتين في كل ناحية وأخذ رزيك نحو جهة القبلة ، فوصل إلى جزيرة تعرف بسليمان بن البيص اللخمي، فقبض عليه أهلها، وأعلموا سليمان به فسجنه وسار بليته إلى شاور وعرفه بقبض رزيك فبعث شاور خمسين فارساً فقبضوا على رزيك وأتوه به مقيداً، وأما شاور فإنه دخل القاهرة، وحضر بين يدي العاضد فخلع عليه، وحنكة، واستوزره، ولقبه أمير الجيوش، وحلف له واستحلف الناس له.

وفيها وهي سنة ست وخمسين

حج أسد الدين شيركوه وبث في الحرمين معروفاً كثيراً، وحج في هذه السنة علي كوجك صاحب الموصل.

ودخلت سنة سبع وخمسين

فيها: استولى الضرغام على ديار مصر، وطرد شاور عن الوزارة إلى الشام، وتبعه الضرغام ليدركه فلم يدركه، فلما عاد الضرغام استوزره العاضد وحنكه ولقبه الملك المنصور، وقتل الضرغام من الأمراء الذين كاتبوا شاور ما يزيد على سبعين أميراً سوى أتباعهم.

ودخلت سنة ثمان وخمسين

فيها: خرج شاور إلى الشام، ووصل إلى دمشق، واجتمع بنور الدين محمود، ووصف له ديار مصر، وضعف أهلها، وضمن له إن بعث معه عسكرياً أخذها له، فندب نور الدين محمود أسد الدين شيركوه لذلك، فسار أسد الدين، وشاور في خدمته، إلى أن أتوا بلبيس وأخذها، ثم أخذ مصر فلما رأى شاور ذلك دبر نفسه، وأصلح شأنه، مع المصريين سراً ورام إخراج أسد الدين، فلم يطبق إلا بمظاهرة الفرنج، فكاتب ملك الفرنج - صاحب القدس - وأمراء الساحل من الفرنج وضمن لهم أموالاً، إن هم جاؤوا إلى مصر وأخرجوا أسد الدين، فأتوا مصر وانحاز أسد الدين إلى بلبيس وتحصن بها، ثم قرر شاور للفرنج على إخراج أسد الدين أربعمئة ألف دينار مصرية، وهادنهم بعد هذه القطيعة خمس سنين، ونزل الفرنج على بلبيس وحاصروا أسد الدين ثلاثة أشهر، وبنوا على بلبيس برجاً، وزحفوا إليها، هذا كله وأسد الدين لم يقاتلهم، ثم راسلهم أسد الدين في الصلح، على أن يخرج بنفسه وعساكره إلى الشام مودعاً فأجابوه، وحلفوا، فخرج أسد الدين ومن معه إلى الشام، وأخذ

شاوَر يَحْثُ الْفَرَنْجَ عَلَى أَنْ يَحْمِلُوا عَلَى أَسَدِ الدِّينِ وَيَقْلِلَهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ
فَقَالُوا:

لَا نَفْعَ لَاطَاقَةٍ لَنَا بِقِتَالِهِ هُوَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَعَهُ أَبْطَالٌ، وَوَصَلَ
أَسَدُ الدِّينِ سَالِمًا إِلَى الشَّامِ، وَأَمَّا شَاوَرُ فَإِنَّهُ لَمَّا عَادَ إِلَى مِصْرَ، وَأَحَاطَ بِهَا،
عَلِمَ الضَّرْعَامُ أَنَّهُ قَدْ أَحِيطَ بِهِ فِي الْقَصْرِ، فَصَاحَ: يَا مُوَلَانَا، يَا مُوَلَانَا، فَلَمْ
يَجِبْهُ أَحَدٌ، وَبَرَزَتْ إِلَيْهِ رَقْعَةٌ فِيهَا: « خُذْ لِنَفْسِكَ وَانْجِبْ بِهَا » فَخَرَجَ هَارِبًا
فَأَدْرَكَهُ غُلَمَانُ شَاوَرٍ فَقَتَلُوهُ، وَقَتَلُوا أَخُوَيْهِ مَعَهُ: مَلْهُمًا وَالْحَسَامَ.

وَفِيهَا وَهِيَ سَنَةٌ ثَمَانٌ وَخَمْسِينَ

خَرَجَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ مِنْ مَرَكَشَ إِلَى سِلَا، فَتَوَفَّى بِهَا فِي الْعَشْرِ
الْأَوَاخِرِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَكَانَتْ وَلَايَتُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ
سَنَةً وَشَهْرًا، وَخَلَفَ خَمْسَةَ عَشَرَ وَلَدًا ذَكَرًا، وَكَانَ حَسَنَ السَّيْرِ مُحْمُودًا فِي
مَمْلَكَتِهِ، وَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ جَمَعَ أَشْيَاخَ الْمُوَحِّدِينَ وَقَالَ: إِنَّ ابْنِي مُحَمَّدًا
لَا يَصْلُحُ لِهَذَا الْأَمْرِ، وَإِنَّمَا يَصْلُحُ لَهُ ابْنِي يُوسُفُ فَبَايَعُوهُ، وَدَعَوْهُ بِأَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا مَاتَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ كَتَمُوا مَوْتَهُ وَحَمَلُوهُ إِلَى مَرَكَشَ ثُمَّ أَظْهَرُوا
مَوْتَهُ، وَاسْتَقَرَّتْ وَلَايَةُ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ، وَكَانَ فَقِيهًا عَالِمًا حَافِظًا، وَسَارَ
بِالنَّاسِ السَّيْرَ الْجَمِيلَ، وَفِيهَا كَسَرَةُ الْفَرَنْجِ نَوْرَ الدِّينِ مُحَمَّدٌ عَلَى الْبَقِيعَةِ
بِكَبْسَةٍ تَحْتَ حَصْنِ الْأَكْرَادِ.

وَدَخَلَتْ سَنَةٌ تِسْعٌ وَخَمْسِينَ

فِيهَا مَاتَ جَمَالُ الدِّينِ مُحَمَّدُ ابْنُ الْأَصْفَهَانِيِّ وَزِيرُ الْمَوْصِلِ الْمَشْهُورِ
بِالْكَرَمِ وَالْإِفْضَالِ، وَحُمِلَ تَابُوتُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلَ الصَّلَاةِ
وَالسَّلَامِ فَدُفِنَ بِهَا، وَفِيهَا مَاتَ الْوَزِيرُ عَوْنُ الدِّينِ يَحْيَى بْنُ هَبِيرَةَ،
صَاحِبُ كِتَابِ الْإِفْصَاحِ عَنْ مَعَانِي الصَّحَاحِ، ذَكَرَ فِي أَوَّلِهِ خِلَافِيَّاتِ
الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعِ، وَكَانَ عَالِمًا، عَفِيفًا، مُحِبًّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ، مُحْسِنًا إِلَيْهِمْ، وَزَرَ

لخليفتين سبع عشرة سنة، وفيها فتح نور الدين بانياس، وحارماً من الفرنج.

ودخلت سنة اثنتين وستين

فيها: سار أسد الدين بجيش كثيف إلى مصر في ربيع الأول منها، ونزل بالجيزة، وأقام محاصراً لها نيفاً وخمسين يوماً، ومعه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فاستنجد شاور بالفرنج، وأذن لهم أن يدخلوا مصر لنجدته، فقدموا قاصدين حرب أسد الدين، فلما عرف أسد الدين مجيئهم رحل من بين أيديهم إلى موضع يعرف بباب البابين، وعبأ أصحابه فيه، وجرى بين أسد الدين والفرنج وبينهم حروب نصر بها المسلمون عموماً والملك الناصر صلاح الدين وأصحابه خصوصاً وقتلوا من المصريين والفرنج ألفاً، وأسروا سبعين فارساً من بارونيتهم، ثم قصد أسد الدين وصلاح الدين الاسكندرية فدخلوها ووجدوا أهلها مساعدين لهم على الفرنج والمصريين، وأقام الفرنج بالقاهرة، حتى استراحوا وجددوا آلات الحرب، وولى أسد الدين الاسكندرية صلاح الدين، وتوجه أسد الدين إلى الصعيد فجبى خراجها، وتوجه الفرنج إلى الاسكندرية وحاصروا صلاح الدين بها أربعة أشهر، فلم يظفروا، وجمع أسد الدين الجموع وتوجه إلى لقاء الفرنج، فلما قرب منهم رحلوا عن الاسكندرية، وأما شاور فإنه عند ذلك راسل أسد الدين وهادنه على أن ينصرف عنهم إلى الشام، فطلب أسد الدين منهم عوض ما غرمه فبدلوا خمسين ألف دينار، وأجابوه إلى كل ما سأل، فبعث أسد الدين إلى صلاح الدين وهو بالاسكندرية يستدعيه فأتاه وعاد إلى الشام.

ودخلت سنة ثلاث وستين

فيها: أنعم نور الدين محمود على أسد الدين بجمص وأعمالها فمضى إليها وتسلمها.

ودخلت سنة أربع وستين

توجه الفرنج إلى مصر، وسببه أنهم لما دخلوها مرتين قبل ذلك اطلعوا على معانيها ومقاتلها وجهاتها فطمعوا في أخذها، وجمعوا جموعاً عظيمة، ومضوا إليها في المحرم من عسقلان، فلما وصلوا إلى بلبس حاصروها وملكوها وقتلوا أهلها وأسروهم، ثم نزلوا على القاهرة، ومقدمهم الملك أمري، فقال شاور لأصحابه: أيجب الملك أن بلبس جينة يأكلها فبلغ أمري ذلك، فبعث إليه أمري: نعم بلبس جينة، والقاهرة زبدة، فلما حاصروا القاهرة أحرق شاور مصر خوفاً عليها فلما ضايقوها بالحصار أرسل شاور إلى الملك أمري يطلب منه الصلح على ألف ألف دينار، بعضها معجل وبعضها منجم، فأجابه أمري وحلف على ذلك، فعجل له شاور مائة ألف دينار، ومطله بالباقي، وكاتب نور الدين محمود يستصرخ به وسود كتبه وجعل في باطنها شعور النساء وذوائبهن، وواصل كتبه بذلك إلى نور الدين محمود، وهو يومئذ بحلب، فسار أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلة واحدة، وجمع هو ونور الدين جموعاً عظيمة ومضيا إلى دمشق، وعرضوا العساكر على الفوار، ثم دخل أسد الدين إلى مصر، ومعه سبعون ألفاً أو قريباً منها، فلما بلغ الفرنج مجيء أسد الدين رحلوا عن مصر صاغرين، عائدین إلى الساحل، ودخل أسد الدين القاهرة في سابع ربيع الآخر، وجلس في الإيوان، وخلع عليه، ومعه صلاح الدين، وأقام شاور بضيافة العساكر وأكثر التردد إلى خدمة أسد الدين وطلب أسد الدين منه مالا ينفقه على الأجناد، فمأطله به، فبعث إليه الفقيه عيسى بن محمد يقول له: إن الأجناد طلبوا نفقاتهم، ومأطلت بها، وقد تغيرت قلوبهم عليك، فإن أتيتني فكن على حذر منهم، فلم يؤثر ذلك شيئاً عند شاور وركب على عادته وجاء إلى أسد الدين مسترسلاً، فاعترضه صلاح الدين يوسف، في الأمراء النورية، وقبض عليه فجاءه من القصر من يطلب رأسه، فقتل

وحمل رأسه إلى العاضد وذلك في يوم السبت سابع عشر ربيع الآخر ، من هذه السنة، وقلد العاضد أسد الدين الوزارة، وكتب العاضد عليه بخطه ما نسخته: « هذا عهد لم يكتب لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، والحجة عليك عند الله تعالى بما أوضحه لكم من مرشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بك بخدمتك بنوة النبوة، واتخذ للفوز سبيلاً، «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً» (النحل: ٩١) .

ونسخة أول المنشور: « من عبد الله ووليه أبي محمد عبد الله بن يوسف الحافظ، إلى السيد الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى الله كلمته:

سلام عليكم ، فإننا نحمد إلكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلي على جدي محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، ويسلم تسليماً» ثم يتلو كذلك خطبتان بليغتان فيهما مواعظ ووصايا وتقليد الوزارة، وتدبير الدول بألفاظ حسنة طويلة اختصرناها في هذا المختصر.

وفيها: توفي أسد الدين شيركوه بعد وزارته بخمسة وستين يوماً، وكانت وفاته في يوم الأحد ، ثاني عشرين جمادى الآخرة من السنة ، وكانت مدة مرضه يوماً وليلة، وعمل له بالقاهرة عزاء عظيم، وفيها ولي الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله الوزارة للعاضد بمصر، وذلك أن أسد الدين لما توفي سأل العاضد أصحابه عن عسكر أسد الدين ومن فيه يصلح للوزارة . ففيل له: شهاب الدين

محمود خال الملك الناصر صلاح الدين، فأحضر، وقال أريد أوليك مقام أسد الدين، فقال لا أصلح لها، وإنما يصلح لها ابن أختي، صلاح الدين يوسف، وكان بموافقة الأمراء النورية وغيرهم فعقد العاصد الوزارة لصلاح الدين، وخلع عليه، وكتب له منشوراً ولقبه الملك الناصر، واستقل الملك الناصر في تدبير الدول . وفيها قتل الخصي الأسود المعروف بمؤمن الخلافة، وكان زمام قصر الخلافة، ومطاعاً فيهم، فاتفق مع جماعة غلمان القصر أن كاتبوا الفرنج مستدعين لهم إلى مصر ليساعدوهم على إخراج الملك الناصر وأصحابه من مصر، وبعثوا بالكتاب مع إنسان خفية، فاتفق أن بعض التركمان رأى ذلك الإنسان ومعه نعلان جديدان فاستنكرهما، وأخذ النعلين منه على سبيل الامتحان وجاء به إلى الملك الناصر، فأمر بفتح النعلين فوجد في طباقهما خرقاً مكتوبة، وإذا فيها مكتوب من القصر إلى الفرنج يستدعونهم إلى قتال الملك الناصر فقال الملك الناصر: دلوني على كاتب هذا الخط، فدلوه على رجل يهودي، فأحضره، فلما رأى الكتابة تلفظ بالشهادتين خوفاً من العقوبة، واعترف أن الخط خطه، وأن مؤتمن الخلافة أمره بكتابة ذلك، فأطلقه الملك الناصر لا سلامه، وأخفى الملك الناصر ذلك وجعل مؤتمن الخلافة لا يخرج من القصر، وإن خرج لا يبعد، فخرج يوماً متنزهاً ظناً منه أن ما فعله نسي، فبعث الملك الناصر جماعة قتلوه وأخذوا رأسه، ولما قتل مؤتمن الخلافة غضب السودان لقتله، وتجمعوا في خلق كثير يزيدون على خمسين ألفاً، وكانوا ذوي شوكة ما تمالؤوا على وزير إلا قتلوه، فباشر الملك الناصر صلاح الدين قتلهم بنفسه وعساكره، فقتلهم واستباح دماءهم، وهرب من سلم منهم، وكان لهم محلة كبيرة على باب زويلة تسمى المنصورة، فأمر الملك الناصر بتعفية أثرها فخربت، وجعلت بستاناً.

ودخلت سنة خمس وستين

فيها: كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حلب، حدثت في بكرة يوم الاثنين ، ثاني عشر شوال، بعد طلوع الشمس، وتعرف في الشام بزلزلة حلب، لأن تأثيرها في حلب أكثر من بقية البلدان، وهلك تحت الردم بحلب على ما روي خمسة عشر ألف آدمي، واضطربت قلعة بعلبك، وتهدم بعضها، وتهدم حصن شيزر، وجانب من قلعة حماه، وقطعة من حصن الأكراد، وحصن بارين ، وانشقت منارة حلب، وانشق جبل لبنان شقاً عظيماً مسيرة ثلاثة أيام ، وروي أن طوله لا يعرف له منتهى، وقيل إنها عمت أكثر الأرض حتى جاءت من سبتة من بلاد المغرب، وفيها نزل الفرنج دمياط في مستهل صفر، فأقاموا عليها أحدا وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها خائبين، وفيها توجه الأوحى نجم الدين أيوب، والد الملك الناصر صلاح الدين إلى مصر، ولما عزم على ذلك فرق جميع أمواله وأملاكه، ولم يكن له سهم في ملك له فيه شريك إلا وهب شريكه سهمه، ولم يستصحب معه شيئاً من موجوده، بل أطلقه، وعجب الناس من فرط كرمه وسخائه، فلما قرب من مصر خرج للقاءه العاضد بنفسه، والملك ، ومن دونها، وكان يوماً مشهوراً، ودخلها في رابع وعشرين رجب من السنة ، وفيها حاصر نور الدين محمود سنجار وأخذها صلحاً بعد قتال شديد.

ودخلت سنة ست وستين وخمسمائة

فيها: أمر نور الدين محمود ببناء الجامع النوري، المعروف بالجامع العتيق بالموصل، وفيها توفي المستنجد بالله في تاسع ربيع الآخر من السنة، فكانت خلافته إحدى عشرة سنة وسبعة أيام، وخلف من الولد أبا محمد حسن المستضيء بأمر الله، وأبا القاسم، وكان رحمه الله عالماً حسن المحادثة، كثير الفكاهة، قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه

الله: حدثني ابن شبيب قال: لقيني أمير المؤمنين المستنجد بالله فقال مصحفاً علي: أين شئت؟ فقلت مصحفاً: عندك يا أمير المؤمنين، وهذا أحسن ما يكون من التصحيف، وأراد المستنجد بقوله: أين شئت، ابن شبيب كأنه يناديه، فأجابه ابن شبيب بقوله: عندك، أي عبدك يا أمير المؤمنين.

خلافة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله

ببيع بالخلافة يوم وفاة أبيه في تاسع ربيع الآخر، سنة ست وستين وخمسمائة، وكان عالماً فاضلاً ذا سياسة وتدبير، أظهر العدل والإحسان، ورد أملاكاً كانت غصبت إلى ملاكها، ونشر العدل والانصاف، وأمر منادياً ينادي بكشف الظلمات، وفيها جهز نور الدين محمود بن زنكي الشيخ شرف الدين أبا سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون رسولاً إلى المستضيء مهنياً له بالخلافة.

ودخلت سنة سبع وستين

فيها مات العاضد صاحب مصر في يوم عاشوراء، وكان صلاح الدين أمر بالخطبة للمستضيء بأمر الله في أول جمعة من المحرم بمصر، ثم مات العاضد بعده بيويات، ثم خطب للمستضيء بالقاهرة في ثاني جمعة، وانقضت دولة المصريين، وتسلم صلاح الدين القصر بما فيه من الأموال والذخائر، وقبض على جميع أهل العاضد وولده وأقاربه، وجعلهم في موضع، وأجرى عليهم مؤنتهم. وفيها وردت البشائر من الملك الناصر صلاح الدين إلى نور الدين محمود بإقامة الدعوة المستضوية والخطبة له، وموت العاضد، فاشتد سرور نور الدين، وجهز شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رسولاً إلى بغداد، مبشراً بالدعوة القائمة بمصر، والخطبة للدولة العباسية في الخلافة المستضوية.

وفيها ولد الملك المنصور أبو المعالي محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب في ذي الحجة ، وفيها ولد الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين.

ودخلت سنة ثمان وستين

فيها توفي الملك الأوحـد نجم الدين أيوب والد الملك الناصر صلاح الدين يوسف، في سابع عشرين ذي الحجة، ودفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه، ثم نقلـا بعد سنتين إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فدفنا بها.

ودخلت سنة تسع وستين

فيها : توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، رضي الله عنه، في شوال بدمشق، ودفن بها، وكان رزؤه عظيما في ركن المسلمين، بعد أن أثر في الاسلام المآثر الحميدة، والآثار الجميلة، وهي أشهر من أن تذكر ، ولما توفي رثاه العماد الكاتب الأصفهاني فقال:
عجبت من الموت كيف اهتدى
إلى ملك في سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستدير
في الأرض والأرض وسط الفلك

وصدروا كتابا من ولده الملك الصالح اسماعيل تعزية إلى الملك الناصر صلاح الدين، انشاء العماد الكاتب، ثم توجهوا بالملك الصالح إلى حلب صحبة الأمير كمشتكين، وسابق الدين عثمان، واسماعيل بن الخازن.

وفيهما فتح شمس الدولة ابن أيوب اليمن بعساكر الشام، وقبض على مدعي الخلافة بها يومئذ، رجل يسمى عبد النبي بن علي بن المهدي.

ودخلت سنة سبعين

فيها كاتب كمشتكين، وسابق الدين عثمان، واسماعيل الخازن الأمير سيف الدين غازي، صاحب الموصل في تسليم حلب إليه، واستحثوه سرّاً، وكان ذلك بوضع من الأمير شمس الدين بن المقدم ورجاله، فبلغ الملك الناصر صلاح الدين ذلك، فخرج من مصر إلى الشام، ووصل إلى دمشق فتسلمها، ثم خرج إلى حمص، فعصت قلعتها عليه فتوجه إلى حماه فتسلمها في جمادى الآخرة من السنة، وسار إلى حلب، فحاصرها جميع الشهر، ولما أشتد الحصار عليهم استغاثوا بالاسماعيلية، ووعدوهم، فجاء منهم جماعة، فعرفهم الأمير ناصح الدين خمارتكين، فقتلوه وقتلوا جماعة من الناس، ثم قتلوا عن آخرهم. وعاد الملك الناصر إلى حمص، فنزلها ونصب عليها المجانيق، وحاصرها بقية شهر رجب وتسلمها في شعبان بعد قتال شديد، ثم توجه إلى بعلبك فتسلمها أول شهر رمضان، ثم عاد إلى حمص.

وأما الحلبيون فإنهم خرجوا جميعهم إلى حماه وحاصروها حصاراً شديداً، وتقدم الملك الناصر إلى حماه فنزلها، وتزاحف الفريقان، ونصر الملك الناصر عليهم، وتعرف هذه الكسرة بكسرة المواصلة، عند قرني حماه، ولما كسروا أمر الملك الناصر بحقن دمائهم، ونهب أموالهم، ثم تقدم إلى تل السلطان من عمل حلب، ووقع الصلح بينه وبين الحلبيين على أن يكون ما بيده من الشام إلى آخر بلد حماه والمعرة وكفر طاب مضافتان إليه، وحلفوا على ذلك، وعاد الملك الناصر إلى حماه، فنزل عليها، ووصلته رسل المستضيء بالله بالتهنئة بالظفر والتشريفات السنية،

والتحف الجلييلة، وأفيض على الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه خلعة جميلة ، أفردت له من الديوان العزيز.

ثم تجهز الملك الناصر إلى حصن بارين ففتحه بعد حصار شديد، وأقطع حماة خاله شهاب الدين محمود، وأنعم بحمص على الأمير ناصر الدين محمد، وتوجه إلى دمشق.

ودخلت سنة احدى وسبعين

فيها تجهزت الموصله ووافوا تل السلطان، في جمع عظيم، فخرج إليهم الملك الناصر في جمع قليل، والتقوا بتل السلطان، وألقى الله على الموصله الرعب، وقذفه في قلوبهم، فولوا مدبرين، واستولى الملك الناصر عليهم أسراً ونهباً، وحقن دماءهم، واستولى على سرادق سيف الدين غازي، ونزل فيه، ثم أحضر أسراهم، وخلع عليهم وأطلقهم. وفيها: فتح الملك الناصر منبج، واستولى عليها بعد كسره الموصله بتل السلطان. وفيها فتح حصن أعزاز، بعد أن هزمت الموصله ، وحاصره ثمانية وثلاثين يوماً. وفيها قفز على السلطان قوم من الحشيشية، وجرحه واحد منهم في وجهه، وكان ذلك في حصار عزاز، وقتلوا عن آخرهم.

وفيها عاد شمس الدولة من اليمن إلى الشام، بعد أن قتل ناشر بن بلال صاحب عدن، وفيها هدم أمير الحاج كمشتكين حصن أبي قبيس بمكة.

وفيها مات نجم الدين بن حسام الدين ايلغازي بن أرتق، وجلس ولده قطب الدين مكانه. وفيها قتلت الاسماعيليه أبا صالح بن العجمي بحلب في يوم الجمعة بباب الجامع الشرقي. وفيها توفي شيخ الاسلام هبة الله بن البوقي، المفتي الشافعي الواسطي، صاحب القاضي أبي علي الفارقي.

ودخلت سنة اثنتين وسبعين

فيها مات السلطان طغريل بن مسعود.

وفيها حاصر الملك الناصر حلباً مديدة، ثم وقع الصلح العام بينهم وبين الموصلية وبينه، وأبقى الملك الناصر حلباً في يد الملك الصالح اسماعيل، ورد عليه حصن أعزازه، وعاد الملك الناصر إلى مصيف، ونصب عليها المجانيق، وأباح قتلهم وتخريب ديارهم، فتضرعوا إلى خال الملك الناصر شهاب الدين محمود بن تكش، فسأل فيهم، فرحل عنهم، ثم توجه إلى دمشق، ومضى إلى مصر، وأمر ببناء السور الأعظم المحيط على القاهرة ومصر، وبإنشاء القلعة بجبل المقطم، وبناء المدرسة على تربة الشافعي رحمة الله عليه، وفوض نظرها إلى الشيخ نجم الدين الخبوشاني، ثم توجه الملك الناصر في هذه السنة إلى الاسكندرية لسماع الحديث على الحافظ السلفي رحمه الله، فكان يتردد إليه لسماع الحديث في يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت، فأقام لذلك مدة، ثم عاد إلى مصر. وفيها توفي قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، قاضي دمشق.

ودخلت سنة ثلاث وسبعين

فيها كانت نوبة عسقلان والرملة: خرج الملك الناصر للقاء الفرنج، فنزل عسقلان وسباهم وقتل جمعاً منهم، ثم استقل بالرملة طالباً بلاد الفرنج، فخرجت الفرنج على المسلمين، وجرى بينهم قتال عظيم هلك فيه جمع من المسلمين، وضلوا عن الطريق، وماتوا جوعاً وعطشاً، وأسر الفرنج الفقيه عيسى وأخاه ظهير الدين علي، وأقاما أسيرين سنتين حتى افتداهما الملك الناصر بسبعين ألف دينار، ودخل الملك الناصر إلى القاهرة وقد دفع الله سبحانه عنه بلاءه، بعد أن أشرف على الهلاك. وفيها توفي شهاب الدين محمود بن تكش خال الملك الناصر.

ودخلت سنة خمس وسبعين

فيها توفي المستضيء بأمر الله في أول ليلة من ذي القعدة، فكانت خلافته تسع سنين ونصف وواحد وعشرين يوماً، وخلف من الأولاد الامام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد، وأبا منصور.

خلافة الامام الناصر لدين الله تعالى أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله

مولده في سنة اثنتين وخسين وخمسمائة، ببيع في أول يوم من ذي القعدة سنة خمس وسبعين، وكان المتولي لعقد البيعة ذو الرئاستين مجد الدين أبو الفضائل بن الصاحب استاذ الدار، وظهير الدين أبو بكر بن العطار، صاحب المخزن، ثم بعد ثلاثة عشر يوماً، قبض على ظهير الدين أبي بكر، ثم مات بعد أيام قلائل، فمضت أخته لتدفنه ليلاً خلصة من الناس لشدة بغضهم له أنه ضمن جهات المكوس، وكان يمنع من نقل الغلال في سني المحل، فلما خرج تابوته من باب النوبي علم به بعض العوام، فألقوه عن رأس الحمالين، وكسروا التابوت، ومزقوا أكفانه وربطوا في رجله حبلاً وسحبوه في الأسواق، وقطعوا خنصره وأذنه، وذلك في نصف ذي القعدة.

وفيها استدعى الامام الناصر لدين الله فخر الدولة بن المطلب، وطلب منه أن يستوزره لعلمه وورعه، وكان المستنجد والمستضيء طلباه للوزارة فامتنع، فلما حضر بين يدي السدة الشريفة قبل الأرض وخدم وقال: يا أمير المؤمنين المملوك رجل شيخ ما يجوز له أن يفتح كتاباً بعد العصر، فقال له بهاء الدين صندل الخادم: أجب أمير المؤمنين، فقال: له فخر الدولة: ليس لك في اجابتي مصلحة لأنني لو قبلت هذه الولاية ما كنت أقرك على ما بيدك من الاقطاع والولايات، بل كنت أجريك على

قاعدة بلال الحبشي، وأزيل عنك هذه الثياب وأمنعك من الركوب وبين يديك سيوف مشهورة ، فضحك الامام الناصر وأعفاه وقال: تشير علينا بمن يصلح، فقال: هذا يصلح، وأشار إلى مجد الدين بن الصاحب فضاق صدر مجد الدين لقوله وقام، فقال له الامام الناصر: لم لا يرضيك قوله والوزارة أرفع درجات أرباب الدولة؟ فقال: يامولانا لا أبيع حضوري في هذه الخدمة بالدنيا وما فيها، وسأل أن يقر على خدمته، فأقره عليها، وقال لفخر الدولة بن المطلب: أشر علينا بمن نولي، فقال: إن رأى مولانا أن يولي سليمان بن جاووش نائب وزارة، فرأيه أولى وأعلى، فأمر الامام الناصر باحضار سليمان بن جاووش، ويلقب بحسام الدين، فأحضر، وخلع عليه ورتب نائب وزارة فأقام كذلك أشهراً.

ودخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

فيها حسن مجد الدين بن الصاحب للامام الناصر عزل سليمان بن جاووش لكبر سنه، وتقدم إليه الامام الناصر أن يستبدل به من شاء، فأحضر مجد الدين بن الصاحب جلال الدين أبا المظفر هبة الله بن محمد ابن البخاري وولاه نائب وزارة. وفيها تصدق الامام الناصر بعشرة آلاف دينار في شهر رجب على الفقهاء والعلماء والصوفية ببغداد وأثبت أساميهم في دستور ، وقرر ذلك في كل رجب في كل سنة، وجعل ذلك عوضاً عن دعوة كانت الخلفاء تأمر بعملها للمذكورين في كل سنة في رجب في دار دفن المستضيء بها.

وفيها أسقط الامام الناصر ببغداد وجميع بلاده من المكوس والحقوق المضروبة على التجار وأرباب الصنائع والمؤن، وكان قدر ما يحصل منها في كل سنة ما يزيد على مائة وخمسين ألف دينار، وبسط العدل ونشره، وأمر بكسر الملاهي وإزاحة الخمر، وإقامة الحدود.

وفيهما توجه الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الأرمن وبلد الروم ، فنزل على حصن يقال له المناكير ببلاد الأرمن ، ففتحه ثم هدمه ، وصاحب الأرمن يومئذ ابن لاون ، ثم وقع الصلح بينهم على خمسمائة أسير من المسلمين أطلقهم ابن لاون ، وعاد الملك الناصر إلى حصن فنزل عليها ، وأتته رسل الحلبين مهتئين له بالنصر والظفر ، وأتته رسل الامام الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين أبو القاسم عبد الرحيم ، وشهاب الدين بشير الخادم ، فاجتمعا بالملك الناصر بدمشق ومعهما التفويض والتقليد والتشريف له بتقليد السلطنة والزعامة فركب الملك الناصر بالتشريف ، وكان يوماً مشهوداً ، ثم أعاد الملك الناصر شهاب الدين بشير الخادم إلى بغداد وأصبحه رسولاً معه وهو القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري جواباً عن رسالة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم ، وجعل الملك الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم عنده ، ثم سار الملك الناصر ومعه شيخ الشيوخ إلى الديار المصرية ، لزيارة قبر الامام الشافعي ، فلما قضى زيارته توجه إلى مكة حرسها الله تعالى .

وفيهما مات شمس الدولة بن أيوب بالاسكندرية في مستهل صفر ، وفيها بنيت قلعة القاهرة .

ودخلت سنة سبع وسبعين

ففيها توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي . وفيها وصل إلى حلب عز الدين مسعود صاحب الموصل ، فاستولى عليها وعلى خزائنهما ، ورغب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار في حلب ، وتعوض منه عنها سنجار لعلمه أن أمره لا يستقر بحلب ، ولما بلغ الملك الناصر ما جرى في أمر حلب ، قلق لذلك ، وكان بالديار المصرية ، فكتب إلى الملك المظفر تقي الدين وكان بحماه يأمره بالتوجه إلى حلب ، وكتب كتاباً إلى الديوان العزيز يشكو صاحب الموصل وما فعله ،

وطمعه في أخذ حلب، وذكر عصيانه ومساويه، وعرض في كتابه بأن هذا الذي صدر منه لا يصدر إلا عن إذن شريف، وسأل فيه ردعه وزجره وإزالة يده عن حلب.

وفيهما بعث الملك الناصر أخاه ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين إلى اليمن، فتوجه إليها بجيوشه ، وكان والي عدن يومئذ الأمير عثمان الزنجيلي، ووالي زبيد الأمير حطان بن منقذ، فأما عثمان فإنه فارق اليمن وهرب منها ، وأما حطان فإنه تحصن بقلعة يقال لها قوارير، ثم راسل سيف الاسلام في ذهابه إلى الشام، فأذن له، فجمع حطان أمواله وذخائره وغلماؤه وتوجه نحو الشام، فجهز سيف الاسلام إليه من قبض عليه، وعلى سائر ما معه، ثم قتل حطان، وأخذت جميع أمواله، وكان قيمه المأخوذ على ما قيل من ذهب وفضة وجواهر ويواقيت وآلات وأمتعة ألف ألف دينار.

وفيهما أو في التي قبلها توفي سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ابن أتابك الشهيد صاحب الموصل ، وملكها أخوه عز الدين مسعود. وفيها خرجت الفرنج في مراكب من إيلة وسارت إلى عيذاب ثم إلى جدة، وأخذت عدة مراكب من المسلمين، فتعقبهم الحاجب (لؤلؤ) في المراكب إلى الحجاز، فأخذهم أجمعين، وكانوا ألفاً وخمسمائة نفر، وعاد بهم إلى القاهرة ، فضرب رقابهم أجمعين.

وفيهما مات الخطيب هاشم خطيب حلب، وكان عنده علم وافر ودين ظاهر، وله مصنفات في علم القرآن وغيره.

ودخلت سنة ثمان وسبعين

فيها برز الأمر الشريف أن لا يستخدم ذمي في جهات التصرف ، لأن الله نهي أن يكون للكافر على المسلم سبيل، فلا يستخدم أحد من

الكفار في شيء من أعمال الديوان، ويرتب عوضهم من يصلح من المسلمين، وكان كاتب ديوان العرض ذميا يعرف بابن الأشقر، فشفع ابن البخاري فيه، فكتب مطالعة يصف فيها ثقته وأمانته وكفايته، ويشفع به، فوقع الامام الناصر عليها: هذا ابن الأشقر قد مات، فما الذي يصنع بعده في ديوان العرض، فعرض على ابن الأشقر الاسلام فامتنع، فعزل، وكان لابن الأشقر ولد بالغ، فدخل على ابن البخاري وهو جالس في الديوان، فقال: يامولانا أنا رجل قد رغبت في الاسلام لأجل خدمة أمير المؤمنين، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأن كل دين غير دين الاسلام باطل، فكتب ابن البخاري مطالعة بما جرى، فوقع أمير المؤمنين فيها: إنما منعه من استخدام الكفار لكفرهم، فمن أسلم يعاد إلى خدمته، ويخلع عليه ويستخدم في ديوان العرض عوضاً عن أبيه، ويقال لكل من صرفناه من خدمتنا: من أحب الدخول في الاسلام فيعاد إلى خدمته ويشرف ومن لم يفعل لا يمكن من خدمة تتعلق بنا، والسلام.

وفيها أحضر الامام الناصر الشيخ عبد الجبار صاحب الفتوة، وأعطاه خمسمائة دينار وخلع عليه وعلى ولده شمس الدين، وكان هذا عبد الجبار شيخاً حسناً له أتباع كثيرون، ثم تفتى إليه بعد ذلك خلق من الملوك والأكابر، وكان هذا الفعل مستحاً للناس على التعاضد والتناصر وحفظ العهد، وكتمان السر، وصدق اللهجة، والعفة عن المحارم، وأرباب الفتوة يسندونها بعنينة إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، وناهيك بذلك شرفاً، وفخراً وعظمة وقدرًا.

ودخلت سنة تسع وسبعين

فيها مازال الملك الناصر مقيماً بالديار المصرية إلى المحرم من هذه السنة، فخرج إلى دمشق، ثم خرج بجيوشه غازياً إلى طبرية وبيسان،

فجرى بين المسلمين وبين الفرنج قتال شديد استشهد فيه جماعة من أبطال المسلمين، وقتل من الفرنج خلق لا يحصون ، ثم خرج الملك الناصر طالباً حلب، فلما فارق حماه وصل إليه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي بن كوجك، فأشار عليه بقطع الفرات وأخذ ما وراءه من الموصل ونصيبين والخابور وحران والرها، ثم بعد ذلك يحاصر حلب ويتملكها، فشكره الملك الناصر على رأيه وتوجه إلى الرها ففتحها، ثم سار إلى حران ففتحها، ثم فتح الرقة بعد حصار، ثم فتح عربان، ثم سار إلى نصيبين ففتحها بعد حصار ، ورتب هذه البلاد وأزال ما بها من المكوس، ثم توجه إلى الموصل، وأناخ بها بجميع عساكره، وصاحبها يومئذ عز الدين مسعود، ونائبه مجاهد الدين قايماز، فكاتب عز الدين مسعود الديوان العزيز باستصلاح أمره مع الملك الناصر ، فجهز الامام الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم رسولاً إلى الملك الناصر وشفيعاً في المواصله، وصحبته شهاب الدين بشير الخادم، وخاطب شيخ الشيوخ الملك الناصر بالشفاعة ، فصرح الملك الناصر بالامتناع وعدم القبول، وأدام الحصار وتهيئة أسبابه، وأصحاب الملك الناصر يقاتلون ، وشيخ الشيوخ ينهأهم عن القتال، ثم أتى شيخ الشيوخ الملك الناصر وقال: أتيتك مستشفعاً، فقال: السمع والطاعة، ثم خرج من الموصل جمال الدين محاسن، ومجد الدين الشريف نقيب الطالبين، وأتيا شيخ الشيوخ، فبعث للملك الناصر يطلب منه ثقة يسمع كلامهما، فبعث إليه القاضي الفاضل والفقيه عيسى بن محمد، فأقاموا يوماً لم يحصل فيه مقصود، ثم أقاموا كذلك قريب شهر يمضون الأوقات، وغرضهم مكاتبة الملوك سراً، والاستنجاد بهم، وأجابوا إلى تسليم حلب إلى الملك الناصر بشرط أن يعيد إليهم ما أخذه من بلادهم، فتوقف الملك الناصر في الاجابة، ثم أجاب ، ثم بعد اجابته عادوا ندموا في قولهم إنهم يسلمون إليه حلب، وآخر الأمر أن الملك الناصر قال لشيخ الشيوخ : نحن قد عزمنا على الرحيل، ونهب لهم الموصل شفاعتك فيهم، وهذه

أشهر شريفة ، ثم رحل إلى سنجار ومعه رسل الخلافة ، فنازلها في شعبان، ونصب عليها منجنيقاً، فلما دخل شهر رمضان أمر بالاحجام عنهم، والاحتراز من اراقة الدماء، ثم راسلوه في تسليمها إليه، فتسلمها منهم، وأسقط عنهم المكوس، وتجهز شيخ الشيوخ وأصحابه للمضي إلى بغداد، وأصبحهم الملك الناصر تحفاً وهدايا سنية، وعاد الملك الناصر إلى حران، فنزل بها، وأما المواصلة فانهم تجمعوا، ونجدهم شاه أرمن ملك أخلاط بنفسه وعسكره، وخرجوا من الموصل، ووافوا حرزم، ضيعة من ضيع ماردين، ووافاهم عسكر حلب والياروقية، وصاحب ماردين، وصاحب أرزن، وصاروا في جمع عظيم، فلما علم الملك الناصر بهم كتب إلى أمرائه الغائبين، فوصل إليه الملك المظفر تقي الدين من حماه في خمسة أيام، وسار إلى رأس العين، فلما سمعوا خبره ولوا منهزمين من غير قتال، وذلك في يوم عرفة من السنة المذكورة، ومضى صاحب أخلاط إلى بلاده، وكل ملك مضى إلى ملكه.

وكان الملك الناصر قد كتب إلى الإمام الناصر، طلب منه اذنا في قصد آمد وأخذها، فوصله تقليد بها، فتوجه الملك الناصر إلى آمد فنزلها في سابع عشر ذي الحجة من السنة، وحاصرها حتى دخلت سنة ثمانين ففتحها، وتملكها في المحرم منها، وعاد إلى حلب ونازلها وحاصرها، وجرت حروب كثيرة، وأصيب في هذه السنة على حلب تاج الملوك أخو الملك الناصر بسهم مات منه، ثم اصطالح الملك الناصر وعماد الدين زنكي بن مودود على أن يعوضه عن حلب سنجار ونصيبين والخابور ، وكتب الملك الناصر خطه بذلك، وتسلم حلب في ثاني عشر صفر سنة ثمانين، ومدحه القاضي محيي الدين بن زكي الدين قاضي دمشق بقصيدة قال فيها:

وفتحكم حلب بالسيف في صفر
مبشراً بفتوح القدس في رجب

ووقع هذا بطريق الاتفاق وسوق العافية. ولما فتح القدس في رجب من سنة ثلاث وثمانين قيل له في ذلك، فقال: ساقطني القافية، وفوض الملك الناصر إلى محيي الدين ابن زكي الدين قضاء حلب، فحكم فيها، واستناب بها نائبه زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان بن البانياسي، وأسقط الملك الناصر مكوس حلب وضرائبها، ثم توجه بنفسه إلى حارم ففتحها، وأخذها من مملوك من المماليك النورية كان قد عصا فيها.

وفيهما مات فخر الدولة بن المطلب، وكان أوحد زمانه علماً وورعاً وزهداً ورئاسة، وعمر مدرسة تسمى دار الذهب ببغداد، وجامعاً وخانكاه، ووقف على ذلك وقوفاً سنه. وفيها مات الأمير أبو منصور أخو الامام الناصر، وغسله العدل الحراي وأخذ سلبه، وكان من جملة ما أخذه مسند زركش، وطراحة زركش فيها ألف دينار، وأخذ جميع ما استعمل في غسله من طاسات فضة وطشت فضة، وآلات وأمتعة، قيمة الجميع على ماروي عشرة آلاف دينار.

وفيهما حضر شهاب الدين الطوسي الفقيه الشافعي دار مجد الدين أبي الفضل بن الصباح، واتفق الحديث أن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ما ملك من الدنيا شيئاً، وكان فقيراً، حتى أنه كان يأكل خبز الشعير، فقال الطوسي: هذا ما يقوله ذو معرفة، قد نقل أن علياً أدى زكاة أربعين ألف دينار، وكانت له نعمة ومال كثير، وإنما المبلغون له يقولون هذا، وقصد الطوسي بهذا مهادنة مجد الدين، فإنه كان يبغض الطوسي، ويقصد اهلاكه لأنه كان صاحب ابن العطار، فقال له مجد الدين: فكيف مدح علي عليه السلام على إيثاره خبز الشعير، وتصدقته بخاتمه في الصلاة؟ فقال الطوسي: هذا كان في ابتداء حاله، ثم ملك بعد ذلك، فقال له مجد الدين: أريد أن أقف على هذا النقل ومن الذي نقله، فقال له سمنديار الواعظ: لم يسمع هذا قط، فقال له الطوسي: يجوز أنك ما سمعته، وخرج وقد علم أنه خاطر بدمه، وبلغ أمير المؤمنين

الامام الناصر ذلك فأنكر على مجد الدين كيف لم يكلف الطوسي احضار الحجة، وأظهر الطوسي المرض أياماً، واشتد الأمر في اظهار التشيع حتى روي أن الشيخ أبا الفرج بن الجوزي قال يوماً: ما اكثر ما يسألوني عن معاوية ويزيد ويكلفوني شرح أحوالهم، أما يكتفون مني في هذه الأيام أن أزاحم لهم بأبي بكر وعمر، وأنا مخاطر، وعلم الطوسي بخطابه، فاستأذن في الحج، فأذن له، فحج ومضى إلى الديار المصرية.

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

فيها برز الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، فترك ولده الملك الأفضل على رأس الماء، فجمع العساكر، وتقدم الملك الناصر إلى الكرك والشوبك، فقطع شجرها وزرعها، وبعث الملك الأفضل عساكره إلى صفورية للغارة، ومقدمهم مظفر الدين بن زين الدين، فخرج الفرنج إليهم، والتقوا وكانت الكرة على الفرنج، وقتل منهم خلق عظيم، وسار الملك الناصر حتى خيم على عشترا، ووصل الملك الأفضل إليه، وجمع الملك الناصر العساكر، ومضى إلى طبرية ففتحها، واحتمت عليه قلعتها وصاحت الفرنج عن يد واحدة، وركبوا قاصدين منع طبرية، وجرى قتال كانت الغلبة فيه للمسلمين، وأما الفرنج فأووا إلى جبل حطين معتصمين به، وأحاطت جيوش المسلمين بهم، فلما أحس القومص بالكسرة انهزم وحده ومن بعده أتباعه، واحتوى المسلمون على بقية الفرنج أسراً وقتلاً.

وجلس الملك لعرض الأسرى، فقدم إليه ملك الداوية والملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جبيل، وهنفري والابرنس أرناط صاحب الكرك، وكان الملك الناصر قد نذر دم صاحب الكرك هذا، فقرعه الملك الناصر على غدره وكذبه، وكان ملك الفرنج قد اشتد عطشه، مع ما عنده من خوف القتل، فأحضر له السلطان ماء بثلج، فشربه الملك

وسقى صاحب الكرك منه، فقال له الملك الناصر: لِمَ تَأْخُذُ مِنِّي إِذْنًا فِي سَقِيهِ، فَلَا أَوْمَنَهُ، ثُمَّ مَضَى الْمَلِكُ النَّاصِرُ إِلَى سَرَادِقِ ضَرْبٍ لَهُ، وَاسْتَدْعَى بِصَاحِبِ الْكَرْكِ، فَلَمَّا اسْتَقْبَلَهُ قَامَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ إِلَيْهِ، وَضَرَبَهُ بِيَدِهِ بِالسَّيْفِ فَحَلَّ عَاتِقَهُ، وَأَمَرَ بِقَطْعِ رَأْسِهِ، فَقَطَعَ، فَارْتَاعَ الْمَلِكُ مِنْ ذَلِكَ، وَعَرَفَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مَا حَلَّ بِالْمَلِكِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ فَاسْتَدْعَاهُ وَأَدْنَاهُ وَقَالَ لَهُ: صَاحِبُ الْكَرْكِ غَدَرٌ وَنَكَثٌ فَفَعَلْتَ بِهِ هَذَا.

وتعرف هذه الكسرة بكسرة حطين، وأخذ منهم السلطان صليب الصليبوت وكان أخذه أعظم عليهم من جميع ما حل بهم، ثم نزل الملك الناصر على طبرية، وبقلعتها صاحبته الست، فتسلمها الملك الناصر منها بأمان، وخرجت الست آمنة إلى طرابلس بلد زوجها القومص، ثم رحل الملك الناصر إلى عكا، فخيم قريباً منها في سُلُخِ ربيع الآخر، فخرج أهل البلد إليه يطلبون الأمان، فأمنهم وخيرهم بين المقام آمين والانتقال، وأمهلهم أياماً، ولما دخل جند الإسلام إليها نزلوا أدرها، وجعل الملك الناصر للفقير عيسى كلما يتعلق بالدأوية من منازل وضياع بما فيها من غلال ومتاع، ووهب ولده الأفضل عكا، ودخلها المسلمون في يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، فأقاموا الجمعة بها بكنيستها العظمى، وخطب الخطبة جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي، وتولى القضاء والخطابة بها.

وأقام الملك الناصر مخيماً بباب عكا، ووصل الملك العادل من مصر، وبعث الملك الناصر عساكره لفتح الساحل، ففتح مظفر الدين بن زين الناصرة، وعاد بالأسرى والأموال، وفتح بدر الدين دلدريم وغرس الدين قليج قيسارية، فتحوها بالسيف، وسار حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين إلى سبسطية وتسلمها، ووجد فيها مشهد زكريا عليه السلام، قد اتخذ القسوس كنيسة نفيسة مرصعة بآلات المصبوغات فأخذ ما به من ذلك، واتخذ مشهداً، وأقام به منبراً، ثم مضى إلى نابلس فقاتلها حتى

تسلمها بأمان، وفتح في أثناء ذلك قلعة الفولة، ودبورية، وخفسين، وزرعين، واللجون، والطور ويسان، والقيمون، وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات. وفتح الملك المظفر تقي الدين تبين بأمان في ثامن عشر جمادى الأولى، وبعث صاحب صيدا مفاتيح صيدا، وفتحت بيروت، وجبيل، وعسقلان، والداروم، بأمان بعد قتال شديد، واستشهد من الأمراء ابراهيم بن حسين النهراي، وتسلم المسلمون الرملة، وبيت لحم، والخليل، وحصن الداوية، والنطرون، وبيت جبريل.

ثم رحل الملك الناصر إلى القدس، ونزل عليه، ونصب المجانيق، واشتد عليه الحصار، واجتمع طاغية الكفر وتعاهدوا وتعاهدوا، وجرت حروب كثيرة، فبرز ابن بارزان طالبا الأمان من الملك الناصر، فامتنع الملك الناصر من إجابته، فقال ابن بارزان: إذا لم تؤمننا، فنقاتل قتال الدم، ونحرق الدور، ونخرب القبة ونقطع الصخرة، ونقتل كل من عندنا من المسلمين الأسرى، وهم ألف، ونتلف، ولا فائدة لكم في هذا الشح، فاستشار الملك الناصر أمراءه، واستقر الأمر على أخذ قطيعة قررت على كل رجل: عشرة دنانير، وعلى كل امرأة: خمسة دنانير، وعلى كل صغير دينار، وبذل ابن بارزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشر من رجب من السنة المذكورة، وهي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على هذه الوظيفة، وكان بالقدس أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان، ووكل بكل باب أمير يحصي الخارجين، ولو حفظ هذا المال لفاز منه بيت المال بأعظم حظ، لكن وقع التفريط، وعم التخليط، فكل من رشامشى، فمنهم من أدلى من السور بالحبال، ومنهم من حمل مختفيا في الرحال، ومنهم من خرج بزي الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعاة، وكان بالقدس ملكة رومية مترهة، لها مال ومتاع وأتباع، فمن الملك الناصر عليها، وعلى كل من معها، وخرجت بذلك، وكذلك زوجة الملك المأسور، ابنة الملك أماري، كانت مقيمة بالقدس مع ماها من الأموال والخدم، فخرجت بمن معها، وكذلك الابرنساسة

ابنة فليب أم هنفري أعفيت من الوزن، واستطلق صاحب البيرة زهاء خمس مائة أرمني، ذكر أنهم من بلده، واستطلق مظفر الدين ألف أرمني، ذكر أنهم من الرها، وخان النواب فما ضبطوه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وجلس الملك الناصر للهناء على هيئة التواضع، وهيئة الوقار بين الفقهاء، وأهل العلم والدين، وأخذ القراء في القراءة، والفقهاء في المناظرة، والشعراء في الانشاد، وروى المحدثون، وتحدث الرواة، وكثر ضجيج الخلائق إلى الله سبحانه، وتضرعهم إليه بالشكر له، والثناء عليه بما هو أهله.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان، رشح أهل الفضل أنفسهم لتولية الخطبة وغيرها، فلما دنا وقت الزوال، أمر الملك الناصر القاضي محيي الدين بن زكي الدين أن يخطب، ففعل وتمم الخطبتين، وصلى بالمسلمين، ثم جلس للوعظ بعد الصلاة زين الدين أبو الحسن علي بن نجا، فوعظ وأبلغ، وكان يوماً مشهوداً، ومجمعاً موروداً، وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه، ويؤثر عنهم من الأفعال الجميلة، فما منهم إلا من تصدق وعمر وبنى وأحسن، فمنهم الملك المظفر تقي الدين، حضر إلى القبة وكنسها بيده، ثم غسلها بالماء مراراً، ثم أحضر أحمالاً من ماء الورد غسلها به، وفعل ذلك بحيطانها وجدرانها، ثم بخرها بمجامر الطيب. وعين الملك الناصر الكنيسة المعروفة بصندحنة مدرسة، ودار البطريرك رباطاً، ووقف عليهما وقوفاً كثيرة، وولى الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد القدس وأعماله، فاستناب فيه أخاه ظهير الدين علي، وجهاز الملك الناصر القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري رسولاً إلى بغداد، ومبشراً بالفتح.

وتسلم الملك الناصر ما حول القدس من الحصون، وعاد إلى عكا فنزلها في أول شهر رمضان من السنة، وحرضت الأمراء الملك الناصر على قصد صور، وكان أكثرهم تحريضاً الأمير سيف الدين المشطوب، وكانت معه صيدا وبيروت، وخاف من فوتها، ولم يفكر في قوتها، بانتقال

رجال الساحل إليها، وكان المركيس لعنه الله حال اشتغال المسلمين بالقدس، قد أحكم صور، وحفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، فرحل الملك الناصر بجيوشه قاصداً صور، فوصلها في تاسع شهر رمضان، وخيم عليها، وجرت حروب كبيرة، فلم يتفق فتح، وهجم الشتاء، فاتفقت الآراء على ترك القتال حتى ينقضي الشتاء، ويستريح الجند، وتآلم الملك الناصر لفوت ذلك، وعاد إلى عكا، وسكن بها، كل ذلك في سنة ثلاث وثمانين.

وفيها: في آخر ليلة من شوال استشهد محمود بن أخي جاولي على كوكب، وكان دائم التهجد، زاهداً شجاعاً.

وفيها وصل تاج الدين أبو بكر - أخو العماد الكاتب - رسولاً من الامام الناصر إلى الملك الناصر يعاتب الملك الناصر على احداث أشياء نقلت عنه، منها: أنه نعت نفسه بالملك الناصر، ومنها أنه لما فتح الساحل جهز في الابتداء مبشراً به شاباً جندياً مستحقراً، وكان العماد الكاتب وغيره أشاروا أنه لا يمضي مبشراً بالفتح إلا رجل كبير مميّز، فقال الملك الناصر: نحن نفد هذا الشاب الجندي في الابتداء، ثم نرسل بعده رجلاً كبيراً. ومنها أنه لما فتح القدس جهز لبشارته نجاباً، وما يليق إلا انفاذ عالم كبير، وإنما نفذ الامام الناصر تاج الدين أخا العماد الكاتب رجاء أن يطلع من أخيه على الأسرار، فإن الكاتب يطلع على أسرار الملك، فلما وصل تاج الدين أكرمه الملك الناصر، وبالغ، فلما أدى عليه رسالته وقرأها في تذكّره، وكان في ألفاظها غلظة وشدة، قال الملك الناصر: ما أسعدني إذا شرفت بالعتاب، والمملوك ينفعه التأديب، ويزعه التهذيب، على أنني لم أزل في طاعة أمير المؤمنين، ولم أزل في نصرة المسلمين، أما أنا فتحت مصر، ودعوة الداعي قد باضت بها وفرخت، واستأنفت بها تاريخ الدولة العباسية بعد أن كانت سنين بسواها أرخت، أما أنا استخلصت اليمن والساحل، وفتحت البيت المقدس، وأما النعت الذي

أنكر عليّ فهو من عهد الامام المستضيء وقد اشتهر في الآفاق، والآن فكلما يشرفني به أمير المؤمنين من السمة فهو اسمي الذي أتشرف به ، وإني أفترض طاعة أمير المؤمنين للدين لا للدنيا، وذكر كلاماً طويلاً هذا خلاصته، ثم أعاد تاج الدين بجواب رسالته، ومضى.

وفيها توفي شمس الدين بن المقدم بعرفة، وسببه أن طاش تكين أمير الحج أنكر عليه ضرب الطبل ، فامتنع ، فأمر طاش تكين أصحابه أن واقعوا شمس الدين وأصحابه فتواقعوا وذهب شمس الدين غلطاً، ولما عاد طاش تكين إلى بغداد غضب الامام الناصر عليه بسبب ذلك، وعزله عن إمارة الحاج، ثم اعتقله بعد مدة.

ودخلت سنة أربع وثمانين

والملك الناصر مقيم بعكا، فسار إلى كوكب رأى حصانته، ووكل بها قايماز النجمي، وجهاز إلى صفد طغريل الجاندار، وكان سعد الدين الأسدي موكلاً بقلعة الكرك، وقد ذكرنا أن الملك الناصر ضرب عنق صاحب الكرك بيده، وكانت زوجته ابنة فليب مقيمة بالقدس، وحصل ولدها هنفري في الأسر، فلما فتح الله سبحانه القدس، خرجت صاحبة الكرك ابنة فليب طالبة الملك الناصر باكية على ولدها، حاسرة والهة راغبة في فك ولدها، وخرجت معها زوجة ابنها باكية نادبة زوجها هنفري، فأكرمهما السلطان، وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعتي الكرك والشوبك إلى المسلمين، واستحضر السلطان ابنها هنفري من دمشق، وسار معهم جماعة من الأمراء لتسليم المعادل، ومضت الملكة مع ولدها حسنة الظن بمن بالمعادل، من أهل دينها، فلما وصلت إليهم منعوها وقاطعوها وشتموها، فذكرتهم وخوفتهم، فلم يصغوا إلى مقاتلتها، فعادت إلى السلطان خائبة ، فقبل عذرها، وأعلمها

أن ولدها محفوظ ملحوظ إلى أن يتسلم منها الحصون، ويسلمه إليها، فمضت إلى صور وسكنت بها.

ثم أخذ السلطان يستشير في أمر عكا وتهديمها أو عمارتها، واختلفت الآراء فترجع عنده عمارتها، فقال: ما أرى لها إلا بهاء الدين قراقوش، فبعث كتاباً أحضره، وسلمها إليه لعمارها، وعاد السلطان إلى دمشق، ودخلها في سادس ربيع الأول، وكان الصفي بن القابض، قد ابتنى للسلطان داراً على بعض أبراج قلعة دمشق، وأذهب في نضارتها وزخرفتها مالاً عظيماً، ظنا منه أن هذا يعجب السلطان، فلما دخل السلطان إلى دمشق اجتهد الصفي في دخول السلطان إليها، وتوصل وتوصل، فما التفت السلطان ولا دخلها وقال: السعيد من يبنّي دار الآخرة، ثم عزل الصفي عن ديوانه بسببها، وأبقاه على الخزّانة.

قال العماد الكاتب: سمعت السلطان يقول: كان خير ذنوب الصفي عندي بناؤه تلك الدار، وما يعمل بالدار من يتوقع المنية، وما خلقنا إلا للعبادة، والسعي في السعادة، وما يخطر لنا خلود في هذه الدار، ثم وردت الأخبار بوصول عسكر الشرق إلى حلب، فتوجه السلطان إلى بعلبك، ووصل عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي إلى بحيرة قدس، وخيم عليها، فخرج السلطان إلى قدس، وتلقاه عماد الدين، ثم دخلا إلى الساحل، ونهب المسلمون من الأغنام شيئاً كثيراً، وقطعوا أشجارهم وخربوا ديارهم، وفتحوا حصن يحمور، وساروا إلى أنطربوس في سادس جمادى الأولى، وزحفوا إليها وهدموها ونهبوا ما فيها من الأنفس والأموال، وامتنع منها برجان في أحدهما الداوية، وفي الآخر جملة من المنهزمين، فسلم مظفر الدين برج المنهزمين وتسلمه منهم وهدمه ورمى بحجارته إلى البحر، وامتنع برج الداوية فتركه خوفاً من فوات غيره، ثم سار نحو جبلة وتسلموها بأمان في ثامن عشر جمادى الأولى، ثم مضوا إلى صهيون، ونصب المجانيق عليها، واشتد عليهم الحصار حتى صاحوا الأمان، فأخذها السلطان منهم بما فيها من العدد والأموال، وقطع

عليهم مثل قطيعة القدس، ثم سلم السلطان صهيون بجميع ما فيها إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين، ثم تسلم السلطان قلعة العيد، ويوم السبت قلعة الجماهريين، ويوم الاثنين خامس جمادى الآخرة حصن بلا طنس، ثم مضى إلى الشجر بكاس فتسلمها بالأمان، وكان من نوادر ألطاف الله تعالى تيسر هذه الفتوحات الخمسة المتتالية في أيام الجمع الخامس المتتالية، ثم سار السلطان إلى برزية وفتحها بعد حروب كثيرة في جمادى الآخرة أيضاً، ثم توجه إلى الدربساك وتسلمها في ثاني عشر رجب، ثم تسلم من الداوية حصن بغراس وعجب من ذلك، وسلم الحصنين إلى سليمان بن جندر، وكان له حصن عزاز، ثم عزم على قصد أنطاكية، فوصله رسول صاحبها يسأله الهدنة على أنطاكية وما في يده ثمانية أشهر، فأجابه على ذلك، وتوجه السلطان إلى حلب فدخلها، ثم توجه إلى معرة النعمان قاصداً زيارة الشيخ أبي زكريا الزاهد رحمه الله، فزاره وتبرك به، ثم مضى إلى حماه، وتوجه إلى دمشق فدخلها في آخر شعبان من السنة، وظن الناس أنهم يقيمون بدمشق للصوم عند أهاليهم، فما لبث السلطان ولا مكث، وخرج في أوائل شهر رمضان، وقصد صفد وقاثلها مدة شهر إلى ثامن شوال فتسلمها بالأمان بعد قتال شديد، فلما كان منتصف ذي القعدة فتح السلطان كوكب بعد حروب عظيمة، وتوجه السلطان إلى القدس في مستهل ذي الحجة وعيد به عيد الأضحى، وودعه الملك العادل ومضى بعسكره إلى مصر، وخرج السلطان إلى عكا.

ودخلت سنة خمس وثمانين

والسلطان مقيم على عكا يرتب أمورها ويصلحها، فلما كان العشرون من شعبان زحف الفرنج عن يد واحدة، واقتتل المسلمون وهم قتالاً عظيماً استشهد فيه الأمير مجلي بن مروان، وظهير الدين علي أخو الفقيه عيسى، وطلبوا نخيم السلطان فانهزم المسلمون، ووصل بعضهم إلى

طبرية، وبعضهم إلى عقبة فيق، ومنهم من وصل إلى دمشق، وخيف على السلطان، واشتغل كل بنفسه، ثم ورد الخبر أن السلطان صادف جمعاً من الفرنج فقاتلهم وانتصر عليهم، فتراجع الناس إليه، ووقعوا على ميسرة العدو ووضعوا فيهم السيف، ولم ينفلت منهم إلا الآحاد

قال العماد الكاتب: حكى أن الفرنج اعرضوا في مائة ألف وعشره آلاف، ومن العجب أن الذين ثبتوا من المسلمين لم يكونوا ألفاً، فردوا مائة ألف، وحكى بعض المنهزمين قال: انهزمت من فارس كافر وفروسه يجري جري الريح، ولزني حتى آيست من البقاء، ثم أبطأ عليّ فعله بي فالتفت وإذا به وبحصانه ملقيان وليس هناك أحد، فعرفت أنه نصر إلهي. واستشهد في هذه الواقعة الفقيه جمال الدين أبو علي ابن روضة، ثم وقع الاتفاق على تأخير القتال، وتأخر السلطان إلى اسروبة، وشرع العدو في حفر خندق على معسكرهم من البحر إلى البحر، فحفروه وعمقوه.

وفيها توفي الشيخ شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، موته في يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بدمشق، ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فكان عمره أربعاً وتسعين سنة، كان عالماً بمذهب الشافعي، عظيماً فيه، أخذ العلم عن القاضي أبي علي الفارقي وقرأ الفارقي على الشيخين أبي اسحق الشيرازي، وأبي نصر بن الصبّاغ، وقرأ أصول ابن برهان على ابن برهان، وقرأ تعليق أسعد على أسعد، وأنجب من أصحابه خلق عظيم، وهو كان السبب لعمارة المدارس واشتجار العلم بالشام.

وفيها وصل أمر أمير المؤمنين الامام الناصر إلى السلطان الملك الناصر بالخطبة لولده ولي العهد عدة الدين أبي نصر محمد، فخطب له بدمشق في يوم الجمعة ثالث عشر صفر، ونثرت الدنانير على الخطيب، وأمر بذكر اسمه في السكة والخطبة ففعل.

وفيها في تاسع ذي القعدة توفي الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد ،
وحمل من يومه إلى القدس فدفن به ، وفيها توفي عز الدين بن الملك في
بكرة الجمعة منتصف شعبان .

ودخلت سنة ست وثمانين

والسلطان مقيم على الخروبة ، والملك العادل والأفضل معه ، والفرنج
محاصرون عكا ، ودام الحصار جميع السنة .

وفيها كانت وقعة الرمل : كان السلطان يركب أحيانا للصيد فركب
يوما لذلك ، فطاب له وأبعد ، فخرج الفرنج طالين بعد العصر ، وحملوا
حملة واحدة على المسلمين ، وفني نشاب المسلمين ، واستشهد منهم جماعة .

وفيها في نصف ربيع الأول تسلم السلطان شقيف أرنون ، وفيها صح
الخبر أن ملك الألمان عبر من خليج القسطنطينية ، وكان معه خلق
لا يحصون ، فقبل إنهم أقاموا في موضع شهراً عدموا فيه الطعام فهلك
منهم خلق ، وتوصل الباقيون إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود ، فقاتلهم
فهزموه ودخلوا قونية ثم راسلهم وصالحهم على العبور إلى بلاد الشام ،
فاصطلحوا على ذلك ، وبعث مليح بن لاون معه عشرين أميراً ليوصلوه
إلى مأمّن ، فلما وصل ملك الألمان إلى المأمّن ، غدر بالأمراء ، وساقهم معه
مقيدين إلى طرسوس ، فمكث بها مدة ، ثم قيل إنه عنّ الملك الألمان أن
يسبح ، وكان شيخاً مسناً ، فسبح في الماء البارد ، فخرج منه مريضاً ،
ومات إلى لعنة الله تعالى ، وقيل إنه غرق ، وقيل إنه لما مات سلقه
أصحابه في قدر حتى تخلصت عظامه ، ثم جمعوها في كيس وراموا
انفاذها إلى القدس ليدفنوها في قمامة أكراما له على ما وصاهم به ، وقام
ولده مقامه ، ووصل إلى السلطان كتاب اللكوتاغيكوس صاحب قلعة
الروم يبدي نصيحة ، وأرعد فيه وأبرق بقضية ملك الألمان ، وحكى له ما

جـرى له معه، فذكر أنه بذل لملك الألمان مائة قنطار ذهب وفضة نصفين، ومن الثياب الطلس المعدنية ما يبلغ آلاف، وكثر في ذلك وشدد وأنه تولى بعد استحمامه بماء بارد، وقد خلف ولده، وقد عرض في اثنين وأربعين ألف فارس، وأما الرجالة فلكثر تهم تعذر العرض.

فلما بلغت هذه الأخبار اضطربت الديار، ثم قدر الله سبحانه مرض ولد ملك الألمان، ومات أصحابه جوعاً، وتواصل من سلم منهم إلى أنطاكية، وتفرقت بقية منهم التقطهم المسلمون والتركمان، وباعوهم بحلب في الأسواق، حتى أن فلاحى القرى طمعوا بهم واستأسروهم، فتوجه ملك الألمان بنفر يسير إلى عكا، فاختلط مع الفرنج عليها.

وفيها ليلة الثلاثاء ثامن عشرين شهر رمضان توفي زين الدين يوسف ابن ايتكين صاحب إربل، وسر أخوه مظفر الدين بوفاته. وقال العماد: قصدناه معزى وإذا به في رواقه واحتاط على جميع ما يحويه، وخدم بخمسين ألف دينار حتى أخذ إربل وبلادها، ونزل عن حران والرها وسميساط، وزاده السلطان شهر زور.

وفيها وقعة رأس الماء، في رابع عشر شوال، وسببها أن الأسعار غلت عند الفرنج حتى هلكوا جوعاً، وبلغت الغرارة مائة دينار، فخرجوا بحدّهم وحديدهم وعدّهم وعديدهم، وعبأ السلطان عسكره، والتقى الجمعان، وقام ايباس الطويل في هذا اليوم مقاماً عظيماً، ووقف بين الصّفين يدعو إلى المبارزة، فما برز إليه أحد إلا صرعه.

ثم هجم الشتاء وأذن السلطان للأجناد الغرباء والملوك بالإنصراف، فعادوا إلى منازلهم، وأقام بخاصته على قدم الغزاة.

وفيها في ثاني عشر ذي الحجة هلك ولد ملك الألمان، ولحق بأبيه لعنهما الله تعالى.

ودخلت سنة سبع وثمانين

فيها وقعت وقائع على عكا آخرها يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، فهجم الفرنج عكا واستولوا عليها، وخرج سيف الدين المشطوب وحسام الدين سر باريك وأخذوا أماناً من الفرنج على أن يخرجوا بأنفسهما وأموالهما على تسليم البلد ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير من المجهولين، ومائة أسير من المعروفين، وصليب الصليبوت، وعشرة آلاف دينار للمركيس، وأربعة آلاف لحجابه، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله سبحانه وتعالى وقدره إلى الملك المظفر تقي الدين، حيث سافر على أن يعود بأضعاف عسكره، فاشتغل بقصد أخلاط وغيرها.

وغدر الفرنج بالمسلمين بعد الأمان، وأسروا بهاء الدين قراقوش، وسيف الدين المشطوب، ثم لما استقروا بعكا خرجوا إلى قيسارية، ووقعت وقعتها في تاسع شعبان، واستشهد إياس الطويل. ثم في رابع شعبان كانت وقعة أرسوف، وثبت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين، ونزل الفرنج على يافا، وتوجه السلطان إلى عسقلان فهدمها في تاسع عشر شعبان، ثم توجه إلى الرملة فنزلها بعد هدم عسقلان.

وفيها توفي الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح عمر بن شاهان شاه بن أيوب في يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان، وهو محاصر ملازكرد، وقد ذكرنا أن مولده في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وشهوراً.

وفيها توفي حسام الدين محمود بن عمر بن لاجين - - وهو ابن أخت السلطان الملك الناصر - بدمشق، في يوم الجمعة تاسع عشر رمضان في يوم وفاة الملك المظفر. وفيها توفي علم الدين سليمان بن جندر. وفيها

توفي الصفي بن القابض في ثالث عشرين رجب. وفيها توفي نجم الدين الخبوشاني، وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الشافعي رحمه الله، ووقف السلطان عليها رباعاً، فلما توفي الخبوشاني طلب المدرسة جماعة، وشفع الملك العادل في صدر الدين شيخ الشيوخ ابن حموية، فسلمها إليه، ثم عزل بعد ذلك بمدة قليلة.

وفيها مات قزل صاحب خراسان، وملك ابن أخيه أبو بكر.

وفيها تسلم الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين صاحب حلب بهسنا، وكيسون ورعبان والمرزبان. وفيها قتل الملك الظاهر شهاب الدين السهروردي وتلميذه لفساد دينه واعتقاده.

وفيها توفي القاضي محيي الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري بالموصل، وفيها توفي الفقيه علاء الدين الكاشاني بحلب، مدرس مدرسة الحلاويين، وكان رئيس أصحاب أبي حنيفة بها.

ودخلت سنة ثمان وثمانين

وصل السلطان إلى القدس، وشرع في تحصينه وعمارتها، ثم وصله الأمير سيف الدين المشطوب من الأسر، وكان لما أسر قرر على نفسه قطيعة خمسين ألف دينار، أدى منها ثلاثين ألفاً، ودفع رهائن بعشرين ألفاً، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها لمصالح القدس، وترك عماد الدين أحمد بن المشطوب بنابلس، وأبقى عليه فيها.

وفيها: هلك المركيس لعنه الله بصور، قتله كافران بالسكاكين في ثالث عشر ربيع الآخر. وفيها في ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى، المعروف بابن الفراش، قاضي العساكر.

وفيها أخذ الفرنج الداروم عنوة، وقتلوا كل من به من المسلمين، قيل كانوا خمسمائة نفس وفيها مضى السلطان إلى يافا ونقبوها وهجموها، وذلك في شهر رجب، وفيها قريب من ألف نفس من الفرنج، وطلبوا الأمان فبطل السلطان عنهم القتال طمعا في أخذهم، فجاءهم صبيحة يوم السبت نجدة من عكا، ستون مركبا موسقة بالرجال، وقاتلوا المسلمين، وقتلوا منهم جماعة، وعند ذلك ظفر السلطان بهم، فطلبوا الصلح، وطلب السلطان منهم عسقلان وغيرها فردوه فأجابوا فتسلم منهم مدينة عسقلان وهدمها، بعد أن غرم الفرنج على عمارتها مائة ألف دينار.

ودخلت سنة تسع وثمانين

كان السلطان دخل دمشق، فلما دخل صفر مرض ثم توفي في السابع والعشرين من صفر، رضي الله عنه، وقد ذكرنا أن مولده في سنة اثنتين وثلاثين، فكان عمره ستا وخمسين سنة وأشهرًا، وخلف من الولد سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيرة، وكان الملك العادل يومئذ بالكرك فحضر بعد أيام إلى دمشق، ثم توجه إلى بلاد الجزيرة، فإن السلطان كان قد جعل له كل ما شرقي الفرات من البلاد، ولم يخلف السلطان في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما، هكذا ذكره العماد الكاتب.

قال العماد الكاتب: حسب ما وهبه السلطان من الخيل لمن حضر معه في الجهاد في مدة ثلاث سنين اثني عشر ألف رأس من الخيل، من حصان واكديش وحجرة، غير ما أطلقه من المال لشراء الخيل، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود بهيته، وما حضر اللقاء إلا استعار فرسا جاهد عليه، فإذا نزل أعاده إلى صاحبه، وكان لا يلبس إلا مايحل لبسه من قطن وكتان وصوف، وكانت محاضره مصونة، وخلواته

مقدسة، عالما بعلوم الشرائع، وكان المجالس له لا يعلم أنه جليس السلطان بل جليس لأخ من الأخوان.

قال العماد: ومما أذكر له أنه توجه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين فحوسب صاحب ديوانه، فكانت سياقة الحساب سبعين ألف دينار باقية عليه، فما طلبها ولا ذكرها مع أن صاحب الديوان معترف بها، ووصله كتاب سيف الدولة ابن منقذ من مصر يخبره أن شخصا ضمن معاملة بمبلغ فاستقص منها ألفي دينار وهرب، وربما وصل إلى الباب الشريف وتمحل وتحيل وكذب، فأخبر السلطان أنه بالباب، فقال السلطان: قولوا له: ان ابن منقذ يطلبك فاجتهد ان لاتقع في عينه، فتعجب الحاضرون من كرمه وحلمه.

قال العماد: وقال لي بحرّان في سنة إحدى وثمانين: اكتب إلى الصفي ابن القابض يتصدق بدمشق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت الذهب الذي عنده مصري، فقال: يتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية، قال العماد: وأشفق من صرف المصري بالصوري لما فيه من الربا، قال العماد: فسمعت بعد ذلك من الصفي يقول: أحصيت فقهاء المدارس بدمشق، فكانوا ستمائة فقيه، فأطلقت لكل فقيه شيئا من ذلك، قال العماد: وقال لي يوم الرحيل من حران: انظر كم بقي من الوافدين بالباب من أبناء السبيل، وهذه ثلاثمائة دينار فرقها عليهم، وفضل من شئت على أقدارهم، فعينت لكل واحد منهم قسما، فبلغت القسمة أربعمئة دينار، فجعلت أفكر وأطيل النظر إليه، فقال: مالك؟ قلت: قد جرى القلم بقسمة أربعمئة دينار فهل أنقص من كل قسم ربعا؟ فقال: لا، أجري ما جرى به القلم، وأحسن صنعا، وكانت ممالكه وخواصه وأجناده أعف من الزهاد.

قال العماد: ورأى يوما دواتي محلاة بالفضة، فأنكرها، فقلت: أوليس

تحل حلية السلاح، فدواتي أنفع، ويراعي أطول، وسلاح قلمي أجد وأجد، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمي، فقال: ما هذا دليل، فقلت: إن الشيخ أبا محمد الجويني والد إمام الحرمين أبي المعالي قد ذكر وجها في جواز تحلية الدواة، وأنا أتبعه، ثم بعد ذلك ماعدت كتبت منها، إلا من دواة شبه خوفا منه.

وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوقاتها، وعلى أداء سننها، ولا يصغي إلى قول منجم ولا منطقي، ولا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان، هذا خلاصة مذكره العماد الكاتب، وبالجملة كان السلطان رحمه الله أعظم من أن يوصف بالصفات الجميلة والآراء الحميدة، وكل مذكره العماد الكاتب عنه مقبولا ولا يمكن دفعه، وأول من جمعه.

ولما مات السلطان قدس الله روحه قام بالملك بعده ولده الملك الأفضل نور الدين علي، واستقل بدمشق، وكان السلطان عهد إليه في حياته واستحلف الجنود له.

وفيها توفي عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، وقام بالأمر بعده ولده نور الدين، وفيها تسلم الملك العادل قلعة جعبر وسروج والركة، وصالح صاحب الموصل، وصاحب سنجار، وأخذ العساكر، ودخل إلى بلاد أخلاط فكسره صاحبها وقتل من أصحاب الملك العادل جماعة وأسرى جماعة، وهجم الثلج، فعاد الملك العادل إلى حران.

وفيها فارقت الياشروقية الملك الظاهر من حلب، وانتقلت إلى خدمة الملك العادل.

وفيها قتل سلطان همذان طغرل شاه بن أرسلان شاه، وحمل رأسه إلى بغداد على قناة، وعلق على الباب النوبي، وفيها أخذ الإمام الناصر

البوازيج من صاحب إربل وسلمها إلى صاحب الموصل، وفيها ذكر أن خليجا من نيل مصر أصبح دما عبيطا وفيها ورد الخبر بأن ذئبا كلبا هجم دنيسر، وعض اثنين وتسعين نفرا فماتوا جميعا، وفيها وقع بأرض بالس برد كبار، وزن البردة على ماقيل مائة وعشرون درهما، هلك به الوحش والطير والنعم والماشية والخلق والضياع والأشجار، وأخرج من الماء برد بعد خمسة عشر يوما من وقوعه في الماء مثل بيضة الحمام، وجاء عقيب ذلك رعود طارت العقول منها، وفقعت فقعة كان منها صاعقة نزلت في اصطبل بالياروقية أحرقت سبعة أنفس كانوا متبهين، وإلى جانبهم ثلاثة أنفس نيام لم تصبهم وسلموا.

ودخلت سنة تسعين

فيها نزل الملك العزيز عثمان صاحب مصر إلى دمشق يحاصرها، وأقام عشرة أشهر وقطع الماء عنها، فبعث الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل وأخيه الملك الظاهر يستنجدهما فوصلا إليه ورحلا العزيز عنها، واصطلحوا جميعا، وعاد العزيز إلى مصر، وأخذ الملك الأفضل من الفرنج جبلة واللاذقية.

ودخلت سنة احدى وتسعين

ففيها توفي القاضي مجد الدين أبو القاسم هندي بن يوسف بن هندي، الحاكم بمدينة حمص، وصلى عليه الخطيب ضياء الدين الدولي بجامع دمشق، ثم صلى عليه القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري خارج باب الصغير، ثم صلى عليه الحافظ ضياء الدين ابن عساكر بالمصلى، ثم صلى عليه القاضي محيي الدين قاضي دمشق، ابن القاضي زكي الدين بمسجد النارنج ودفن به، وكانت الجنازة عظيمة وافرة جدا، وكان رحمه الله عالما فاضلا عظيما مهيبا، وقام بالقضاء بعده القاضي زين الدين أبو

الفضل محمد، وكان في زمن والده ينوب عنه في القضاء بحمص وأعمالها في غيبته وحضوره، ثم استقل بالقضاء بحمص وأعمالها بعد وفاة والده.

ودخلت سنة اثنتين وتسعين

فيها نزل الملك العادل أبو بكر بن أيوب على ماردين، وحاصرها، وأخذ الربض في ذي الحجة من السنة.

ودخلت سنة خمس وتسعين

فيها توفي الملك العزيز عثمان صاحب مصر وقص به فرسه فمات، واتفقت الصلاحية على تولية الملك العادل بمصر، فحضر إليهم سيف الدين يازكش، وأشار بإحضار الملك الأفضل وتوليته، وكان يومئذ بصلخد، واتفقوا على ذلك وأحضره وولوه السلطنة بمصر، واستقر حاله بها، ثم بعد ذلك خرج فخر الدين جهاركس والصلاحية مغاضبين إلى القدس، وأخذوه، وبعث الملك الظاهر صاحب حلب، والملك المجاهد اسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الملك الأفضل، وأشاروا عليه بقصد دمشق وأخذها وأنهما ينجدانه، فخرج الأفضل قاصدا دمشق، ولما بلغ الخبر الملك العادل سيف الدين أبا بكر، وهو يومئذ بهاردين ساق مستحاثا طالبا دمشق، فدخلها في أيام قلائل قبل وصول الملك الأفضل إلى دمشق، وسببه أن الأفضل اعتاق في الطريق للضرورة، ولو كان استحث نفسه سبق إلى دمشق، ولما وصل الأفضل إلى دمشق جاءه الملك الظاهر وصاحب حمص، وأناخا على دمشق محاصرين عمهما الملك العادل، فحاصراه والملك الأفضل مدة، ثم هجم الشتاء فرحلا عن دمشق، وكان الملك العادل في خلال الحصار استدعى ولده الملك الكامل، وهو على ماردين بالعساكر، فجاء العادل بعساكره إلى دمشق ودخلها، ولما رحل الملك الظاهر والملك الأفضل عن دمشق توجه

الظاهر إلى حلب، والأفضل إلى مصر، وعاد الملك الكامل إلى جهة الشرق، ثم توجه الملك العادل إلى مصر تابعا للأفضل فوصلها، وكانت عساكر مصر قد باطنت وخامرت ونكثت أيماها، فملك العادل مصر، وخرج الملك الأفضل إلى صلخد.

وفيها توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن البيساني في الليلة التي دخل الملك العادل فيها إلى مصر بعة السكتة.

ودخلت سنة ست وتسعين

لم يزد فيها نيل مصر، واشتد عليهم الغلاء والوباء حتى مات أكثر الناس بها جوعا وأكل بعضهم بعضا.

وفيها وليّ القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري قضاء القضاء ببغداد، وفيها ورد القاضي زين الدين أبو الفضل محمد بن القاضي مجد الدين بن هندي الحاكم بمدينة حمص إلى مدينة حماة مفارقا حمص وقضائها، فتلقاه الملك المنصور صاحب حماة بالإكرام والإعظام واستقبضاه وبعثه رسولا في سنته إلى الديار المصرية إلى الملك العادل سيف الدين.

ودخلت سنة سبع وتسعين

كان الملك العادل أقطع ابن أخيه الملك الظافر خضر السواد من الشام، فبلغ الملك العادل أنه يكاتب أخوته باطنا، فأقطع الصلاحية السواد وأمر عليهم عز الدين سامة، وأمرهم بقصد صلخد ومحاصرة الأفضل ففعلوا، ثم أقطع الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أخيه الملك الأفضل ميفارقين وجبل جور، ونفذ في الباطن إلى ولده الملك

الأوحد المقيم يومئذ بميفارقين يأمره أن لا يسلمها إليه، فخرج الملك الأفضل في جمادى الآخرة من السنة، ومضى إلى حلب واستنجد بأخيه الملك الظاهر، فأكرمه، وجند الملك الظاهر الجنود وخرج بنفسه وعساكره وأخرج معه خزانة السلاح محمولة على مائتي جمل، وقصد منبج، فأخذها، وصاحبها يومئذ شمس الدين عبد الملك بن المقدم، وقبض عليه وبعثه إلى حلب، فاعتقله بها، ثم توجه إلى قلعة نجم فأخذها وسلمها إلى نواب أخيه الأفضل، وعاد إلى جهة حماة ومعه من العرب أمم عظيمة، فنهبوا القرى وأجلوا أهلها وسفكوا دماهم، وأكثروا الفساد في الأرض، وأخافوا السبيل، ثم مضوا إلى حماة فحاصروها في شعبان وشهر رمضان من سنة سبع وتسعين، ثم اصطالح الملك الظاهر والملك المنصور، وتوجه الملك الظاهر والملك الأفضل إلى حمص وصاحبها يومئذ (اسد الدين شيركوه) ابن أحمى الملك الأفضل، والكل متفقون باطنا، ثم مضوا إلى بعلبك، فأعطاهما صاحبها مالا، ثم توجهوا إلى دمشق في ذي القعدة من سنة سبع وتسعين، فنزلا في ميدان الحصا والمقابر، وزحفا مرة، ثم زحفا مرة ثانية فملكوا العقبية وهدماها، وملكوا خان الملك المظفر تقي الدين، وخرج إلى الملك الظاهر الخطيب الدولعي والأمير عز الدين سامة ولطفا به ووعداه أنه إذا توجه إلى عمه الملك العادل وبلغ مقصوده منه وعاد سلموا إليه دمشق صلحا.

وفي أثناء ذلك وقع فيما بين الملك الظاهر والملك الأفضل، وفسد الحال ورحلا عن دمشق في أول صفر سنة ثمان وتسعين، ولما عاد الملك الظاهر إلى حلب صالح الملك الأفضل عمه الملك العادل على سروج وسميساط والموزر، فدفعها الملك العادل إليه، وخاف الملك (المنصور) صاحب حماة من الملك الظاهر على المعرة، فراسل الملك العادل في استدعائه للمقام بظاهر حماة، ونزل ظاهرها، ثم اتفق الصلح بين الملك العادل وبين الملك الظاهر.

وفيهما توفي حسام الدين صاحب ماردين، قيل إن غلامه قد سقاه سمًا، فمات منه، وفيها عزل القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري عن قضاء بغداد، وفسح له في العودة إلى وطنه.

وفيهما توفي جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي إمام وقته في علم الوعظ والحديث والجرح والتعديل والتفسير والتاريخ والسير، والفقه على مذهب أحمد بن حنبل، صنف في كل علم وطبق الأرض ذكره، واشتهرت تصانيفه وكان من العلم والفضل بمحل عال وأما الوعظ ومواده فهو مسلم إليه.

وفيهما زلزلت الدنيا زلزلة عظيمة بالشام والسواحل هدمت صور وعرة وأبراجا من عكا وهلك فيها خلق عظيم ووقع رأس منارة دمشق والكلاسة وأبراج من قلعة حماة وبارين وشعث شيزر وبعلبك.

وفيهما تزوج السلطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة الست وحشية خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ووصلت إلى حماة وكان يوما مشهوداً، وتوفيت السنجارية زوجة الملك المنصور قبل ذلك بثلاثة أيام فكان موتها راحة لها.

دخلت سنة تسع وتسعين

فيها في يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان ولد الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود بن الملك منصور والدته وحشية خاتون بنت الملك العادل سيف الدين.

وفيهما ولي القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري قضاء حماة في صفر وتوفي في العشر الاوسط من رجب من السنة فكانت مدة ولايته خمسة

أشهر فيها شهر واحد صحيح الجسم ، والباقي مريض، وفيها توفي
القاضي محيي الدين أبو المعالي بن القاضي زكي الدين قاضي دمشق
المحروسة .

ودخلت سنة ستمائة

فيها توفي الحافظ بهاء الدين بن عساكر بدمشق .

ودخلت سنة خمس وستمائة

فيها جاءت زلزلة عظيمة هائلة في الثلث الأخير من الليل هدمت
شراريف من برج القلعة بحماة المحروسة وهدمت أبراجا بقلعة بارين
وهدمت غالب قلاع الساحل وحكي ان البحر غار قطر منه وعمت
معظم البلاد في الأقطار .

ودخلت سنة ست وستماية

فيها توجه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الى سنجار
فنزل عليها وصحبته الملك المنصور صاحب حماة وغيرها وذلك مدة
أشهر .

وفيها توفي الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي
المعروف بابن خطيب الري صاحب الكتب المصنفة في الحكمة والمنطق
والأصولين وغير ذلك، طبق ذكره الأرض واشتهر فضله وسارت مصنفاته
وعلت منزلته عند خوارزم شاه حتى كان يقرأ عليه ويقعد بين يديه،
وتوجه الى عند شهاب الدين الغوري وحظي عنده بالخطوة العليا وله
أخبار منقولة وسير مشهورة ومولده في حدود سنة خمسين وخمس مائة،

وأخذ العلم عن والده الخطيب بالري وعن مجد الدين الجيلي وأخذ
الحكمة وعلم الكلام عن الحمّصي — بميم مشددة *

ودخلت سنة سبع

فيها وردت رسل الباطنية الى بغداد من الموت وبقيّة بلادهم،
وخبروا عنهم أنهم اسلموا وأظهروا شعائر الإسلام وبعثوا بمفاتيح
بلادهم وقلاعهم الى دار الخلافة وبعثوا ذهباً مضروباً عليه اسم الإمام
الناصر لدين الله تعالى وزّقت في جوانب بغداد *

وفيها توفي نور الدين زنكي صاحب الموصل وتقلد السلطنة بالموصل
بعده الملك القاهر *

ودخلت سنة ثمان وستائة

فيها توفي شيخنا الإمام عماد الدين أبو حامد محمد بن يونس إمام
أصحاب الشافعي في وقته، مولده في حدود سنة اثنتين وخمس مائة وكان
رحمه الله جامعاً بين العلم والعمل انتهت اليه رئاسة الدين والدنيا
وصنف في أصول الفقه وفروعه، وكان إذا مرض يعود نور الدين أتابك
صاحب الموصل في منزله، وكان نور الدين حنفي المذهب، فعاد الشيخ
عماد الدين مرة في مرضه وسأله حاجة فقال: أرى أن تعود الى مذهب
الشافعي فعاد من وقته وبنى لأصحاب الشافعي مدرسة لم ير الراؤون
أحسن منها، ودفعها للشيخ عماد الدين رحمه الله، وكان الشيخ هو
المعتمد للترسل الى دار الخلافة، ولما توفي نور الدين انحدر الشيخ الى
بغداد رسولا وأخذ التقليد الشريف بالسلطنة بتملك القاهر بن نور
الدين أتابك، وبعد هذه السنة خال الى:

سنة اثنتي عشرة

فيها حج الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ومهد طريق تبوك وفتحها فانقطع الحاج عن طريق تيماء وسلکوا طريق تبوك.

ودخلت سنة ثلاث عشرة

فيها مات الملك الظاهر غياث الدين غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب في العشرين من جمادى الآخر وكان رزئا عظيما في الإسلام.

ودخلت سنة اربع عشرة

فيها خرج التتر الكافر الى بلاد خراسان وماوراء النهر، وأسروا خوارزم شاه، واستولوا على بلاد المسلمين، وتسلموا خوارزم وهدموها، وقتلوا كل من بها، وفعلوا ذلك ببخارى، وتلك الأقاليم حتى روى جماعة من التجار والفقهاء الواردين من تلك الجهات أنهم هدموا مائتي مدينة ونيف، وقتلوا من الفقهاء آلاف كثيرة، فكيف بالعوام، وانقطعت السبل في تلك النواحي سنين عديدة.

ودخلت سنة خمس عشرة

فيها توفي الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب في يوم الجمعة سابع جمادى الأولى بعالقين على فراسخ من دمشق وقد ذكرنا ان مولده في سنة سبع وثلاثين، فكان عمره سبعا وسبعين سنة وشهورا.

ودخلت سنة ست عشرة

في يوم الثلاثاء خامس وعشرين شعبان تسلم الفرنج دمياط بعد محاصرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما، فإنهم نزلوا عليها في ثالث ربيع الأول سسنة خمس عشرة، وأقام السلطان الملك الكامل في مقابلتهم بمن معه من الملوك والعساكر الاسلامية مدة طويلة بالمنزلة المشهورة بالمنصورة وجرى بين الفريقين من القتال برا وبحرا ما لا يمكن وصفه واشتد الغلاء بدمياط في حالة حصار الفرنج لها حتى لم يبق يوجد شيء وإن وجد كان أضعاف أضعاف ثمنه ونفدت نفقاتهم ووقع فيهم الفناء فماتوا، ولما تسلم الفرنج دمياط في التاريخ المذكور مازالت بأيديهم والمسلمون يحاصروهم، ويوم الأربعاء سابع عشر شعبان سنة ثمان عشرة وستمئة فتحتها المسلمون وتسلموها من الفرنج كل ذلك بحول الله وقوته وبِعزم السلطان الملك الكامل وحسن نيته وجميل طويته، وكان ذلك يوما مشهودا عظيم البركة على المسلمين، وكانت مدة مقام دمياط في يد الفرنج سنة كاملة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما.

ودخلت سنة سبع عشرة

فيها في يوم الاثنين سابع وعشرين ذي القعدة توفي الملك المنصور صاحب حماة رحمه الله تعالى، ومولده كما ذكرناه في سنة سبع وستين، وابتدأ ملكه حماه في أوائل سنة ثمان وثمانين فكان عمره خمسين سنة وشهورا ومدة ملكه تسعا وعشرين سنة تقريبا ولما نزل به المرض أمر خاصته بتحليف الجند والخاصة والعامة لولده الأكبر الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود ففعلوا ذلك، وحلف الناس له أولا ثم من بعده لأخيه الملك الناصر قليج أرسلان، وكان الملك المظفر تقي الدين يومئذ بالديار المصرية بالغزاة في خدمة خاله السلطان الملك الكامل، والملك الناصر قليج أرسلان بدمشق تخلف بها، فلما اشتد المرض بالملك المنصور

تعصب بعض الخاص للملك الناصر قليج أرسلان لقربه من حماة وأحضره وجرت أمور لم تخف عن أهل الأمر خلاصتها أنهم صعدوا به إلى القلعة في يوم الإثنين وأحضروا الذي كان حلف من الخاصة للملك المظفر أولاً والأمراء والخواص وطلبوا منهم أن يحلفوا للملك الناصر قليج أرسلان ، فامتنعوا وقالوا للمستحلف إنك حلفتنا بالأمس للملك المظفر بالعهد وبالندور وبالأيمان المغلظة بالطلاق والعناق فبأي فتوى ننتك أيماننا ويقع علينا الطلاق والعناق فأجابهم بما اشتهر، وجرت أمور عجيبة حتى حلفوا ونقضوا الأيمان بعد توكيدها وكان من لطف الله سبحانه أنني كنت مريضاً في تلك المدة لم أحضر شيئاً من ذلك، ودفن الملك المنصور في يوم الإثنين المذكور، وأظهروا موته في بكرة الثلاثاء، وعملوا عزاء عاماً في الجامع الأعلى، واستقل بتدبير الملك من غلب على الملك الناصر ممن هو معروف لم يخف على الناس أمره وحاله.

ودخلت سنة ثمانى عشرة

فيها فتح المسلمون دمياط وملكهم يومئذ الفاتح لذلك المولى السلطان الملك الكامل، وكان فتحاً مشهوداً لم يكن في الإسلام أعظم منه، وبعد هذه السنة خال من الحوادث إلى :

سنة اثنتين وعشرين

فيها توفي الامام الناصر لدين الله تعالى ابو العباس أحمد في ليلة السبت سابع شهر رمضان، ومولده كما ذكرناه في سنة اثنتين وخمسين وولي الخلافة في ثاني ذي القعدة سنة خمس وسبعين، فكان عمره سبعين سنة وشهوراً، وكانت مدة خلافته ستاً وأربعين سنة وأحد عشر شهراً تنقص يومين، ولم يخلف ولداً ذكراً سوى ولده الإمام الظاهر أبي نصر محمد، وسنذكر ولايته، وكان الإمام الناصر عظيماً مهيباً عالماً، سياسياً

حازما وقد سقنا من أخباره جملا في التاريخ الكبير، وهذا المختصر لا يليق به التطويل، وقد حكى أنه لما عزل وزيره نصير الدين العجمي القمي وقبض عليه أسكنه في دار منعه من الخروج منها وأجرى عليه ما يقوم به وبأولاده فكتب الوزير إليه:

ألقني في لظى فإن غير تنبي
فتيقن أن لست بالياقوت
عرف النسج كل من حاك
لكن نسيج داود ليس بالعنكبوت

فكتب إليه الامام الناصر جوابا:
نسيج داود لم يفد صاحب الغار
وكان الفخار للعنكبوت
ويقاء السمند في لهب النار
مزيل فضيلة الياقوت

وهذا جواب فائق وشعر مفلق، ومعنى بديع، وكان رضي الله عنه يحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويحب أولاده ويميل إليه ويمتدحهم ويقدمهم ويفضلهم.....

خلافة الامام الظاهر بأمر الله

عدة الدين أبي نصر محمد بن الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد. بويع بالخلافة في يوم عيد الفطر من سنة اثنتين وعشرين، وكان والده قبض عليه مدة طويلة خوفا على نفسه، ولما ولي كان قد أناف على الخمسين سنة وظهر الشيب في لحيته، وحكى عنه أنه قال، كم يقعد المعلم في المكتب إذا فتحه بعد العصر، فكان كما قال فلما دخلت:

سنة ثلاث وعشرين

توفي في ثالث عشر رجب فكانت مدة خلافته تسعة أشهر وثلاثة عشر يوما.

خلافة الامام المستنصر بالله أبو حسن المنصور بن الامام
الظاهر بأمر الله .

ببيع بالخلافة يوم موت أبيه، واستبشر الناس بخلافته وتيمنوا ولايته، ورد على الناس أموالا وأملاكاً كانت قبضت عليهم. وتظاهرت الرعية بالأموال، وظهر من العدل مالا يمكن وصفه، وأكثر من الصدقات بالأموال الجزيلة، ومنع أصحاب الأخبار والتخبر لما فيه من الفساد والضرب، وكان صاحب خبر كتب مطالعة اليه فكتب في جوابها: إن عاد كتب مطالعة أو خبر خبراً ضربت عنقه، ومنع أهل الفساد من ذلك ووصل الحق إلى مستحقه ومنع الظالم من تعديه وظلمه.

ودخلت سنة أربع وعشرين

في سلخ ذي القعدة منها توفي الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق، وولي مكانه الملك الناصر صلاح الدين داود.

ودخلت سنة خمس وعشرين

فيها في شعبان تجهز السلطان الملك الكامل إلى الشام والسواحل للقاء الفرنج خذلهم الله تعالى، حين علم تحشدهم وتجمعهم ولترتيب أمور المسلمين وبلادهم، فوافى تل العجول، وأناخ به، وتوجه الملك الأشرف إلى خدمته ومضى صاحب دمشق الملك الناصر صلاح الدين

داود معه لنجدته، واجتمعت عساكر المسلمين هناك، وكان الأنبروز طاغية الفرنجة وعظيمهم خرج بجمع كثير إلى الجزائر والسواحل، وخيف على بلاد الإسلام منهم فاجتهد السلطان الملك الكامل رأيهم وصالحهم صلحا تاما رآه مصلحة للمسلمين وغنيمة لهم، فكان راعي هذه الأمة المحمدية، وسلطان الملة الإسلامية، ومن أعز الله تعالى به الدين وأهله، والمأمون عليهم، والناصح المشفق عليهم، ففعل ما رآه مصلحة وغبطة ترجحت في نظره راعيها، وصالح الفرنج على أن يسلم إليهم البيت المقدس حرسه الله تعالى وحده، من غير تسليم شيء من أعماله ولا بلاده قليلا ولا كثيرا، وشرط عليهم أن لا يجددوا فيه شيئا ولا سورا ولا دورا ولا يتجاوزوا خندقه، وأن تقام فيه الجمعة للمسلمين المقيمين به، ولا يمنع مسلم من زيارته كيف أراد، ولا يؤخذ من زائر مال أصلا، وكان ذلك إن شاء الله تعالى من أكبر مصالح المسلمين وأعظمها بما لا يخفى عن ذي البصيرة، فإن البيت المقدس موضع عبادة لإقامة العبادة على حسب اعتقاد الناس، فسلم السلطان الملك الكامل ذلك إليهم مع تهمده وعدم حصانته حفظا لبقية الثغور والبلاد، ونزله منزلة مسجد يتردد إليه المصلون، وعقد معهم عقد الهدنة الشرعية المدة المرعية في نظر سلطان المسلمين وملكهم ومتولي أمورهم، واندفع عن المسلمين بذلك شر عظيم، وخوف وحصل الأمن مدة الهدنة فلا مصلحة للمسلمين أعلى من هذه المصلحة، ولا غبطة لهم أعظم من هذه الغبطة، ودخل البيت المقدس أناس قليلون من الفرنج لاشوكة لهم ولا عدد ولاعدة، وكان ذلك في سنة ست وعشرون وستمائة، ومتى مهد السلطان الملك الكامل بلاد المشرق، واتفقت كلمة الملوك استعاد البيت المقدس من يد من هو فيه من الفرنج في يوم واحد، بل في ساعة واحدة حتى روي أنه وجد في المسلمين جماعة قتلوا ورموا في بئر هناك، فنسب المسلمون المقيمون بجال القدس قتلهم إلى الفرنج، وهجموا عليهم البلد وقتلوا منهم مقتلة عظيمة يقارب خمس مائة نفس كما روي، وحجزوهم

وأرهبوهم واختلفوا فيهم، وصاروا في غاية ما يكون من الذل، وعاد اللانبروز بعد الصلح التام إلى بلاده، ومازال السلطان الملك الكامل مقبلاً بتل العجول يمهد الأرض ويملاها عدلاً.

وفيها عاد الملك الأشرف من تل العجول فأناخ على دمشق في أوائل ربيع الأول وحاصرها مدة ربيع وجمادين، وجاء السلطان الملك الكامل فخيم عليها، وجرت حروب كثيرة اشتهرت إلى أن ضاق الأمر بالبلد، فلم يكن للملك الناصر صلاح الدين داود إلا الترامي على السلطان الملك الكامل واستمطار مراحمه، فخرج إليه خفية وأكب على قدميه قبلهما، فرحب به السلطان وأكرمه ورأى له سعيه، وطيب قلبه ووعدته بالدخول في أمره، وأعادته إلى دمشق إلى أن يفصل القضية وصلح الحال بينه وبين الملك الأشرف على أن الملك الأشرف يتسلم دمشق، فدخلها في أول يوم من شعبان من السنة في يوم الاثنين، وهب السلطان الملك الكامل للملك الناصر صلاح الدين داود الكرك بما فيه من أموال وناבלس وبيسان وبلاد كثيرة وستة وعشرين ألف دينار مصرية كما قيل، وأحسن إليه إحساناً لم يخطر بباله وتوجه إلى بلاده وقلاعته، وفيها تسلم السلطان الكامل من الملك الأشرف حران والرها ورأس عين، وجملة من بلاد الشرق، وفيها نزل السلطان الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود بن الملك المنصور على حماة في يوم الجمعة في شهر رمضان ونازلها وقتلها بالمجانيق وغيرها، واستمر الحال هكذا إلى ليلة الخميس سابع عشر شهر رمضان فخرج الملك الناصر قليج أرسلان من حماة ليلاً وتوجه إلى خدمة السلطان الملك الكامل إلى سلمية، وكان قد وصل إليها في ذلك اليوم، فوصل إلى المعسكر المنصور الملكي الكامل على سلمية متذللاً مدعناً مستسلماً، فرحب السلطان به، وبعد يومين من ذلك وصل كتاب الملك الناصر إلى نوابه بقلعة حماة أن يسلموها إلى نواب الملك الكامل وعرفهم أنه قد طاب قلبه ورضي بما وهبه السلطان الملك الكامل عوضاً عن حماة سروج، وماله بحماة من مال وغيره وأن

ذلك أنعم عليه من السلطان، فلما وصل الكتاب إلى نوابه بحماة تهيئوا لنقل الأثقال، ثم شغبت جماعة من الخدم والمماليك، وقالوا لانسلم القلعة والمدينة إلى نواب الملك الكامل ولا نخرجها عن بيت الملك المظفر تقي الدين وعن أولاده وأولاد أولاده، كل ذلك ظنا منهم أن السلطان الملك الكامل قد أخذ البلد لنفسه ولم يكن الأمر كما ظنوه، ولا كما توهموه، فوصلت كتب السلطان الملك الكامل ثانيا: لم نرد هذه المدينة لأنفسنا، ولو رمنا ذلك لما امتنع علينا، فإن البلاد بلادنا والأولاد أولادنا، ونحن نتصرف في ذلك كيف شئنا، وقد اطلقنا البلاد والأقاليم انعاما وتطوعا، فإذا كنتم تؤثرون مصير هذا الأمر إلى أولاد الملك المنصور فالملك المظفر عندكم وقفوا الحال معه، فإن الملك الناصر تضرع إلينا وطلب منا أن لا يصير الملك لأخيه الملك المظفر فإذا اخترتم انتم خلاف ما اختاره وأثرتم الملك المظفر فشكر الله سعيكم وتقبل منكم جزاكم الخير كيف حفظتم بيت استاذكم، وأنتم فسلموا المدينة والقلعة إلى الملك المظفر، فهو كبير البيت ومربيه، وكان والده الملك المنصور رحمه اوصى له به وفوضه إليه، وهو مصالح أخاه كما يتفق معه، وقد أخرجنا أنفسنا من الوسط، وتوجه السلطان الملك الكامل إلى الشرق في ثالث عشرين شهر رمضان، ووكّل أمر الصلح إلى نوابه المحاصرون لحماة: الملك المجاهد صاحب حمص، والملك العزيز صاحب بانياس، والأمير عثمان، والأمير فخر الدين البانياسي وجماعة من الأمراء واستقر الحال والحمد لله وانتظم الصلح، واستدعاني من بالقلعة المحروسة من النواب وقالوا قد تقرر الصلح ودخول المولى السلطان الملك المظفر إلى المدينة وتسلمه لها، ونؤثر منك المضي إلى خدمته مع العسكر المنصور وطلب الأمان للأجناد والرعايا وتطيب قلوبهم وأخذ يده الكريمة على ذلك وتقيلها، فتوجهت مع جماعة من العدول إلى المخيم في يوم الإثنين سابع عشرين رمضان، فلما دخلت عليه في الخيمة زاد في الإكرام والإنعام، ورأيت ما يملأ العين قرة والقلب ابتهاجا ومسرة، وحصل عندي من

الفرح والجزل والسرور بسلطنته وولايته ما لا يمكنني والله وصفه لنفسي وللمسلمين، وسألته أن يؤمن الرعايا والأجناد والنواب على أنفسهم وأموالهم، فأمنهم وطيب قلوبهم ووعدهم بالخير، وأخذت يده الكريمة على ذلك فقبلتها، ثم دخل المولى السلطان الملك المظفر إلى البلد في تلك الليلة ليلة الثلاثاء ثامن عشرين شهر رمضان فنزل في الدار المعروفة بدار الأكرم وجلس للناس في بكرة الغد جلوسا عاما وكان يوما مجموعا له الناس، ويوما مشهورا بكثرة الفرح والإيناس لم يبق بالمدينة خاص ولا عام إلا ودخل إليه وقبل يده، واستبشر الناس بقدومه وسروا بمملكته وتيمنوا بسلطنته وعيد في دار الأكرم عيدا مشهودا لم يشاهدوه فيما تقدم من كثرة الخلع والخيرات، ومد سباط للناس على طبقاتهم وحضره خلق لا يحصون ولما كانت ليلة الجمعة ثاني شوال صعد القلعة المحروسة المباركة ليلا، وجلس بكرة الجمعة جلوسا عاما، ونادى في البلاد بإزالة المنكرات وإسقاط المكوس والضمانات، وخلع على القضاة والأمراء والنواب والخزندارية والمقدمين والرؤساء واستقر الملك والحمد لله تعالى له، وثبت وتضاعفت أدعية الخلق وحمده له تعالى وكثر ثناؤهم بما أنعم عليهم من سلطنة السلطان الملك المظفر ومملكته وولايته عليهم، وأمر بدار العدل ففتحت وأصلحت، وجلس بها وقصده الناس من كل جانب وكف اليد المعتدية، ومنع الظلم، وأوصل الحق إلى مستحقه، ورجع إلى المدينة من كان رحل منها، ورفعت إليه القصص، فوقع عليها بالعدل الشامل، والإنعام الكامل ووصل إلى خدمته الأمير الكبير العالم سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي الهذباني، وفوض إليه السلطان الملك المظفر جميع أموره في بلاده وقلاعة ورعاياه وأجناده فاعتدق ذلك، وقام به أحسن قيام ونظم شمل الدولة أجمل نظام، ورتب أحوال المملكة ومهداها، وشيد أركانها ووطدها، وقرب أهل الخير والصلاح وأدناهم وأحسن إليهم وآواهم، ورتب ذوي الأمانات والكفايات في مراتبهم وولاهم، وأبعد أهل الفساد والشر وأقصاهم، وطهر البلد منهم ونفاهم، وأظهر للشرعية

رونقا وهيبة، وفخم أمرها وأعظم في النفوس قدرها، وتقدم إلى كل من عليه حق بالخروج منه إلى السعي مع الخصم إلى مجلس الحكم كائنا من كان من أمير أو كبير، وخوفهم من المخالفة وحذرهم وأكد الوصاة عليهم وأنذرهم، وكان السلطان الملك المظفر لما ملك سلمية في سنة ست وعشرين وستمائة فوض أمورها إليه فساسها أحسن سياسة، وعمرها بالعدل أعظم عمارة، وبلغني من جماعة أنه مذ وليها لم يثبت في ديوانها درهم واحد من جناية ولا من مظلمة وابتنى قلعتها، وأعادها إلى أحسن مما كانت عليه، ورتب فيها من أمور القلاع من الأجناد والمستخدمين وغيرهم ما اشتهر ذلك وشاهده من شاهده، ووصل في خدمة السلطان الملك المظفر كاتبه الوزير الكبير العالم الذكي نجم الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الوهاب أبي الحسن بن علي الزهري ذو الفضائل الغزيرة والعلوم الكثيرة، وأطلق له ألف دينار مصرية كان وعده بها، وحكى الوزير نجم الدين المسمى أن المولى السلطان الملك المظفر لما أطلقها له اعتذر استقلالها وأنه قال له: ياخوند من جملة انعام السلطان وفضله أنه يعطي الآلاف ويعتذر.....

من التاريخ المنصوري
(تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)
تأليف
أبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي العظيم، الولي الحكيم، الأزلي القديم، الدال على
أزليته حدوث الحوادث، الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الصاحبة
والولد والثاني والثالث، محيي الأموات، ومميت الأحياء فهو الوارث لكل
وارث، خلق السموات بغير عمد ترونها قائمات، وأمسكهن أن يقعن على
الأرض، فهن بقدرته دائمات مواكث، ودحا الأرض على الماء، وباين
بينها في السفلى والعلاء والخزون والرمائم. أحده على نعمه المقيمات
اللوابث، ودفاعه النائبات الكوارث، وأشهد ألا إله إلا الله وحده
لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل رسول أرسله.

وبعد فقد قال أبو الجلد: الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ، اثنا
عشر ألفاً للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة لفارس، وألف للعرب.

وقال يحيى بن كثير: خلق الله ألف أمة، فأسكن ستمائة البحر
وأربعمئة البر والله أعلم.

فلنذكر الآن ابتداء التناسل، التناسل بمقتضى ماورد في السير
والتواريخ حاكيا ماذكروه وسطروه كما سطروه والله أعلم.

سنة تسع وثمانين وأربعمائة

خرجت الفرنج ، وزحل بالسنبلة، والمشتري في الميزان. ومات منصور ابن نصر بن مروان، صاحب ديار بكر، وانقرض به البيت.

سنة أربعمائة وتسعين:

فتح قوام الدولة الرحبة. وفتحت الفرنج أنطاكية وسميساط، ، وفتح أمير الجيوش دمشق، وولد الأمر بن المستعلي.

سنة إحدى وتسعين وأربعمائة:

ملك الفرنج الرها، والحدث ، ومرعش ، وكيسون.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة:

أخذت الفرنج لعنهم الله بيت المقدس. وخطب لتتش بالموصل. وأخذت الفرنج المعرة.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة:

مات عميد الدولة بن جهير، وابن جزلة الطبيب.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة:

خطب لبركياروق بالجزيرة، وأحرقت رسائل أخوان الصفا في بغداد. وقتل جماعة من الاسماعيلية ببغداد بالمعسكر، منهم عين القضاة الصوفي.

سنة خمس وتسعين وأربعمائة:

جُعِلَت البيعة التي بتكرت جامعاً. وتوفي المستعلي صاحب مصر.

سنة ست وتسعين وأربعمائة:

مات الملك دقاق . وفي سابع عشر جمادى الآخرة ظهر في الغرب كوكب أبيض له ذؤابة من شرقيه ، بعيدة عن الشمس في نصف برج الحوت، طول ذؤابته مائة وخمسين ذراعاً.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة:

خالية

سنة تسع وتسعين وأربعمائة:

استولى رضوان على أفامية . ومات يوسف بن تاشفين صاحب المغرب. واستولى أتابك طغتكين على صلخد وبصرى.

سنة خمسمائة:

توفي الشلول صرخاب بن بدر بن المهلهل صاحب شهر زور ونواحيها. وفتح السلطان قلعة دز، وقتل صاحبها.

سنة إحدى وخمسمائة:

تسلم ينال بانثياس.

- ٩٧٦٠ -

سنة اثنتين وخمسمائة:

سلمت الموصل لمودود . وملك الفرنج طرابلس . ومات ابن الخازن الكاتب، واسمه أبو الفوارس الحسين بن علي بن الحسين.

سنة ثلاث وخمسمائة:

خالية.

سنة أربع وخمسمائة:

فتحت الفرنج صيدا، وبرزية، وشيخ.

سنة خمس وخمسمائة:

توفي سليمان النجمي ببالس.

سنة ست وخمسمائة:

خالية.

سنة سبع وخمسمائة:

وفاة الملك رضوان . وقُتل مودود بجامع دمشق. وتسلم أتابك طغتكين صور من المصريين. وملك حلب تاج الدولة الأخرس بن الملك رضوان.

- ٩٧٦١ -

سنة ثمان وخمسمائة:

زلزلت الأتارب وما حولها ، وخسف بسميساط ومرعش.

سنة تسع وخمسمائة:

فتح برسق حماه.

سنة عشر وخمسمائة:

قُتل كامل بن منقذ، وحريق النظامية، ومقتل أحمد يل صاحب
أذربيجان.

سنة احدى عشرة وخمسمائة:

خالية

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة:

تسلم ايلغازي حلب، وفتحت الفرنج أعزاز ومات المستظهر وبويع
المسترشد.

سنة ثلاث عشرة وخمسمائة:

خالية.

سنة أربع عشرة وخمسمائة:

تسلم أتابك طغتكين تدمر والشقيف. وكسر نجم الدين إلغازي
الفرنج على موضع يسمى البلاط ، وأخذ روجال، صاحب أنطاكية،

أسيرا ، وفتح زردنا، وطلبت الاسماعيلية من نجم الدين قلعة الشريف بحلب، وكانت عامرة، فبعث كتاب الطير إلى حلب بخراب قلعة الشريف.

سنة خمسمائة وخمس عشرة:

مقتل الأفضل أمير الجيوش، ومات القاضي عماد الدين . ومات توفيق المهندس بدمشق. ومات توفيق الحاسب ببغداد، ومات فيها أبو القاسم الحريري صاحب المقامات.

سنة ست عشرة وخمسمائة:

خرج ملك الخزر، ومَلَكَ تفليس، وبقيت في ذريتهم إلى أن ملكها جلال الدين بن خوارزم شاه في سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

سنة سبع عشرة وخمسمائة:

مات ملك الخزر، وكان له نظر عظيم في شرع الاسلام، وجرى له مناظرة مع القاضي الكنجي في الكلمة أهي مخلوقة أم قديمة ؛ وأكل القطا زرع الشام.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة:

ملك البرسقي حلب، وهبت ريح حملت الرمل من أرض الرصافة إلى قلعة جعبر . وفتحت الفرنج صور. وفتح بلك منبج. ومات حسن الصباحي رئيس الاسماعيلية.

سنة تسع عشرة وخمسمائة:

أخذ ملك الخزر مدينة دوين، وقتل عالماً لا يحصى. ومات ناصر الدولة بن طرخان الشيباني بحلب، وهو دمشقي. وقتل داعي الحلبية بحلب.

سنة عشرين وخمسمائة:

سنة قران . ودخل ابن تومرت بغداد في طلب التفقة، وقرأ على الغزالي أحد عشر مصنفاً، من جملتها الوسيط والبسيط، وتهافت الفلاسفة^(١).

سنة احدى وعشرين وخمسمائة:

دخل أتابك الشهيد الموصل، والخليفة يومئذ بمصر عبد المجيد الحافظ.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة:

دخل أتابك حلب. وملك ابن تومرت الجبل. وقتل اخواجا بهرام داعي النزارية بوادي التيم.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة:

قتل الوزير ابن المزدغاني وقتلت معه الاسماعيلية بدمشق^(٢). قران المريخ وقلب الأسد.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة:

خطب للسلطان محمود بآلُوت، مقر ملك الاسماعيلية. وقتل ابن البيمند صاحب أنطاكية، وكان الرصد بظاهر بغداد بالدار السلطانية.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة:

قُتل تاج الملوك بوري بقلعة دمشق، فأمر ولده شمس الملوك اسماعيل، وفيها قتل ناصر الدين ابن أوشر بن يوسف بن فيروز بميدان دمشق. وفك ابن تاج الملوك^(٣).

سنة ست وعشرين وخمسمائة:

دخل أتابك الموصل

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

نزل المسترشد الموصل حادي عشر رمضان ورحل عنها عاشر ذي القعدة .

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة:

مات ابن تومرت، وظهر عبد المؤمن. ومات أبو علي الحسن بن ابراهيم الفارقي شيخ ابن عصرون.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

مولد يوسف بن أيوب.

سنة ثلاثين وخمسة

وقعة المسترشد والسلطان مسعود، وأسر المسترشد ، وقتل، وخطب للراشد، وقتل سيف الدولة ديبس بن مزيد، وفيها جلس المقتفي سابع عشر ذي القعدة ، ووصل الراشد إلى الموصل مخلوعاً.

سنة إحدى وثلاثين وخمسة

صاف السلطان بُزابة، وكانت الكرة لبزابة. واستولى بنو الصوفي على رئاسة دمشق.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسة

مقتل الراشد.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسة

زلزلت حلب، وخرج ملك الروم إلى الشام. وخرج ضياء الدين جفري من دمشق. وقتل شهاب الدين بها، وولي جمال الدين بن تاج الملوك، وأخذت الروم بزاعا، وسبوا مقدار خمسة آلاف نفس، وجعلوها في خندق الأتارب، وكان يطعمونهم الباقي والحشيش، ورحل ملك الروم طالباً شيزر، ونزل في القرمينية.

وخرج سيف الدين سوار بن أيديكين من خيل في معسكر حلب، فخلص الأسرى جميعهم.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

استجار الزينبي بدار السلطان. ومات جمال الدين، وولي ولده. ومات شرف الاسلام اسماعيل بن أبي المعالي قاضي الممالك.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

مات قرا سنقر صاحب أزريجان، وفتح أتابك زنكي بعلبك، وآمن أهل قلعتها وغدر بهم، فصلب الجميع، فكانوا مقدار ثلاثمائة نفر، ونزل على دمشق بعشرين ألف نفر.

ومات ابن أفلح قاضي البيارستان فيلسوف عصره، وكسر سيف الدين سوار الفرنج بكبسة، وأخذ الكند اصطبيل قاطع الجسر الحديد بأنطاكية.

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

مات ايكليدي بن ابراهيم صاحب آمد، ورأس بالوزارة المؤيد بن نيسان، وجلس في الامارة بآمد هذه السنة محمود بن ايكليدي، شمس الملوك.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

وفاة ملك الروم بأذنة، قتله خنزير برّي في الصيد، وكان معه ولده منويل، فمضى على وجهه من أذنه بجماعة يسيرة إلى قسطنطينية في ثمانية أيام، وتملك بعد أبيه، ومات سيف الدين اكتدي.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

خالية.

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فتحت الرها خامس وعشرين جمادى الآخرة . ودخل زين الدين علي كوجك الموصل في العشرين من ذي القعدة . ومات تاشفين بن علي (ابن يوسف) بن تاشفين . ومات داود، وولي ولده فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا.

سنة أربعين وخمسمائة

كسرت الفرنج نور الدين محمود بن زنكي - رحمه الله - على بغراس^(٤).

سنة احدى وأربعين وخمسمائة

قتل أتابك الشهيد على قلعة جعبر، وملك ولده سيف الدين الموصل، ووزر له جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المعروف بالكرم والجود والصدقات، وملك نور الدين حلب.

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

خالية.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

نزل ملك الألمان على دمشق. وكسر نور الدين الفرنج على إنب، وقتل

الابرنس صاحب أنطاكية، وعمل قحف رأسه وضبيه بذهب وفضه، وبعثه إلى المستنجد. فلما نزل ملك الالمان على دمشق، وعاد غير مسرور، ركب قسيس لهم حماراً وجعل الانجيل قدامه، وفي يده صليب وخلفه قليل خيالة، والفرنج تزعم أنه يملك دمشق، فلما وصل بين القنوات اشترك في قتله رجالان من أمراء دمشق: ابن الدورسي، وابن حمار، وقتلوا جميع من كان معه.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

وفاة تاج الدولة قرواش بن شرف الدولة. ووفاة الحافظ، وخلافة الظافر، وتوفي سيف الدين غازي وملك أخوه قطب الدين مودود.

سنة خمس وأربعين وخمسمائة

سنة ست وأربعين وخمسمائة

خاليثان.

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

مقتل عباس ببغداد. ومات العبادي الواعظ، وتملك عبد المؤمن بالغرب على ولاية بني حماد. وكان الجراد بالموصل، ومكث سبع سنين بدمشق، وقحطت الجزيرة وديار بكر.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

مات حسام الدين ثمرتاش. وأخذت الفرنج عسقلان. وقتل الرئيس زين الدولة بن الصوفي بدمشق وأولاده. وفيها قتل عطاء صاحب بعلبك.

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

فتح محمود بن زنكي - رحمه الله - دمشق، ووقع الحريق ببغداد في دار الخليفة بصاعقة، وقتل الظافر، وولي الفائز، ووردت مراكب من صقلية نهبت تنيس. ومات مؤيد الدين بن الصوفي رئيس دمشق.

سنة خمسين وخمسمائة

اتفق محمد شاه السلطان، وزين الدين علي كوجك على حصار بغداد.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

خطب لسليمان شاه ببغداد، خامس عشر محرم. ومات ابن نيسان بآمد، وولي ولده أبو القاسم علي، جمال الدولة.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

قبض علي كوجك على سليمان شاه في دربند ابن القراملي، واجتمع هو ومحمد شاه ورجعوا إلى حصار بغداد، وضايقوها. وزلزلت حماه وشيزر. واستولت الغز على خوزستان، وأسروا السلطان سنجر، ومات في أيديهم^(٥) وأوقبضوا على محمد خان قرابة سنجر وكحلوه، وانقطعت خطبة سنجر. وفتح عبد المؤمن المهدية. وفيها مات الفائز وجلس العاضد.

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

مات ابن منير الشاعر وابن القيسراني، واستولت الغز على خراسان،

ونهبوا مرو، وسألوا عن ذخائر سنجر. ومات صدر الدين الخوجندي
رئيس أصفهان، وهو المشهور.

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

مات المقتفي، ثم غرقت بغداد، ووصل الماء إلى قبلة الجامع بالرحبة،
وتساقطت جميع العماير، وفار الماء من البلايع والآبار. وملك المستنجد
عند نزول الشمس أول الحمل^(٦).

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

هم ألدكز بحصار بغداد، فخاف الخليفة المستنجد، فأمر الوزير عون
الدين بن هبيرة أن يكتب إلى ملك الخزر بأن يخرج إلى بلاد اللان
وأذربيجان فهي اقطاعه، فخرج ملك الخزر إلى مدينة دوين المسماة
بأردبيل ففتحها عنوة، وقتل عالما من المسلمين، ورجع .

سنة ست وخمسين وخمسمائة

خالية.

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

استولى الضرغام على ديار مصر، وطرد شاور عن الوزارة إلى الشام،
ومات ذو النون صاحب ملطية، وياغي سيان صاحب سيواس.

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

استدعى الضرغام أمراء مصر، وأحضرهم ، ثم أمر أن يدخل إليه

واحد بعد واحد، وأوهمهم الخلع عليهم، وكان يضرب رقابهم أولاً فأولاً حتى قتل أربعين أميراً، ثم نهب دورهم، وهتك حريمهم.

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

توجه أسد الدين شيركوه إلى مصر مع شاور بعساكر الشام، والسلطان يومئذ الملك العادل، نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر رحمه الله، وهو من جملة أصحابه، فملكوا مصرًا وقتلوا الضرغام، ثم غدر شاور بأسد الدين شيركوه، وكاتب الفرنج ومناهم بكل أمر، فأتاه ملك الفرنج بخلق عظيم، فخرج أسد الدين شيركوه إلى بلبيس، فحاصرت الفرنج بها ستة أشهر، وقتل فيها سيف الدين بن بُزَّان مجاهد الدين، وفي هذه السنة كسرت الفرنج لمحمود بن زنكي على البقية بكبسه تحت حصن الأكراد، وقتل الأمير عزيز بن جندر، ثم نصر عليهم.

ومات جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني، وزير الموصل، المقدم ذكره، رحمه الله، وحمل تابوته إلى مكة كرمها الله وحماها، فدفن بها، وفيها مات ابن هبيرة عون الدين.

وفيها فتح نور الدين بانياس وحارم من الفرنج، وفيها كسر نور الدين الفرنج على حارم، وقتل وأسر مقدار عشرين ألف نفر، وأخذ البرنس وأكثر أبطالهم.

سنة ستين وخمسمائة

طلع أسد الدين شيركوه مرة ثانية إلى مصر، وكاد يفتحها، ورجع.

سنة إحدى وستين وخمسة

اتفق قران في برج الجدي بزحل والمشتري والمريخ.

وغيرت الاسماعيلية مذهبهم، وشربوا الخمر، وبطلوا الصلاة والصيام،
فلا رحم الله سنان، ولعنه الله.

سنة اثنتين وستين وخمسة

خرجت الفرنج، خذلهم الله إلى ديار مصر، فحاصروا القاهرة،
واضطروا إلى أسد الدين شيركوه أن ينجدهم، فكتبوا إليه ، ومنوه فطلع
إليهم بعساكر الشام، وطرد الفرنج عنهم، وقتل شاور ، وملك أسد
الدين شيركوه مصر، ومكث خمسة وخمسين يوماً وزيرها ومات ، ثم ملك
بعده السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله،
والخليفة يومئذ العاضد.

وفيها أحرق شاور مدينة مصر فرقاً من الفرنج أن يملكوها. وفيها
كسرت السودان بمصر وقتل أكثرهم، وخرج الباقي من القاهرة.

سنة ثلاث وستين وخمسة

حاصرت الفرنج دمياط في البر والبحر، وفيها خرج زين علي كوجك
من الموصل غضباً، فوصل إلى إربل ، فمكث بها، وظهر عليه مرض
بقي شهراً ومات.

سنة أربع وستين وخمسمائة

في شهر أيار كثرت الأرياح والأهوية ، والغيوم بإربل ، وظهر في خلال الغيم تنين عظيم أسود، فكان يقرب من الأرض، ثم يرتفع، ولم تدركه حقيقة النظر لعظم الغيوم والضباب، ولم تنزل الرياح تطرده إلى بحيرة أرمية من كورة أذربيجان، وهلك هناك.

سنة خمس وستين وخمسمائة

زلزلت حلب وبعليبك يوم الاثنين عاشر شوال وخربت، وهلك فيها عالم عظيم، وانشق جبل لبنان المطل على بعليبك شقاً عظيماً مسيرة أيام، وكانت هذه السنة كثيرة الزلازل بحيث كان في بعض الأوقات أن تجيء الزلزلة في اليوم واللييلة عشرين مرة، وحسب من مات بحلب تحت الردم، فزاد عن خمسين ألفاً ما بين صبي وشيخ وامرأة.

وفيها بطل الأذان بحبي على خير العمل من ديار مصر جميعها، من دمياط إلى أسوان.

سنة ست وستين وخمسمائة

وفيها ابتدى صلاح الدين يوسف بن أيوب ببناء سور القاهرة.

وفيها ظهر ملك الخزر فحاصر دوين فأخذها ، وقتل بها من المسلمين ثلاثين ألف نفرًا وزيادة ، وفيها توفي المستنجد، وجلس بعده الامام المستضيء.

سنة سبع وستين وخمسمائة

قطعت خطبة العاضد بمصر، وخطب للمستضيء من بني العباس، ومات العاضد آخر خلفاء المصريين، وانقضت دولتهم، واستولى صلاح الدين على القصور، واستخرج ذخائرهم ظاهرها وباطنها، وقبض أهله وسائر الفاطميين، وصلب من أهل مصر جماعة منهم قاضي القضاة العوريس، وشيرما الداعي، وعمارة الشاعر، والشريف الجليس، والقاضي ضياء الدين بن كامل، وكسفت الشمس كسوفاً كلياً. بحيث ظهرت الكواكب.

سنة ثمان وستين وخمسمائة

فتح شمس الدولة توران شاه بن أيوب ابريم من بلاد النوبة، وفتحت برقة وسنترية وجبل نفوسة بعساكر الشام، على يد قراقوش المظفري، ابن أخي صلاح الدين، وفتحت قفصه على يد ابراهيم سلاح دار. وفيه كانت وقعة الكلمان مع مليح بن لاون، وكسر الكلمان، ووقع وقتل، وأسر أكثر جيشه.

سنة تسع وستين وخمسمائة

مات نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين، ونور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وفتح شمس الدولة ابنه اليمن بعساكر الشام، وقبض على الخليفة بها، وهو يومئذ عبد النبي بن علي، ومات فخر الدين داود، وولي ولده نور الدين.

وفي هذه السنة ظهر بضیعة من بلد دمشق رجل يدعي النبوة، وضل جماعة به، فخرج إليهم العسكر، فلم يظفر به ولا بهم، وأرسل صلاح الدين رسولاً يناظره، وكان من جملة من خرج إليه ابنان للفقير ابن عبد الدمشقي، وتسحب إلى كفرند من بلد حلب، فقتله كمشتكين الخادم.

سنة سبعین وخمسةائة

خرج صلاح الدين يوسف بن أيوب، وملك دمشق، وأكثر الشام، وناق الكنز بالصعيد، فخرج إليه الملك العادل بن أيوب فقتله بمدينة من الصعيد تعرف بطود، ومن كان معه.

وفيها: خرجت مراكب من جزيرة صقلية حاصرت الاسكندرية، فظفر بهم المسلمون ولم ينج منهم إلا القليل.

وقتل ابن البصار، وفيها خرج أبو الفضل بن الخشاب رئيس حلب، وحاصر القلعة مستهل محرم، واجتمع إليه الحلبيون، ثم خذلوه وتفرقوا عنه، فأخذه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بالأمان، فقتله بالقلعة.

وفيها صلب عبد النبي بن علي بن مهدي، صاحب اليمن. وفيها ظهر المؤيد من خراسان إلى طبرستان، فخرّب جرجان وميشه والميزوان، ومدينة الملك ساوه، وأحرق هذه المدن، وقتل عالماً لا يحصى، ورجع عنها، وقتل ملك طبرستان ونهب خزائنه، وهو يومئذ بساوه، حسن بن رستم بن علي.

سنة إحدى وسبعين وخمسةائة

كسفت الشمس حتى ظهرت الكواكب، ونزل شمس الدولة من

اليمن إلى الشام بعد قتله لناشر بن بلال ، صاحب عدن، وأخرب أمير الحاج حصن أبي قبيس بمكة.

وفيها قفرت الاسماعيلية على صلاح الدين بن أيوب في حصار عزاز، ونجاه الله، وفيها كسر سيف الدين مودود، كسره صلاح الدين مرة ثانية ونهب عسكره .

وفيها خرج المؤيد من خراسان يريد أن يحاصر خوارزم، فوصل من المفازة إلى رأس حد خوارزم، وقد تفرقت العساكر في طلب الماء، فصادف عسكر خوارزم ، فأوقع بهم، وظفروا به فقتلوه، فكان في نحو من ثلاثمائة مملوك من مماليكه، وحمل رأسه على رمح، وطوف به في ولاية خوارزم.

وفيها مات نجم الدين بن حسام بن ايلغازي بن أرتق، وجلس ولده قطب الدين.

سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

مات كمال الدين بن الشهر زوري قاضي دمشق. ومات فيها الدكر أتابك السلطان. ومات السلطان طغرل بن مسعود. وقتلت الاسماعيلية شهاب الدين أبو صالح بن العجمي بحلب، بباب الجامع الشرقي، بعد صلاة الجمعة.

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

هبّت ريح شديدة في بلاد القفجق، ووصلت إلى سنجة وتغليس، وييلقان، ووصلت إلى همدان وأصفهان وإلى بلاد كوهستان، وأخربت البيوت الضعيفة ، وقتلت الغنم والبقر، ورئي في دهستان، رجل خزري

عليه زيهم، ولباسهم، وزعم أنه كان في بلده نهار أمس ، فحملته الريح المذكورة في ليلته، ورمته في دهستان، ولا يعلم ما كان ولا يدري، إلا أنه بالتقريب يكون نحواً من خمسة عشر يوماً.

سنة أربع وسبعين وخمسة

قران زحل والمريخ في السرطان. ومات المستضيء ، وبويع ولده الناصر، وكسرت الفرنج صلاح الدين على الرملة، وقتلوا عالماً من المسلمين، وأسرت الفقيه عيسى. ويوم كسوف الشمس ظهر رجل بضیعة من أعمال حلب، يقال لها كفرند ادعى النبوة، فقتلوه. وفيها قتل كمشتكين الخادم.

سنة خمس وسبعين وخمسة

فتح قصر يعقوب بالسيف ، وكسرت الفرنج، وقتل أكثرهم، وناق جلدك الشهابي واستولى على الواحات الداخلية، فأرسل إليه أبا الهيجاء - المعروف بالسمين - وقراقوش الخادم، فأخذاه سلماً.

سنة ست وسبعين وخمسة

مات شمس الدولة بن أيوب مستهل صفر بالاسكندرية، وقبر بها ، وبنيت قلعة القاهرة ، ومات الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود، رحمه الله، صاحب حلب، وتسلمها عز الدين مودود بن زنكي ابن آق سنقر.

وفيها ظهرت الغز وعليهم صاحبهم مالك بن دينار، فحاصر طبرستان، وخرب جرجان واسترabad، وأحرقها، وانهمزوا في البراري والقفار. وولدت امرأة غراب بمصر، هكذا نقل، والعهد على الناقل.

سنة سبع وسبعين وخمسمائة:

فيها تسلم عماد الدين قلعة حلب من أخيه عز الدين. وفيها مات الخطيب هاشم خطيب حلب، مصنف اللحن الخفي.

سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

نزل صلاح الدين الشام، وحمل تابوت شمس الدولة ، وقبره بدمشق، وعبر صلاح الدين الفرات إلى الجزيرة ، ففتح سروج والرها، وحران، والرقه، والبيرة، وسنجار، ونصيبين، وكاتب عز الدين صاحب الموصل، ولشاه أرمن ، فجمع العساكر، وقصد صلاح الدين ، فوصل إلى ماردين ، ومكث هناك شهوراً لا يقدم على صلاح الدين، ثم إنه اجتمع مع عز الدين بقلعة ماردين، وكان خائفاً منهم، ثم إن شاه أرمن وعز الدين صاحب الموصل ، وقطب الدين صاحب ماردين اختلفوا فيما بينهم وتفرقوا ، ورجع صلاح الدين إلى آمد ففتحها وأعطاه لنور الدين بن فخر الدين، وكان قد حاصر الموصل ، ولم يقدر عليها.

سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ملك صلاح الدين حلب، وقتل أخوه تاج الملوك، ونزل عماد الدين من قلعة حلب في العشرين من ربيع الأول، وتسلم عماد الدين سنجار، والخابور عوض حلب.

وفي هذه السنة مضى إلى الكرك فحاصره ، وفيها كتب للملك المظفر تقي الدين عهداً على مصر، وكتب عهداً لسيف الاسلام أخيه باليمن، واستدعى أخاه سيف الدين من مصر وأقطعه حلب.

وفي هذه السنة ، ظهر بقرية بمصر يقال لها أبو صير، بيت هرمس

الثاني، فتحه القاضي ابن الشهر زوري، وأخرج منه أشياء من جملتها: كباش، وقروود، وضافدع بأزهر، وقوارير دهنج، وأصنام نحاس وغلبهم السافي^(٧) على الباقي فلم يصلوا إليه.

سنة ثمانين وخمسة

فتح سيف الاسلام فتوحات باليمن.

وقع بين الكرد والترك، وقتل بينهم عالم عظيم، وكانت الغلبة للأتراك. وفيها مات الفقيه ابن عوف بالاسكندرية، مالكي فقيه عصره.

سنة إحدى وثمانين وخمسة

مات الفقيه علاء الدين الكاساني، إمام الحنفية بحلب.

سنة اثنتين وثمانين وخمسة

فيها عبر صلاح الدين الفرات، وحاصر الموصل وضايقها ولم يفتحها، وانتظم الصلح بينهم. ومات شاه أرمن. ومات قطب الدين صاحب ماردين. ومات نور الدين صاحب آمد، ابن فخر الدين، واختلفت ديار بكر والجزيرة، ووقع خلف كثير بين العالم: بين الترك والكرد، وبين الفرنج والروم، وبين الاسماعيلية والبنوية، وقتل بينهم عالم عظيم بالباب، والبارة من أعمال حلب، وقتل في هذه السنة من سائر أجناس الأمم ما لا يحصى.

وفيها فتح صلاح الدين ميافارقين، بعدما قتل عليها خلق عظيم. ومات كثير من الأمراء المشهورين مثل ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه، صاحب حمص، والرحبة، وتدمر. وقتلت الاسماعيلية ابن نيسان، ومات

محمود بن ايكليدي، وهو شمس الملوك صاحب آمد، لأن صلاح الدين أخذ آمد تسليماً، وسلمها إلى نور الدين، وأخرج صاحبها بجميع ماله، فمضى إلى سلطان الروم، ومعه وزيره ابن نيسان، فقتل ابن نيسان، ومات صاحبها شمس الملوك محمود بن ايكليدي بن ابراهيم.

وهذه السنة كان قد أرجف بها المنجمون من سائر الارض بأنه يكثر الهواء ويهلك أكثر الخلق ويكون طوفان هوائي، فلم يكن له صحة، بعد أن كان قد أخاف الناس سنة. وفيها تسلم صلاح الدين يوسف شهر زور، والبوازيج. وفيها نزل الملك العادل سيف الدين من قلعة حلب، وتسلمها الظاهر بن الملك الناصر صلاح الدين. وفيها توجه الملك العادل إلى مصر. وفيها مات سعد الدين بن معين الدين.

سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة

اتفق طالعها العقرب، وفيها خرج الملك الناصر صلاح الدين بعساكر المسلمين من ديار مصر وعساكر الشام والجزيرة، وديار بكر، والموصل، وكان زحل والمشتري في الميزان، ففتح مدينة طبرية عنوة يوم الخميس ثالث وعشرين ربيع الآخر على تل حطين، الكسرة المشهورة، وقتل من العالم مالا يحصى، وأسر السلطان الملك الناصر ملكهم الأعظم، وسائر ملوكهم، ومقدميهم، وأحصوا ذلك فكان زيادة على عشرين ألفاً ثم سار من بعد أخذهم وقتلهم إلى مدينة عكا فأخذها، وتسلمها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، ثم شرع فتسلم قيسارية، وحيفا، ويافا وأرسوف، وتبنين، وهونين، والناصر، واسكندرونة، وبيسان، والقلعة، وجميع تلك البلاد، ثم سار إلى مدينة صيدا فتسلمها.

ثم سار إلى مدينة بيت المقدس فحاصرها.

واستقر بين صلاح الدين وبين الفرنج الذين كانوا فيها على شراء

أرواحهم، بأن يزن الرجل عشرة دنانير مصرية، والغلام خمسة دنانير، وكذلك المرأة والطفل والجويرية دينارين، ومن لا يقدر على شراء روحه يؤخذ أسيراً، فحصى الذي لا يقدر على فكأك روحه، ولا اشتراه أحد من الفرنج خمس عشرة ألف نفر من رجل وامرأة وصبي وجويرية، فأخذوا جميعهم أسارى، وخلص في هذه البلاد التي فتحها صلاح الدين مما أحصى بالتقريب، فكان عشرة آلاف نفر ممن كان له في الأسر السنة والعشرة والعشرين، وكان الذي قبض من مفاداة الفرنج عن أنفسهم ثلاثمائة ألف دينار مصرية.

وفي هذه السنة توجه قراقوش المظفري إلى الغرب، واستولى على القيروان والتقاء ابن عبد المؤمن ظاهر مدينة تونس فكسره قراقوش يوم الجمعة سادس عشرين ربيع الأول، واستولى على البلاد، وخطب فيها لصلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم رجع ابن عبد المؤمن مفلولاً، فجمع أطرافه وجموعه، وحشد خلقاً، ورجع إلى قراقوش في هذه السنة وصاففه فكسره، وانفض عنه جيشه، ومضى قراقوش هارباً في البرية.

وفي هذه السنة قتل شمس الدين بن المقدم أمير الحاج الشامي على جبل عرفات قتله كماشتكين أمير الحج العراقي، والخليفة يومئذ الناصر لدين الله.

سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فيها خرج صلاح الدين يوسف بن أيوب وخرب مدينة أنطربطوس، وفتح جبلة، واللاذقية، وفي الشهر المذكور أيضاً فتح صهيون، وحصن بكاس، وقلعة السرمانية وحصن شغر، وبرزية عنوة، قتل فيه وسبى. وفي شهر رجب فتح دربساك، وبغراس.

وفي رمضان تسلم الكرك بعد حصاره أشد حصار ومقاتله، كان

بعض عسكر صلاح الدين محاصروه قبل ذلك بسنة ونصف. وفي شوال من هذه السنة تسلم صفد ، وفي شهر ذي الحجة تسلم قلعة كوكب بعد قتال شديد ، وفيها أطلق الملك الناصر الملك الذي كان أسره نوبة حطين سنة ثلاث وثمانين وخمسة ، وفيها صالح الابزنس صاحب أنطاكية على أن يطلق كل أسير من المسلمين في أنطاكية ، فكان عددهم ألف أسير، وفيها مات عيسى بن بلاشو.

سنة خمس وثمانين وخمسة

ظهرت الفرنج بالشام ، وجاءوا من بلادهم براً وبحراً ، فحاصروا عكا، وكان نزولهم عليها مستهل رجب والقمر يومئذ بالدلو، ثم سمع صلاح الدين ، فقصدهم بسائر العساكر الاسلامية، فخذقوا على أنفسهم، وكان المسلمون يقاتلونهم من عكا، والعساكر مع السلطان يقاتلونهم من براً من وراء خنادقهم.

ثم إنهم اجتمعوا يوم الأربعاء العشرين من شعبان، وخرجوا بكليتهم إلى المسلمين، والمسلمون يومئذ على غره، فوصلوا إلى خيمة صلاح الدين فقتلوا من كان حول السراق، ثم نهبوا سوق العسكر، وقتلوا من لحقوه ، وقتلوا في خيمة السلطان لأبي علي بن رواحة ، الشاعر المجيد الحموي، ومكبس السلطان، وظنوا أنهم قد ظفروا ، ثم عاد صلاح الدين والعساكر فكبروا عليهم تكبيرة واحدة، فنصرهم الله، فهزموهم فقتلوا منهم خلقاً لا يحصى فلما رجع صلاح الدين أمر أن تحصي القتلى، فكانوا أربعة آلاف وسبعمئة وستون نفراً، كلهم قتلى، ولم يفقد من المسلمين إلا القليل، وفيها تسلم السلطان الشوبك.

سنة ست وثمانين وخمسة

هذا والفرنج مقيمون على عكا يحاصرونها، وتقاتلوا براً وبحراً،

والسلطان كما ذكرنا من وراء خنادقهم يقاتلهم صباحاً ومساءً:

وفي هذه السنة تسلم شقيف أرنون، وكان الفرنج خذلهم الله قد نصبوا أبرجة الخشب والمناجيق والدبابات، ونقبوا سور عكا، وأشرف المسلمون على الهلاك، ثم نصرهم الله، فأحرقوا مناجيقهم ودباباتهم وأبراجهم الخشب، وذلك يوم السبت العشرين من ربيع الأول، ثم خرج المسلمون عقيب الحريق، وقتلوا منهم خلقاً، ونهبوا من مخيمهم ما قدروا عليه، وأخذت الشواني عليهم في البحر.

وفي هذه السنة طلع ملك الفرنج، وهو ملك الألمان على قسطنطينية، ثم على بلاد قليج أرسلان بن مسعود السلجوقي، فمنعهم ولده قطب الدين، وضرب معهم مصافاً فهزموه، وهجموا قونية ونهبوها وقتلوا منهم عالماً، حتى أنهم أخذوا النساء من الحمامات، ثم رحلوا عنها، فأهلك الله ملك الألمان في الطريق، وقام مقامه ولده، ووصلوا مدينة أنطاكية في جمادى الآخر، وكان الذي وصل إلى أنطاكية نحواً من مائة ألف انسان، ثم مضوا إلى عكا، وخرجوا لمحاربة السلطان صلاح الدين رحمه الله يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة، فهجموا خيم الملك العادل، ثم تراجع عليهم المسلمون من كل جانب فردوهم، وقد قتل منهم عالماً بحيث طبق تلك الأرض الدم والقتلى، فأمر السلطان صلاح الدين احصاءهم، فكانوا اثني عشر ألف قتيل، وكان عدد الذين خرجوا إلى القتال من الفرنج يومئذ اثنان وستون ألفاً.

ثم وصلت في هذه السنة جميع ملوك الفرنجة في البحر، بحيث توهم صلاح الدين شراً كثيراً لكثرة عدد الفرنج، فخرب طبرية، وقيسارية، وحيفا، ويافا، وصيدا، وجبيل، وأرسوف، وسائر بلاد الساحل على البحر، ما خلا عسقلان.

وذكر أن الفرنجية الذين اجتمعوا على حصار عكا في البر والبحر كانوا مائتي ألف وأربعين ألفاً، مع قلة خيلهم.

سنة سبع وثمانين وخمس مائة

أخذت السفينة التي أرسلها صلاح الدين ، وكان قد شحنها بالعدة والميرة والمال والرجال، فغرق المسلمون أنفسهم في البحر ورموها أنفة من الأسر، وهي كانت زيادة على ضعف عكا عما كانت في السنة المتقدمة من الذخيرة والرجال، وأكثروا عليهم القتال وهجمتها الفرنج يوم الخميس بعد وصولهم نصف البلد، وقتلوا منهم جماعة من الخيالة، ثم أعادوا عليهم القتال، ونصبوا عليهم المجانيق من كل جانب، وفتحت فيها مواضع عدة حتى خربت وصارت مثل الطريق، فغلبوا وطلبوا الأمان لأنفسهم، وأخذتها الأفرنج يوم الجمعة سابع وعشرين جمادى الآخرة تسليماً، ثم غدروا بهم وقتلوه ولم يسلم منهم إلا القليل، وقتل الفرنج للمسلمين يوم الثلاثاء سابع وعشرين رجب تغمدهم الله برحمته، وأسر بهاء الدين قراقوش، وسيف الدين المشطوب وابن باريك، وذكروا أن عدة من كان داخل مدينة عكا من المسلمين سوى من خرج منها في المراكب خمسة آلاف وسبعمائة، وما كان في الاسلام مدينة إلا وكان في عكا من أهلها جماعة، وكان سبب قوة الفرنج عليهم - خذلهم الله - أن جماعة من المسلمين خرجوا عليهم من عكا، من جملتهم رجل حلبي منجنيقي يقال له ابن الوشيثة عمل مناجيق وعرفهم الأسهل منها.

سنة ثمان وثمانين وخمس مائة

فيها مات الموفق خالد بن القيسراني الكاتب، وكان مجيداً في كتابته، ووزر لنور الدين ، وكان ناسخاً مجلداً، وبذلك توصل إلى نور الدين رحمه الله.

وفيهما قتل الملك الظاهر الفقيه أبا الفتح السهروردي المشهور، بعد فتاوى الفقهاء له بقتله، وأحرق خوفاً من أفاسده، فإنه كان عالماً، وقتل بعده بأيام تلميذه ، لأنه كان يوافقه في أقواله ودعاويه.

وفيهما مات قطب الدين بن العجمي بحلب، ومات المجد بن الخشاب. ومات ابن الحلي. ومات القاضي المؤتمن بن كاسبيويه وزير الملك الظاهر صاحب حلب ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. ومات جمال الدين أحمد بن فياض وزير الظاهر أيضاً.

وفيهما أخذ ابن لاون البرنس هو وابنه وزوجته وابنته بحيلة، وبقيت أنطاكية بلا صاحب .

وفيهما قصد الملك الظاهر صاحب حلب بلد صافيتا.

وفيهما رحل الملك المظفر تقي عمر بن شاهنشاه بن أيوب لتسليم ما شرقي الفرات من البلاد التي كانت مع مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك مضافة إلى ميفارقين فصارت معه: جبلة ، واللاذقية، والمعرة ، وسلمية، والرهاء، وحران ، وسميساط، والموزر، وشرط عليه الملك الناصر القيام بحفظ معاهدي تلك الخطة لاسيما صاحب آمد.

وفيهما وصل ملك الفرنسيين لنجدة الفرنج على عكا، واسمه فليب، ومعه من الأموال ما لا يوصف.

وفيهما وصل الخبر بملك الانكليتز، واسمه جبلرت إلى قبرس، واستولى عليها، وكان قد تقدمه إلى الجزيرة عدة مراكب وشواني، ونفذ يطلب من الفرنج من عكا نجدة، فنفذوا إليه جفري أخا الملك العتيق، فأدخل صاحب الجزيرة جماعة معه في الصلح فصالحه، وحمل إليه الهدايا والإقامة فأخذه بعد ذلك من مأمنه وغله وقيده، واستولى على الجزيرة، ثم وصل

بعد ذلك إلى عكا، وصحبته خمس وعشرين بطسه، كل واحدة تضاهي القلعة.

وفيها كان خرج سيف الدين المشطوب، واجتمع بالمركبس لسماع رسالته، وترددت الرسل بينهم بسبب عكا، وكانوا قد اشترطوا إعادة جميع البلاد في صلحهم، وإطلاق الأسارى، فبذل لهم السلطان عكا بما فيها، فلم يفعلوا، وسمح لهم بإعادة صليب الصليبوت.

وفيها تسلم الفرنج عكا، وكان المشطوب قد خرج إليهم، وبذل لهم عند تحقيقه أخذهم لعكا مائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير من المجهولين، ومائة من المعروفين، وصليب الصليبوت، وعشرة آلاف دينار للمركيس لعنه الله، وأربعة آلاف دينار لحجاب المركيس، وما فعلوا؛ وهم في ذلك، وإذا قد طلعت أعلام الفرنج على عكا، فجرى على السلطان ما لا يحكى، ونسب ذلك إلى غيبة الملك المظفر تقي الدين في ديار بكر، واشتغاله بأخلاق وغيرها.

وفيها غدر الانكليز - لعنه الله - بالأسارى المسلمين الذين كانوا بعكا، فأحضرهم في الحبال قبالة المسلمين، وحملوا عليهم حملة واحدة، فقتلوا اجميع قتلة واحدة، وذلك بعد أن كان قد تقرر مع السلطان - رحمه الله - فديتهم بأموال وأسارى غدر بهم، وكان ملعونا غداراً، وحمل السلطان عليهم بالعسكر حملة واحدة، وجرى في ذلك النهار من القتال ما لا يحكى، وتصرف السلطان بالمال الذي كان أعده للفداء، والأسارى أعادهم - بعد أن كان قد أعدهم في الصلح - أيضاً إلى البلاد.

وفيها رحل الفرنج إلى عسقلان ليعمروها، فلما رحلوا كان للملك الأفضل اليك، فوقع عليهم، ونال الغرض منهم وقتل جماعة، وساروا نزلوا على حيفا، ووصل الخبر إلى السلطان بذلك، وكان قد هلك من الفرنج أربعمائة فارس على عكا وحيفا.

وفيهما استشهد اياز الطويل، أفرس المسلمين والفرنج، كان مملوكا للسلطان، صلاح الدين رحمه الله.

وفيهما اجتمع الملك العادل بالانكليز بعد عدة مراسلات جرت بينهم، وكان الترجمان بينهما سير هنفري، وقال: تصالحونا وتردوا إلينا البلاد، فقال له الملك العادل: هذا لا يمكن والرماح ذون ذلك، فثار الانكليز وقام مغضباً كالجمل الهائج.

وفيهما أخذت أرسوف بعد مقاتلة عظيمة . وفيها سار السلطان إلى عسقلان ليخربها، فأحضر الجماعة وشاورهم في ذلك، فقال سليمان بن جندر: المصلحة أن تخرب للعجز عن حفظها، وكان السلطان بالرملة، والفرنج قد نزلوا يافا، وتمكنوا منها، فأوقف الملك العادل جماعة من الأمراء قريبا من يافا، وسار السلطان إلى عسقلان، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع شعبان من هذه السنة ، وعاد السلطان منها وأمر بخراب حصن الرملة ، وبينما ولد.

وفيهما وصل صاحب ملطية الملك معز الدين قيصر شاه ابن سلجوق ملتجئاً إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين من أبيه وأخيه ، فتلقيه الملك العادل، وأقاموا له بما يجب لمثله، وبقي مده وصاهر الملك العادل ليتقوى على أبيه وأخيه بنني أيوب.

وفيهما هدم حصن نظرون. وفيها كان قد تقرر زواج الملك العال على أخت الانكليز، وكان ذلك بعد رضاها، فلما اتفق السلطان الملك الناصر والملك العادل على ذلك، ولم يبق إلا العقد، اجتمع القسوس والمطارنة وأحرفوها عن ذلك، واعتذروا عنها بأن قالوا هي إنما وافقت بشرط الدخول في دينها.

وفيهما اجتمع الملك العادل بالانكلتيز مرة ثانية، وجرت بينهما محادثات ومطاولات ، وافترقا عن أتم صداقة.

وفيهما شرع السلطان - رحمه الله - في عمارة البيت المقدس، وأحضر الصنائع من الموصل وغيرها، وتولاها بنفسه الكريمة - رحمه الله - وكان يعمل كأحد الفعالة ، فأنشأ سوراً جديداً بالحجارة الكبار والعمد، وعمق الخنادق، وأنفق من الاموال ما لا يحصى، ابتغاء وجه الله، رضي الله عنه وأرضاه.

وفاة الملك المظفر تقي الدين رحمه الله

وفيهما توفي الملك المظفر تقي الدين ، المقدم ذكره، يوم الجمعة تاسع عشر رمضان على ملا زكرد، وكان محاصرها ، وهي من بلد أرمينية، وكان قد أخذ السويداء، وحاني من صاحبها، وأخاف أخلاط وغيرها من تلك الممالك، وكان موته قد كتبه ولده الملك المنصور محمد إلى حين خرج من ذلك الاقليم، بأتم حزم وسياسة، وبقي في بلاده، وجاءته رسالة السلطان صلاح الدين بإبقاء ماكان لأبيه عليه، فطلب من السلطان يمينا بعد عدة شروط ، فما أجابه، فخاف حينئذ الملك المنصور، فدخل في صلاح حاله الملك العادل، ووصل هو بنفسه إلى الرها، وأحضره إلى السلطان صلاح الدين ، وهو على عكا، فأحسن إليه السلطان، وأقبل عليه.

وترك تقي من الأولاد: الملك المنصور محمد، وأسد الدين ابراهيم، والملك الصالح محمود، والملك المعظم نجم الدين اسحق، والملك الفائز أسد الدين خضر، والملك القاهر شمس الدين عبد الرحيم، والملك الغالب فتح الدين. وفيها توفي حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، وهو ابن أخت السلطان صلاح الدين، وكان شجاعاً. وفيها توفي علم الدين سليمان بن جندر، من أكابر أمراء الدولة. وفيها قتل أتابك مظفر

الدين، قتله أرسلان بن ايلدكز في همذان ليلة الأحد مستهل شعبان، وكان قد تولى الملك بعد وفاة أخيه المعروف بالبهلولان، وكان السلطان طغرل السلجوقي تحت ولايته وحكمه، وهو ابن أخيه ، لأمه وأبيه اسم السلطنة، ولقزل حكمها.

وفيها توفي أبو الفتح الصفي بن القابض، كان عظيماً عند الملك الناصر ، ووجيها، ووزيراً، وأخاً، وغير ذلك، وفيها توفي الحكيم الموفق ابن المطران في ربيع الأول، وكان نصرانياً، وأسلم وحسن إسلامه ، كان طبيباً فاضلاً للملك الناصر صلاح الدين. وفي هذه السنة توفي الفقيه العالم الصالح الورع نجم الدين الخبوشاني بمصر، وهو الذي بنى على الشافعي - رحمه الله - المدرسة العظيمة، فشفع الملك العادل بعد موته لشيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية بأن يكون متوليها ، فكتب له بذلك، وذلك في أواخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ثم صرفه بعد ذلك السلطان من المدرسة ثم أعاده.

وفي هذه السنة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

كان السلطان مقيماً في القدس لتمام عمارتها. وفيها عزم الفرنج على عمارة عسقلان فما مكنوا.

وفيها خرج المشطوب علي بن أحمد من الاسر، بعد مشترى نفسه بخمسين ألف دينار، وفيها وصل إلى الملك الناصر صلاح الدين ، فتلقاه وأحسن إليه، وأعطاه نابلس، وعاش إلى آخر شوال من هذه السنة، ومات.

وفيها هلك المركيس بصور ، وذلك أنه أكل وشرب وطرب عند الأسقف فركب، قفز عليه اسماعيلي فضربه بسكين، فقال : احملوني إلى الكنيسة ، فلما حملوه إليها قفز عليه فيها شخص آخر فضربه بسكين،

فمסקوه أيضاً، فوجدوهما اسماعيلية مرتدين فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا ، فقالا: ملك الانكليتز، وذكر عنهما أن لهما مدة ستة أشهر ، وقد دخلا في تهرب وتنصر.

وفيها استولت الفرنج على قلعة الروم. وفيها نزل السلطان على يافا وحاصرها ، وأشرف على أخذها ، ودخل المسلمون إليها ، وسألوا السلطان الأمان، فأجابهم، فجاء الانكليتز إليهم في البحر ، وطلع إلى القلعة، وقويت شوكتهم، فعادوا عما كانوا عنه، وأخرجوا منها عنوة للمسلمين، وأسروا جماعة، ورحل السلطان عنها، ونزل على نظرون.

وفيها كانت الهدنة العامة مع الفرنج، وذلك باتفاق من المسلمين والفرنج، وفيها عزم السلطان على أشياء، وطلب الانكليتز من السلطان زيارة البيت المقدس، فاعتذر السلطان إليه، وفي ضمنها مرض مرضاً أشغله، فأقلع وسار بمن معه من الفرنج.

وفيها عزم السلطان على الحج، وكاتب البلاد بذلك ، فما زال الناس بالسلطان إلى أن أحرفوه عن الحج، خوفاً من غدة الفرنج، فولّى في القدس ورتبه، وسار من القدس ضحوة نهار الخميس خامس شوال، ولقي بهاء الدين قراقوش، وقد خرج من الأسر بطبرية. وفيها دخل إلى بيروت ، وجاءه يميند صاحب أنطاكية ، دخل عليه مستجيراً فأدخله عليه وأكرمه ، وخلع على من معه، وكتب مناصفات أنطاكية بعشرين ألف دينار، وفارقه.

ورحل السلطان قاصداً دمشق، فدخلها وكانت مدة غيبته عنها في الجهاد أربع سنين ، وخرجت السنة والسلطان على أتم عافية، ورسل الممالك من أصحابها يخطبونه ويرغبون إليه بأموالهم وبلادهم وأولادهم وأنفسهم.

وفي هذه السنة توفي سلطان الروم قلعج أرسلان بن السلطان مسعود ابن قلعج السلجوقي، وله عشرة من البنين، فولى كلا منهم اقليبا، فقوي كل منهم في ثغره، وكان الكبير منهم قطب الدين ملك شاه.

وتوفي فيها القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، وهو قاضي العسكر الصلاحي.

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة

والسلطان رحمه الله مقيم بدمشق في داره.

وفيها مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، قدس الله روحه في بكرة الأربعاء السابع والعشرين من شهر صفر، فلما تحقق العماد الكاتب الأصفهاني - وكان كاتبه - موته، أنشد ازتجالاً.

قلت لضوء الصبح لما بدا

ونوره منك - رحائر

مالك لا تسفر عن بهجة

فقال: مات الملك الناصر

خلف رحمه الله سبعة عشر ولداً، وابنة صغيرة، ولم يخلف في خزائنه سوى دينار واحد لا غير.

وكان ولي عهده بالشام ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده. والملك العزيز ولي مصر وأعمالها، وما أضيف إليها، واسمه عثمان فأحسن في مملكته أحسن من كل محسن في الممالك. والملك الأفضل دمشق وأعمالها والساحل وما يجري مع ذلك.

والملك الظاهر غازي حلب، وما يضاف إليها.

وفيها سار الملك العادل إلى بلاد الجزيرة بعد وفاة أخيه من خوفه عليها. وبقي سيف الاسلام على حاله باليمن.

وفيها كان ابتداء تفاهم أمر المماليك الصلاحية واتفاقهم وسعادتهم بالديار المصرية مع الملك العزيز.

وفيها كان الملك العادل قد نفذ إلى الملك الأفضل يطلب عسكرياً منه ومن إخوته ليفتح بلاد الجزيرة ، فجهز له الملك الأفضل العسكر، وكذلك سير إلى الملك العزيز فجهز له العسكر، وكان مقدمه الأمير فخر الدين جهاركس مملوك صلاح الدين فوصل إلى دمشق، والملك العادل قد فتح سروج، وأعاد عسكر الملك الأفضل إليه، فعاد جهاركس بمن معه إلى مصر بعدما تقرر معه ما يشافه به صاحبه.

وفي سنة تسعين وخمسة:

برز الملك العزيز الى البركة (٨) وسير إلى أخيه الملك الأفضل بأن يخطب له ويضرب السكة باسمه ، فما وافقه على ذلك، فجاء إلى دمشق وحاصرها ، وأخذها منه بعملة من أولاد أبي غالب الحمصي، لأنهم فتحوا باب شرقي، ولما تملكها سأل الملك العادل يازكوج أن يطلبها له من الملك العزيز، فطلبها له فأعطاه إياها لولده الملك المعظم عيسى. وكان مع يازكوج في الحجة بها جهاركس وسنقر الكبير وعز الدين سامة وسرا سنقر.

وفيها بعد عوده من دمشق جد في نقض الأهرام ورمى أحجارها في البحر إلى دمياط ليبني بها أبراجاً.

وفيها وصل الملك المعظم والملك الأشرف من قلعة جعبر إلى أبيهما العادل بدمشق.

وفيها نزل الفرنج على تبين وجرى عليها من الزحف والقتال وأخذ
النقوب مالا يوصف . ووصل الملك العزيز بعساكره واستنقذها منهم
عنوة وعاد إلى بلاده بعد أن كانت أشرفت على الأخذ.

وفيها سير الملك العزيز هدية إلى ابن سيف الإسلام.

وفيها كان ظهر بدمشق رجل ادعى النبوة وخيل للناس أشياء من
عمل السيمياء فقتل لثلا يفتن الناس.

سنة ثلاث وأربع وتسعين وخمسمائة:

خاليتان

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة:

كان الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمل الجسر على حماة خارج
بلده بالجانب الشرقي بالمدينة السفلى.

وفي أول سنة خمس وتسعين وخمسمائة:

جاء للملك المعظم ولد ذكر هو أول أولاده.

وفيها مات الملك العزيز بن الملك الناصر سلطان مصر، وكان سلطاناً
جواداً حليماً مليح الصورة حسن السيرة، وكان الملك الظافر خضر
المعروف بالمشمر عنده بمصر، فاجتمع الأمراء وأقاموه في البلاد سلطاناً
إلى حين وصل أخوه الملك الأفضل من صرخد ، لأنه أقام بها وبأهله
وعيال صلاح الدين حين أخذ (العزيز) دمشق منه فسيروا أحضره

إليهم، وجرى ما جرى عند وصوله، من كونه لم ينزل عند فخر الدين جهاركس أولاً ، ونزل في خيمة أخيه الملك المؤيد وأكل، ثم منها انتقل إلى خيمة جهاركس. فما طاب لجهاركس ذلك وخشي من عملة عليه مع المماليك الأسدية مثل ياز كوج وجماعته من الأمراء الأسدية. فاتفق جهاركس وزين الدين قراجا على مفارقة ديار مصر، فسارا عنها وتبعهما سرا سنقر . وهذا سبب تفرقة الصلاحية أولاً وتسحبوا واحداً بعد واحد إلى الشام.

هذا والملك العادل على ماردين يحاصرها، وكان اجتماع الأمراء عند نزولهم من مصر في القدس المحروس، فسيروا إليه واستدعوه، حتى إن قراجا وسرا سنقر توجهوا إليه، فرتب ولده الملك الكامل محمد (٩) والأمراء عنده، ومن جعلتهم عماد الدين بن المشطوب ، وتوجه إلى دمشق بعد ذلك ، وكان أهل ماردين قد استنجدوا بأتابك نور الدين صاحب الموصل، فلما رحل الملك العادل جاء إليهم ونجدهم، فرحل الملك الكامل عنها عنوة . ووصل إلى حران بعد أن كان تسحب إلى آمد بد : معه من العسكر.

وفيهما وصل الملك الأفضل من الديار المصرية بعد تملكه إياها بيويبات، ونزل على دمشق ، وضرب خيمته في الميدان، وذلك في رابع عشر شعبان ، واستمر الحصار، فسير الملك العادل طلب ولده الملك الكامل فجمع العساكر، وأنفق الأموال، وتوجه قاصداً أباه، ووصل الخبر إلى الملك الأفضل والملك الظاهر، لأنه كان قد اتفق معه وجاء إليه من حلب، فاتفق رأيهما على الرحيل عن دمشق، وسار الملك الظاهر إلى بلاده ، والملك الأفضل عاد هارباً إلى ديار مصر بعد أشياء جرت وأمور تجددت ليس هذا المختصر موضع شرحها لما شرطنا من اختصاره.

وكان الحصار عليها. والملك العادل يقوي نفسه ويخبز البقسماط ويعمل القرب والروايا ويقول: «لا بد لي من ديار مصر» . والناس

يعجبون من قوله وفعله ، فقدّر الله ما قدره من هروب الملك الأفضل ، وساق الملك العادل خلفه ، وجمع بينهما السائح ، وجرى من القتال ما لا جرى في الإسلام ، وكسر الأفضل وساق الملك العادل خلفه إلى القاهرة ، وبقي الملك العادل عليها ثمانية أيام ، وصالح الملك الأفضل وعين له ما يعوضه وحلف له ، وملك الملك العادل الديار المصرية . وكان قد حلف للملك الأفضل على ميفارقين ، ورأس عين الخابور ، وسميساط ، وحاني ، وجبل جور.

سنة ست وتسعين وخمسةائة:

فيها تقرر أن الملك المنصور بن الملك العزيز عثمان يكون هو السلطان والملك العادل على ذلك وسلطنه وحملت الغاشية له كما جرت العادة ، ثم بعد ذلك عاد الملك العادل سير رسله إلى البلاد واستحلف الناس لنفسه ، وضرب الخطبة والسكة باسمه ، فما اختلف عليه أحد وأجابه الناس كلهم رغبة في دينه وتدييره واسمه وحزامته.

وفيها أحضر الملك العادل ابنه الملك الكامل إلى الديار المصرية ورتبه فيها وجعله ولي عهده وحلف الناس له.

وفيها حاصر جهاركس بانياس وأخذها من حسام الدين بشارة.

وفيها حلف ابن المشطوب وجهاركس وقراجا وميمون القصري على أن يولوا الملك الأفضل ، ووصل عز الدين سامة من الحج فأطلع الملك الأفضل على ما جرى من المذكورين وثوقا منه ، فأظهر له سروراً وفرحاً وحمد الله على ذلك ، وفارقه وكاتب الملك العادل به إلى الديار المصرية ، ثم ما كفاه ذلك حتى سار بنفسه إلى ديار مصر عرفه ما جرى شفاهاً.

ودخلت سنة سبع وتسعين وخمسة:

والحالة هكذا.

وفيهما قصر النيل في طلوعه إلى الغاية فغلت الغلة بمصر إلى أن أبيع إردب القمح بخمسة دنانير وأكل الناس بعضهم بعضاً، بحيث كانت المرأة تأكل ولدها بسائر الألوان ، وخلت مصر والقاهرة من أكثر أهلها ، بحيث إن الناس يموتون وماله من يدفنهم ، فيبقون على حالهم شهوراً.

وفي أوائل هذه السنة جلبت الغلال في البحر من الشام والساحل، ووقع الفناء أيضاً فانقرض الناس فناء وجوعاً.

وفيهما ندم الملك العادل على كونه مكن جهاركس من أخذ بانياس وتبين والملك المعظم، فاطلع جهاركس على ذلك، فاجتمع هو وألطنبا الجحاف، وفارس الدين ميمون القصري ، وعلاء الدين شقير، وزين الدين قراجا، وسيروا إلى الملك الأفضل وإلى الملك الظاهر، وحثوهم على الحركة ، ليملكوا دمشق للملك الأفضل . وكان إذ ذاك الملك العادل بالديار المصرية ، وشرع سامية يكاتبهم، ويظهر لهم أنه معهم، وكان كذاباً في ذلك. فتجهز الملك الأفضل وأخوه الملك الظاهر ، وخرجا من حلب بالعساكر ، ووصلا إلى حماة ، وحاصراها في رمضان وقتلها قتلاً عظيماً وما حصلا على طائل منها لشهامة صاحبها وحماية أهلها، واتفق الحال بعد الإياس منها على أن يحمل الملك المنصور محمد صاحبها ثلاثين ألف دينار، وإن أخذوا دمشق كان في خدمتهما، فقبلا ذلك منه، ورحلا قاصدين دمشق، فجدا تارة وقصراً تارة إلى أن وصلها بعد أن كانا عزمًا على العود عنها غير مرة، فجدا على قصدها ووصلها ونازلاها وحاصراها مدة، ولم ينالا منها غرضاً ، وذلك لسوء نياتها وحسد بعضهما بعضاً ، وغدر المماليك الصلاحية بهما لما سمعوا من الملك الظاهر ، وكان

خيمهم ، ورجعوا عن غرضهم ، ثم جاءت رسل السلطان الملك العادل باطناً إلى الملك الأفضل بما كان عين له، وهو رأس عين الخابور ، وجملين والموزر ، وسميساط ، وميافارقين، وحاني، وذو القرنين، ويحمل إليه في كل سنة من مصر قماشاً بخمسين ألف دينار، وخمسين ألف دينار عينا ذهباً ، وحلف له سراً ، ولم يعلم الملك الظاهر ، ونقل الملك الأفضل بيته وعياله ووالدته إلى حمص .

وكان الملك الظاهر قد أخذ من التجار مائة ألف دينار وزيادة من القماش وفرقه على العسكر ، ويكتب لهم خطه ، ويستوفونه من حلب. وكان الملك الظاهر قد اتفق مع الجماعة على استدعاء عز الدين سامة إليهم إلى المخيم ، فلما خرج عاتبوه وقالوا له كل قول فما أفاد معه. وعاد من عندهم بعد أن قال للملك الظاهر: « أنت غدار مالك قول ولا يثق بك أحد أبداً » . ودخل (دمشق) وعرف الملك المعظم ما جرى ، وكتب إلى الملك العادل بذلك. واتفق أن الجحاف عمل دعوة للملك الظاهر ولجماعة الأمراء ، فسكر الظاهر وطرب وغطى على عقله الشراب ، بحيث إنه رمى سنورا على الجحاف وأنشده:

ستعلم ليلي أي دين تديننت.....

ففهم شقير والجحاف ذلك، فأسراه في أنفسهما وتوهما بأنه قد تحقق صورة الحال مع السلطان الملك العادل فهربا في ليلتهما ، ودخلا دمشق ، ومعهما ياقوت العزبي . فلما بلغ الملك الظاهر ، ركب هو ومن عنده عازمين على الرحيل من دمشق، وركب جميع العسكر ، وساق الناس على حمية ، وطلعت شمس نهار تلك الليلة وهو الاثنين من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة. وساق الملك الظاهر بمن معه . وفي الطريق أقطع ابن المشطوب منبج وقلعة نجم ، ولسرا سنقر بهسنا ، وكان ذلك بواسطة ميمون القصري. وكان قبل ذلك قد أعطى قلعه نجم للملك. الأفضل، فسير ابن المشطوب يتسلم قلعة نجم، فما سلموها إليه وساروا

ودخلوا في السوق. فدخل الملك الأفضل إلى حمص والملك الظاهر ساق بمن معه . وكان فراق الملك الأفضل لأخيه الملك الظاهر من مجمع المروج. ثم نزل الملك الظاهر على حماة فقاتلهم بعض الجماعة ، فسير إليه الملك المنصور وعاتبه على غدره بيمينه له، فاعتذر الظاهر عن ذلك وكف أصحابه ، وسار إلى بلده بعد أن كان الملك الظاهر قد ركب في عسكره وجرح في رجله اليسرى . ولما وصل إلى حلب طالبه ابن المشطوب بوعده له بمنبج، وحصارها وأخذها له، وكان قد جاء إلى منبج الملك الفائز بن العادل وابن الجراحى فأخذها في غيبة الظاهر، وكانت إذ ذاك لابن المقدم عز الدين، ورثها لأخيه شمس الدين عبد الملك ، لأنها وقعت إليهم في مقايضتهم لصاحب حماة، ابن تقي الدين ببارين وكانت بارين لهم وكفر طاب وفامية - وقد ذكرنا ذلك مطولا في المطول - فمغلطه عنها إلى وقت ثم وفى له بها ، فأخذها ابن المشطوب وفي يده خرب قلعتها.

وفيهما وصل الملك المؤيد والملك المعز ولدا صلاح الدين من حبس الكرك ، لأن الملك العادل كان حبسهما ، فلما أخذ دمشق وأمن عليها أطلقهما من الحبس.

وفيهما وصل السلطان الملك العادل قاصداً حماة ومتوجهاً إلى حلب، فنزل حماة، وصارت المراسلات بينه وبين الملك الظاهر إلى أن وقع الصلح بينهما.

وفيهما أخرج القاضي نجم الدين عبد الرحمن بن أبي عصرون من حماة - وكان قاضيهما وزيرها يومئذ - إلى حلب بعد أخذ عدة دراهم منه وحبسه مدة فأخرج بشفاعة دلدرم بن ياروق، صاحب تل باشو، وذلك لبغضة السلطان الملك العادل له.

وفيها: حدث على القاضي محيي الدين بن الزكي ، قاضي دمشق ، من الخلط ما شوش عقله وغيره، وكان عالماً فاضلاً فقيهاً كاملاً ، ذا عقل ورزانة ، وورع وديانة ، وكان خرج راكباً ، فوقع عن دابته فمات رحمه الله.

وفيها أحضر السلطان الملك العادل ولده الملك الأشرف موسى من القدس ، لأنه كان به مقامه ، وكذلك الملك المعظم ، وهذا بعد عوده من حماة ، وقد عاد إلى حمص . فقرر الملك الأشرف بحران والرها، ويكون مقيماً في الجزيرة وعساكرها في خدمته ، أسوة بأخيه الملك الأوحده كان مقيماً بميفارقين وديار بكر ، وعين الملك المعظم بدمشق ، والملك الكامل بالديار المصرية ، كما قدمنا ، وهو يتردد إلى الممالك بنفسه.

وفيها : حلف الملك الظاهر للملك العادل أن لا يستخدم ابن المشطوب وقطع خبزه ، فوصل إلى عند السلطان فما استخدمه، بل أذن للملك الأوحده أن يستخدمه ، فما اتفق بينهما ، فاستخدمه الملك الأشرف وأحسن إليه.

وفيها : جاءت الزلزلة العظيمة التي أخرجت الساحل وأكثر بلاد الفرنج . وأشرف الفرنج على أخذ طرابلس بحيث إنهم عبوا قماشهم في المراكب للهرب من المسلمين ، فما أقدم المسلمون عليهم.

ودخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة:

فيها : طلع النيل دون كفاية البلاد، وزرع الزرع ، وانحطت الأسعار ، وصار يزداد السعر وينقص إلى سنة تسع وتسعين وخمسمائة طلع النيل ورويت البلاد وزرعوا وتباشروا الناس بها.

وفي سنة ثمان وتسعين أخرج سيف الإسلام ولده الملك المعز اسماعيل من اليمن خرجة ثانية بعدما كان أخرجه إلى الشام وعاد منه إليه . وذلك

كله خوفاً على نفسه منه، فسار فاتصل بالسريرين من بلاد اليمن، وهي آخر اليمن وأول الحجاز ، فأقام بها أياماً وتوفي سيف الاسلام . فسير جمال الدولة كافور خادم أبيه ياقوت العجمي ، وياقوت الجمالي، ومحمود السيرواني ، والأسعد بن الحارس ، (فساروا) إلى الملك المعز عرفوه بموت أبيه واستدعوه إلى زبيد، فحضر معهم ، وسلموها إليه، وأقام بها أياماً وسلموا إليه جميع القلاع. ثم توجه منها إلى قلعة تعز ، فأقام بها مدة، ثم توجه إلى الدملوة ، فأقام بها شهرين، ثم طلع إلى حب^(١١) ، فأقام بها، ثم توجه إلى الحج وأبين ، فأقام بها أياماً، ثم توجه إلى عدن ، فأقام بها ستة أشهر ، ثم توجه إلى صنعاء . فلقية الشريف عبد الله بن عبد الله الحسني ، فصاففه تحت حب ، فكسر الشريف المذكور ، وتوجه إلى صنعاء ، فلقية ممالك أبيه ، عدتهم ثمانمائة مملوك، فاعتصموا بصنعاء وقتلوه، فكسروهم ، وأخذ صنعاء ، وأقام بها أربعة أشهر ، ثم نزل إلى تعز ، فأقام بها أربعين يوماً، ثم إلى زبيد، فأقام بها أياماً . ثم استحلّف الناس ، وفصل له الثياب الخضر ، والعمائم الخضر المذهبة ، واستسلم من كان في بلاده من النصاري واليهود ، وخطب له بالخلافة في زبيد ، وادعى أنه من الأمويين ، فأول خطبة خطب الملك المعز المذكور في داره المعروفة بعبد النبي بن مهدي . ثم سير إلى البلاد ، وأمرهم أن يخطبوا له على المنابر بأمر المؤمنين ، وأبطل الخطبة لبني العباس . ولم يزل هو يخطب بنفسه مدة حياته ، وذلك في تعز ، وفي الدملوة، وفي كل موضع له حصن ، وكان قد أقام سلطاناً من غير دعوى خلافة سنة كاملة ، وبقي خليفة إلى أن مات أربع سنين، وكانت مدة ولايته خمس سنين وشهيرات.

ثم تجهز طالبا مكة المحروسة ، وجهز ياقوت الجمالي، والمجاهد الجمالي، وسنقر العزي إلى مكة بأن تعمل له دار ، ويقام له إقامة ليكسو البيت ، فلما تحقق الشريف أبو عزيز قتادة ذلك أمر غلمانهم أن ينهبوا جميع من كان من أصحاب الملك المعز وأسروهم، فسمع الملك المعز

ذلك فشق عليه، وتجهز طالبا مكة إلى أن وصل إلى المهجم تقاعد عنه جماعة من أصحابه وخذلته ، فتعكس وتشوش ، فعاد إلى اليمن إلى بلد يقال له الكدراء من أعمال زييد ، فأقام بها خمسة أيام ، ثم استدعى مملوكا يقال له سيف الدين سنقر واستحضره عنده في الدار بمحضر من جماعة ، فسقاه الخمر بعد أن تركها مدة زمانية وقال له :

« ياسنقر، قد كبر جوفك وسمنت» ودعا بمعتوق الزراق الحلبي وقال له : « يامعتوق ، طيب لي قارورة نفطا» فأحضرها بين يديه، وقال له: «قم ياسنقر!» وأمر معتوق أن يضربه بها ، فقام إليه مملوك يقال له أبو شامة كبير من مماليك أبيه ، كان له صنعاء في حياة والده ، واستوهبه منه فوهبه له ، ثم قعدوا على شراهم ساعة، ثم دعا بسنقر مرة ثانية وجذب عليه سكيننا وقال له: « أريد أشق مصارينك ! » فقال له : «ياأمير المؤمنين ، أنا مملوكك » فعاتبه ساعة، ثم قام سنقر من بين يديه بعد أن قبلها، وقعد في مكانه ساعة ، ثم خرج ، فقال له الملك المعز : «إلى أين ؟» فقال : « في حاجة ياأمير المؤمنين (إلى) البرية أقضيها وأعود » فقال له : « دع رهنك على العود ، كما جرت عادة من يشرب مع الندماء » فترك منديله وخرج إلى خيمته لقي جماعة من المماليك فقال لهم: « قد قتلت الخليفة! » وكان ليلاً فركبوا في خمسمائة مملوك ، ثم دخلوا إلى الكدراء ونهبوها، وأخذوا خزانتها ، فبلغ ذلك الملك المعز ، وهو على شرايه ، فبطل الشراب وتجهز في ليلته هاربا إلى زييد ، ثم قصد سنقر موضعا يقال له المهجم ، فنهبه وأحرقه وأخذ خزانة فيه، ثم توجه إلى المحاليب فأحرقها وأخذ خزانتها ، ثم صعد إلى الشريف عبد الله بن عبد الله في بلاده منتصراً به، فأقام عنده خمسة أيام ، فتجهز الملك المعز خلفه، فنفذ إليه هذا سيف الدين سنقر المذكور وقال له : « بالله عليك ياأمير المؤمنين ، لا تخرج ، فإن العسكر منافق عليك » فوصله الكتاب وهو راكب ، فقال : « يهددني هذا الفاعل الصانع!» وساق من وقته بجيشه إلى أن خرج إلى موضع يقال له الجنابذ^(٤) ، وهي أرض يقال لها

عجى ، فتحالف العسكر عليه، وتشاوروا على قتله ، وهم كبار الأكراد مثل : شمس الدين الدقيق، وجمال الدين ابن أخيه، وابن أخته ، وابن بركات، وهندو، وروبك أخوه، وسيف الدين نجد أمير آخور ، وباخل ، ومن الأتراك : شمس الدين القرابلي. فحمل عليه هندو وروبك أخوه . فلما قربا إليه بالحملة قال لهما: « لاتفعلا وأغنكما » فجفلت به البغلة في مثل ذلك الوقت من الرماح فرمته ، فبقي متخبطا في ثيابه وأكمامه ، وذلك أن ثياب الخليفة كانت عليه ، طول أكمامها كل كم خمسة وعشرون شبرا ، وسع الكم ستة أشبار ، فسبقه شمس الدين الدقيق والقرابلي ، وابن بركات ، وهو يخط في ثيابه فقتلوه وأخذ ابن بركات فقطع رأسه ، وحمله على رمح ، وأعطاه للداعي الذي كان بين يديه . فأقاموا في المدينة ثلاثة أيام يدورون برأسه في البلد.

ثم نهبت زبيد سبعة أيام نهباً شنيعاً ، ثم اختلفت الأكراد لعدم مقدم عليهم . هذا وسيف الدين سنقر لم يعلم بذلك ، فاتصلت به الأخبار ، وعند اختلاف الأكراد ، نفذوا إلى سنقر إلى صعدة باخل الكردي الحميدي ، فطلبوه لتمليكه ، فحضر إلى زبيد ، ودخلوا به إلى دار إلى الرباع بباب شحاد ، ونزل في دار يوسف العروي ، ثم تقدم شمس الدين القرابلي من الأتراك وابن الدقيق من الأكراد وسلطنوا سنقر ، وحملوا الغاشية بين يديه ، وأدخلوه راكباً إلى دار ابن سيف الاسلام . فأقام بزبيد ثلاثة أيام . وأمر جماعة منهم . ثم عاد إلى تعز ، وأقام بها أربع سنين . فكتب كتاباً إلى زبيد يطلب من الأكراد المقيمين بها مائة ألف دينار ، وكان عند سلطنته قد قنع منهم بالاسم لا غير؛ وترك لهم البلد وقال : « أقنع بتعز لاغير » فخادعهم إلى أن قوي وجيش وتمسك بجماعة عاهدتهم ، ونفذ يطلب المال ، فأحضروا خمسة أحمال صناديق وعملوا فيها اللوالك^(١٥) المقطعة والخفاف والجلود المقطعة وأسنه مكسرة ومسامير وحديد مكسر ، وختموها وسيروها إليه. فلما رآها شق عليه ذلك ، ونفذ في الوقت والحال يعلمهم وصوله إليهم قبالة هديتهم ،

فخرج في ليلته قاصداً زبيد. فلما سمع الأكراد خروجه ، خرجوا إلى ضيعة يقال لها المعزية كان بناها الملك المعز بن سيف الإسلام ، وسماها القاهرة المعزية ، وهي ضيعة كبيرة جيدة كثيرة الخيرات ، فوصل سيف الدين سنقر إليها ، فلما قرب منها انهزم الأكراد ونزلوا في ضيعة يقال لها الزربية ، فأقاموا بها خمسة أيام ، ورحلوا منها إلى زبيد ، ورحل سنقر طال بهم إلى زبيد، فنزل وخيم عليها ، وقفلوا أبوابها . وكان قد ذكر لأصحابه أنه « إذا أخذناها بالسيف انهبوها » فخرج الأكراد وقاتلوه يومين ، فما منهم يوم إلا ويخسرون فيه، فلما كان اليوم الثالث ركب سنقر بجماعته . وزحف إلى باب يقال له باب القرتب فوقعت إحدى البواشير، فقفز سيف الدين سنقر هو وبدر الدين ابن تيمرك ، فقال سنقر عند ذلك : « الحمد لله رب العالمين » وهو واقف في وسط الثلثة ، وقال للعسكر : « يا أصحابنا كنا قد أمرنا أنكم إذا أخذتم هذه المدينة بالسيف انهبوها ، وقد عمل الله لنا مالا كان في حسابنا من هدم هذه الثلثة . فأنا أشتري منكم نهبها بمائة ألف دينار » فأبوا إلا نهبها، فزادهم خمسين ألف دينار وحلفهم بالطلاق أنه إن سمع أنهم تعرضوا لنهب أو غيره من أذية البلد آذاهم . ثم دخل مدينة زبيد وأقام بها، فخرجت الأكراد من باب ولا فقه ، ثم قصدوا ضيعة يقال لها الحصبي ، فنزلوا عند رجل يقال له علي الكناني ، وهو من غفراء البحر، فأضافهم وأحسن ضيافتهم ، فطلبوا منه نبيذاً يشربونه، فأحضر لهم نبيذ النخل، وهو يقال له الفضح، فشربوا منه وسكروا ورقدوا فقام مضيفهم علي الكناني وأخذ خيولهم وربط غلمانهم ، وأخذ ما كان معهم من المال ، وكتف الأكراد إلى أن أصبح الصباح واجتمع قومه بنو كنانة وساروا بهم على الإبل في المحائر إلى أن وصلوا بهم إلى زبيد ، فشنع سنقر علي الكناني وأخاه محمداً ، وقال لهم : « قبحكم الله ، غدرتم بضيوفكم » . ثم أخذ جماعة الأكراد ورماهم الحبس ، واستدعى بهم في اليوم الثالث إلى القصر ، فنصب لسيف الدين سنقر شبرمة ، وهي قاعدة من خيزران مثل السرير.

واستحضر ولد سيف الإسلام يقال له الملك الناصر ، كان صغير السن ، واستدعى الدقيق فضرب رقبتة ، ثم من بعده علم الدين ابن أخيه ، ثم من بعده لهندو ، ثم بعده روبك ، ثم بعده عيسى بن أجول الزرزاري وسبعة من إخوته ، ثم بعده النظام بن عيسى الجزري وجماعة ، فكانت القتل في ذلك النهار سبعمائة بالضبط . وعفا عن القرابي وأولاده وعن باخل وعن ابن بركات ، ثم قعد في مملكته وفعل من العدل وحسن السيرة ما لا رآه أهل اليمن ولا رعية ، وسلطن الملك الناصر ، وصار هو أتابكه ، وخطب للملك الناصر في بلاد اليمن ، ثم بقي في السلطنة (والأتابكية) أربع سنين إلى أن توفي بتعز فجأة ، وذلك أنه كان ليلة موته قد أكل لحم فرس ولحم بقر ، وشرب عليه شراباً مطبوخاً ، فغسل ودفن في جامع تعز ، وخلف ولداً أخرس وولداً آخر من أم الملك الناصر ، لأنها كانت زوجته ، ثم تزوج إبراهيم غازي بن جبرائيل أم الملك الناصر بعد وفاة سيف الدين سنقر ، وصار أتابكاً أيضاً للملك الناصر . وبقي الملك الناصر مدة ، ثم توفي في الجند وحمل إلى تعز فدفن فيها . وكان سبب موته أن غازي بن جبرائيل سمه بكوز فقاع ، فبقي غازي صاحب البلاد مدة يسيرة وقتل في حب ، قتلتة حمير وخولان وبنو عبد الوهاب ، ورموا برأسه من قلعة حب ، وسبب ذلك اتهامهم له بقتل الملك الناصر فبقيت البلاد بلا صاحب إلا الخواتين لاغير . فجاء الشريف عبد الله بن عبد الله بخلق كثير وملك زبيد مدة يسيرة ، ثم سمع بركب الحجاز ووصوله فقال في نفسه : « لا يخلو هذا الركب من أحد من بني أيوب » فخاف على نفسه وعاد إلى بلاده . ووصل ركب الحجاز إلى زبيد ، فنزل المهتار كدكل العزيزي من عند أم الملك الناصر يتفقد الركب الحجازي ، فلقي سليمان شاه بن سعد الدين بن الملك المظفر تقي الدين بن شاهان شاه بن أيوب ، وكتب كتاباً إلى أم الملك الناصر يخبرها بخبره وقال : « هذا من بني أيوب وهو حسن الشباب » فأحضرتة وخلعت عليه وتزوجت به وسلطن وملك البلاد ، وملاها فسقاً

وجوراً وفجوراً ، وأخذ نساء الناس وما شكر ما أنعم الله عليه به ، فإنه كان فقيراً لا يملك درهما ، بحيث حج ماشياً مع الفقراء يكسبون ويطعمونه ، فلما بغى سلبه الله ما كان خوله . بعد أن وصلت مكتوباته إلى السلطان الملك العادل وإلى عمه الملك المنصور صاحب حماة جهز الملك الكامل ولده الملك المسعود إليه ، وأخذ البلاد منه عنوة . وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في تاريخنا الكبير المرسوم (بالبيان في حوادث الزمان) وإنما ذكرنا هذه اللمعة لسياقة الحديث والله أعلم . -

ودخلت سنة تسع وتسعين وخمسة:

والملك الأشرف قد تجهز لقصد ماردين ، واستخدم ابن المشطوب ، وسير إلى الملك الأفضل يحضره من سميساط إلى البيكار عنده ، ووردت الأخبار بأنهم قد تأهبوا في ماردين للحصار واللقاء ، ووصل الملك الأفضل إلى حران . ورحلوا وأخذوا رأس عين الخابور وسلمها الملك الأشرف للملك الأفضل ، وساروا إلى ماردين ، فراسل أهل ماردين السلطان الملك العادل على أن يحملوا للملك الأشرف خمسين ألف دينار فعملوا ذلك . فعاد الملك الأشرف عنهم راجعاً إلى حران ، وأعطى الملك الأفضل جملين .

وفيها نزل الملك العادل على خربة اللصوص بسبب الفرنج . وفيها : أخذوا رأس عين الخابور من الملك الأفضل وكذلك جملين بكذبة كذبوها عليه لاستعادة البلاد منه ، ولم يبقوا سوى سميساط لا غير وأعطوا رأس عين لابن المشطوب .

وفيها : كان عند أتابك نور الدين صاحب الموصل عدة أمراء من الشاميين ، مثل المبارز خطلخ الحلبي ، والمبارز سنقر الحلبي وعز الدين كر ، حملوه على لقاء الملك الأشرف وقروا عزمه على ذلك ، فبلغ الملك

الأشرف ذلك، فسير إلى السلطان الملك العادل عرفه ذلك ، ويستأذنه فيما يفعله على لسان ابن المشطوب ، فأعاده سريعا وقال له : « إن قصدكم صاحب الموصل لاتلاقوه ، الله الله ، ولا تغتروا بقول صاحب سنجار وآمد والجزيرة » فعاد ابن المشطوب ، فوجد أتابك قد خرج من الموصل . ووصل الملك الأوحى إلى عند أخيه الملك الأشرف . وقال ابن المشطوب رسالة الملك العادل للملك الأشرف . واجتمعوا على دارا ، ومنها رحل الملك الأشرف بمن معه ووصلت الأخبار بقصد أتابك لهم ، فرتب الملك الأشرف أصحابه ومن معه ميمنة وميسرة كما جرت العادة » ورحل طالبا باشزا ووصل أتابك بعساكره يوم الجمعة سادس عشر شوال من سنة ستمائة ، فنزل الملك الأشرف دون باشزا ، وسير أتابك رسولا أمين الدين ياقوت الكاتب إلى الملك الأشرف يطلب المصاف ، وفي عقيقه حمل أتابك بمن معه ، ووصل إلى أن شارف الملك الأشرف ، فضرب أتابك دهليزه، وذلك بكرة نهار السبت ، ولم يقم بها ، وساق ووقع القتال، وحمل أتابك حملة بنفسه ورمي أكثر أصحابه في وقتهم ، وأخذوا قتلاً وأسراً ، ونجا بنفسه وكانت وقعة عظيمة مشهودة . ونزل الملك الأشرف بعد الكسرة واستحضر الأمراء ومن أخذوهم من عسكر الموصل ؛ فكان في الجملة سنقر الحلبي وولده ، والأسد بن عبد الله ، وحسين الطويل ، ووصل أتابك إلى الموصل في هزيمته في يوم واحد ، وسير الملك الأشرف البشائر إلى أبيه فاستعظم الملك العادل ذلك.

ودخلت سنة ستمائة:

فيها : اتفق الصلح بين أتابك والملك الأشرف وتحالفا.

وفيها : كان الملك العادل قد رحل من خربة المصوص ونزل مرج عيون ، وراسله الفرنج إلى أن تقرر الصلح، وعاد الملك العادل إلى دمشق ، وأمر الملك الأشرف بالعود إلى حران ، وسمع برحيل الملك العادل إلى مصر ، فوصل إليه إلى دمشق.

وفيها : طلب الملك المجاهد صاحب حمص نجدة من الملك العادل.

وفيها : كانت واقعة شرف الدين قراقوش المظفري في المغرب مع بوزبا المظفري أيضاً ومسكه وسيره إلى ابن عبد المؤمن .

وفيها : عاد الملك الأشرف من وداع أبيه.

سنة إحدى وستائة:

جاءت الفرنج إلى حماة بالفارس والراجل ، فأخذوا وقتلوا وسبوا خلقاً وحملوا إلى الباب القبلي فاختنق فيه جماعة . وفيها أسروا الفقيه الشهاب ابن البلاعي ، كان شاطراً شجاعاً . وساروا به في جملة الأسرى فبات في طرابلس ليلة واحدة ، وهرب ونجاه الله منهم ووصل إلى بلاده . وذلك من أطرف ما وقع للأسور ، وبلغ السلطان الملك العادل نوبة حماة ، فشق عليه ذلك.

وفيها : سير الملك المعظم العسكر إلى حمص وحماة ولم يفارقوا إلى أن تقرر الصلح.

وفيها: طلع الملك المنصور صاحب حماة إلى الملك العادل بالديار المصرية ، فتلقيه وسر به سروراً كاملاً ، بقي مدة وعاد.

وفيها: قطع الفرنج العاصي ، ودخلوا إلى أرض حمص ، فقتلوا جماعة وأسروا ، فبلغ ذلك الملك العادل ، فوعد بنزوله إلى الشام وبرز إلى البركة وسار أولاً فأولاً ووصل إلى دمشق .

وفيها: كانت واقعة السلطان شهاب الدين الغوري مع محمد خوارزم شاه بن خوارزم شاه، وذلك أن السلطان شهاب الدين الغوري وقع بينه

وبين خوارزم شاه، فجاء أخذ نشاوور^(١٧) وولى فيها ملكاً من أصحابه ، وهو ابن أخته يقال له ضياء الدين ، وعاد إلى غزنة . وسبب ذلك أن البلاد تخبطت عليه من الهند فسمع خوارزم شاه بذلك، فجمع وقصد نشاوور ونزل عليها وحاصرها مائة يوم، وأن الهندود قاموا على السلطان شهاب الدين، فانشغل بهم وما نجدهم، فأخذها خوارزم شاه بالأمان . ونزل ضياء الدين المذكور منها ، وضرب خيمته بقرب خيمة خوارزم شاه، والأمراء الذين كانوا معه طلبهم يخدمونه فما أجابوا إلى ذلك . قالوا: « إذا لم نحفظ الأول ما نحفظ الآخر » . وفارقوا وتوجهوا إلى السلطان شهاب الدين الغوري ، فسألهم : « كيف جرى » فقالوا له : « سيرنا عدة كتب ما جاءنا لها جواب » فاستحضر وزيره وأنكر عليه وقال له : « كيف كنت تخفيني مثل هذا وقد حوصروا ثلاثة أشهر ، لعلني كنت أنجدهم » . وسخط عليه . وجند السلطان شهاب الدين بعد ذلك وطلب خوارزم شاه . وعملوا مصافا واقتتلوا ، فانكسر خوارزم شاه إلى البلد ، وبقي بين السلطان الغوري وبين خوارزم شاه مسافة يومين ، فعمد خوارزم شاه وكسر من سيحون وجيحون ساقية ماء ، وأدارها في الخندق فمنعت من العبور إلى البلد ، فطال مكث السلطان على ذلك الماء ، وشرع في عمل زواريق ليعبر إلى البلد في الماء . فأنفذ خوارزم شاه إلى أخواله الخطا وقال لهم : « قد جاء من يأخذ البلاد منا ومنكم فأنجدوني » . فجمع الخطا وركبوا في أربعين ألف فارس جرائد ، كل واحد وجنيبه ، وقصدوا السلطان ، فسمع بهم السلطان فانتقل عن الماء وطلبهم ، فبقي بينهم وبين الماء مسافة أربعة أيام؛ وبقي بين السلطان والماء مسافة ثلاثة أيام . فقال الأمراء للسلطان : « إن سبقونا إلى الماء ظفروا بنا وإن سبقناهم ظهرنا عليهم » فجد السلطان في السوق فسبقهم إلى الماء بدقيقة . فوصلت بوادر عسكرهم، وأشرفت على الماء ، والسلطان نازل عليه، فقال له أمير من أمرائه : « تعطيني رجالاً ودستوراً لألقى من وصل من عسكرهم ، لأنهم قد وصلوا تعاباً إلى غاية » . فقال

السلطان : « لابل نصبر حتى يصلوا » . وما قبل منه ، فقال : « إلى غد » فتيقنوا ضعفه ، فطمعوا فيه وضربوا معه مصافاً ، وأرسل الله هواء عظيماً في وجه السلطان وأصحابه ، فانتصر عليهم الخطا ، وقاتل السلطان شهاب الدين بنفسه أشد قتال بحيث إنه غير على عشرين دابة غير أنه كسر ، ولكن بعد أن قتل كل واحد من أصحابه جماعة من الخطا . فانهزم السلطان إلى قرية صغيرة يقال لها بندخوي^(١٨) . وكان مع الخطا السلطان عثمان ، سلطان سمرقند ، وصعب عليه كسرة السلطان شهاب الدين ، وذلك لإسلامه . غير أنه لم يكن له حيلة في دفع ذلك عن المسلمين . وقصدوا محاصرة الرباط وأخذ السلطان منه ، فأشار عليهم السلطان عثمان بأن ما هذا مصلحة ، فإن له عدة غلمان وماليك معهم العساكر الكثيرة مثل تاج الدين الدز ، وأبيك لاشك ، وقطب الدين ، فيسمع هؤلاء فيقصدونكم والمصلحة عندي رواحكم وأخذ لكم منه فيلاً من فيلته وحمل ذهب . قالوا : « افعل » فنفذ إلى السلطان شهاب الدين وأطلعه على القضية فسير له ما طلب ، وعاد السلطان إلى غزنة مكسوراً ، واجتمعت إليه مماليكه من جميع الأطراف وأنفق في العسكر عن سنين ، فلما كان هو في بعض الليالي في الصلاة اختصم مملوكان صغير وكبير ، فخاصمهما السلطان وهددهما إلى بعد صلاته ، فأخذ أحدهما سكينه صغيرة وقفز على السلطان شهاب الدين فقتله وخرجت مصارينه في وقته ، وقبر في غزنة ولم يعقب ولا بشر بولد ، كان عاقراً . وكان هذا السلطان عثمان المقدم ذكره ، وهو صاحب سمرقند أحسن الناس بحيث إن نساء سمرقند إذا ركب يدعون له ويقولن : « اللهم تقبل مهورتنا منا صدقة عن شباب السلطان عثمان » . والله أعلم .

وفي أوائل سنة ثلاث وستمائة :

كانت الكرج قد تحركوا لقصد أخلاط . والملك الظاهر قد خاف أن

تكون حركة عمه إليه فسير إلى البلاد وأفسد عسكرياً مثل ابن المشطوب ، وعز الدين كر ، وسنقر الحلبي . وتراسل الملك العادل والملك الظاهر ، وتقرر الصلح بينهما . ووصلت الأخبار برحيل الكرج فخاف الملك الظاهر ، ونزل على غرض الملك العادل ، ونزل السلطان الملك العادل على بحيرة قدس بأرض حمص ، فوصل إليه الملك المنصور ، صاحب حماة ، وولده الملك الأشرف والملك المعظم ، وولده الملك المغيـث ، والملك الأمجد صاحب بعلبك ، وعسكر سنجار ، وعسكر آمد .

وفيها : وصل وزير آمد ضياء الدين ابن شيخ السلامة ^(١٩) إلى البحيرة إلى السلطان يستحلف لصاحبة الملك الصالح ليصل إلى الخدمة بنفسه .

وفيها : دخل السلطان بمن معه إلى الساحل فنهـب وخرب وأحرق ، وسبى وأشرف على أخذ البلاد ، وأخذ القليعات وخربها وكذلك طاحونة أعناز ^(٢٠) ، وكان ذلك عظيماً .

وفيها : قفز أهل بعلبك على واليهم فقتلوه ، فأمر السلطان الملك الأمجد بمسيره إلى بلده ، فسار ولم يدخل الساحل معه .

وفيها : عزل البدر بن الأبيض قاضي العسكر ورتب عوضه في القضاء النجم خليل بن المصمودي الحموي ، وذلك بتعصب من الوزير صفي الدين بن شكر ، وسيره رسولاً إلى الخليفة الناصر لدين الله وإلى غيره .

سنة أربع وستمائة .

دخلت والسلطان الملك العادل بعدما خرج من الساحل ، وكتب الكتب إلى البلاد بالبشائر .

وفيها: كان الملك المجاهد قد سير كاتبه الشمس الكشغريدي ، إلى الملك الأفضل يطلب ابنته لابنه الملك المنصور إبراهيم فمات.

وفيها : وصل إلى السلطان الملك العادل صبي من بحنين نصراني أسلم على يده، فسلمه إلى الملك المجاهد، فرباه وكبر عنده ، فكثر منه وولاه ورسله إلى الملوك.

وفيها : مات زين الدين قراجا صاحب صلخد المملوك الصلاحي.

وفيها : عاد الملك الأشرف إلى بلاده ، فعبر بحلب واجتمع بابن عمه الملك الظاهر وكان عظيماً. وفيها : توجه الملك المجاهد صاحب حمص إلى الرحبة لعمارة قلعة استجدها، وخرب القلعة العتيقة التي كانت للرحبة، لأنها كانت قد خربت.

وفيها: وصل ابن أبي الحجاج والقاضي الأشرف بن عثمان إلى عند الملك المجاهد يستشفعونه إلى الملك العادل.

وفيها: أمر السلطان بعمارة قلعة دمشق ووظف على صاحب حماة الملك المنصور والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهما عمارة أبرجة في قلعة دمشق .

وفيها: سير الملك العادل مملوكه أستاذ داره الدكر وصحبته النجم قاضي العسكر رسولا إلى الإمام الناصر.

وفيها: عاد بالجواب وصحبتهما رسل الخليفة بالخلع والتقليد وخلعة لوزيره ابن شكر ولأولاده : الملك المعظم والملك الأشرف ، وذلك بدمشق ، ونصبوا منبراً ، وقرأ ابن شكر التقليد قائماً على الناس ، والسلطان أيضاً قام لإجلالاً لذكره صلى الله عليه.

سنة خمس وستمائة:

بلغ الملك العادل اتفاق أتابك الموصل مع الملك الظاهر وجميع الشرقيين.

وفيها: مات الأمير جناح الدين الهكاري أخو المشطوب، وتغيرت أحوال عماد الدين بن المشطوب، فأجمع السلطان الملك العادل على أن يجمع جميع العساكر وأصحابها ويقصد الكرج، فكاتب الملوك بوصوله إلى حران، والجمع عليها، فاجتمع الناس إليه فأول من وصله الملك المنصور صاحب حماة، والملك المجاهد صاحب حمص، والأبجد صاحب بعلبك، والملك الصالح صاحب آمد، وعسكر الملك الظاهر، وعسكر الملك المنصور صاحب سنجار. فلما وصل الجمع إليه سار قاصداً الكرج، فنزل على ماردين وأقام. وتجدد له قصد سنجار، وذلك لتخلف صاحبها عن وصولها بنفسه، فخاف فأرسل نساءه في الاستشفاع في حقه وذلك برأس عين الخابور فما قبل ذلك ولا أجاب. فسير ولده الملك الأشرف، والملك المنصور صاحب حماة، وصحبتهم العساكر فأخذوا نصيبين، وولى فيها، ثم بعد ذلك وصل الملك العادل ووصل إليه ولده الملك الأوحى صاحب أخلاط، فلما قارب سنجار جاء إلى السلطان من سأل في تسليم سنجار إليه بشرط العوض عنها، فأجابهم إلى ذلك. ثم (ما) بدا لهم إلا الحصار، فحقن السلطان عليهم، فحاصروهم ونزل عليهم، وقطعت أشجارهم، وأخذت الملوك منازلهم، ونصبوا المجانيق وقاتلوهم وضايقوهم، وأقطع السلطان الخابور جميعه، وفرقه على الملوك الذين كانوا في خدمته مثل الملك المنصور صاحب حماة، والملك المجاهد صاحب حمص وغيرها. فلما أشرف السلطان على أخذها عنوة جاءت رسل الإمام الناصر لدين الله شافعة في ترك سنجار على صاحبها وأخذ الخابور ونصيبين وما يتعلق بذلك، فقبل شفاعته وبادر إليها طاعة، وخرج صاحبها الملك المنصور إلى السلطان الملك

العادل فأحسن تلقاءه، ورحل عنها ، وتفرق الملوك إلى بلادهم ، حتى إن أخا صاحب سنجار نور الدين صاحب قرقيسيا كان في خدمة السلطان. ولما سار السلطان من سنجار ، لحقه العماد بن يونس رسولا من الموصل ، فقصى شغله وأعادته.

و (في رأس العين) حرد وزير الملك العادل ابن شكر المعروف بصفي الدين على السلطان لإنكار كان أنكره السلطان عليه، فما ثبت له، فهرب صنعة ، فتبعه الملك المنصور صاحب حماة، وكان عانيا بابن شكر حتى إنه أول من مشى إلى ابن شكر من الملوك. وتبعه فخر الدين جهار كس ودارا عليه في برية رأس عين، إلى أن أحضره إلى خدمة السلطان ، فعفا عنه، ومنها انحطت منزلته.

وفيها: مات الملك المؤيد بن صلاح الدين برأس عين لما عاد في جواب رسالته من عمه إلى أخيه الملك الظاهر. سبب موته أنه غم عليه البيت الذي كان فيه فمات هو ومن كان عنده في البيت،

وفيها: أعطوا لابن المشطوب المجدل من الخابور.

وفيها: عاد الملك الأوحى إلى أخلاط.

وفيها: وزر جمال الدين بن شيخ السلامية للملك الأشرف ، كان ممولا إلا أنه كان عامياً جداً.

وفيها: وصل من سيف الدين سنقر أتابك اليمن عشرة آلاف دينار باسم السلطان الملك العادل.

وفيها: كاتب الملك الظاهر الأمراء ، وقويت شوكته بعد وصول عمه الملك العادل إلى حران ، وبرز إلى السموقة من بلد حلب، وترددت

الرسل بينهما، ووقع الصلح بعد إفساد الملوك والأمراء من الجهتين، وسار السلطان إلى دمشق، وهو كثير الشكر من صاحب آمد، لأنه جاءه عند حاجته وانتفع بوصوله إليه.

وفي سنة سبع وستائة:

سير الإمام الناصر يطلب مملوكه مظفر الدين المعروف بوجه السبع يستعيده من الشام ، لأنه كان قد هرب منه، وذلك لخوفه من كلام كلمه (به) الوزير النصير بن مهدي العلوي، فأعيد إلى الخليفة وتكمل رضاه عنه لعقله ولحفظه كلامه.

وفيها: قويت عزيمة الملك المعظم على عمارة الطور.

وفيها: كاتب الظاهر سامة.

وفيها : وقع الصلح مع الفرنج والسلطان.

وفيها: سير الفرنج بعد صلحهم إلى البحر يعرفونهم بأن الطور يعمرونه وهو قوي به يملكون الساحل . فجذب الفرنج في وصولهم من البحر والمعظم يجد فيه.

وفيها: تجدد للسلطان الملك العادل الطلوع إلى ديار مصر ، فسار وبقي في الكرك أياماً، فبلغ الملك الكامل ذلك فوصل إليه إلى حوران، واجتمع به بها، وكان قد رتب له الإقامة إلى القاهرة.

وفيها: عزم عز الدين سامة على الطلوع إلى مصر ليستريح من معاندة الملك المعظم له. فأشار عليه جهاركس ترك ذلك فما قبل منه وكان جهاركس مريضاً ، وسار سامة فمات جهاركس . وبلغ سامة موته فضاق صدره وندم على مفارقتة ، ووصل الملك العادل إلى القاهرة.

وفيها: بلغه حركة الفرنج، فتجهز الملك العادل للعودة إلى الشام، فبلغ ذلك الملك الظاهر، فظن أنه لأجله، فجهز القاضي بهاء الدين ابن شداد رسولاً واستحلف السلطان له.

وفيها: كفت يد الوزير ابن شكر عن العمل .

وفيها: كان الملك الأوحـد قد مرض ، وسار إليه الملك الأشرف ، ومات الملك الأوحـد، فأخذ البلاد الملك الأشرف ، وبلغ السلطان موته، وهو على البركة، وفيها عمل عزاءه.

وفيها : وصل كليـام التاجر الجنوي – لعنه الله – وقدم للسلطان وصادقه، فأحسن السلطان إليه، وكان في جملة إحسانه إليه، أنه يأخذه معه إلى أين اتجه، وكان الملعون (في ضمن ذلك) يكشف الأحوال أولاً فأولاً ويكتب بها الفرنج، وقيل للسلطان فما التفت.

سنة ثمان وستمائة:

فيها توفيت أم الملك الكامل، فدفنها في الشافعي، ورتب عليها القراء والصدقات ، حتى إنه ساق الماء إلى الشافعي، ولم يكن قبل ذلك، ووجد عليها جداً عظيماً.

وفيها: وقع بين الأدفنش، ملك الفرنج، وبين ابن عبد المؤمن في الغرب ، وأخذ قلعة رباح^(٢١)، وقتل خلقاً عظيماً.

وفيها: توجه الملك العادل إلى الإسكندرية لكشف أحوالها وكليـام صحبته.

وفيها : بلغ الملك العادل أن مراكب واصلة ، فشرق عز الدين سامة إلى الملك الظاهر .

وفيها : أشير على سامة أن يسلم كوكب وعجلون إلى الملك المعظم
ويأخذ عوضها الفيوم، فما أجاب إلى ذلك .

وفيها : كان الملك المعظم قد وصل إلى أبيه بالديار المصرية ، فخاف
سامة فهرب سامة، وأوهم أنه قاصد الصيد والسلطان وهرب في البرية،
ولم يعلم أحد بخبره . فبلغ الملك المعظم ذلك، فركب خلفه واستركب
الناس، وما زال سائقا ومن كان معه انقطعوا عنه، فخرج من أرض
الداروم، ونزل يقضي شغلا، عجز عن الركوب وذلك لوجعه بالمفاصل .
فرآه بعض الصيادين ، فدل عليه الملك المعظم لما وصل خلفه، فجاء
إليه، فأخذه وسير لوقته عرف السلطان به، وأخذ منه الحصون قهرا بعد
حصار وقتال، وحبسه وولده في قلعة الكرك .

وفيها : نزل الملك العادل الشام، وسار إلى الجزيرة، رتب أحوالها،
ورتب شهاب الدين غازي في الرها، وعاد إلى دمشق وكل هذا وكليام
الفرنجي صحبته .

وفيها: هبت في بغداد ريح من قبل الغرب، معها رمل أحمر، وقوي
وتعلق بالجو إلى أن أوقد الناس الشموع وغيرها ، واختنق جماعة منه ،
وبقي كذلك إلى اليوم الثاني.

وفيها: وصل الخبر بأن بعض عماليك الديوان عصى، فجهز إليه رسولا
فقتله واستجار بخوارزم شاه، فأعانه على عصيانه فسير الخليفة إلى مظفر
الدين بن زين الدين عرفه ذلك، فاستنجد بعسكر الملك الأشرف وغيره،
وقوي عليه وحصل الغرض منه.

وفيها : نقل إلى الخليفة . « أن ولي العهد قد عزم على قتلك » فعزله
وحبسه، وجرى له معه عدة أقوال . ومال الخليفة عنه إلى أخيه الأمير

الصغير ، فمات ، فنقل أولاده الى شستر (٢٢) ، ثم أعادهم وسلمهم إلى عمهم ، ولي العهد ، فأحسن إليهم إحسانا ما توهمه الخليفة ، وصاهرهم ، وطاب قلب الخليفة عليهم .

سنة إحدى عشرة وستائة

كان قد تجهز خوارزم شاه إلى العراق .

وفيها : وصلت رسل خوارزم شاه ، تطلب الدار ببغداد والخطبة وأن يخاطب بمخاطبة السلجوقية ويقال له في الخطبة «قسيم أمير المؤمنين» .
فما أجيب إلى ذلك وأنكره عليه غاية الانكار .

سبب عزل الخليفة لوزيره نصير الدين العلوي أنه كان قد سير ثلاثمائة جمل عليها قواصر التمر ، وأودع كل جمل ألف دينار ، فتعرض لها بعض ولاة الخليفة وطلب شيئا من ذلك التمر يأكله فامتنعوا عليه من ذلك ، إلا أنه ألح عليهم ، فأخذ جملين وفتح قوصرة تمر يفرقها على الجماعة ، فوجد الذهب ، ففتح الثانية فوجد كذلك فضبط الجميع ، وطالع به الخليفة فأنكر ذلك عليه وعزله ونقله إلى دار الخليفة هو وأولاده بعد أن أخذ جميع الذي كان له ، فما وجد إلا القليل ، لأنه كان قد نقل إلى العجم ، وقد استوفينا قصته في البيان .

وفيها : وصل الخبر بموت سيف الدين سنقر ، صاحب اليمن .

وفيها : عاد الملك العادل إلى الديار المصرية وكليام لا يفارقه .

سنة اثنتي عشرة وستمائة

كان الملك العادل بالقاهرة، والملك الأشرف بأخلاق ، وشهاب الدين غازي في الرها. وكان الملك العادل قد تشوش مزاجه ، والملك الظاهر قد سير إليه القاضي بهاء الدين بن شداد رسولا، وفي ضمن رسالته يتوقع ما يكون من مرضه، ورتب بريدا من حلب إلى الديار المصرية، فاتصل بالسلطان الملك العادل من البريد الواصل من حلب أن الملك الظاهر قد مات، وذلك في سنة ثلاث عشرة وستمائة ومات الملك الظاهر وترك من الأولاد الملك العزيز، اسمه (غياث الدين محمد)، من ابنة السلطان الملك العادل ، والملك الصالح أحمد من بعض المغاني . وكان الملك المشمر خضر مقيما بحلب يومئذ . فقال الملك العادل لابن شداد قاضي حلب : «ما عندك من أخبار صاحبك ؟» قال له : « ما أعلم من يوميات أخباره » . فقال له : «قد مات» . فعزاه وفارقه وعاد . وقعد الملك العادل لعزائه كما جرت العادة .

من جملة سبب موته مع فراغ أجله كان قد أكل لحم قديد بعدس وهو في الصيد ، وشرب عليه الخمر، فأوصى عند موته إلى الأمير سيف الدين بن علم الدين ليكون أتابك ولده ، وكذلك عين شهاب الدين طغرل الخادم ، فما وافق ابن علم الدين على أن يكون أتابكا . واتفق مع الأمراء على أن بقي شهاب الدين أتابكا ولا يعمل شيئا إلا باتفاق من هؤلاء: ابن علم الدين و القاضي بهاء الدين وسيف الدين بن قليج ، واستمر الحال في أحسن سيرة.

وفيها : قصد الملك الأشرف الوصول إلى حلب فعزم الحلبيون على إحضار الملك الأفضل من سمرسيات (ويكون أتابكا للملك العزيز) فعاد ابن علم الدين أنكر ومنع من ذلك، ووصل الملك الأشرف واطلع على ذلك .

سنة أربع عشرة وستائة

فيها : تواترت الأخبار بجمع الفرنج ودخولهم عكا ونقضوا الصلح وقصدوا الشام ، فلما تحقق السلطان العادل ذلك خرج من الديار المصرية إلى الشام بجميع أمواله التي كانت بمصر ، فوصل إلى نابلس إلى أن تكامل عسكره فجاءه الخبر بقصد دمشق

وفيها : وصل فخر الدين بن شيخ الشيوخ من (بغداد في) جواب رسالته إلى الخليفة الناصر

سنة خمس عشرة وستائة

(فيها): قوي الخبر بحركة كيكاوس سلطان الروم السلجوقي إلى البلاد الشامية ، باتفاق من الملك الصالح صاحب آمد وغيره من ملوك الشام. هذا والملك الأشرف بحلب، فوصل الرومي إلى الشام ، فوصل إلى منبج وأخذ تل باشر، ورعبان، وقويت شوكتة ، وكان الشرط معه أنه مهما ملك يسلمه إلى الملك الأفضل نور الدين ، فما أقام بقوله وسلمها إلى أصحابه، فوقف الناس عنه ، وتحققوا غدره، ف جذبوا عنه، ووقع العربان بفرقة من عسكره ، أخذوهم قتلا وأسرأ ونهبأ ، وعاد إلى بلاده مكسورا، وكان به خروج دم مفرط، إلا أن الملك الأشرف عند دخوله حلب أحضر الأمراء المأسورين من عسكر الرومي وخلع عليهم وأطلقهم ، وسير إلى السلطان الملك العادل يخبره بكسرة الرومي

وكان الفرنج — خذلهم الله — قد فعلوا في حركتهم وقتالهم للملك العادل واندفاعه من قبالتهم، وعملوا في الغور ما عملوه من قتل وأسر وخراب، وقوي عزمهم على قصد الديار المصرية فقصدوها وحاصروا

دمياط وأخذوها بعد كل جهد وفراغ ما فيها من إقامة وغيرها، وكان قبل هذا قد جرى على الطور ما جرى من قتال وغيره، وخربه الملك المعظم بعد عمارته أحسن عمارة ، وقد غرم عليه من الأموال ما تجاوز الحد .

وفيها : وصل ابن شيخ الشيوخ وصحبه رسل الخليفة الناصر إلى الملك الكامل على دمياط، فظن الناس الظنون الجميلة يومئذ في الخليفة، فبين أنه لأجل رمي البندق وكونه يريد أن يكون هو قبلته لا يزدجر، فتعجب الناس من إمام العصر وهمته.

وكان نزول الفرنج - خذلهم الله تعالى - على ثغر دمياط - حماه الله - في ثالث ربيع (الأول) ستة عشر من حزيران ، واعيدت إلى المسلمين في رجب من سنة ثمان عشرة وستمئة ، سابع عشرين آب ، ووافق وفاة السلطان الملك العادل - رحمه الله - من شهور الروم آخر آب من هذه السنة وسارت إليها العساكر الشامية .

وفيها : مات السلطان الملك العادل رحمه الله وترك من الأولاد: الملك الكامل محمد ، الملك الفائز ابراهيم، الملك المعظم عيسى، الملك الحافظ أرسلان شاه ، الملك المظفر غازي، الملك العزيز عثمان، الملك الصالح إسماعيل، الملك المعز يعقوب ، الملك الأشرف موسى ، الملك تاج الملوك. الملك عباس، الملك المفضل قطب الدين ، فنقل إلى دمشق ، وأخذ الملك المعظم جميع ما كان معه.

وفيها : طلع المعظم إلى مصر، واجتمع بالملك الكامل على دمياط ، فشكا إليه عماد الدين بن المشطوب ، فأخرجه المعظم من الديار المصرية كما لا يجب ، فوصل إلى الشام بأربعة نفر لا غير ، وأقام بحماة، وتجهز منها بعسكره (ورحل عنها بسبعمئة فارس) ووقع بجشار حلب ونهبه،

وخرج السلطان الملك الأشرف إليه وأخافه وآمنه بعد ذلك وأعطاه رأس
عين الخابور وزلييا ملكا

سنة ست عشرة وستمائة

فيها : وصل الملك الفائز بن السلطان العادل إلى أخيه الملك، الأشرف
رسولا من أخيه السلطان الملك الكامل، فضبطه عنده بعد الاحسان
إليه، لأنه كان الغرض أن لا يكون بالديار المصرية .

وفيها : تحجب ابن المشطوب برأس عين لصاحب ماردين وهي في
يده، فعوضه عنها وتسلمها صاحب ماردين، وأعطى ابن المشطوب زلييا
ملكاً وأرجيش إقطاعاً.

وفيها سار الملك الأشرف إلى الموصل وعليها مات الملك الفائز رحمه
الله.

وفيها : عرف ابن خوشترين حسام الدين أحوال ابن المشطوب
وأعطاه مجلسه بجملة كبيرة إلى أن جرت أمور أوجبت للملك الأشرف
القبض عليه وعلى ابن خوشترين وأودعهما السجن وماتا فيه بحران وقد
استوفينا ذلك بتفاصيله في تاريخنا المطول: البيان .

سنة سبع عشرة وستمائة

وفيها : مات الملك عز الدين كيكافوس ملك الروم، وولي بعده أخوه
الملك علاء الدين كيقباز وهو الذي كان محبوساً بقلعة المنشار وقد ذكرنا
قصته

وفيها : وردت كتب الخليفة الناصر إلى الممالك بنجدة الملك الكامل
بدمياط .

وفيها : كان خروج التتر من بلادهم وقصدهم بلاد العجم، وخرّبوها، ونهبوها وفتكوا فيها فتكا عظيما لم يسمع به في الزمان. وكان انهزم منهم خوارزم شاه بعد عدة وقعات معهم، ولم يظفروا به. وكان سبب خروج الكافر في سنة سبع عشرة وستائة إلى مقاتلة السلطان محمد خوارزم شاه ابن خوارزم شاه أن الطريق من طمغاج وكاشغر^(٢٣) إلى سمرقند مقطوعة من مدة سنة وخمس عشرة ، لا يجسر أحد يركبها، فقلت الكساوي عند أهل طمغاج وجميع ما كان يحمل إليهم. فنفذ الملك الذي للكافر ، وهو الترمجي، ويعرف بكشلوخان^(٢٤) أيضا ثلاثة رسل وصحبتهم عدة تجار إلى خدمة السلطان خوارزم شاه بسمرقند . فلما وصلوا إلى رأس الحد الذي لبلاده إلى بلد يقال له أطرار فيه أمير يقال له رسلان ملك من قبل السلطان، فأعاقهم وسير إلى السلطان عرفه خبرهم، وعدتهم ثلاثة رسل وصحبتهم تجار لواحية، فجأبه السلطان أن « من المصلحة أن لا يمكن هؤلاء من دخولهم بلادنا وكشفها ولا يؤمنوا ، فتجهزهم وتسيرهم يومين ثلاثة في الطريق وتسير إليهم من يأخذهم ويقتلهم حتى كأن الحرامية قد فعلوا بهم ذلك » فعمل بقوله وما سلم منهم إلا شخص تركوه قصدا ليعود إلى صاحبه ملك الكافر يخبره بما جرى . والذي كان مع الرسل والتجار صحبتهم ما يناهز مائة وخمسين فرسا يحمل عليها نقرة الفضة، فأخذوا الجميع . فلما وصل إلى الملك وخبره بما جرى سير رسولا إلى السلطان وقال له : « أنت رجل مسلم وما نفذنا إليك إلا مسلمين موحدين حجاجا، فكيف جاز لك في دينك ما فعلته من قتلهم وأخذ ما لهم ، والله لا بد لنا منك . إما أنك تحييهم كما كانوا وتسيرهم إلينا. وإلا فنحن واصلون إليك قولا وفعلًا » فأخذ خوارزم شاه ذلك الرسول وقطع من سائر أطرافه ، وقال له : « ما لكم عندي إلا هذا الجواب » . فلما عاد إلى الملك بذلك ، وكان بين السلطان وبين هؤلاء الكفرة مسيرة سنة، لأنهم كانوا في صحارى مر غزارات، وهي برية وأودية داخلية الصين معروفة بالحشيش اليابس والرطب شتاء وصيفا، فجمعوا وقصدوا

السلطان خوارزم شاه فسمع بهم السلطان ، فركب في سبعين ألفا وطلبهم ، وافترق الكفار ثلاث فرق. فالملك الكبير الترمجي وولده ركبوا بالعساكر ، فأخذ الملك الكبير فرقة ، والولدان كل واحد منهما فرقة . وكان لهم في كاشغر مملوك يقال له جنكز خان . ومملوك يقال له كشلوخان ، وكان في خدمته أربعون ألف راكب، فقصدت فرقة الملك الكبير مملوكه بكاشغر، فضرب مع مملوكه مصافا فكسره مملوكه وقبضه وقتله، وابن السلطان خوارزم شاه وقع بابن الملك الكافر الواحد ، فسير ابن الملك إلى خوارزم شاه يقول له : « ما معي من أبي أمر بأن أقاتلك » . فلج السلطان خوارزم شاه عليه وساق إليه ، فاندفع قدامه مسير ثلاثة أيام. فلما كان في اليوم الثالث نفذ إلى السلطان وقال له: «قد ألزمتني بقتالك وما معي فيه إذن، لكن أقاتلك» فالتقى بخوارزم شاه وكسره، فانكسر السلطان خوارزم شاه ورجع على أنحس قضية ، ووصل إلى بلاده وما معه إلا نفر قليل من عسكره ، فعبر جيحون وعاد ابن الملك الكافر إلى أبيه وأخوه ، واجتمعوا كلهم، وعرفهم ما جرى له مع السلطان وكسره فقويت أنفسهم وتجهزوا وطلبوا بلاد السلطان، فوصلوا بخارى وكان فيها أخو قمر الدين وكشلو أمير آخور السلطان معهم عشرة آلاف فارس، ونزلوا على بخارى وكان سورها خرباوعوامه غير معترفين بقتال وحصار، فقاتلوا ثلاثة أيام فكسروا أمير آخور وكشلو وأخذوا بخارى بعد أن انهزم أمير آخور وأخو قمر الدين، وخرج العسكر الذي كان فيها في الليل منهزما وتسلموا البلد، وكان له قلعة، فعصت عليهم خمسة أيام فجمعوا كل ما في بخارى من قطن وخشب وبهيمة وأجمال ، ورموه في الخندق حتى سدوه، فقاتلوهم وتسلموها بالسيف بعد ذلك ، وقتلوا واليها جمال الدين بعد أن قاتل قتالا عظيما ويقول: « ما أجاهد إلا المسلمين » لأنهم كانوا عليهم مع الكافر، وتوجهوا إلى سمرقند، فنزلوا عليها، وكان فيها أمير آخور السلطان معه عسكر عظيم وثلاثون ألف راجل ، فأخذها الكافر، وأحضر الملك الذي كان فيها إلى

بين يدي الملك جنكز خان فقال : « يا سبحان الله معك هذا العسكر كله والرجالة وما قدرت تحفظه » أكان معك في البلد من يحكم عليك؟ قال : « لا » . قال : « فكم لك واليا؟ » قال : « ثلاث عشرة سنة؟ » قال : « فما كنت حفظته أياما بعدد السنين؟! » فقتله حنقا عليه وأخذ سمرقند بالسيف، وقتل جميع حاشية السلطان وغيرهم من الأجناد ما خلا العوام، فسمع السلطان وهو على ترمذ بأخذ سمرقند، فقال العسكر: « إن انتصر الكافر على السلطان وأخذ ما وراء النهر قمنا نحن عليه وأخذنا السلطان » ، وذلك لكثرة حنقهم على خوارزم شاه لما كان قتل منهم، فاجتمع امرأ السلطان على ذلك، وتحالفوا، وكان في جملتهم خال خوارزمشاه، معهم وما طاب له هلاك السلطان، فنقش على يده صورة ما حلفوا عليه وأنهم في تلك الليلة يريدون قتله في الخيم ، فلما حضروا الخوان سأل السلطان خاله : « ما على يدك مكتوب؟ » فقال : « اقرأه ، فإنني لا أقدر على قوله لك ليميني » . فلما قرأه كتم ذلك الى الليل ، وألبس مملوكا له ثيابه وأجلسه موضعه وتودد هو إلى اليزك، فلما كان نصف الليل قتلوا المملوك اعتقادا منهم أنه هو السلطان وسروا بذلك، فلما أصبحوا والسلطان على رأسه الجتر^(٢٥) وهو في الموكب . فخافوا منه على أنفسهم وقالوا وأجمعوا رأيهم على أن حملوا عليه . فانهزم منهم فتبعوه ودخل نشاور فتبعوه فما قدر يقيم بها لعدم العسكر بها ، فانهزم إلى الري وكان وزيره عماد الدين عراق قال له : « يا مولانا المصلحة أن تنهزم وأنا أكسرهم لك » فبقي أربعة أيام وتلاقوا فكسرهم السلطان في ميمنتهم فجاء خال السلطان إلى الوزير فضرب رقبتة، وذلك أنه كان قد قتل ولده ، فانهزم السلطان خوارزم شاه بعد قتل الوزير ووصل همدان هو وولده غياث الدين وجلال الدين ، وتبعوه إلى همدان، ومنها ركب برية قفراء وطلب مكانا يقال له أوسخن على جانب البحر وأفكر فيما تم عليه وعلى الاسلام فانفطرت نفسه ومات فيها فدفنوه هناك . وطلب ولده جلال الدين خوارزم شاه فما فتحوا له الباب وقالوا له : « هذا البلد لأبيك » وما علموا بموته ، فساق وطلب نشاور، فلما وصل إليها غبر

فيها وأقام بها ونادى : « من أراد الرواح يروح فإنني ما أقدر أقيم بالغرباء وأهل البلد». وسار عنها يومين ، فالتقاه الكافر فكسروه وأخذوا جميع ما كان معه، وتم إلى هراة منهزما ، وهم في أثره، فما قدر يقيم بها ، فتم إلى غزنة ، فلما وصلها التقى رجلا بلخياً مسلماً، وكان قد سمع بها تم على السلطان وعلى المسلمين فقال له : «تقف لنضرب معهم مصافاً ونكسرهم»، فوقف البلخي وضرب المصاف وكمن لهم فكسرهم، ووقعت الغنيمة للبلخي فحسده ابن السلطان على ذلك وتناول هو وولد البلخي فضربه ابن السلطان قتله على الكسب، فصعب على البلخي وفارقه . وانتزع عنه، فسمع الكافر بانتزاع البلخي عن ابن السلطان فطمعوا به وعادوا إلى ابن السلطان، فضربوا معه مصافاً فكسروه ورموه في ماء السند ، ولم يفلت إلا هو بنفسه وعجز الكافر عن عبور الماء خلفه ، فعاد إلى البلاد جميعها أخذها وخربها لعدم السلطان ومن بها، وملكوا العراق البراني وغيره، وما امتنع عليهم بلد وقتلوا واقتسموا فرقتين : فرقة عادت إلى ما وراء النهر وما عادت ، وسكنوا بخارى وسمرقند وعندهم من المسلمين الذين كانوا بها مقيمين، يأخذون منهم الجزية، وكل من كان يعمل صنعة في تلك البلاد التي أخذوها وخربوها نقلوهم إلى عندهم وسيروهم إلى بلاد هم وهي الصين وطمغاج وغيرها وفرقة توجهت إلى الكرج وإلى البلاد الشمالية وغيرها

وفيها : مات الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن شاهان شاه بن أيوب رحمه الله . وترك من الأولاد الملك المظفر محمود والملك الناصر قليج أرسلان ، والملك العزيز، والملك المجاهد، والملك المسعود، والملك المؤيد، والملك الصالح، والملك المعز. كان حسن السيرة عالماً بالسير والتواريخ وعلم الكلام ، حصن قلعة حماة، وعمق خندقها ووسعه وأدار خندق البلد وعمر الجسر عليها. وكان رحيماً ما رد أحداً من بابيه لاستخدام من جرى أو هدى . رحمه الله تعالى . وكان عند

موته قد أوصى بعثت عبيده وإمائه وإخراج كل من في حبوسه حتى إنه قال : « في الحبس من قد ظلمنا ، وفيه من قد ظلمناه » . وكان أوصى أولا إلى ولده الكبير الملك المظفر محمود ، واتفقت غيبته عند خاله الملك الكامل نجدة من والده لدمياط ، فعاجله الموت ، فوصل ولده الملك الناصر قلج أرسلان من عند خاله الملك المعظم ، كان عنده نجدة أيضا فملك حماة وصارت بيده ومنعت من الأول ، وقد استوفينا في تاريخنا المطول ذلك .

سنة ثمان عشرة وستائة

وصل الملك المعظم إلى أخيه الملك الأشرف وأخذه مستنجدا به لدمياط ، والملك الحافظ أرسلان صاحب قلعة جعبر وعسكر الشرق وصاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهم من الأمراء الأكابر فطلعوا إلى دمياط واستنقذوها من الفرنج ، ووقع الصلح بعد عدة مقاتلات وحروب جرت وأشياء على الأسارى الذين كانوا عند الفرنج وعلى النزول عن القطائع والمناصفات مدة ثمان سنين . ومن الله تعالى على المسلمين بهذه الفتوح ، وبه عاد الاسلام جديدا . وعاد الناس إلى بلادهم وتفرقوا إلى أماكنهم وأعيدت دمياط إلى ما كانت عليه أولا بعد خرابها ، فكان نزول الفرنج - خذلهم الله - على دمياط ثالث ربيع الأول من سنة خمس عشرة وستائة ، ورحيلهم عنها بعد تقرير الصلح في شهر رجب تاسع عشره من سنة ثمان عشرة وستائة .

وفيها : مات الملك الصالح صاحب آمد ابن أرتق بالقولنج ، وملكها ولده الملك المسعود .

وفيها : وصل الملك الناصر صاحب حماة إلى الرقة إلى خدمة الملك الأشرف ، وكذلك الملك المظفر شهاب الدين غازي واجتمعوا كلهم بالرقة ، وعاد كل إلى بلده .

سنة تسع عشرة وستائة

فيها : مات ملك الكرج وبقوا بلا ملك كبير ، وسيروا إلى الملك الأشرف عرفوه بذلك .

وفيها : مات ابن جميل صاحب المخزن في بغداد .

ومات ابن البخري، وكان مشارف مخزن.

ومات شرف الدين معد .

وفيها : سار السلطان الملك الأشرف إلى أخيه السلطان الملك الكامل. وأقام عنده في رمضان.

وفيها : كان نزول الملك المعظم على حماة وانتقل إلى المعرة وعاد إلى سلمية وجاءته رسالة الكامل والملك الأشرف وسألاه والحاجب حسام الدين علي كان عنده، فأجاب وكف عنها وعاد إلى دمشق .

وفيها :اجتمع الملك الحافظ وأخوه الملك المظفر غازي على سنجار باتفاق من الملك الأشرف .

وفيها : مات الوزير نصير الدين بن مهدي الشريف وزير الناصر لدين الله، وأقيم عوضه أيام عزله نائبه المكين العجمي وكان ذا نهضة ودراية ولقب بمؤيد الدين، ثم توفي الناصر . وولي ولده الظاهر أبقاه على مكانته ، ثم توفي الظاهر وولي المستنصر أبقاه على مكانته، وفي كل الأحوال هو نائب وزارة لا مطلق الوزارة .

وفيها : منع الملك المسعود بن الملك الكامل صاحب اليمن أعلام

الخليفة الناصر من طلوعها قبل سناجق والده الكامل وكاد أن يقع السيف في الحاج ، ثم بعد ذلك اتفق الحال ووقع الصلح بينه وبين أمير الحاج ، واعتذر إليه ولبس خلعة الخليفة وركب الفرس المسير برسمه كما جرت العادة.

وفيها : ملك عليهم الأرمن بعد موت ابن لاوون ابن الأبرنس ودخل في مذهبهم، ثم عزلوه بعد مدة قليلة إلى الفرنج واعتقلوه وطلبوا منه أموالا وطلقوا ابنة الملك منه وزوجوها غيره وقد استوفينا ذلك في تاريخنا الكبير .

وفيها : مات صاحب حصون الاسماعيلية بالشام أسد الدين ووليها أخوه صلاح الدين بقي مدة ومات ثم وليها أخوهما تاج الدين، فبقي مدة وسيروا من الموت عزلوه واستدعوه إليهم وولوا غيره محيي الدين أعجمي حسن السيرة .

وفيها : أمر السلطان الملك الأشرف بأن تبنى له دار على القلعة الجديدة التي كان السلطان الملك العادل قد أسسها وأبطلها فبنيت عدة أدر . وغرم عليها من الأموال ما يزيد عن الحد، وعمل قبالتها بستانا في الجانب القبلي.... الشامي لم ير مثله، فيه أنواع الفواكه الشامية والمصرية والعراقية وغيرها.

وفيها : عاد الملك الأشرف من الديار المصرية وتلقته الملوك في طريقه ووصل إلى حلب وسلطن الملك العزيز بن الملك الظاهر وألبسه خلعة الملك الكامل ورفع سنجقا منه أيضا وحمل له الغاشية وكان يوما عظيما .

وفيها : وصل الملك الأشرف إلى قلعة جعبر وشرب عند أخيه الملك الحافظ فيها ونزلا في الماء إلى الرقة .

وفيها : تقرر ت سلمية للملك المظفر عوضا عن حماة التي كانت
(مقررة له) (٢٦)

سنة عشرين وستائة

فيها : وصل الملك المسعود إقسييس إلى عند أبيه وصحبته الفيلة
والتحف الهندية واليمنية .

وفيها : وصل رسول ماردین لإتمام الزيجة بينه وبين الملك المعظم .
وكان الملك الأشرف الولي عن أخيه الملك المعظم .

وفيها : تأخرت الأمطار لاسيا عن الجزيرة .

وفيها : مات الشيخ أبو محمد الأنثاني^(٢٧) بتونس من بلد افريقية
فوصل الخبر إلى ابن عبد المؤمن أبي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن
فسير إلى الموحدين بالإقامة بتونس السيد أبا العلي، عم أبيه ، وهو من
أولاد السيد أبي حفص بن عبد المؤمن ، وتحالف العربان وكاتبوا أمير
المسلمين المايريقي . وكان بسجلهامة السيد أبو زكرياء من أولاد عبد
المؤمن والسيد أبو عبد الله بسلا ، وكان ديانا صالحا.

ومات السيد أبو زيد بإشبيلية .

وفيها : دخل الملك الأنبروز إلى جزيرة صقلية ، وكان بها قائد من
المسلمين وهو الحاكم عليها وسلطانها على جبالها وغيرها وبعض وطاها،
وكان أصله من بلدة المهديّة ، دخلها دون البلوغ ، وكان لما دخل اتصل
بابن فاخر صاحبها فقدمه عنده حسن سيرته وأفعاله وشجاعته وصدق
لسانه ، فأزوجه ابنته إليه الملك، وأقام كذلك إلى آخر التاريخ
المذكور . فلما دخل إليه الأنبروز من بلد الألمانية في البحر في عدة

مراكب وبألفي فارس وستين ألف راجل، وأقام يحاصره ثمانية شهور، فاختلف عليه بعض أصحابه وقواددولته ، فخاطبوه على لسان بعضهم بما قالوه له يقوله وهم على الأسوار في الحصار، فلما خاطبه بما لا يليق أنكره عليه وقال له: « كيف تقدم علي بهذا الخطاب؟ » فقال: « تعودون إلى الأسوار كما كنتم » . فلما خرجوا من عنده قتل ذلك الشخص القاتل . فبلغ أولئك فلبسوا عددهم ودخلوا على الأنبروز وقالوا له : « تحيء تأخذ البلد » . ودخل إلى ابن عباد ولد القاضي قاضي صقلية وقال له: « المصلحة أن تخرج إلى طاعة الملك » وكان ابن عباد متمرضا في نفسه من القتال والسهر فقال : « والله لا فعلت ذلك خوفا من العار » . فلما كان صبيحة تلك الليلة ، خرج القاضي وابن عباد معه إلى الأنبروز وحضر بين يديه فانتهره وضربه برجله وفيها المهماز شق جبينه وتركه في خيمة ناحية ، ثم بعد سابع يوم قتله وشق بطنه وأخذ ماله وربط أولاده في أذنان الخيل وتملك الأنبروز الجزيرة ، وبقيت بقية من القلاع في يد المسلمين، في يد بعض أقارب ابن عباد مثل القائد مرزوق وهو ختنه، عمل حيلة حسنة، وهي أنه سير إلى الأنبروز وقال له : « تعلم أن ابن عباد قد راح وما بقي لنا إلا أنت، فنفذ إلي ثقاتك وخواصك لأسلم البلاد إليهم والقلاع وننزل إليك فما لنا إلا أنت » . فسير الأنبروز أخص الناس عنده وأقربهم إليه مقدار مائة وخمسة عشر نفرا، فقتل الجميع وأخذ دوابهم وغلمانهم وقال: « هؤلاء عوض ابن عباد ياعدو الله » . فجري على الأنبروز ما لا يوصف، وبقي الأنبروز على هذه الحالة.

وفيها: كان في الغرب من الغلاء ما لا يعبر عنه بحيث إنهم أكلوا الميتة جميعها، وذلك أن المطر انحس عنهم من سنة ست عشرة إلى سنة تسع عشرة وستائة .

واختلفت القبائل سنتين، سنة عشرين وسنة إحدى وعشرين وستائة. وقلت الخيول عندهم، بحيث أن أكثر الموحدین رجالة وكذلك العربان .

وكان لهم في الأرض عرق يسمى الرنا شديد البياض كانوا يطبخونه طول ليلهم وما ينضج فإذا أكلوه ما ينهضم عنهم ، فهلك أكثرهم بهذا العرق. وكانوا مدة هذا الغلاء يصانعون ملوك الافرنج مثل الأذفنش، والبرشونوي، والنبري، وولد الرنك والبابوج^(٢٨) والدوك، عن كل يوم ألف ومائتا دينار، الألف مقررة للملوك، والمائتا دينار لفارس يصل يقبضها منهم ، جعلوها عوضا عن حصان وعدة . وصرف هذا الذهب نصف دينار بمصري. وكان صاحب البلاد يومئذ السيد أبو اسحاق أخو المنصور والمسير لهذه الحملة في كل يوم للفرنج السيد أبو عبد الله. وأولاد عبد المؤمن أبدا يهادنون صاحب غانة ويهادونه، وهو ملك السودان ، والبرابر يهدون إليهم الخيل البلق تسمى عندهم الحبارية . والجواري والروم، والثياب الأشكري، ويهدون هم لأولاد عبد المؤمن عوضها التبر في أرقاب الجمال، ويسرون درق اللمط ، وحمار الوحش والزرافات، والخدم البابوجيات وهن أحسن من الهنود وأطيب.

سنة إحدى وعشرين وستمائة

كان الغيث قد انحبس في الجزيرة . وفي أول شباط وقع الغيث والثلوج وعمت البلاد ورويت بعد الإياس.

وفيها : ظهر في السماء نجم بدؤابة كبيرة طويلة في كبد الغرب ، بقي اثنتي عشرة ليلة.

وفيها : اشترى الملك الأشرف من تجار حجر بلخش^(٢٩) وزنه ستون درهما غير نصف درهم، يعرف هذا الفص بالجبل، وهو الذي كان لسليمان شاه بن سلجوق، بثلاثمائة ألف درهم وصحبته فص آخر وزنه خمسة عشر درهما . وكان عند الملك الأشرف فص بلخش وزنه تسعة وثلاثون درهما ونصف ، تكملت الحجران مائة درهم، وهذا لم يرملك في

هذه الممالك ، وقد كان التجار شروه من أتابك أذربك، وهو الحجر المذكور في التواريخ بالجلبل

وفيها : قويت الأراجيف بعصيان الملك المظفر شهاب الدين غازي على أخيه الملك الأشرف بأخلاط ، وهو يمغلط ولا يصدق فيه قولا ويراسله ويهاديه ويلطفه بالرسل والهدايا ولا يسمع ما يقال عنه والناس يحملونه على قصده، وتمادى الحال في ذلك إلى أن ظهر له 'عصيانه قولا واحدا، ، فراسله وخوفه قصده له فما أفاد، فجمع العساكر من كل مكان، وكان قد وصل إلى الرقة أخوه شهاب الدين من أمه وأبيه إلى أخيههم السلطان الملك الأشرف، وتوجه قاصده وما زال سائرا إلى ماردين، فنزل تحت ماردين ووصل إليه السلطان الملك المنصور ولي أبيه السلطان الملك المجاهد صاحب حمص إلى دنيسر، وجاءته الإقامة منها، ونزل صاحبها إليه واجتمع به وبات عنده بحرزم، وعمل دعوة للسلطان الملك الأشرف في موضع جدده تحت ماردين في الجبل، وقدم للسلطان ولأصحابه وإخوته التقادم وغيرها .وجرد عسكره في خدمته، ثم توجه منها وجاءه صاحب آمد الملك المسعود وقدم له التقادم وغيرها ، وفي جملتها خيمة لم ير لأحد من الملوك مثلها ، عملت في أربع عشرة سنة، سيرها الملك الأشرف لأخيه السلطان الملك الكامل وجرد عسكره في خدمته أيضا، وساق إلى أخلاط وقد كف عن حصار ميفارقين احتراماً لنساء أبيه ، وسار ونازل أخلاط وخرج إليه جماعة من مقدميها وغيرهم وزحف إليها، فأخذها من غير مداومة قتال وملكها وأمن أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازي وأحسن إليه وقبل عذره وعفا عنه، وأعطاه بعد أن حلف له ميفارقين وحاني، وجبل جور، وذو القرنين، وقلب والسنانة.

وكان ابن زين الدين مظفر الدين قد نازل الموصل محاصراً فندب السلطان أخاه الملك الحافظ نور الدين وسير في خدمته العساكر إلى

نجدة بدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل، وتوجه إليها بكرة نهار الجمعة ثالث يوم فتح أخلاط، فلما بلغ ابن زين الدين أخذ أخلاط خاف على نفسه، ورحل عن الموصل، وسار الحافظ إلى أن وصل الجزيرة أقام بها مدة وخدمه صاحبها أتم خدمة بحيث إنه لعب عنده في الميدان بالكرة، فنزل الملك المعظم معز الدين بن سنجر شاه ابن أتابك صاحب الجزيرة عن حجرة مثمرة وقدمها بيده وقال: « هذه يعز عليها السلطان ». وكان هذا من أعظم المكارمات. ولم يزل الحافظ إلى أن وصله كتاب السلطان الملك الأشرف إليه فتوجه واجتمع به على حرزم وهناك عيد الملك الأشرف عيد الفطر، وعنده البانياسي رسول الملك الكامل.

وفيها : مات عز الدين مسعود بن سابق الدين صاحب شيزر وهو آخر من كان بقي من أولاد الداية المعروفين بغلمان نور الدين محمود رحمه الله، ووليها بعد ولده شهاب الدين الأعرج.

وفيها : وقع من قلعة حلب تسعة أبرجة وأبدانها فبناها شهاب الدين أتابك الخادم في أسرع مدة ، وهمهمة ما قدر عليها غيره، وحسب جميع ما أنفق عليها من ماله تطوعا.

وفيها : مات شمس الدين محمود بن قلع من أكابر أمراء الدولة الحلبية.

سنة اثنتين وعشرين وستمائة

مات فيها الشهاب خطيب منبج ، وكان عالما مجيدا .

ومات خطيب الرقة وقاضيهما المجد إلياس .

ومات ابن التيمية^(٣٠) شيخ الحنابلة وعالمهم بحران .

وفيها : وصلت رسل الملك الكامل إلى ملوك الشرق جميعهم بالاتفاق في خدمة الملك الأشرف وتحالف الجميع.

وفيها : قوي جلال الدين بن السلطان خوارزم شاه بن محمد خوارزم شاه، ودخل العراق ونهب وقتل وسبى، وكان قد شارف بغداد، أقام على قرب بغداد ثمانية عشر يوما، وكان الخليفة الناصر لما علم بوصوله سير الفدن إلى الأرض التي تحقق وصوله منها فحرثها وقلبها بحيث لا يبقى لدوابهم ما تأكله ، فهذا كان سبب عوده عن قصد بغداد، ووصل إلى دقوقا فأخذها وخربها وقتل جميع أهلها وانتقل إلى البواريج أخذ أموالهم وأطلقهم، وأخذ خمسة عشر ألف فدان وسيرها بفلاحيتها إلى بلاده، ووصل إلى الزاب، فخاف صاحب إربل فهاداه وحمل إليه وكتبه وحلف له فعاد عنها ونزل بمروج شهرزور وتوجه إليه عماد الدين زنكي ابن أتابك وقدم ووعده بالموصل وعاد من عنده .

وفيها: كان الملك المعظم قد سير ولده الملك الناصر داود إلى عند ابن زين الدين زيادة في تأكيد المودة والوثوق ، وكان ذلك بطلب ابن زين الدين له ، لأنه قال: «أريد أجعله ولي عهدي».

وفيها وصل الشيخ شهاب الدين السهروردي رسولا من الخليفة الناصر لدين الله إلى الملك الأشرف بالركة بهدايا وتحف وأشياء ما سمح خلفاء بني العباس لأحد من ملوك الأطراف من أقوال جميلة وطرف جليلة.

وفيها : مات الملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر صلاح الدين رحمة الله. كان جوادا عالما كريما محبا لأهل العلم والدين، أجرى جميع ما كان والده أجراه للناس من صدقة ورسوم رحمه الله ، وزيجته للضرورة في الاستماتة إلى سلاطين الروم بني سلجوق حماية له ممن يقصده. فجاء ولده

إلى السلطان الأشرف فخلع عليه وقبل عزاءه، وطلبوا رسوله يسمع الخطبة باسمه في سمسياط فما وافق وقال : « لا تغيروا الخطبة عن سلطان الروم السلجوقي والزموا ما كان والدكم عليه في ذلك وطيّبوا قلوبكم مني »

وفيها: وصل رسول أرزن الروم ركن الدين واسمه أبو الفتح جهان شاه بن طغرل بن قلعج أرسلان ، إلى الملك الأشرف، وهو ابن سلجوق يطلب رسولا من عنده يقف على سماع الخطبة باسمه ، لأن أباه مات ، وهو عم السلطان علاء الدين كيخباد ، فأرسل معه الأمير شروء المعروف بسبع مجانين ، بهدية حسنة

وفيها مات الصفي محمد بن اسماعيل الكاتب المصري وكان مجيدا.

وفيها : مات الحكيم صدقة السامري، وكان فاضلا في فنه.

وفيها : هرب أمير الحاج العراقي المعروف بأبي فراس إلى الديار المصرية .

وفيها أغارت العربان وقتلوا من التراكمة خلقا عظيما وأخذوا جشار الرقة.

وفيها: كسر السلطان علاء الدين سلطان الروم الأشكري^(٣١) وأخذ من قلاعه. وكذلك كسر ألكس أيضا الرومي ومسكه.

وفيها : وصل الملك الجواد مظفر الدين بن مودود بن الملك العادل إلى عمه الملك المعظم بدمشق هاربا من البحر. ونحّل الملك الكامل من أمراء دولته فمسك منهم جماعة ووقع عنده الاحتراز على الطرقات وغيرها

وفيها : مات الوزير صفى الدين بن شكر بالديار المصرية لأنه كان وزر للملك الكامل بعد موت السلطان العادل، كان جبارا ظالما جباها متتهكا للناس، متعصبا للأراذل ومتعصبا على الأمائل، فأخذ السلطان الكامل أولاده، واستخرج منهم ما كان أكله أبوهم ، وعصروا وضربوا ووجدوا بعض ما عملوا.

وفيها : أمر الملك الأشرف بخراب خمسة أبرجة من سور الرقة قبالة الأدر التي عمرها في القلعة الجديدة.

وفيها : كان الغلاء قد كثر في البلاد الشرقية وخلت البلاد من فلاحيتها وأهلها وحصل في البلاد الغلاء والوباء والمرض المختلف، إلا أن أكثره بالبرسام بحيث لا يؤخر المريض إلا بعض أسبوع ويموت وفني أكثر المشية .

وفيها : مات الأمير سيف الدين بن علم الدين بن جندر، كان جوادا شجاعا صالحا ورعا كثير الخير عمارا للمساجد والمدارس والخانات.

وفيها : أمر الملك المعظم بقطع طريق باب الفرج إلى باب الحديد وسيب الماء في الخندق بحيث منع .

وفيها : أدار العمارة لسور دمشق وعرضه .

وفيها : تنكر على أخيه الملك الصالح وأحضره من بصرى وأسكنه دمشق وكان مقامه بصرى لأنها بلده.

وفيها : نقص نيل مصر وخاف الناس الغلاء، فأحسن السلطان الملك الكامل التدبير ثم عاد زاد بعد ذلك .

وفيها : وصل مجد الدين قاضي الممالك الحنفي رسولا من ابن خوارزم شاه إلى الملك الأشرف، ثم إلى الملك المعظم، ثم إلى الملك الكامل، وشرب الخمر مع الملك الأشرف والملك المعظم، وأحسننا في عطائه وحرمة غاية الإحسان .

سنة ثلاث وعشرين وستمئة

كان الحاج فيها في غاية الأمن والرخاء وكثرة المياه وغيرها، وكان الحاج الشامي أكثر من العراقي والمصري.

وفيها : كان الشريف قاسم بن مهدي قد حاصر مكة مجدها الله وحماها، وجمع عليها من العربان خلقا وما حصل على بعض غرض منها . وكان لما نزل من الديار المصرية ألطن بغا قد ترك قماشه وزرده وغيره في البحر، ضرب قاسم على الجميع أخذه . وهذا قاسم هو صاحب المدينة المحروسة . وكان قد نزل صحبة هذا ألطن بغا زيادة على من في مكة من العسكر المصري سبعمائة فارس وراجل، فقويت بهؤلاء أيضا. وكان هذا قاسم قد أدخل المدينة من أهله وقماشه وجماعته وسيرهم مع العربان إلى العراق خوفا على أهله.

وفيها : وردت الأخبار بموت الإمام الناصر لدين الله الخليفة، وولي بعده ولده ولي العهد الإمام الظاهر بأمر الله، بقي في الولاية تسعة أشهر وأربعة عشر يوما ، ثم مات ، وكان حسن السيرة كريما ورعا ، في زمانه ترك الحقوق وغيرها ، وأعاد على الناس ما أخذ لهم في زمان أبيه من مال وملك ، وطابت قلوب الناس وسار سيرة حسنة رحمه الله. وولي بعده ابنه الإمام المستنصر بالله أبو جعفر بعد أبيه الظاهر. فأول ما سمع من الإمام المستنصر بالله تعالى صلوات الله عليه : « نستمد من الله المعونة » هذه أول كلمة سمعت منه عند مبايعته بالخلافة في السنة المذكورة .

وكانت قد وردت رسل الإمام الظاهر إلى البلاد الإسلامية ، وخطب له فيها ، فكانت رسله إلى الشام محيي الدين يوسف بن أبي الفرج ابن الجوزي ومملوك من ممالك الخليفة تركي يقال له شمس الدين، وكان رسول الملك الأشرف إلى الإمام الظاهر في العزاء والهناء بدر الدين عتيان. وسير الملك المعظم في ذلك القاضي الأشرف ابن القاضي الفاضل رحمه الله، فأكرم إكراما زائدا ، وذلك لأبيه زيادة على مرسله . وسير الملك الكامل في ذلك المعين ابن شيخ الشيوخ ابن حموية . واتفق موت الظاهر وخلافة المستنصر وهو عند الملك الأشرف وسير استأذن الكامل فيما يفعله، فأمره بالمسير وتعزية الإمام المستنصر بوالده وجده وتهنته فسار .

الكلمات التي قالها ابن شيخ الشيوخ رسول الكامل بين يدي الوزير مؤيد الدين نيابة عن الملك الكامل : « عبد الدولة المقدسة النبوية المستنصرية يقبل العتبات التي يستشفى بتقريب ثراها، ويستكفي بتمسكه من عبوديتها بأوثق عراها، ويوالي شكر الله تعالى على إمطة ليل العزاء الذي عم مصابه بصبح الهناء الذي تم نصابه حتى ترحل عن شمس الهدى شفق الاشفاق، وصوح بيت رد كأنفق النفاق، وامتازت الخلافة المعظمة من مستنصرها بالمثل الأعلى وفاز عبد دولتها من ولايتها بالقدح المعلى، فجعل الله كلمتها العليا وكلمة معاديا السفلى، وزادها شرفا في الآخرة والأولى » . ثم قعد

ثم سير الملك الأشرف إلى الامام المستنصر للهناء والعزاء فلك الدين ابن المسيري المصري المعروف ، فأكرم غاية الإكرام وبولغ في تلقيه والاحسان إليه . وسير الملك المعظم ناصر الدين بن أيمر أحد خواص دولته.

وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة

مرض الملك المعظم مرضته التي كان يبلغ فيها الموت، ولما أبلى عمل الناس الهناء وزينوا البلد أحسن زينة بالمغاني وغيرهن ودام الناس على ذلك ليلا ونهارا مدة عشرة أيام وكان عنده قاضي الممالك الخوارزمي فرأى من ذلك ما أهاله، ووردت عليه الرسل بالهناء من البلاد حتى إنه خشي على تشويش الساحل، فسير كاتبه عرفهم أنه في عليّ عافيته، ورسّل الخليفة الظاهر لما وردوا عليه كان في عقابيل مرضته.

وفيها: وصل رسول كبير من ابن خوارزم شاه إلى الملك المعظم وخلع على المعظم وأعطاه سنجقا وأضاف إلى السنجق حربتين وسيفا، وصار الملك المعظم يركب بسنجق الخليفة وسنجق ابن خوارزم شاه بمحضر من رسل الخليفة.

وفيها: ورد رسول سلطان الروم علاء الدين بقود كثير وتقدمه للملك الكامل والمعظم، وأدى رسالته على المعظم، فما أجاب عنها فما قبل طعامه، ولا هو قبل هديته، وتوجه إلى الكامل.

وفيها: عاد القاضي النجم قاضي العسكر الدمشقي من عند سلطان الروم.

وفيها: مات القاضي الجمال المصري الذي كان وكيلا أولا وصار قاضيا بدمشق، وقبر في داره، وتحدث جماعة في القضاء من الأمثال وغيرهم وبذلوا أموالا وما قبل منهم، وولي القضاء لرجل أعجمي يقال له الشمس الخوئي، كان في بعض المدارس وذكرت عنه أشياء، وذكر أن المعظم رآه وسمعه فيها، وولاه أيضا مع ذلك مدرسة والده وحضر دروسه.

وفيها : ورد الملك الأمجد صاحب بعلبك لهناء الملك المعظم بعافيته وكتب مهر ابنته على الملك المغيث بن الملك المغيث بن الملك العادل وكان عظيمًا ، وكل هذا وقاضي الممالك حاضره .

وفيها : قبض الملك الأشرف على صاحب ديوانه علاء الدين بن الرام ، ثم أفرج عنه ومسك جماعة من ولاته .

وفيها : قبض الملك الناصر صاحب حماة على قاضي بلدة (المعروف بـ) ابن القطب و(بـ) ابن المقيشع ، وأهانته وعصره بالمعاصير ، وهرب منه ، لما كان شاع عنه من أعمال لا يليق به فعلها .

وفيها : توجه قاضي الممالك إلى صاحبه ، وقد أكرمه المعظم غاية الاكرام ، حتى إنه سير معه لمخدومه ثلاثة آلاف قوس عمل دمشق وهذا قاضي الممالك الذي كان أرسله الخوارزمي إلى ملوك الشام كان فاسقا خمارا زانيا محملا شرب الخمر وغيره ، كثير التبرج بالمحارم . ولما عاد إلى مخدومه الخوارزمي أنكر عليه ذلك وأخذ أمواله وقبض عليه ، بقي مدة ثم شفع في حقه فأطلقه ، ومات بعد موت الخوارزمي بمدة يسيرة بعد وصوله إلى حلب وأخذ صدقة من أتاك حلب طغرل .

وفيها : عاد الشرف بن عنين الشاعر المعروف بالهجاء الدمشقي من جواب رسالته من إربل .

وفيها : مات القاضي نجم الدين نائب قاضي حلب المعروف بابن الحجاج ، وولي بعده الزين بن الاستاذ .

وفيها ولي القضاء بحماة الشهاب ابراهيم بن أبي الدم .

وفيها : وقع الارجاج بأن صاحب حماة وقع وهلك ، وطلبوا أخاه

بكتاب زور وهو بدمشق، فتوجه بعد ذلك برأي الملك المعظم وتجهيزه ،
وعاد من غير صحة .

وفيها : كان الملك المعظم بعد عوده من هذه القضية قد نزل على قرية
من قرى دمشق يتصيد بها ، فورد عليه رسول مظفر الدين صاحب إربل
بـ « أنني قد خرجت إلى الموصل ، فتخرج إلى البلاد وتأخذها » . فقبل
رأيه وتجهز ووصل إلى حمص ، فأقام عليها مدة محاصرة، وتراسل هو
وصاحبها الملك المجاهد عدة طرق فلم يجب.

وكان أعطاه بانياس ونابلس وخمسائة فارس وقال له: « اطلع إلى
عندك إلى القلعة وخذني بخادم واحد ، واستحلفني على ما تريد، وأنا ما
أحلفك ، ولا أريد أن تسير صحبتي إلا بعض أولادك لا غير » فما وافق
على ذلك .

وكانت النجدة قد وصلته من حلب في غاية القوة ، فأخربوا بلدها
وطواحينها وأفسدوا فيها ، وتراسل الملك الأشرف وأخوه الملك المعظم ،
بعد أن كان الملك الأشرف قد توجه إلى ماردین وغيرها من معاهدي
المعظم ، فاتفق الحال بينهم على الاجتماع وكل منهما يرحل عن الموضع
الذي هو محاصره، ووقع الاتفاق بينهما على ذلك، ووصل الملك الأشرف
وتلقاه أخوه الملك المعظم على القريتين من بلد حمص وتصيدا ودخلا إلى
دمشق ثاني عشر رمضان من هذه السنة المذكورة، ووصلت رسل حمص
وحلب وحماة إليهما. أقاموا عندهم مدة طويلة وحلف الملك المعظم
بحماة وبحلب وما حلف بحمص ولا أزال نوابه عن قارا ، ولا عن
الوادي الشرقي الذي للملك المجاهد ، وكذلك النبك ، ثم أقاما
بدمشق وعادا إلى القريتين للصيد والرسول ترد عليهما من الأطراف ،
ووصل إليهما الزكي بن العجمي من جواب رسالة الخوارزمي ، ووصل

فلك الدين بن المسيري في جواب الخليفة أيضا . كل هؤلاء وصولهم إلى القريتين .

وفيها : عاد العماد وزير الجزيرة من الملك الكامل في جواب ما كان سيره به الملك الأشرف وكذلك بدر الدين عثمان.

وفيها : مات أبو سعيد الجعبري الذي كان والي قلعة دمشق بدوز نظاريا ، كان شيعيا سبابا جباها كذابا دهريا وولي بعده الخادم شبل الدولة .

وفيها : مات الخادم شبل الدولة المعروف بست الشام أخت السلطان صلاح الدين كان ديننا صالحا ، عمر المدرسة المعروفة بالصالحيين بظاهر دمشق ، حنفية وأحسن وقفها وعمارتها .

وفيها : مات المبارز المعتمد الذي كان شحنة دمشق وسيرته مشهورة معروفة.

وفيها : عاد الملك المسعود أقسيس بن الملك الكامل إلى اليمن بعد كل جهد من والده.

وفيها : وردت الأخبار بأخذ ابن خوارزم شاه تفليس وقتل أكثر الكرج .

وفيها : عزم الملك الأشرف على طلوعه الديار المصرية غير مرة ما يمكنه المعظم من ذلك .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

والملك المعظم والملك الأشرف على ما هما عليه بدمشق من الاجتماع في الملاذ وغيرها .

وفيها : وردت الأخبار أن عسكر الخوارزمي في أواخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة كانوا قد قصدوا خلاط وهجموها وبلغوا فيها سوق الدقيق ، وأن الناس تحايوا ونصحوا وقاتلوا أشد قتال وأخرجوهم منها عنوة ، ورحلوا عنها لكن بعد خراب كثير وقع في البلد .

وقيل : إن أهل أخلاط هم الذين كانوا استدعوا الخوارزمي ليسلموها إليه ، ثم عادوا عن قولهم ، فعاد الحاجب علي بعد رحيلهم حصنها ونقل إليها العدد والغلال وحشدها خيالة ورجالة وبقيت في أتم حصانة .

وفيها : عاد الملك الناصر داوود من إربل إلى أبيه الملك المعظم وتلقاه عمه السلطان الأشرف .

وفيها : كانت الأخبار قد حققت بعود علاء الدين من حصار صاحب آمد بعد أن أخذ الكختين^(٣٢) ومواضع آخر مثل حصن منصور وغيرها إلى بلاده . وكان الملك الحافظ نور الدين قد توجه منجدا لصاحب آمد ، هو وعز الدين أيبك الأشرفي ، ووقع ابن بدر وأخذه العسكر الرومي ، وكان في سنة ثلاث وعشرين وقع هذا .

وفيها : كان صاحب ماردين قد خطب للرومي وعاد في خدمته .

وفيها : وصل قاضي حصن كيفا إلى الملك الأشرف يخبره أن صاحب آمد في خدمته وأنه ما عاد إلى الرومي كما نقل عنه .

وفيها : وصل بدر الدين عثمان أخو الحاجب علي والغرس مبارك المعظمي برسالة^(٣٣) إلى الملك الناصر صاحب حماة وإلى أتابك حلب لا غير ، فما وقع مرضيا لقولهما .

وفيها : عاد النجم خليل الحموي قاضي العسكر من عند خوارزم شاه ، وقد كان له عنده مدة تسعة شهور ، وحكى من جوره وظلمه وجبروته وعظمته ما لا سمع عن غيره ، وفارقه متوجها الى كنجة وسار صحبته مملوك المعظم المعروف بالبركين

وفيها : مات المذهب السامري الحكيم الذي كان عند الملك الأجد صاحب بعلبك ، الذي كان الناس قد عملوا الأشعار في الأجد بسبب عشقه له ومحبه ، فمن جملتهم الشهاب فتیان النحوي الشاغوري رحمه الله ، عمل :

الملك الأجد الذي شهددت

له جميع الملوك بالفضل

أصبح في السامري معتقدا

معتقد السامري في العجل

فيها : وصل الكمال بن مهاجر من بدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل ، إلى الملك الأشرف والملك المعظم بقود وهديه وأقمشة وغيرها ، وهو كبير القدر كثير المال والمعروف ، وله الصدقات الدارة وبناء الطرقات والخانات وأوقف الوقوف ، فتلقي بحلب أحسن تلق ، وتلقاه الملك المجاهد صاحب حمص ، وحمل له وأضافه وبالح في إكرامه ووداعه .

وفيها : كان وصل إلى صاحب الموصل رسالة من الإمام المستنصر يطيب قلبه ، ويبسط أمله ويغده بكل جميل لا سيما عن صاحب إربل ، ووصل إليه أيضا رسول السلطان علاء الدين كيقباز سلطان الروم ، في

معنى التعاضد على الخوارزمي، والتعجب من تأخر الملك الأشرف عند أخيه في مثل هذا المهم .

وفيها : قبض بدر الدين لؤلؤ على أولاده بلس وذلك بعد اتفاقه مع ابن زين الدين صاحب إربل على ذلك ، وأخذ جميع أموالهم وكانت كثيرة .

وفيها: عاد ناصر الدين بن أيمر من عند الإمام المستنصر إلى مخدومه المعظم .

وفيها : عاد كريم الدين المعروف بالخلاطي من عند سلطان الروم كيقباز إلى صاحبه .

وفيها : كانت الوقعة بين الأمير مانع بن حديثة وابن عمه الأمير منيع على يرعم ببلد بارين ، فطعن منيع طعنة بلغت منه، وحمله مانع إلى بيوته، وسير الملك المجاهد جرائحيا من عنده لعلاجيه فصلح . ومات الأمير حلو من أصحاب منيع ، وطرح منهم جماعة مانع مائة وثمانين شخصا ، وكانت وقعة عظيمة ، كان أصلها منيع ، لأن مانع قال له عند الالتقاء : « كف الشر واحقن الدماء » فأبى إلا السيف والغبي ، فحمل مانع بجماعته على منيع وأصحابه فرموهم إلى الأرض وجرى من القتل والجرح. والموت والهرب ما اشتهر في الناس وهذه عاقبة البغي . ثم رحل بقية أصحاب منيع إلى بلد بعلبك وصاروا يتخطفون الناس ، فمن جملة فعلهم وإقدامهم أنهم وقعوا على البهاء بن رسلان بغا وهو في قرية يقال لها قطينة بقرب بحيرة قدس من بلد حمص ليلا ، فأخذوا قماشه وجرحوه ومماليكه وأصبح فقيرا ، وكم لهم من فعل قبيح هذا أقله .

وفيها : كان الملك المعظم والملك الأشرف قد توجهوا إلى الغور للصيد والتفرج وغيره ، أقاما مدة ثم عادا إلى خربة اللصوص بدمشق أقاما فيها

وفيها في آذار في العشرين منه وقع من الثلج والأمطار والأهوية ما لا يحمد ولا رؤي من الأعمار، وتلف بعض الأشجار.

وفيها : شرعوا في إعادة عمارة البرج الذي كان بسلمية وخربه الملك المنصور محمد بن تقي الدين رحمه الله، وذلك بأمر الملك الكامل وأشارته لصاحبها ، وهو الملك المظفر محمود المقدم ذكره

وفيها : شرع السلطان الملك المجاهد صاحب حمص في حفر خندق القلعة وتعميقه. وتوسعته وحصانته لأنه من الثغور الإسلامية المندوب إلى حصانته، وقد كانت قلعة حمص أيضا قبل ذلك مترجلة صغيرة فعلاها وكبرها وحصنها وكم عني بها من أتم عناية لله تعالى وساق إلى حمص المياه وأطاعه في ذلك العاصي الذي لم يطع قبله لغيره من الملوك.

وفيها : وقع بين صاحب حماة الناصر وصاحب شيزر شهاب الدين الأعرج على ضامنة اللطف وقصده الناصر وخرب شيزر ونهبها وقتل منها إلى أن وصل من الملك الأشرف رسول بالصلح بينهما .

وفيها : عاد الحجاج ووصفوا من الرخص وكثرة المياه والأمن ما تجاوز الوصف وانباع الليمون الأخضر في الطريق برخصه في الساحل

وفيها : وقع الصلح بين مانع بن حديثة وابن عمه منيع بن توبة، وذلك بإشارة السلطان الملك المجاهد صاحب حمص.

وفيها عاد الملك الظافر خضر المعروف بالمشمر لدين الله بن صلاح الدين رحمه الله من عند أولاد عمه العادل من دمشق فأحسن إليه الملك المجاهد وأعطاه نفقة سنية وحمل إليه الإقامة الكثيرة إلى حين انفصاله.

وفيها : عاود الملك المعظم بن العادل مرضه وهو نازل بخربة اللصوص من بلد دمشق .

وفيها : وردت الأخبار من البحر أن البابا أعطى الملك الذي كان صاحب عكا اثني عشر بلدا، وكان الملك الامبراطور قد تزوج ابنة هذا الملك المذكور وبقيت عكا له ورتب نائبه فيها .

وفيها : ملكت ملك الإفرنس وكان يحاصر بلد صنجيل وهو بلد البطلانية ، والبطلانية عند الفرنج كالنصيرية عند المسلمين ، فاجتمع أكابر ومحتشمو الخيالة ورتبوا ولده في الملك عليهم ، ولازموا حصار من كانوا عليهم ورتبوا الصبي بالا وهو مثل أتابك العسكر.

وفيها : عاد خصبك ابن صاحب تكريت من العجم وخبر أن الخوارزمي تأخر عن حركته بسبب من قام عليه في تلك الخطة .

وفيها : توفي نور الدين بن عماد الدين صاحب قرقيسيا بدمشق .

وفيها : وردت الأخبار بأن الاسماعلية قتلوا خال الخوارزمي ووصلت رسلكم إلى الأشرف بذلك .

وفيها : اتفق الأشرف وأخوه المعظم على ما جرى بينهما ، وسيروا الكمال بن مهاجر إلى السلطان الملك المجاهد وإلى الناصر صاحب حماة وأتابك حلب بصورة ما وقع به الاتفاق بينهما، فما وافقوا على شيء منه ، وشرعوا في عمارة بلادهم وتحصينها .

وفيها : وردت الأخبار بإنفاق السلطان الكامل في عسكره وخروجه .

وفيها : وردت الأخبار أن الخليفة المستنصر بالله قتل رشيق الشراي ورتب عوضه كافور أحد خدام أبيه، ثم بعد ذلك توجه الخليفة إلى الحديثة للتفرج بقي أيا ما فعلا السعر ببغداد، بلغه ذلك فعاد إليها وأعاد السعر إلى حاله .

وفيها : في شهر جمادى الآخرة ودع الأشرف أخاه المعظم من المنزلة عائدا إلى بلاده الشرقية بعد الإرجاف بقبض المعظم له قطعا.

وفيها : في الشهر بعينه بعد انفصال الأشرف عاد كيمياري رسول الرومي إلى مخدومه. فتلقيه الملك المجاهد وأولاده ولي عهده الملك المنصور إبراهيم وأخوته ، وأحسن إليه .

وفيها : في الشهر أيضا غارت العرب، وهم غزوة البطين وغيرهم على بلد حمص وأخذوا حتى غنم أهل البلد، فوقع الصوت وركب العسكر وتبعوا العربان إلى معظم الطريق، وكان فيهم قوة ومنعة لكثرتهم ، فعاد عنهم بمراسلة جرت بينهم ، وذلك توفيقا من الله لحقن الدماء . ثم بعد ذلك أمر المعظم عربي أن يغيروا على بلد حمص وحماه وسلمية وبارين فجاءوا ونزلوا الزراعة من أرض حمص وأرض جوسيه الخربة والقصب ومكثوا أياما يغيرون والملك المجاهد مهمل لهم ، فلما طمعوا ركب إليهم بمن معه وأولاده ، وأذن لأهل بلده في النهب وأطمعهم فما كان بأقل من نصف نهار حتى نهبهم وسبهم وقتلوا وجرحوا خلقا ، وكان مانع بن حديثة يومئذ قد وصل إلى خدمته فحضر الواقعة أيضا ، وكان عند العرب المذكورين مملوك المعظم سنجر أمير العرب فرحلوا غصبا ، وكاتبوا المعظم بما جرى فصعب عليه وأمرهم بنزولهم الغوطة خوفا عليهم ، وعاتب الملك المجاهد في ذلك فأجابه جوابا سادا، ثم توجه المعظم في ضمن هذا إلى صفت ، وكوكب ، وتبين، وغيرها ليخرب بقية أساساتها وسد صهاريج الماء بالقدس خوفا لما بلغه من حركة الفرنج .

وفيها : توجه السلطان الملك المنصور إبراهيم بن السلطان الملك المجاهد صاحب حمص ، وهو ولي عهد أبيه، إلى حلب وإلى الأشرف

طالباً نجدة ، ليجهز إليه من العسكر العدة المقررة لالتقاء المعظم وعاد،
ووصل من العدة جماعة من عسكر حلب إلى حمص مثل شهاب الدين
ابن مجلي الهكاري ومظفر الدين بن جرديك وغيرهما.

وفيها : عاد رسول الملك المجاهد صاحب حمص من عند الرومي
وأخبره بمن عنده من الرسل المجتمعة من الخليفة وسائر الملوك ، وأنه
حلف لصاحب آمد، وقد كان رسوله أقام مدة ، فلما تحقق وصول رسول
الأشرف، وهو الزكي بن العجمي، حلف قبل وصوله حنقا على الأشرف،
وأنهم في ترقب وصول كريم الدين الخلاطي من المعظم .

وفيها : توجه رسولا من أتابك حلب إلى الرومي ، بدر الدين ابن أبي
الهيضاء الدقيق.

وجملة ما كان قد أخذهُ السلطان الملك المجاهد، ومانع عنده
والتركيان، من العربان خمسة آلاف جمل خارجا من الأغنام والخيول
والأقمشة وغيرها - وعاد مانع إلى أصحابه على الفردوس من بلد حلب
بعد وقعة كانت جرت لعربة ولأخيه علي على عسكر حماة، وظفرهم بهم ،
ولولا عسكر حلب لم يبق من عسكر حماة بقية ، وخربوا بلد حماة والمعرة
وقطعوا الطرقات .

وفيها : طهر السلطان الملك المجاهد بقية أولاده الصغار، وهما الملك
الزاهر داوود والملك الأفضل موسى .

وفيها : كان مجد الدين متولي حصون الإسماعيلية بالشام قد سير إلى
ملك الروم علاء الدين كيغباذ يطلب منه المقرر عليه ، وهو ألفا دينار
التي كانت جرت عادتهم بحملها إلى الموت، فأبوا ذلك ، وسير الرومي

إلى جلال الدين (٣٥) بألموت في ذلك ، فقال له : « تحملها إليهم بالشام، فقد عينها لهم ذخيرة » ، فحملوها .

وفيها : وصل نجم الدين رسول الروم، وهو المهمندار، واجتمع به السلطان الملك المجاهد في جواب رسالته وفاوضه وقال : « قد وصلت من صاحبي في قضاء شغلك مع المعظم وإزالة اعتراضه على جميع مالك» وكان عند وصوله قد تجهزت سرية عظيمة إلى بلد حماة وغيرها من عرب المعظم ، فأخذ خبرهم الملك المجاهد وركب خلفهم وتبعهم بنفسه وأولاده فأخذوهم وقتلوا منهم عالما واستعادوا غنائم كانوا قد غنموها من حماة وغيرها .

وفيها : في شعبان وصل ولدا شيخ الشيوخ وهما الكمال والمعين من عند السلطان الملك الكامل وقاضي العسكر المصري الشريف الحسيني رسلا إلى المعظم ، وأن الرسالة تؤدي بعد أن يقف عليها الكمال بن شيخ الشيوخ، ثم يعود قاضي العسكر إلى مصر ، ويتم الكمال والمعين إلى حمص ، ويؤدي الكمال الرسالة إلى السلطان الملك المجاهد، فتلقاهم الملك المجاهد بأولاده وأنزلهم في دار الملك المنصور تحت القلعة وأكرمهم غاية الاكرام ، وأدى الكمال رسالته وسار أخوه المعين إلى بغداد لأنه ما كان معه رسالة إلى غير الخليفة . وأما الكمال فإنه تأخر بحمص، وقال ما كان حمله وفي جملته: « إن مخدومي قال : تعرف الملك المجاهد صورة ما جرى منا ومن المعظم ، ومهما أشار به يكون العمل بمقتضاه » فقرر الملك المجاهد معه ما وقع الاتفاق عليه وتوجه إلى حماة وإلى الأشرف وإلى بدر الدين لؤلؤ الموصل ، وأخبر المذكور بأن قد وصل رسول الأمبرطور، ومعه من التحف وغيرها والخيول ما لا يحصى ولا يوصف، وأن السلطان الملك الكامل اهتم له غاية الاهتمام من حسن ترتيب وإقامة وغيرها ، وأنه أحضر له من مراكيبه عدة بالذهب وغيره ، وأن الكامل سير فرس الامبرطور الخاص بعينه إلى ابن الملك الظاهر بحلب

وأشياء معه، وأنه قد شرع في عمل هدية لم يسمع بمثلها ، ويسير بها جمال الدين اسماعيل بن منقذ في الجواب، وقد ذكرنا هذا وغيره من الوقائع في كتابنا التاريخ الموسوم « بالكشف والبيان في حوادث الزمان » لأن هذا التاريخ في غاية الاختصار كما شرطنا .

وفيها : وصل رسول الأشكري في البحر إلى السلطان الملك الكامل وبذل من نفسه .

وفيها : وصل رسول من الامبرطور، وهو نائبه بعكا إلى المعظم بهدية حسنة ، وكان رسول الامبرطور وصل وطلب الساحل من الكامل .

وفيها : أصلح هذا الرسول بين الأبرنس والديوية والاستبارية فإنهم كانوا قد حرموه.

وفيها : وصل رسول الخوارزمي واجتمع بالملك المجاهد وعلى يده إليه كتاب إليه من وزيره خواجا جهان يتضمن ما جرى لهم مع الكافر ، وأنه في عزم المضي إليه لاستقصاء شأفته، وذكر أنه كان على يده هدية في جملتها أسارى من الذين أخذوهم وعدة إلى المعظم وأنهم اتهموا بغدي مملوك أتابك أذربك بأنه تبعهم بعد انفصاله عن الأشرف وأخذهم

وفيها : وصل رسول الامبرطور إلى الاسماعيلية بالحصون الشامية بجواب رسالتهم إليه وعلى يده هدية بها يناهز ثمانين ألف دينار ، فقال لهم مجد الدين متولي الحصون : « الطريق إلى الموت وجلال الدين غير طيبة من الخوارزمي وغيره ونخاف إلى حين صلاح الطريق وتركوا ما معكم عندنا وديعة لكم ، والغرض حفظ نفسه وأماننا له » . وحلف لهم وأعطاهم قميصه أمانا وهذه عادتهم

وفيها : سير الاستبار يطلبون قطيعة من الاسماعيلية ، قالوا لهم : «

ملككم الامبرطور يعطينا وأنتم تأخذون منا» ومنعوهم ، فأغاروا عليهم وأخذوا من بلدهم جملة .

وفيها : اتفق عيد رمضان وعيد اليهود وعيد النصارى وهذا عجيب عجيب .

وفيها : كانت وقعة بين التركمان وصاحب آمد وظهر عليه التركمان .

وفيها : كان قد اجتمع الملك المنصور صاحب ماردين والملك المسعود صاحب آمد ، وجاء كل واحد منهم إلى بعض الطريق وأكلا وشربا وتحالفا واتفقا بعدما كان بينهما من الشحناء والبغضاء .

وفيها : حج الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل على البرية وودعه أخوه الأشرف ، ولما عاد تلقاه، أقام عنده أياما وعاد إلى بلده ميفارقين وغيرها .

وفيها : اهتم الفرنج بعمارة قيسارية الشام .

وفيها : ورد الخبر بأن الحاجب علي بن حماد صاحب الدولة الأشرفية توجه إلى بلاد العجم فنزل سقما وانه^(٣٦) فبلغه بأن الوزير خواجا جهان وصل إلى شميران^(٣٧) بثلاثة آلاف فارس ونزل عليها ، فجرد الحاجب علي العسكر من أول الليل ، وأصبح عليهم بشميران وساق عليهم فكسرهم وأخذ أمهاتهم وكوساتهم ، ولم يفلت منهم إلا خواجا جهان بستة نفر وتسلم الحاجب علي خوي^(٣٨) وسار يتسلم غيرها .

وفيها : كان موت الملك المعظم بدمشق وولي ولده الملك الناصر. وفيها : وصل العماد ابن موسك إلى سنجار ، وصحبته رسول الخوارزمي الذي كان بدمشق لما مات المعظم

وفيها : هرب بغدي من حران إلى الخوارزمي وسبب ذلك أنه كان له حوالة وصار كل وقت يطلبها ، فقال بدر الدين قابيا الأشرفي ، وهو يومئذ نائبه في البلاد ، قولا قبيحا عن بغدي ، فلما بلغه ، هرب والتحق بالخوارزمي ، وكان بغدي في غاية الوبال على الناس هربته ، وكان قد عرف البلاد وتحقق العساكر بها ومن فيها .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

والأشرف بسنجار

وفيها : وصل رسول الأربلي يستصلحه فانصلح له .

وفيها : وصل إليه الملك المنصور بن الملك المجاهد والركن الهيجاوي ووصل كتاب مجير الدين الملك المعز بن العادل بأنهم قد ملكوا نقجوان ومدينة أرمية وخطبوا للأشرف فيها .

وفيها : ورد الخبر بأن بغدي تملك ثلاث قلاع ، وكذلك ورد الخبر أن الرومي ملك قلعة عظيمة بعد حصارها ثمانية أيام ، ثم عاد الأشكري صاففه فكسر الرومي وأخذ جماعة من عسكر الرومي وقهره .

وفيها : عاد الحاج وقد وجدوا شدة عظيمة من موت أجهلهم والعطش .

وفيها توجهت أم الملك الناصر بن المعظم من دمشق إلى الكرك .

وفيها : عمر الفرنج صيدا بغير رضى من في الساحل ، لأن الفرنج الغرباء الذين وصلوا من الجزائر عمروها .

وفيها : وصل الحاجب علي بن حماد إلى الأشرف بنصيبين ، وعرفه

صورة ما جرى له في العجم ويحثه على نزوله إلى خلاط لا غير ليملك العجم ، فان أهل توريز وغيرها قالوا : « إذا جاء الملك الأشرف سلمنا إليه البلاد » ومع هذا فأنكر عليه الأشرف وصوله إليه خوفا على البلاد ووعدته بنزوله إلى خلاط وأعادته إليها فعاد . وسير الملك الأشرف إلى أخيه الحافظ يأمره بأنه ينزل ويقيم بحران وأن عز الدين نفذنا إليه بمن معه يكون عندك بها ، وكذلك الكمال بن مهاجر فامثل أمره وسير أصحابه إلى حران .

وفيها : وصل فخر الدين أبو شعبرة وابن شيخ الشيوخ من السلطان الكامل بالخلع والسجق . وسلطنوا الملك الناصر وحملوا في خدمته الغاشية ، وكذلك أعمامه الملك العزيز والصالح ووصل معهم خلعة للسلطان الملك المجاهد أيضا ، وأصلحوا بينه وبين الملك الناصر .

وفيها : حلف الأشرف لابن أخيه الناصر ولصاحب آمد أيضا .

وفيها : سير الأشرف الركن أمير جانداده ^(٣٩) بهدية إلى الخليفة ، وعاد جواب الخليفة إلى الأشرف بسنجار يأمره بأن لا يتغير منها إلى أن يأمره ، فتأخر بعد تحقيق حركته إلى العجم ، وكان ذلك سبب حرمانه العجم .

وفيها : أفرج الناصر عن الوادي الشرقي وجميع ما كان لصاحب حمص السلطان الملك المجاهد .

وفيها : أغار الملك العزيز عثمان بن العادل على صور وأخذ منها جماعة أسارى وفعل في ذلك فعلا عظيما .

وفيها : زاد ظلم الملك الناصر بحماة إلى غاية ، وطرح على الرعية أغناما وغلة ما يناهز خمسة آلاف مكوك بأكثر الأسعار .

وفيها : خرب داراً لأحد بني قرناص كانت عامرة حسنة .

وفيها : هجم الملك العزيز بن العادل بعلبك طامعا بمخامرة من أهلها لكراهيتهم في الملك الأجد صاحبهم لظلمه وعسفه لهم وفسقه وجوره، فلما علم بهم قتل من بلده جماعة بسبب ذلك .

وفيها : وقع بين ناصر دمشق وعمه العزيز ومملوك أبيه أيك صاحب صرخد وسير الملك الناصر إلى عمه الأشرف يستنجده .

وفيها : عاد الأشرف من نصبيين بعد استصلاحه لصاحب ماردين بحيث أنه بذل له بلد نصبيين أو رأس عين الخابور أو الموزر وجملين ليحلف له ، ولم يوافق لأنه طلب دارا فأعطاه بلدها . فأبى وقال : « أريد القلعة وأخربها وأحلف » فما وافقه الأشرف عليها . وكان رسول الديوان أيضا قد دخل في هذه القضية وما وافق . وكان الأشرف قد جهز عسكريا إلى خلط بعد كسرة كسروها ، وكان الحاكم فيها بغدي وخواجاهان .

وفيها : أخذ صاحب الروم كيقباز أرزنجان^(٤٠) بعملة طريفة ذكرناها . في التاريخ الكبير وغيرها لما شرطنا ها هنا من الاختصار .

وفيها : عاد الامبرطور إلى قبرص وملكها وعمل عملة على صاحب بيروت ليقبضه فما تمت عليه وقبض المال^(٤١) الذي فيها وخافته الديوية وجميع من في الساحل .

وفيها : وصل سيف الدين بن قلج بحران يخبر الأشرف بصورة الرسالة التي وردت إليهم من السلطان الملك الكامل ويطلب ألف فارس ، وأنهم ما وافقوه على ما طلبه ، وإن الناصر بحماة ما وافق أيضا .

وفيها : عاد ابن قاسم الدين من بعلبك وحمص لاصلاح ما كان بينهما .

وفيها : توجه أبو منصور بن الزبد رسول الإسماعلية إلى حلب يخبرهم بصورة رسالة الامبرطور إليهم بما طيب به قلوبهم ووعدهم ، ويقول لأتابك حلب : « إن أنتم اتفقتم مع الساحليين انتصرتم عليه ، وإن كنتم عاجزين عرفونا لنصلح أحوالنا معه » .

وفيها : وقعت واقعة بين عسكر خلاط وبغدي على بيكري (٤٢) وكسر عسكر الأشرف بهم وجرحوا تاج الملوك بن العادل في خده جرحا نسر ومات منه عند أمه بمياقارقين ، وكان الحاجب علي قد جمع العسكر قاصدا الخوارزمي فأعاقه الرومي بأخذه لأرزنجان خوفا على أرزن الروم ، لأن صاحبها كان في خدمة الأشرف وكان قد خطب له كما تقدم .

وفيها : وصل الملك الكامل بعساكره ونزل على تل العجول ، فخافه الناصر صاحب دمشق فتحصن وحلف رعيته ، وعاد إليه عمه الصالح وكذلك عز الدين أيك مملوك والده وتخلف عنه عمه العزيز ، فسير الناصر ابن القاضي الفاضل إلى عمه الأشرف يستحثه للوصول إليه .

وفيها : ورد الخبر بمضي الخوارزمي إلى الموت في طلب أخيه غياث الدين لأنه كان انهزم منه وقال لهم : « ان دفعتم أخي إليّ فلا كلام ، وإلا خربت بلادكم وغيرها » فما سلموه إليه .

وفيها : في ثالث رمضان وصل الأشرف قاصدا دمشق إلى نجدة الناصر كما طلبه ، فاجتمع به في الطريق بأرض سلمية الناصر بحماة وحمل إليه وقدم له ذهبا وغيره ، ثم اجتمع به السلطان الملك المجاهد ، وحمل له وقدم جملة ، وكان عمل شغله ليسير في خدمته فمنعه من ذلك ، وقال له : « المصلحة إقامتك بحمص فإن دعت الحاجة إلى حضورك

نطلبك » فأجابه وعاد إلى حمص بأولاده وعسكره ، ووصل الأشرف إلى دمشق وتلقاه الناصر وأنزله في القلعة وحمل إليه جميع مفاتيح خزائن القلاع وأحضر أخواته إليه وقال : « نحن ممالك مولانا وعبيده وأيتامه مهما حكمت سمعا وطاعة » .

وورد الخبر بأن الأمبرطور يشتي في الجزائر وسار إليه الإبرنس ، بعد أن كان قد أخافه .

وكان الملك العزيز قد توجه إلى أخيه السلطان الكامل إلى الديار المصرية فتلقاه في بعض طريقها وقدم له الكامل وأعطاه عطاء لم يسمع بمثله ، وكتب له خطا بيبعلبك لابنه وله زيادة في خبزه . وكان الملك الكامل عند وصوله منع أحداً من الأذية في بلد الناصر ، فاتفق أن صاحب بعلبك ، بعد مضي العزيز إلى الكامل ، قد دخل بلد العزيز ونهبه ، فلما بلغ الكامل ذلك أمر بنهب بلد الناصر .

وكان الحافظ قد رتب معه الأشرف ومع أيك أنه إن قصدهم صاحب ماردين ، وإلا فلا يقصدونه هم ، وإن احتاج صاحب آمد إلى نجدة بسبب الرومي يروحون إليه ينجدونه .

وفيها : أغار صاحب ماردين على حصن كيفا ، أخذ ونهب وأحرق وكذا أغار صاحب آمد المسعود على التاخ .

وفيها : وصل رسول الامبرطور ، وهو الكند توماس وصحبته صاحب صيدا إلى السلطان وقالوا له : « الملك يقول لك إن الجيد للمسلمين والمصلحة لهم أنهم كانوا قد بذلوا لنائبي اللكان الساحل جميعه وإطلاق الحقوق هذا في حصارهم لدمايط وما فعلوا ، وفعل الله بكم ما فعله وأعادها إليكم . ومن كان للكان هو إلا أقل نوابي وعبيدي ، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له » . فقال السلطان الكامل لابن قلج ،

وكان عنده يومئذ ، لأن الأشرف كان قد سيره إلى عنده: « تكتب إلى الملك الأشرف تعرفه صورة هذه الرسالة وتقول له يقول ما عنده فيها » فقال الأشرف : « يا سيف الدين ، ما يقول عبد مملوك هو وجماعته، مهما رسمه السلطان الكامل كان ، لأنه هو سلطان البلاد ولا يخرج أحد عن أمره، بل تسأله اتفاق الكلمة ، لتجمع العساكر من البلاد إلى خدمته ويقرر ما فيه الصلاح للمسلمين وللبيت ، وقد اشتاق المملوك إلى تلك الطلعة السعيدة » . وهذا في العشر الأول من ذي القعدة من السنة المذكورة .

وفيها : مات وجه السبع مملوك الخليفة صاحب ششتر فوليها بعده بهمان .

وفيها : غلا السعر ببغداد . ثم عاد رخص

وفيها : أزوج الخليفة المستنصر مملوكه الدويدار بابنة بدر الدين صاحب الموصل، وخرج معها من الأقمشة والذهب والفضة ما لا يوصف .

وفيها : سير صاحب ماردين إلى الرومي يقول له : « ما لمضيك إلى أنطاكية معنى . البلاد خالية ، الملك الأشرف عند الملك الكامل في قبالة الفرنج ، والجزيرة ما فيها سوى الحافظ وأيبك وصاحب آمد ، ومن هو بحلب فتسير إليّ عسكرياً لأخذ تلك البلاد » . فقوي عزم الرومي وسير إلى والي الكختين سيف الدولة عدة أمراء . فجاء الوالي وركب الماء، ودخلوا إلى بلد قطينا والسويداء ، وأخذوا منها جماعة ، ثم عادوا فسير صاحب آمد طلب الحافظ لنجدته فجهز . إليه ، فعاد الأمدي إليه شكره ومنعه من قصده ، فعاد هذا ، وقد وصل كتاب الأشرف إلى أخيه الحافظ يخبره بأنه قد توجه صحبة ابن قلع إلى السلطان الكامل لإصلاح حال الناصر بن المعظم .

وفيها : وصل كتاب الحاجب علي وفي عطفه نسخة كتاب الخوارزمي ووزيره خواجهان إلى حسام الدين خضر صاحب سرماري، لأنه كان يظهر للخوارزمي أنه في جملته ويظهر للأشرف كذلك .

ووصل كتاب الآمدي يخبر أن عسكر الرومي قد عادوا إلى بلادهم .

وفيها : وصل كتاب الحاجب علي وشهاب الدين غازي بخبران أن الخوارزمي وصل إلى ملا زجرد ، وكاتبوا الأشرف بذلك ، وهو بدمشق ، حتى أن الحاجب قال في كتابه للكمال بن مهاجر: « اعلم أن الخوارزمي سبق خبره، وقد ذكر أنه يريد يشتري بالرقعة، لأنها أشبه ببلاده . فلا تتم قراءة هذا الكتاب الا بقلعة حرّان أو الرها». فاجتمع الحافظ وأبيك وابن مهاجر وقابيا على أن جمعوا أهل حرّان عند الحافظ واستحلفوهم وأمروهم بالاستخدام والعدد مهما قدروا، وتعرّف الحافظ وأبيك أبرجة القلعة بحرّان والبلد ورتّبوا آلة الحصار، وطلب الحافظ زَرْدَخَانَاه من حلب وغيرها لقلعة حرّان ونقل جميع ماكان في الرقة من مال وغيره إلى قلعة جَعْبَر، ثم بعد ذلك وصل الخبر بأن بغدي وصل إلى جبل جور وعاد منه لأجل الثلج وكثرته.

ووصل كتاب الحاجب علي وطيه كتاب صاحب سرّ ماري الواصل من الخوارزمي ووزيره، مضمونه ما نسخته. كتاب الوزير:

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوانه: محبة علي بن القاسم.

المجلس السامي الشريف الملك الكبير العادل المؤيد المظفر المجاهد، شرف الدولة والدين، نصره الإسلام والمسلمين، عضد الملوك والسلطين

قامع الفجرة والمتمردين، شهر يار أرمن، دام شريفاً مخصوصاً بالتحية
والثناء والأشواق الى كريم محياه متوافر.

والذي نعلم به أن أمور السلطنة في غاية الرونق والطراوة، وما لها عزم
الا الانصراف الى بلاد الأرمن والشام، وإن كان جماعة من الحساد الذين
يريدون ليطفئوا نورَ الله بأفواههم، يظهرن أصواتاً، فما ذاك الا مُنَى زور،
وسؤل غرور، فلا يلتفت المجلس الى ذلك، ولا يصغي اليه، ولا يفوت
مصلحته. ولو أن السلطان كان يهمل أمرَ بلبان، صاحب خلخال،
ويتوجه الى الأرمن والشام، لكان تنسد طرقات العراق وخراسان، فرأى أن
يطفىء شرَّ شرّه، ولما تحقق قصد العساكر المنصورة إلى المذكور، وبطل
طَلَسَمِ إمرته؛ وكان اجتمع عنده ثلاثة من الباوكرسية، تفرقوا وأكثروهم
انتظموا في سلك عبودية الدولة، وقد وصل معتمد المجلس الشريف
الأجل تاج الدين حميد الدولة، وشاهد أحوال القلعة التي فيها بيت
المذكور وأولاده، وفي هذين اليومين نفتحهما ان شاء الله.

وحيث خلا وجه سلطان هذا العالم من هذه الجهة، فلاشك ولا شبهة
في تصميم عزمه المبارك على فتح بلاد الأرمن والشام، وقد وصل الأجل
الأغر بهاء الدين؛ جمال الإسلام والمسلمين، رضي الملوك شرف الأمائل،
مشهور خراسان أعزَّ الله نصره عائداً من جهة المجلس الشريف، وشرح
ماشاهد من اختلال أحوال بلاده. وإنني وإن تأذى قلبي من المجلس فما
استحسننت ولا استحسن أن يتأذى المجلس، وساعة وصول قاصده
قدمته إلى سرير السلطنة وأذيت شرائط التهئنة عن لسان المجلس
بالقدوم، وطالعت بها أنعم على المجلس بمثال موشح بالمواعيد الحسنة.
وتعلم أن عاطفة السلطان ورحمته تشمل من اليوم إلى أسبوع، فيتحقق
هذه المعاني ويتصورها. والظاهر أن بهاء الدين يرجع إلينا ويجتمع بنا في
حدود أذربيجان، فيكتب المجلس أحوال الملوك والأطراف مشروحاً، وقد

ذكرنا على لسان بهاء الدين ما يعيده عليه فيسمعه ويعلم انما نذكره قولنا
ويُتَقِنُ أننا مانجازيه على فعله ونحن كما قال قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ:
يُجْزُونَ مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ الظُّلْمِ مَغْفَرَةً
وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ الشُّؤْءِ عُفْرَانًا. (٤٤)

وهذه نسخة كتاب الخوارزمي الوارد إلى صاحب سُرِّ ماري، وهو
بالفارسية والعربي. ترجمته:

«جلال الدنيا والدين أبوالمظفر مَنكُبري بن السلطان محمد بن تكش
خوارزم شاه ناصر أمير المؤمنين.

عنوانه: النصر من الله وحده.

بسم الله الرحمن الرحيم

الملك الكبير العالم العادل المؤيد المظفر المنصور المجاهد شرف الدولة
والدين سعد الإسلام والمسلمين، نصره الملوك والسلاطين، قاهر الفجرة
والمتمردين، خسروا شهریار أرمن سميدار إيران أذكره دام عزه وتأيده
مخصوص بعز الاستمالة وشرف الاستخبار والتفات الضمائر إلى نظم
مصلحته. وتعلم أن جوامع أمر السلطنة جارية على وفق إرادة ممالكنا
وممالكنا. وعند وصولنا أذربيجان كانت العزيمة مصممة على قصد
الأرمن والشام، ولكن لما تجاوزت فتن عز الدين بلبان الحد، وكان يرى
غيبية الرايات المنصورة فرصة فينتهزها ويشوش هذه الأطراف، اقتضت
أراؤنا التي هي مرآة الأسرار أن تقطع أولاً أصول فتن المذكور ليخلو
خاطرنا الأشرف من أمور هذه البلاد، فجهزنا فوجاً من الحشم لقصد
المذكور في نصف شهر رمضان، فانهزم ودخل قلعة فيزر (٤٥) آباد
وتحصن فيها. ونحن أقمنا بحدود خلخال لأجل العلوقة إلى آخر شهر
رمضان، وتوجهنا بعد النعيد إلى قلعة فيزر آباد، فنازلتها بمالكينا

وعساكرنا وأحدقنا بها بحيث كان يتعذر عبور الطيور إليها وهبوب
الريح من جهتها، وأمرنا بترتيب المجانيق وتقدمنا إلى كل عشر نفر من
العساكر باتخاذ ماممكن من جلود البقر، فحصل في اليومين التاليين من
العُدَد والآلات ما لا يُعَد، فلما عاين أهل القلعة تلك العُدَّة والاستعداد،
علم بلبان أنه لا يمكن خلاصه من تلك الورطة إلا بالاعتذار والاستغفار،
والتجأ إلى ظل الأمان، وتمسك بأركان الملك، وتشفع بهم، ففتحت
عواطفنا له باب القبول على معذرتة، وسترته هفواته بذيل المغفرة لتعلم
الملوك الذين يهبون الذهب والفضة، وقد انتظم بلبان منذ ثلاثة أيام في
سلك ممالكنا وتقدمنا بأن يرتب في كل قلعة والياً. ولما انقطعت مواد
تلك الفتن بانعطاف العنان المبارك، وأي شر لا ينطفئ، وأخذ بصدر
من ضميرنا الأشرف، وقد أمرنا بإعادة معتمد الملك الكبير شرف الدولة
الذي وصل إلى أبوابنا العالية أعلاها الله وشُرف بتقبيل اليد الكريمة

المباركة في صحبته معتمد ديوان الوزارة، أجله الله وأكرمه وهو الأجل
الأخص بهاء الدين، نجم الإسلام، عميد خراسان، أعزه الله، ليلبلغ هذه
البشارة ويعرّف مملوكنا المخلص الكبير الأشرف شرف الدولة والدين
شهریار أرمن دام عزه وتأييده أحوال الدولة، ويعلم أنه إذا حصل
للرايات المنصورة فراغ من ضبط هذه الحدود ورتب في كل قلعة مملوكاً،
يتحرك إلى صوب الأرمن والشام. وعند وصولنا إلى تلك الحدود نجازي
الأولياء والأعداء بالواجب وقد أحاطت علومنا الشريفة بما اعتقده جماعة
المشركين ومخالفني دولتنا من التعدي على بيته، وأصبح خاطرنا الشريف
ملتفتاً إلى نظم أحواله وقد انقضى وقت فراغ معانديه وحاسديه ومضت
مدة استيلائهم، وسيجري عليهم من صواعق غضبنا وقهرنا وعواطف
سخطنا من اليوم إلى مدة يسيرة ما يصيره عبرة وتنقطع مدة التعرضات
لما لپكنا المخلصين، فليتصور هذه المعاني ويستظهر بأنواع من
اصطناعات وأصناف ترتيبنا وقوتنا أن يُنير بالأمر العالي أعلاه الله هذا
المثال العالي الصاحب المعظمي الصدري الأعظمي العادلي المؤيدي

المظفري المجاهدي الفخري الذخري اليميني القامي القاهري المنصفي
المنتصفي العُهدتي العدّتي القوامي النظامي الكهفي الخالصتي، شرف
الملك، كريم الأنساب والأطراف، مظهر العدل والإنصاف، ذو المناقب
والمناصب، قدوة صدور العرب والعجم، ملك ملوك وُزراء الشرق
والغرب، دينورا إيران أتوران، أصغر زماك اينانج قتلغ الثُغ ملكاً
خواجاً جهان لازال عالياً. الثاني عشر من شوال سنة خمس وعشرين
وستمائة».

وهذه نسخة كتاب الحاجب علي بن حماد على هذين الكتابين:

«المملوك علي الأشرفي تقدّمت كتبه ومطالعته غير مرة.

المملوكُ يعرف أن يوم السبت خامس شوال وصلني كتاب بأن
الحوارزمي عاد لكثرة الثلوج بعد أن كان بلغ إلى جبل جور وأخذ غنائم
كثيرة».

وفيها: وصل قاصد صاحب ماردين إلى الكمال بن مهاجر يطلب من
يصل يحلفه للأشرف، فأجمعوا رأيهم بعد مراسلة الأشرف بذلك على أن
اتفق الكمال بن مهاجر والملك الحافظ وعز الدين أيبك وقايا نائب
السلطان الأشرف على محمد بن نظيف الكاتب الحموي كاتب الحافظ
ووزيره والأمير شمس الدين خاص بك التكريتي يحضر اليمين، فحلفه
ولم يطلب شيئاً مما كان بذله الأشرف له وقال: «الآن رأيت فعل هذا من
تلقاء نفسي، فما أريد جزاء عليه».

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

والأشرف عند السلطان الكامل قبالة الامبرطور. وغلت الأسعار في
الساحل ودمشق.

وفيها: تفرقت عساكر النجد من خلاط إلى أصحابها بوقوع الثلوج.

وفيها: وقعت الأخبار بوقعة الرومي مع الأشكري وأنه استظهر على الرومي وقفز من الرومي جماعة إليه مثل ابن أخت ماتريدون، وقبض الرومي على شخص يقال له قزل.

وفيها: وصل المظفر غازي إلى دمشق كأنه في حجة الغزاة، واجتمع بإخوانه وعاد غير طيب. وكان السلطان الملك المجاهد صاحب حمص وأولاده عندهم وكذلك عسكر حلب وحماة.

وفيها: قفز أيدمر المعظمي من عند ابن أستاذه الناصر إلى الكامل.

وفيها: استدعى الرومي المجد البهنسي فسار إليه بغير كتاب إلى الأشرف.

وفيها: وصل رسول أرزن الروم وهو حسام الدين بهدية إلى الأشرف ويعتذر عن ميله وحلفه للرومي.

وفيها: عاد الناصر قلج صاحب حماة من قصده خدمة السلطان الكامل مظهراً أنه قد مرض.

وكان الحاج في سنة خمس وعشرين قد انقطع من العربان وعاد أكثر الناس على الشام فوجدوا شدة من العطش على طريق أيلة ومات عدة جمال، وكان في جملة الحاج زوجة الخوارزمي التي كانت في قلعة قطور^(٦٤)، وهي بنت البهلولان وقد كانت زوجة أزبك صاحب توريز، وأنفقت أموالاً كثيرة ومعروفاً، حجت على العراق وعادت على الشام، وكانت كبيرة السن وتوجهت أقامت عند الخليفة ببغداد وعليها منه الراتب.

وفيها: وقع الصلح بين السلطان الكامل والامبرطور على القدس، وتهادنوا وتأكدت بينهم صداقة، والذي تولى الحديث في الصلح فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، وقاضي العسكر المصري، والصلاح الإربلي ومن عند السلطان الملك المجاهد الأمير صفى الدين سودان بن ابراهيم بن سودان المعروف، وكان قد طلب من يعرف علم الهيئة فسيّر إليه العلم قيصر المعروف بالحنفي المشتهر بتعاسيف، وهو أفضل المتأخرين في هذا العلم.

ثم جرى بعد ذلك من محاصرة دمشق ماجرى إلى أن وقع الصلح ومقايضة الملك الأشرف بالجزيرة للسلطان الكامل على دمشق وبعلمك وانتقال الملك الناصر صاحب دمشق إلى الكرك ما بيناه وشرحناه مستوفى في تاريخنا الكبير، وأن أيبك أستاذ دار المعظم يعطى الكرك وأن الملك العزيز وأيبك يكونان في خدمة السلطان الكامل خارجاً عن تبعية دمشق وكذلك الملك الناصر.

وفيها: سيّر الكامل شمس الدين صواب الخادم وفخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى الجزيرة يتسلماها من الملك الحافظ ومن بدر الدين قابيا فوصلا وتسلماها، وخاف علي بن جرير الرقي على نفسه من قبضه فسار مع العرب في البرية وكان إذ ذاك متولي الرقة وقد كتب خطه بارتفاعها بزيادة كثيرة إلى غاية لم تكن، فخاف عند تحقيقها على نفسه، فهرب واتصل بالسلطان الأشرف بدمشق.

وفيها: وصل كتاب الحاجب علي بن حماد يخبر أن خواجا جهان وبغدي في خوي والخوارزمي بنفسه في كرميان وإن لم يلحق الأشرف البلاد وإلا فهي غير مأمونة البقاء.

وفيها: وصل الجمال الكاتب المعروف بابن أبي دبوقه إلى البلاد الشرقية وإلى الخليفة في تسكين العالم عقيب الصلح على القدس.

وفيها: وصل كتاب الحاجب علي بنخبر أن الخوارزمي قصد بلاد الكرج لاختلافهم ونزل على قلعة لهم يحاصرها يقال لها كاك، بقي يحاصرها مدة ثم رحل عنها عجزاً، بعد أن كان قد خرب من سورها مقدار قاسمتين. ووصل كتاب صاحب سُرّ ماري إلى قاضي خلّاط بنخبر أن الخوارزمي رحل عن قلعة كاك. ووصل كتاب الأشرف بالاستخدام، ونزل صاحب ماردين إلى حرزم يستخدم.

وفيها: في آخر جهادى الأولى عاد الامبرطور إلى بلاده.

وفيها: وردت الأخبار بعود الرومي إلى ملطية ووصلت غوّارته إلى جسر العادل، فنهبوا وخربوا ودخل بعضهم على الجسر ووقع بعضهم. فجمع الحافظ العربان وأبيك وقصدوهم فما لبثوا وأمر الأشرف مملوكه أبيك بالنزول إلى خلّاط وحثه على ذلك، وكان مريضاً فقبل أمره ونزل إليها فلما وصلها بعد يومين أو ثلاثة وصل كتابه بوصوله، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة وصل كتابه بالقبض على الحاجب علي وذلك أنه قال: «ما وجدت في القلاع ذخيرة ولا غيرها، ولما قلت للحاجب عن هذا اعتذر عذراً غير سائغ فقبضت عليه»، ثم بعد أيام وصل كتاب مجير الدين بنخبر أن الحاجب علي مات بالإسهال، وكان الأمر غير ذلك وقد ذكرنا ذلك في تاريخنا الكبير. وبلغ الأشرف هذا فقبض على أخيه عثمان وأخذ جميع ماله وبقي في الاعتقال مدة ثم أطلقه وأحسن إليه وكان وصل الجمال الكاتب ومعه أبيك التغلبي ولأه قلعة خلّاط وعزلوا الزكي العجمي من ولايتها.

وفيها: نقلوا بيت الأشرف، زوجته بنت الملك العزيز ابن عمه إلى سنجار ونقلوا زوجته بنت أتابك الموصل إلى دمشق.

وفيها: وصل الملك المظفر بن المنصور إلى حماة يحاصرها بعساكر الكامل وبأمره والسلطان الملك المجاهد صاحب حمص، ونقل إليه من عنده جميع آلة الحصار مثل مجانيق وغيرها والرجالة، وكان الناصر صاحبها قد تحصن غاية التحصين، ووصل السلطان الكامل إلى سلمية بعد ذلك، وكان المتولي لحصار حماة فخر الدين عثمان أستاذ الدارالكاملية والملك المجاهد والملك العزيز وأقاموا المجانيق على الباب الغربي وهذموها بعضه، وتحذت الناصر بما يحمله إلى السلطان الكامل مصانعة ثم عاد عن ذلك، ونزل بنفسه إلى السلطان الكامل إلى سلمية مستسلماً جريدة تلقاه، ثم وكل عليه وسير علامة بتسليم حماة فما قبلوا منه، فراسل المظفر من بحماة وهو بشير الخادم ومن كان معه وتقرر الحلف بينهم على ثلاثمائة ألف دينار تحمل للناصر وجميع ماله من خيل وعدة وريخت^(٤٧) وزيت وصابون وغير ذلك، فلما وقع الصلح والأيمان، وأدخلوا المظفر إلى حماة، وكان قد نقل بعض قماش الناصر وأنزل به من القلعة، فلما طلع المظفر ليلة عيد رمضان عاد عن ذلك جميعه وحمل للناصر بالتوكيل إلى الرها، بقي فيها مدة، ثم لما تقرر حال حماة وصل منشور السلطان الكامل بها للمظفر.

وفيها: وصل الحافظ بأولاده إلى سلمية إلى الكامل، فتلقيه وأحسن في حقه وتوجه إلى الجزيرة فعبّر من قلعة جعبر فحمل إليه مفاتيحها على يد أصغر أولاده فقبلها، ثم أعادها إليه وأعطاه ألف دينار، وجرى في هذا وغيره ما لا يليق ذكره هاهنا لما شرطناه من الاختصار.

ولما وصل الكامل إلى الرقة بقي يوييات ثم سار إلى حرّان أقام بها، ووردت عليه الرسل من الأطراف جميعها ففيهم من قبل منهم وتلّهم من لاقبله. ووصل إليه الملك المعظم صاحب الجزيرة فتلقيه وبالغ في إكرامه واحترامه، وأعطاه عطاء كثيراً فيه في جملة عشرة آلاف دينار مصرية خارجاً عن قماش وخيول وغيرها. ثم عاد بعد مدة إلى بلاده،

ووصل أيضاً المظفر صاحب حماة فأحسن تلقيه، وكتب مهر ابنته عليه وكان صداقاً مشهوداً.

وفيها: وصل رسول صاحب إربل يشير بأن يسير السلطان الكامل رسولاً إلى الخليفة في نعي البيت المقدس والعذر عنه، فقال الملك الكامل: «نحن ممالك هذا البيت المقدس وأباؤنا وخدماتنا له معروفة مأثرائي ولانهاذق» ثم بعد ذلك جهز فخر الدين ابن شيخ الشيوخ رسولاً إلى الخليفة.

وفيها: وصل كتاب من خلاط يخبر بأن الخوارزمي قد أحاط بها وضايقها من كل مكان، ووقع بينهم القتال وربحوا الخوارزمي ما زالت كتبه تصل تارة بقوة الخوارزمي، وتارة بقوتهم عليه، وطالت مدته وأكلوا جميع ما في خلاط، وعدم كل شيء عندهم، وأكلوا لحم الكلاب والحمير والبغال وغيرها والخطمي والأشراش وجلود اللوالك، ينقعونها ويأكلونها، وانصب عليهم عدة مجانيق وخرّب السور وبنوا بطانة له، وصبر أهل خلاط وصابروا وكان الخوارزمي عزم على المسير عنها فقفز مملوك للزكي ابن العجمي الذي كان بها والياً إلى الخوارزمي وعرفه ضعف البلد، وأنه مابقي فيه خمسون فرساً، فعاد عن رحيله وشد القتال، وتوهموا في الزكي أنه سير مملوكه قاصداً فأعدموه نفسه أيضاً، ثم وصل رسول الخليفة إلى الخوارزمي وسأله الرحيل عنها وتقرير الصلح فما وافق عليها. وقال: «هؤلاء قد فئت رجالي عليهم وأموالي عليهم وماكفي هذا حتى يشتموني أقبح شتيمة، لأصابرئها حتى أخذها عنوة». ثم حفر له السرايات وقطع الأشجار وعملوها بيوتاً، وصارت دوابهم تأكل الأشجار ولم يزل كذلك إلى أن أخذها وقيل بعملة من ابن محسن دلدزم ورفيقه، وكان قد وصل إليه صاحب سر ماري المقدم ذكره، فأعطاه أرجيش وألأل^(٤٨). وكان وصله صاحب أرزن الروم وهو حمل إليه جميع المجانيق وغيرها، وكان الرومي قد سير إليه هدية عظيمة من جملتها خمسمائة فرس

وعشرون مملوكاً كباراً بعدتهم وعدة خيولهم خارجاً عن تلك الأفراس، وكان غرضه، كما قال، الصلح بينهم. فقال لرسوله: «رسولي يصل إلى الرومي»، فعاد بهذا القول، ثم بعد ذلك سير الخوارزمي رسوله إلى الرومي بمائة وعشرين فرساً، فأحضره الرومي ومقام له ولا تلقاه أحد من عنده، بقي أياماً، فلما كان وقت وداعه مقام له وأعطاه يده بأسها وكلمه منه إليه، وعادة الرومي أن لا يكلم أحداً، وقال له: «إذا أنكر صاحبك هذا التلقي لك وقلة الاهتمام فقل: إن هذه عادة أبي مع أبيك وجدّي مع جدّك» وودّعه.

وأما عز الدين أيّيك ومجير الدين بن العادل والأبجد تقي الدين عباس وجماعة فطلعوا إلى القلعة، وبعد ذلك صعد حسام الدين القيمري، بقوا يويّيات، ففرغ ما عندهم. وأما الخوارزمي فإنه وقّى لأهل خلاط، وقتل من قتل ونهب من نهب، ثم أفكر في القلعة والعجز وأنه يأخذهم عنوة، فوقع رأيهم على أن يستأمنوا، فأمنّهم الخوارزمي، وأول من نزل إليه تقي الدين عباس، فأكرمه وأطلق أنفسهم من القتل، وحاسن أيّيك بحيث لعب معه بالأكرة، وشرب معه. وهذا كله خديعة لعله يحصل على تسليم باقي القلاع، وقال له: «تسير تسلم إليّ ملازجرد» فسير إلى من فيها، فما التفتوا إليه، وكان فيها بهاء الدين صاحب السويداء، وفتح الدين بن دلدُرم الياروقي، وعدة مماليك. وقالوا: «ومن أيّيك وغيره هو مملوك مثلنا، ومهما وصلنا خط صاحبنا عملنا به».

وفيها: ظهر وطلب خوابي في ملطّية عدتها سبع خوابي في سرداب.

وفيها: توجه فخر الدين عثمان إلى بعلبك ليأخذها بمن معه من العساكر التي كانت تحاصر حماة، بعد رحيلهم عن حماة.

وفيها: وقع برد وصواعق، فنسفت برد كبار بمنبج، وأذت جماعة، وذلك في أيلول.

وفيها: خطب صاحب ماردين للكمال، وعاد عن الرومي وضرب السكة باسمه.

وفيها: كان الكامل قد توجه إلى الرها، وعاد منها بعد نظرة في أحوال قلعتها وأمر بعمارة جددتها فيها.

وفيها: عاد العزيز من بعلبك وتولى حصارها أخوه الصالح إسماعيل.

وفيها: في ذي الحجة غارت الفرنج على بارين، وأخذوا جملة من مواش ورجال ونساء وغير ذلك وست قرايا بجميع من كان فيها، ولم يكن الملك المجاهد بحمص، وكان بتدمر هو وأولاده، فلما سمع هذا عاد غائراً من طريقه، وسير عرّف السلطان الكامل فشق ذلك عليه.

وفيها: أمر الأشرف بعمارة قلعة زلبيا بعد أخذها من الحافظ.

وفيها: كان قد جهّز الكامل الناصر وأطلقه من حبس الرها، وقال له: «بارين لك تروح إليها» فلما وصل قنسرين وجد أخاه المظفر قد توجه إليها من حماة يحاصرها، فأقام موضعه، وسير عرّف الكامل، فأبكر ذلك، ثم بعد ذلك سار إليها ودخلها.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

والسلطان الكامل بالجزيرة، والخوارزمي بخلاط، والأشرف على بعلبك يحاصرها.

وفيها: وصل بحرّان رسول الامبرطور إلى الكامل، وعلى يده كتب إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ بما نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوانه ترجمته: قيصر المعظم امبرطور رومية فردريك بن الامبراطور
هنريك بن الامبرطور فردريك المنصور بالله المقتدر بقدرته، المستعلي
بعزته، مالك ألمانية ولمبردية وتسقانة وإيطالية وانكبيرده وقلورية وصقلية،
ومملكة الشام القدسية، معز إمام رومية، الناصر للملة المسيحية.

بسم الله الرحمن الرحيم. شعر:

رَخَلْنَا وَخَلَفْنَا الْقُلُوبَ مُقِيمَةً
تَخَلَّتْ عَنِ الْأَجْسَامِ وَالْجَنَسِ وَالنُّوعِ
وَأَلَسْتُ عَلَى أَنْ لَا تُخِلَّ بِوُدِّكُمْ
مَدَى الدَّهْرِ وَأَنْسَلْتُ تُنَكِّبُ عَنْ طَوْعِي

لو ذهبنا إلى وصف مانجده من عظم الشوق، ونكايله من أليم
الاستيحاش والتوق، إلى المجلس السامي الفخري أدام الله أيامه، وسرمد
أعوامه، وثبت في الرياسة أقدامه، وحرس مودته وإكرامه، وأجرى على
سبيل النجاح مرامه، وسدد عهده وكلامه، وأجزل من النعم أقسامه،
وجدد مع الجديدين سلامه، للزمن في الخطاب شططا، وجدنا عن
الصواب غلطا، إذ منينا بروعة استيحاش؛ بعد سكون وإيناس، ولوعة
فراق، في إثر غبطة واشتياق، فرأينا السلو ممتنعاً، وجبل التجلد منقطعاً،
ومأمول التماسك قد عاد، وشمل الاضطراب مُنصداً:

وَقَدْ كُنْتُ لَوْ خُيِّرْتُ بَيْنَ فِرَاقِكُمْ
وَبَيْنَ حِمَامِي قُلْتُ يُدْرِكُنِي نَجْصِي

وتخاله، أكرممه الله، ملنا، واعتاض بغيرنا، واختار فراقنا، وتناسى
ودادنا، فعزينا أنفسنا بقول أبي الطيب:

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا
الْأَثْفَارَ قَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ (٤٩)

وبعد، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا، والحميد من آثارنا، نشعره حسبها شرحناه له بصيدا أن البابا—باء بالغدر والخديعة— أخذ إحدى قلاعنا المنيعه تسمى منت قسين، أسلمها له أباطها اللعين، وعند ذلك رام المزيد، فلم يمكنه لانتظار أهل طاعتنا لرجوعنا السعيد، فاضطر إلى أن زعم أننا متنا، وحلف القردنالية على ذلك وعلى أن رجوعنا مستحيل، وراموا خداع العامة بمثل هذه الأباطيل، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن حراسة بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا، فلا يمان هؤلاء الذين هم أئمة الدين وخلفاء الخواريين، انخدعت جماعة من الطغام والمفسدين، فعند وصولنا إلى ميناء برنديس المصونة، ألفينا الملك جُوان واللمبرديين في الدخول في ملكنا معاندين، وقع خبر ورودنا متشككين، لما قرره القردنالية عندهم باليمين، وكتبنا ورسلنا بوصولنا سالمين. داخل أعداءنا الجزع، وحل به الروع والفرج ونكصوا إلى ورائهم خاسرين مسافة يومين، وارتد أهل طاعتنا إلينا طائعين، وكذلك اللمبرديين الذين كانوا معظم عسكرهم لم يرضوا لأنفسهم أن يوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين، وانصرفوا على أدبارهم أجمعين، وأمل الملك المذكور وأصحابه، فأحاط بهم الحياء والخوف، واجتمعوا إلى موضع ضيق يخافون الانصراف عنه، والخروج منه، بل لا يقدرّون على ذلك، لأن البلاد بأسرها قد عادت لنا وإلى طاعتنا. ونحن في خلال ذلك قد جمعنا عسكراً مديداً من الألمانية الذين كانوا معنا في الشام، والذين انصرفوا قبلهم ورمتهم الريح إلى بلادنا وغيرهم من أمثائنا ورؤساء دولتنا، واستعددنا نجد السير إلى بلاد أعدائنا.

وبعد فمّا نؤثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهمات وحاجاته، وأن يقري سلامنا على جميع أكابر العسكر وعلماؤه ومملوكيه ودخلته، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته. كتب ببرلت المصونة بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أوسو للأندقتنس الثاني.

وهذه نسخة الكتاب الثاني. الترجمة كالأول: «فيه من الأخبار بما نشعره به. أنا قد جمعنا عسكرياً كثيراً، وأنا نجد السير إلى قتال من هم بانتظارنا، ولم يهرب أمام وجهتنا، والآن قد حدث من الأمر حسب حدسنا، وذلك أنهم كانوا قد حاصروا قلعة من قلاعنا ونصبوا عليها المنجنيقات وماشايها من الدبابات والآلات، فلما أحسوا بإقبالنا مع بعد المسافة بينهم وبيننا، لم يتمهلوا إلي، بل أحرقوا ما عملوه من سائر آلاتهم، وانهمزوا هارين أمامنا، ونحن نجد السير في طلبهم وتفريق شملهم، وتبديد جمعهم، وطلب البابا حيثما وجدناه، وردّه خاسئاً على قفاه، نادماً على مانواه، ومانجده من الأخبار فنحن نكتب المجلس إن شاء الله».

الغرض من إثبات هذه الكتب تحقيق ممالك هذا الملك الأمبرطور وقدرته، فما ملك من النصرانية مثله من زمن الإسكندر وإلى الآن، لاسيما قدرته وإهماله لخليفته البابا وقصده له واطراحه إيّاه.

وفيها: وصل إلى الكامل بحرّان شخص يقال له أحمد بن أبي القاسم المعروف بالزّمان من جزيرة صقلية، من أهل مشايخ غلو من جبال صقلية، وهي غير ما هو على رأس صقلية مُطل على البحر، والجزيرة كلها بيد الأمبرطور، إلا هذه الجبال التي فيها القلاع الخارجة عنه التي فيها هذا الرجل المذكور، وهن غلو، وجنش، وجاطو، وأنطلة، وغلو خراب وأهلها في الجبل، والباقي عامرة.

وسبب وصوله أن الأمبراطور غدر بأصحاب الجبال هناك، وعدّها أحد عشر جبلاً، فيها هذه الحصون المذكورة، وذكر هذا الحاج المذكور أن الأمبراطور من جملة من أخذهم إلى البر الكبير، وأخرجهم من أوطانهم، وأخذ أموالهم، مائة ألف وسبعون ألفاً، وقتل من الشطار مثلهم، وخلت هذه الجبال. والذي يطلب من السلطان الكامل ردهم

إلى أوطانهم، فإن كان الامبرطور لا يفعل، فيمكننا من الخروج إلى ديار مصر ولا يؤذي أحداً».

فكتب له السلطان الكامل كتاباً إلى الامبرطور بذلك وسار عائداً من حران.

وفيها: حلف الكامل للعزیز صاحب حلب دون أتابكه، وسيّر التاج ابن الصفي بن شكر إلى حلب حلف العزیز له.

وفيها: كان سيّر السلطان الكامل القاضي الأشرف بن القاضي الفاضل رسولاً إلى الخليفة، وعاد إلى الرقة أقام. وسيّر فخر الدين عثمان يحث الأشرف على وصوله إلى الجزيرة.

وفيها: سيّر الرومي يخبر السلطان الكامل أنه قد سيّر خمسة عشر ألف فارس إلى أرزنجان وعشرة آلاف إلى ملطية، وأنه حيث يأمره الكامل، فطاب قلب الكامل بذلك، وكان الرومي قد سيّر حلف الكامل وحلفه الكامل بالشهاب أحمد والجمال الفقيه الإسكندري مدرس الشافعي رحمه الله بمصر.

ووصل الخبر بأن رسول الخليفة واصل مع ابن الفاضل، فرتبوا له إقامة من رأس عين الخابور، وأخلوا دار أتابك في الرقة فنزل بها.

وفيها: في العشر الأخير من ربيع الآخر تسلم الأشرف بعلبك وعوض صاحبها بخبز وداره بدمشق، واستخدم أولاده.

وفي الشهر المذكور وصل الأشرف إلى السلطان الكامل بالرقة.

وفيها: وصل مانع وغنام وبذلوا من أنفسهم ورجالهم الخدمة للكامل.

وفيها أورد الكمال كيماي رسالة الرومي التي كان سيرها إلى الخوارزمي، بمحضر من الملوك الكامل والأشرف والحافظ وغيره ورسول الخليفة محيي الدين بن الجوزي ومقاله له. وهي أنه قال له: «المولى من بيت كبير ومازلتم ماشين الحال إلى أن غيّر والدك نيته، وخبط على نفسه، فآل به الحال إلى مآل، والآن فقد فضلت هؤلاء بيت أيوب. وتجنيت عليهم، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصل من سنين، ولهم الإحسان إلى الجند والرعايا والمجاورين، ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد والقوة؛ وأنت فلا أموال ولا رجال ولا قوة، وبلادك خربة، ونحن نعرف حالك أكثر منك، ولا تظن أي عدوهم، لا والله، بل صديقهم ونسيبهم بآبائنا من الأهلية والمصاهرة واختلاط الدم، ولعمري معز الدين منهم الأولاد، ولي منهم الأولاد، ولا شك جرى بيننا قضية عاتبتهم عليها وعدنا إلى ما كنا عليه، فلا تعتقد غير هذا، والمصلحة عندي نصحك، فتصالحهم وتعتد بهم أصدقاء، فنحن نعرف ما وراءك من الأعداء، يعينونك على عدوك، ويقع الاتفاق وشأنك وشأن الكرج وغيرهم، وهذا نصحي لك، فلا تغتر بمن يكاتبك ويحلف لك فكله زور وتدفع للأوقات، وقد والله قلت جميع ما يلزمني عقلاً وشرعاً. فكان الجواب أن قال لرسولي: عد إلى صاحبك والجواب يصل مع قاصدي».

وفيها: وصل خادم من حلب إلى الكامل يخبر أن العزيز جاءه ولد ليلة الاثنين العاشر جمادى الأولى من سبع وعشرين وستمائة.

ولما ملك الخوارزمي خلاط كانت رسل الديوان عند الكامل بالركة، وصارت الرسل تتردد بينهم وبين السلطان الكامل، وحلف الكامل للخليفة في الرقة بمحضر من السلاطين وباقي الجماعة وحضور بهاء الدين مروان بن قابيا رسول السلطان الملك المجاهد، وخلع عليهم وعادوا إلى بغداد، وسيروا في الماء من الرقة إلى بغداد شَبَّارة، معرفة بما جرى قبل وصولهم بأنفسهم.

وفيها: مات الملك الظافر خضر المعروف بالمشمر رحمه الله، كان كريماً جواداً شجاعاً، هو أول من سنّ القندس العريض الجامكية وجراية الخبز واللحم وحوائج طعام وغير ذلك، من بني أيوب، دُفن بحرّان.

وعند تملك الخوارزمي خلاط سيّر هدية للخليفة أرمغانا ابن العادل تقي الدين عباس في قيوده إلى العراق، فلما وصل بغداد أزيل ذلك عنه وأكرمه الخليفة، وبقي عنده إلى أن كُسر الخوارزمي ووصل الكمال بن المهاجر رسولاً من الأشرف، فسيره الخليفة صحبته وأعطاه عطاء عظيماً، وأمره، وأعطاه جميع ما يحتاج إليه مثله، وفي جملة الحوائج الخطب والكزبرة والبصل وغيرها، وعاد مع الكمال بن مهاجر إلى أرجيش بعد كسرة الخوارزمي.

وفيها: قويت حركة الكامل إلى الديار المصرية، وتحدث بذلك بمحضر من رسل الديوان، فما أعجب الأشرف هذا ولا الجماعة، فقال: «لا بد لي من هذا وأعود سريعاً بالخزائن والرجال، ولا بد لي من فتح العجم». فما قدر أحد على منعه من قصده. وكان وصل إليه خبر موت ولده أقيس صاحب اليمن، وهو بحرّان، فما أشاعه وكتمة، ولا خاطبه أحد بعزائه. وقد كان فيها شخص يقال له ابن رسول من أصحابه تقدم عند الملك المسعود أقيس وعظم، فلما مات حفظ اليمن، وقيل له في تسليمه إلى من يعينه الكامل فأبى وقال: «لا أفعل لأنني محلف لابن أستاذي بأن الأموال يصل من يتسلمها، ويسير ديواناً لذلك، ماعدا ولاية القلاع، فلا أمكن منها لابن أستاذي».

وقرّر [الكامل] مع الأشرف ما يفعل مع الخوارزمي من الاتفاق مع الرومي ثم توجه.

وفيها: بعد مسير الكامل وصل حسام الدين القيمري زوج أخت

الأشرف هارباً من خلاط إلى الرقة، وحكى عن ضعف الخوارزمي وقلة من معه وأنهم غير عاجزين عنه، فسيره إلى الكامل في بعض طريقه بدمشق فعرفه ثم عاد.

وفيها: وصلت كتب أليك بتشديد الخوارزمي وفي عزمه خنقهم بعد هربة القيمري لحنقه و«أن الخوارزمي توجه من خلاط ونحن صحبته إلى بلاد ملازجرد».

وفيها: وصل إلى الأشرف بعد مضي الكامل الغرس خليل، والزكي بن السكري الحموي رسلاً من السلطان الملك المجاهد يخبرانه خبر الصلح مع الفرنج وصحبتهما سيمون رسول بيت الاسبتار.

وفيها: توجه ابن كريم الدين الخلاطي إلى الرومي وحلفه له وعاد من عنده وصحبته الكمال كيمياري من الرومي، مضمون رسالته أنه قال: «مخدومي السلطان علاء الدين كيقباز يخدم المولى، ويقول له: محبتي ومودتي وصادقتي ما تغيرت بل زادت، وإنما لعن الله من كان السبب، ولا يحسب المولى أنني [ما] ذكرته في نجد السلطان الكامل إلا لتأكيد مودة وغرض أبلغه. والآن فبلادي وأموالي بحكمك، فتصل قولاً واحداً بالعساكر إلى قُرْشهر، وتنجد وحدك وتصل إلى عندي بقيسارية نتفرج ونحظى بخدمتك، ونصل أنا وأنت إلى العسكر بالعساكر، فوالله لا قنعت لك بخلاط، بل بجميع البلاد».

ثم عاد وصل كتابه إلى كيمياري يقول له: «لا تجيب الأشرف إلا إلى سيواس حتى لا يتعب ويبقى العسكر في قر شهر». ومعه نسخة يمين فإن لم يصل الأشرف بنفسه قبل عساكره. قال الأشرف: «ما أحلف بهذا اليمين، بل أنا أصل بنفسي جريدة إلى خدمته».

وفي شعبان من السنة توجه الأشرف إلى الرومي جريدة وصحبته

كيميار، فوصل إليه بسيواس، فتلقيه وسرّ به، وتبعته العساكر الشامية، فلما وصلوا خرجوا إليهم إلى الملوحة^(٥٠)، وتلقوهم فأنزلهم مواضعهم، وحمل لهم من الإقامات والتقادم النفقة مالا عظيماً في مرتين، عند وصولهم إلى سيواس وبعد كسرة الخوارزمي بأرزن الروم بحيث حمل إلى الأشرف أربعمئة ألف درهم سلطانية وعشرين ألف مكوك غلة وعشرة آلاف رأس غنم، ولإخوته على طبقاتهم ما يناهز مائة ألف درهم لكل واحد، وعدة خيول وبقج من أثواب ومراكيب وغيرها، وكان ذلك عظيماً، وأقاموا عنده بسيواس سبعة أيام.

وفيها: وصل الخبر بوصول السلطان الملك المجاهد من حمص، وأسرّ الأشرف بذلك، وعاد وصل الخبر بعوده بسبب أشياء جرت فعاد من بلد حلب، وأن ولده السلطان الملك المنصور إبراهيم ولي عهده واصل بعسكره، وأحضر الرومي زوجته ابنة العادل من قيسارية إلى سيواس، أبصرت إخوتها، وقدموا لها وقدمت لهم أشياء، ولعبوا معه بالأكرة غير مرة، وبالغ الأشرف في خدمة الرومي، بحيث أنه كان يبوس له الأرض فما يخدمه الرومي على ذلك، وتعاضم عنهم الرومي تعاضماً زائداً بحماقة، ثم سمعوا بحركة الخوارزمي إلى أرزن الروم، وأن الخوارزمي كان مريضاً، وأبلّ من مرضه، حتى إنه لولا مرضه كان سبق إلى البلاد الرومية وحصل على غرض منها، وهذا كان من لطف الله، فتجهز الرومي والأشرف وساقوا إلى لقائه، وسير صاحب الروم إلى عسكره بأرزنجان يستدعيه، ولم يعرف الأشرف بذلك، وكان قد وصل من أخبر أن الخوارزمي قد وصل، فنزل في مرج يقال له ياصجمن، وسار الرومي طالبه، فلما قارب ذلك المرج وبلغ الخوارزمي وصول عسكر أرزنجان إلى صاحبهم، جرّد سبعمئة فارس، التقتهم فقتلوا منهم عالماً ما يناهز ثلاثة آلاف فارس، ونهبوا وأسروا خلقاً، وبقي الغبار طالعاً، وفي الأخير عُلم ما السبب. فشق على الأشرف ذلك وقال: «ليت كان المولى عرفنا بطلبهم، كنا لقيناهم». وخجل الرومي. وفي ذلك اليوم كان وصول السلطان الملك

المنصور ناصر الدين ابراهيم بن السلطان الملك المجاهد بعسكره، فتلقيه الأشرف والملوك، وسُرَّ به سروراً كاملاً، وفي صبيحة تلك [الليلة] ركب العساكر وأشرفوا عليهم من رأس ذلك المريج، وطاردتهم العربان، وأخذوا منهم عدة خيول وقتلوا جماعة، وذلك في ثامن وعشرين رمضان، ثم ساق العساكر وطلبوا العقبة المطلة على منزلة الخوارزمي، ورتبوا الميمنة والميسرة، والرومي هو الدُّبْنَدَار^(٥١)، وله الميمنة والميسرة، والأشرف في القلب، وله الأجنحة وغيرها كما جرت عادة تعبئة العسكر، وكان مع الرومي من الخلائق ما طبق الأرض وملأها من التركمان والأرمن والفرنج والمسلمين وغيرهم من الشاميين، فكان من جملة أجنحة الرومي أرتق شاه ابن صاحب خرتبرت، ومن أجنحة الأشرف الملك المنصور ابن الملك المجاهد صاحب حمص. وكان يوم الجمعة. وألبس الخوارزمي في قتالهم ورتب جماعته، فلم يزالوا كذلك كل في قبالة صاحبه إلى الليل، وكان الخوارزمي قد أخفى أصحابه في الأودية نكداً منه، وطلع بنفسه على الجبل، وطمع الأشرف وساق وملك عليهم أكثر منزلتهم. فلما كان الليل عاد الأشرف والرومي إلى منازلهم، ورتبوا اليزكية كما جرت العادة، ثم قوي عزم الخوارزمي على كبسة العسكر، وقفز إليه جماعة قالوا له: «ان الرومي والأشرف قد خافاك وتأخرا عن ذلك التل». فقوي عزمه أيضاً، ثم عاد أفكر، فما قويت نفسه على الكبسة. فلما كان صبيحة تلك الليلة تعباً الخوارزمي والأشرف والرومي وكان في قلب الشاميين عسكر حلب وعسكر الجزيرة: صواب، وبعدهم المظفر غازي، والملك العزيز، والأشرف والرومي بعدهم. فوقع الجاليش، فظهر أصحاب الخوارزمي وشالوا ميسرة الرومي ثم عادوا على الخوارزميين ثم عاد الخوارزميون ثانياً فكسروا الرومي، فأردف الأشرف الميسرة بأخيه الحافظ والرومي بصاحب خرتبرت، ووقعت الواقعة، وعمل الملك المنصور ابن الملك المجاهد ذلك اليوم عملاً عظيماً، هو وأصحابه، وفقد جماعة منهم دون باقي جمع السلاطين، وذلك لنشبهه بما كان فيه من دون غيره، فلما عاين من مباشرته

الخوارزمي كثرة العساكر وقوتها وشدتها أيقن بالغلبة، فأوماً بيده يمينة ويسرة وقلباً، وساق منهزماً بجماعة يسيرة، من جملتهم قلج الخادم الذي كان يحبه ، وزُمي جماعة من أصحاب الخوارزمي، منهم صاحب ألتي وغيره من الخانات وصاحب أرزن الروم وأخوه وصهره، وأحضرهم إلى الرومي، وتفرق الخوارزميون في الجبال والأودية والشعاب، وبلغوا إلى درابزون، وفي ذلك الوادي شقيف وقع فيه ما يناهز ألفاً وخمسة رجل وأبغال بأحمالها وجمال، وصار الناس يطلعون منه الأجمال والأبغال بأحمالها، وفيها الجواهر والكساوي والذهب والأطلس وغيره، وكان معظمه كان خزانة للخوارزمي أو لأصحابه من خواصه. وبقي في الطريق من العدد والآلات والأقمشة ما لا يوصف. وكب الناس ومسك العربان جمدارية الخوارزمي ومعهم أثوابه وتلاكشه^(٥٢) جميعها مطرزة. وأما الخوارزمي بنفسه، فإنه في يوم وليلة بلغت هزيمته إلى خربت بات بها ليلة. ودخل الحمام هو وقلج الخادم، وسار إلى خلط واجتمع بخواجا جهان وزيره وعرفه صورة الكسرة، وكان خواجا جهان يحاصر ملازجرد، وقد أشرف على فتحها فسار عنها وترك طعامه في القدور. وحمل الخوارزمي بقية أثقاله وبيته وتوجه إلى العجم. وكان علم الدين سنجر الألفي الأشرفي مقيماً ببديس، فضرب على الأمير اختيار الدين قبض عليه لأنه ما كان بلغه كسرة الخوارزمي، ولو كان مع تقدير الله تسوق العساكر خلف الخوارزمي ما كان يسلم، بل ظنوا أن له عدة أمكنة، لأنه انكسر من غير قتال. فقالوا: «هذه خديعة ماثق بكسرتة».

ثم عيّد الناس عيد الفطر، وخلع الرومي على الأشرف وعلى باقي الجماعة، وساقوا إلى أرزن الروم، وكل الجماعة قلعوا خلعة الرومي إلا الأشرف لبسها عدة أيام، وقد جافت الأودية والجبال من رمم الموتى وأركب الرومي صاحب أرزن الروم وأخاه وصهره على أبغال تبين بفردات التبن بالقيود، وساقوا بهم، فسبحان مالك الملك، وكذلك من كبسوه من جماعة الخوارزمي، منهم مشاة وركبان والتواكيل عليهم، وكان قد وصل

رسول أميد مكاسرة ويطلب أن يُحلف له. فقيل له: «نخدم صاحبك وتهنيه بهذه الكسرة التي تعز عليه» فكتبت الكتب إلى الكامل والخليفة وجميع الأطراف، ووصلوا إلى أرزن الروم، ونزلوا عليها، وأحاط بها العسكر، وشرعوا في قتالها، وأظهروا العصيان والممانعة أول يوم، وقوتلوا من جماعة بعض قتال، ثم سيروا سراً إلى الأشرف فقال لهم: «أنا أدخل في الكف عنكم ورفع الأذى من السلطان عنكم». وأرسلوا الرومي باطناً، ودخل إليها بكرة هو والأشرف، وإخوته، والملك المنصور صاحب حمص، إلى قصرها وذلك يوم الثلاثاء، ووقع العوض عنها، وحلف له الرومي بالسلامة على نفسه—أعني لصاحب أرزن الروم—وأخذ زوجته أخت صاحبها، وكان قد منعه منها، وأقاموا يويبات هو والأشرف في أكل وشرب ولذة ووداع وتقرير ممالك، وأجرى الرومي مع الأشرف من عسكره خمسة آلاف فارس قدّم عليهم نجم الدين الجاشنكير، وودّعه، وسار الأشرف، وقد أعطاه جميع العجل التي كان عليها الزردخاناه بإيفادها ذخيرة لخلاط، وعرض القلاع التي كانت الكرج أخذتها من خلاط، وهي جملة، فما أخذ إلا قلعة التي لاغير، وهي أجودها، ثم سار ووصل إلى خمربرت فعرفه أهلها بوصول الخوارزمي وأن قلب كان مريضاً ودخل هو وهو الحمام، ثم سار إلى ملازجرد فتلقيه من كان بها من أهلها وعسكره، وسير إلى خلاط رتبها ورتب والياً وديواناً الشهاب أخا الجمال الكاتب، ثم بقي ثلاثة أيام وسار إلى أرجيش، فتلقيه من بها ووصل إليه فيها الملك المعظم صاحب الجزيرة، فكرمه غاية المكارمة.

وفيها: وصل الكمال بن المهاجر وصحبته الملك الأجد عباس بن العادل وتلقوه كما جرت العادة.

وفيها: رتب الأشرف اليزك، وذلك أن خواجاجةهان كان قريباً من بيكري، والخوارزمي في خوي، وكان قلب الخادم المقدم ذكره الذي يحبه الخوارزمي قد مرض مرضاً شديداً فمات بخوي وجرى عليه منه أعظم

من كسرتة، كان مليح الصورة إلى نهاية، وبقي أياماً لا يركب ولا يراه أحد، وقيل إنه قطع بعض شعره عليه لحزنه.

وهمّ الأشرف في عبوره بلاد العجم ليبلغ أولئك، وتارة يقدم وتارة يحجم، واتفق أنه أحضر اختيار الدين المقدم ذكره، وطيب نفسه وفاوضه وقال له: «كيف نعمل بجلال الدين؟» قال: «إذا أذن للمملوك قال ما عنده»، ثم تركه وأحضر من كان عنده من أسراه من الخوارزميين يقال له جُتر خان وأعطاه أماناً وقال: «تمضي إلى جلال الدين تعرفه إحساناً إلى من عندنا منكم من الأسرى ومالككم من راتب ونفقة وحرمة ليفعل مع من لنا عنده كذلك» فسار إليه واجتمع به فطلب الخوارزمي رسولاً من الأشرف ليحادثه، فلما عاد جُتر خان وذكر قوله وطلبه، قال الأشرف لجُتر خان: «ما عندنا مثلك وأنت أميننا ونسمع ما تقوله». فلما عاد إليه وعرفه، قال له: «تقول للأشرف ياخواند، أنا ما أسأت أولاً، ولا شك أني سيّرت المجير قاضي الممالك إليكم فما أحسن السفارة، وأفسد بيننا، ومع هذا فقد كنت طلبت المسالمة ما أجبتكم إليها، ودخل الحاجب بلادي وخربها وأخذ حرمي، وفعل ما قد علمتموه. وطلبت الصلح مافعل، ثم ولي بعده أيبك طلب الصلح مافعل وجري ماجرى بقدر الله وقضائه وعندني الآن ملوك وعندكم ممالك، فإن اخترتم الصلح بسم الله». فكان جواب الأشرف لجُتر خان بـ «أن تخدم عني المولى السلطان وتقل: ياخواند أنت سلطان وابن سلطان وما أردنا لك سوءاً وقد بالغت فيما فعلته في بلادنا من خراب ونهب وقتل، والذي كان قصد بلادك، كما زعمت؛ فقد قابلناه على فعله، وأنت فما أبقيت في سوء المعاملة وإراقتك الدماء فبلادنا قد خربت فصلحنا على أي شيء يكون، فإن أردت ذلك فانزل عن هذه البلاد التي ما كانت لك ولا لأيبك، لنعمر نحن بالعامر الخراب. ونحن فما اشتهينا نتمم أذيتك، لأن خلفك أعداء كثيرين، وأنت أبت، فهذا موجب إبقائنا عليك رحمة. وأما قولك: عندك ملوك وعندنا ممالك، فالذي عندك ممالك أيضاً. وأخي مجير الدين أقدر أنه قد

مات، ولي عدة إخوة وأولادهم جماعة، وأهلي مايناhez ألفي فارس من بيتنا، ولي من يكفلني ويخلفني ويكفيني ماورائي، وأنت فما لك أحد». وسير جترخان إليه في الجواب، وكان خواجهان نازلاً بمنوشهر (٥٤).

فيها: كما تقدم كان وصل الكمال بن مهاجر وصحبته تقي الدين. وحكى أن زوجة الخوارزمي، التي كانت عند الخليفة، كان قد جهزها إليه قبل الكسرة، وأعطاه عطاء لم يُسمع بمثله، وسلمها إلى رسل الخوارزمي الواصلين إليه بسببها، بعد أن توثق لها منه غاية التوثق، فلما وصلوا إلى إربل، سمعت بكسرة الخوارزمي، فقالت: «ما بقيت أروح من هاهنا، إلى أين». فجهدوا بها، فأبت. فقال صاحب إربل لغللمان الخوارزمي: «تروحون من عندي، وإلا إن طلبكم الأشرف ما أقدر أحميكم». ثم نفاهم من عنده، وعادت زوجة الخوارزمي إلى العراق أقامت به.

وفيها: طلب المظفر غازي من الأشرف أرزن، فأنعم عليه بأخذها ورسم بتوقيعها، ووصل قاضي أرزن ابن الشهرزوري العماد بهدية إلى الأشرف وتهنئة بالكسرة، ويعتذر بمرضه عن تخلفه، فقبل هديته وقال له: «حديثكم مع أخي المظفر، إن رضي فلا أي كلام» فلما توجه هذا القاضي المذكور إلى المظفر سسر اعتقاله يومين ثم قال له: «هذه أرزن لي مابقي فيها كلام، والمصلحة تسليمها إليّ، ونعطيه ما يتبلغ به بقية عمره». وزوجة صاحب أرزن ابنة الأوحى بن العادل فما رعيت في ذلك، ثم إن المظفر سير إليها حاصرها، ونصب مجانيق عليها، وسير الأشرف الجمال الكاتب إلى صاحبها فما أجابه، فلما تواتر الحصار وعان أخذها وعجزه، قال صاحبها: «ما سلمها إلا إلى الأشرف، وثوقاً بأنه ربما أبقاها لبيتته وكبره ولأخته وخدماته، حتى إنه أسر بخلاط ومشى مدة مع كبره راجلاً في ركاب الخوارزمي».

وفيها: سيّر الأشرف شمس الدين التكريتي إلى الكرج وإلى صاحب الدربند شروان. فقال له شروان: «تعرف صاحبك أنه كان عندي جماعة من الخوارزمي ليتناولوا من مغل بلادي الثلث فقتلتهم جميعهم، وقد سيّرت إلى الكرج أيضاً استنجدتهم، والخوارزمي فقد توجه إلى توزير بعد أن كان قد جمع واستخدم زيادة على من عنده ألف فارس، ولاشك في خوفه من التتر، والتتر قد خرجوا عليه، فتعرفه ذلك.

وفيها: وصل ابن صاحب سُرمّاري الأصيلي وتلقاه الحافظ وكريم الدين وقابيا.

وفيها: قبض الأشرف على حسام الدين خضر وابنه صاحب سُرمّاري المقدم ذكره، لأنه كان قد أساء كثيراً عند تملك الخوارزمي وإعطائه له أرجيش، وحمله بعد ذلك إلى دمشق.

وفيها: بأرجيش أيضاً وصل كتاب إيواني ملك الكرج، هو الأشرف مضمونه: «إن كتاب الخوارزمي قد وصلني ابتداءً لاجواباً، وقد سيرته على مافيه. وعلى رأس الكتاب ترجمته:

داعيه منكبرتي بن السلطان محمد بن السلطان سنجر. وإنما ابتني تبعث تقول لي: «دار الخوارزمي لأجلي» وكان قد بعث إيواني هذا سيفاً للأشرف صحبة الكتاب، لأن عادة الكرج إذا ظفر جارهم سيروا له سيفاً. وقال: «قد عرفتكم صورة الحال، وأنا على ماتعهده من المعاهدة».

وفيها: شرع السلطان الملك المجاهد صاحب حمص في عمارة قلعة ببلد سلمية، كانت قديمة على رأس جبل يعرف بشُمَيْميس، وما طاب ذلك لصاحب حماة، واجتهد في إبطائها ظاهراً وباطناً، فجمع السلطان الملك المجاهد غلماناً وأصحابه وعسكره ورعيته وجماعة من العربان، وكان قد

حصل جميع الآلات، وشرع فيها جملة واحدة بنفسه وأولاده أيضاً ما خلا الملك المنصور ولي عهده، لأنه كان بأرجيش بعسكره، وأدارها بالعمارة وتسوير سورها في سبعة أيام، بحيث إنها صارت تمنع من يقصدها، ودار الحرس عليها تلك المدة، ثم بعد ذلك كمل عمارتها كما ينبغي؛ ورتب الولاة والأجناد وحمل إليها الذخائر في تلك السنة وسماها ماردين الشام، وهي كذلك لأنها في غاية المنعة والحصانة وحفر فيها عدة آبار، وعمل عدة صهاريج وملاها ماء، وخرّب برجاً كان قد عمل في سلمية قديماً في وسط البلد، وكان قد خرّبه الملك المنصور بن تقي الدين رحمه الله قديماً، فلما صارت سلمية لولده المظفر بأمر السلطان الكامل أعاد عمارته، كما كان أولاً، فنظر الملك المجاهد في أمره فخرّبه ونقل حجارته وآلته إلى قلعة شُمَيْمِيس، وقد كانت انتقلت من المظفر المذكور بأمر الكامل إلى الملك المجاهد، فعمّرّها وحصنها، وكم له من عمارات حميدة، وآثار سديدة. وكذلك عمّر قلعة حمص ورفعها عما كانت عليه، وحصنها وعمق القنوات وأجرى الماء في المدينة وعمل البساتين، وتجرفت المياه في جميع أرضها الغربية، وزرع الأرز عليها وغير ذلك، وأطاعه العصا، وهذا لم يقدر عليه سواه من الملوك الذين تملّكوا حمص. وكذلك عمّر قلعة الرحبة كما تقدم، وكذلك أنشأ قلعة بتدمر على جبل عال منيع حصين، وخرّب برجها الذي كان في المدينة. كل هذا خوفاً على الرعايا، وجدد بحمص بيمارستاناً عظيماً، ورتب فيه ما يحتاج إليه. وأوقف عليه وقوفاً، ولم يكن قبل ذلك. وعمّر مدرسة جميلة غير المدرسة النورية أولاً. وهذا وكم له من اصطناع وصدقة ومعروف وبرّ لاسيما إلى من يقصده، وكم له من واقعة مع الفرنج صارت تواريخ، وكذلك مع العربان السرايا وغيرهم، وأبدأ يسترد منهم الغنائم ويطاردهم هو وأولاده في البرية اليومين والثلاثة.

وفيها: بأرجيش كان خواجهان قد طلب من يصل إليه يحذّثه فيها

يتفق بينهم، واتفق الأمر على أن المظفر غازي يسير إليه من عنده رسولاً فعاد المذكور من عند خواجه جهان وصحبته رسول من عنده، واتفق وصول هذا الرسول بكرة نهار عيد النحر، فأمر الأشرف العساكر والملوك وعسكر الرومي أن يلبسوا ويتجملوا، وأن يدخل بين يديه جميع الأكابر في الحلقة، وأن يحضروا رسول خواجه جهان لاعتن قصد وترتيب، يتفرج عند وصوله برانية من الطريق؛ فحضر وأوقف بمعزل بمن معه ورأى العالم وكثرته وحسن ترتيبه، ثم حمل إلى مخيم المظفر، ونزل بخيمة لبّاد، كان قدّمها له الملك المعظم صاحب الجزيرة، وحضر الناس الخوان، ثم انصرفوا وفي غد العيد أحضر رسول خواجه جهان عند الأشرف، وسمع رسالته وإخوة الأشرف كلهم قيام في الخدمة، وأكابر الأمراء تعظيماً لحاله، وصرف الرسول بعد ذلك، واجتمع آراء السلاطين على الجواب، وسيروا به الحكيم سعد الدين بن الموفق الدمشقي طبيب الأشرف الدمشقي لأنه يعرف بالعجمي، وسار إليه.

وفيها: في عشرين ذي الحجة بأرجيش قبض الملك الحافظ على كاتبه محمد بن علي بن نظيف الحموي، وأخذ جميع ما يملكه من ممالك ودواب وذهب وقماش ورخت وغيره، وحمله إلى قلعة جعبر ليلاً، وذلك لكثرة سكره. وكان سبب ذلك أنه طلب أحد ممالكه فما امتنع عليه. وقيل له غير ما بذله من نفسه في ذلك القبول، ووقع النشب به، فلما أفاق من سكرته، ندم، وما بقي يمكن إلا الإتمام لما فعله. وكان هذا كله بعد أن خلع عليه خلعة العيد، وأخوه أيضاً.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستائة

فيها انتقل الأشرف إلى خلاط ليرتب أحوالها ويتنظر رسول

الخوارزمي، فوصل الرسول صحبة الحكيم سعد الدين وحلّف الأشرف في البلد. ثم بعد ذلك أطلعه القلعة وشرب معه وأنعم عليه وأعادته. ورتب الأشرف مماليكه والعسكر والديوان بها، وكان قد نqm على حسام الدين القيمري، وفتح الدين بن دلدرم الياروقي، ففارقاه وخدموا لصاحب آمد، ثم توجه الأشرف إلى أرزن فتسلمها، وسلمها إلى المظفر وأعطى دستوراً للعساكر، وسار صحبته الحافظ وصاحب الجزيرة ووزرائه، وفارقه السلطان الملك المنصور إلى الرحبة، لأن والده السلطان الملك المجاهد كان قد وصل إليها، فأقام الأشرف بدارا يومين ثلاثه، ثم انتقل إلى نصيبين وبقي كذلك، ثم توجه إلى سنجار وبقي مدة يفترج بها صاحب الجزيرة وقال له: «تجيء إلى دمشق فتفرج فيها أياماً» فما أمكنه مخالفته، فسار معه، فلما وصل إلى قرقيسيا بلغه أن السلطان الملك المجاهد وقع في الصيد عن فرسه، فساق إليه جريدة افتقده، فأطلعه إلى قلعة الرحبة وقدم له كما جرت العادة، واستحسن القلعة وشكرها كثيراً، ثم سار إلى دمشق، وفارقه أخوه الحافظ إلى قلعته، فأقام الأشرف أياماً يسيرة بدمشق، ثم توجه، وبقي الملك المعظم مقيماً بدمشق يتفرج، إلى أن سیر إليه استدعاه للظلوع إلى مصر، فسارا إليها، فتلقاهما السلطان الملك الكامل، وضاعف احترام صاحب الجزيرة وأعطاه عطاء كثيراً، ثم تركه والأشرف، وسار إلى الاسكندرية، ثم عاد وفرج صاحب الجزيرة في دمياط وغيرها.

وفيها: شفع صاحب الجزيرة بمصنف هذا التاريخ محمد بن علي بن نظيف إلى الأشرف بمكاتبتة إلى مخدمه الحافظ بإطلاقه، فكتب الأشرف في ذلك، وأمر الحافظ بإعادة جميع ما أخذ له عن آخره، وأن يحسب جميع ماله ولماليكه من حين قبض وإلى حين الإفراج عنه، ويعطاه جملة ويضاعف حرمة وما كان له، «ولا تمكنه من المفارقة لنصل ونحسن إليه» فقبل شفاعته وأطلقه بعد تحليفه ألا يفارق خدمته. وجميع ماردة عليه من

جميع ما أخذه له: مملوكان كبيران لاغير، وأربعة دواب. وكان كل وقت يمينه ويعده، فأطال عليه وخاف من غدره، فتسحب ليلاً إلى الرحبة من قلعة جعبر، فوجد المولى السلطان الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم ولي عهد والده فيها، فأحسن إليه، وخلع عليه خلعة جميلة، وحمل له جميع ما يحتاجه، ورتب له بعد ذلك راتباً معتبراً من طعام وحلاوة وشمع وقصيم دواب، ثم كاتب السلطان المجاهد به، فوصل كتابه إلى الولاية بتقرير راتب كفايته وزيادة، وأطلق له أشياء، وبسط أمله وأمره بالمقام فيها، إلى حين وصوله فبقي في خدمة السلطان الملك المنصور في أحسن كرامة إلى أن استدعيا إلى حمص. فتلقى ولده السلطان الملك المجاهد إلى سلمية، ولقيه المذكور، فبسط أمله وأحسن إليه، وأطلق له جملة، ورتب راتبه الذي كان له بالرحبة، وأطلقوا له أولاده كلهم على طبقاتهم، وأحسنوا في حقه إحساناً كثيراً. ونقل بيته إلى تحت ظله بحمص، ورتب جامكية تكفيه وزيادة مع الإحسان المتتابع أولاً وآخرأ. وكم له مثل هذا مع من يقصده.

عدنا إلى حديث الأشرف بمصر وصاحب الجزيرة، وهم في ضمن لذتهم دخل التتر إلى البلاد، فلما تحقق الخوارزمي قصده التتر له أطلق مجير الدين بن الملك العادل الذي كان في إسماره ومملوك الأشرف بكتمر الأحول، وسير صنجبهما رسولين من عنده، وقال له: «نفسك لك. فتعترف أخاك الأشرف بالتتر، فما هم قليل، وهم أعداء الدين» فوصل مجير الدين وتلقاه صاحب ماردين وأحسن إليه، ثم تلقاه الخافظ إلى قرب حران وحمله إلى قلعته، وضاعف إليه الإحسان وإلى الأمراء الخوارزمية، ثم سار بهم قاصداً الأشرف، فأقام بدمشق أياماً، ثم طلع إلى مصر هو وأخوه تقي الدين عباس فأحسن السلطان الكامل إليهما، وأما الخوارزمي فإنه تسحب بمن كان معه إلى آمد من خوفه من التتر، فقصد آمد وقال لصاحبها: «مانكلفك نجدة ولا إقامة، بل إن تبعنا التتر واحتجنا تكن

آمد ظهرنا» قال: «نعم وكرامة» فلما وصل التتر وأغاروا على الخوارزمي وكبسوه ليلاً، ومعه الأمدي في عدة له يحمل أثقاله وقماشه، وسار خائفاً، وتفرقت أصحابه في تلك الخطة لايبتدون على مسير أما الخوارزمي فإنه ما علم أي جهة أخذ وقالوا: «قتل» وقالوا: «لا بل في الحياة» وتسحب خاله ومعه جماعة إلى المظفر غازي والباقون تشعبوا في الجبال لاسيما جبل ليسون. وزوجة الخوارزمي وسراريه وخدامه وقطعة كبيرة من عسكره، طلبوا أماناً من صواب. فأمنهم ثم غدر بهم، فنهبهم هو وعسكره، وأخذوا أموالهم، وأحيط بزوجته في قلعة حران، وبعد ذلك استدعيت إلى دمشق أقامت بها.

وأما التتر فإنهم قصدوا الجهة التي قصدها الخوارزمي ودخلوا الجزيرة ونهبوا وقتلوا وسبوا وعاثوا في البلاد، وبلغت غوارتهم إلى الجبال بسنجاره وقتلوا نصيبين، وجرى لهم بسعرد من القتال والقتل والغدر ما تجاوز الحد. وما يعلم مقدار من قتلوه منها وما نهبوه، وكذلك دنيسر قتلوا أهلها وسبوه وأحرقوا الجامع وكان قد احتسى به جماعة فحرقوهم في الحملة، وعادوا عن حمية إلى مواضعهم، وما وجدوا في الجزيرة من رد ثم لهم نشاباً، وقد ذكر أن هؤلاء الغوارة ما بلغوا ألف فارس، وفعلوا في البلاد ما فعلوه وأخافوا الناس وارتحلوا من الجزيرة إلى الشام، وجلا أهل رأس عين الخابور وغيرهم ودُرِّبَت دروب أكثر البلاد وامتنعوا من فتحها وكل هذا والأشرف وصاحب الجزيرة عند السلطان الكامل بمصر.

وفيها: قفزت الباطنية على أحد رسولين جاء من الخوارزمي، أحدهما يقال له المخلص، قتلوه بدمشق، وكان له أموال، فأخذ الجميع الملك الصالح، وقالوا: إن الباطنية كان بينهم وبين والد المخلص عداوة أوجبت ما فعلوه. واتفق وصول رسل التتر واجتمع بهم السلطان الملك المجاهد بحمص، ووصلوا إلى دمشق، فخاف عز الدين بلبان الرسول

الآخر من الخوارزمي على نفسه، فهرب بجماعة معه، وتسحب إلى شاطيء فرات الرجة، فنزل عند عرب غدروا[به] وأخذوا ماكان معه. وكان معه جماعة قطعوا الفرات وبقي هو، وسير الصالح بن العادل خلفه، فقبض بوالي قرقيسيا وكان السلطان الملك المنصور في الرجة إذ ذاك، فأحسن إليه، وجّهز إلى دمشق من الرجة.

وفيها: وصل رسول الخليفة إلى الديار المصرية بالخلع والتقليد، بقي مدة لم يجتمع بالسلطان الكامل، وكان الغرض من تأخيره ماقد استوفيناه في تاريخنا الكبير، ثم بعد ذلك وصل السلطان الملك الكامل في البحر، وخلع عليه وقلد تقليداً لم يقلد به غيره من سائر الملوك من بيت العباس، وزادوه زيادات عظيمة في التقدمة له والقول، وكذلك للأشرف، وكذلك لولده الصالح، ولمن عينوه، وخلعة للوزير. فقال: «مالي وزير» قيل: «هذه عادتنا معكم» فبقي أياماً. ثم أعطاها لكتابه الفخر سليمان بن الحباز الدمشقي؛ لأن أباه كان خبازاً بها مشهوراً.

وفيها: خرج الملك العزيز صاحب حلب ودار في جميع بلاده، وذلك أول خروجه إلى البلاد.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

فيها كثر الإرجاف بعود التتر إلى الجزيرة، بعد أخذهم كنجة وقتل كل من فيها، لأنهم كانوا قد تديروا موغان وبها شتوا، وصاروا يغيرون ويعودون إليها، واهتم الخليفة اهتماماً عظيماً، وكثرت رسله إلى الكامل والأشرف في نزولهم الشام، واستخدم الخليفة عرباناً كثيرة وغيرهم من أجناد، وبذل الأموال، وبقي في نفسه فعل التتر في بلاد الجزيرة.

ثم إن التتر عادوا إلى الجزيرة طمعاً بأهلها، فنهبوا أيضاً وقتلوا وسبوا ووصلوا إلى جسر بذايا، ودخل بعضهم عليه، وأخافوا كل البلاد من قوتهم وإقدامهم وتسحبوا من بين أيديهم. فنزل الأشرف إلى الشام، وصحبته صاحب الجزيرة، وقد وعده السلطان الكامل بلحاقه، وتقدم الكامل نزول العساكر المصرية إلى الشام، وتجهزوا وقدم عليهم فخر الدين عثمان أستاذ داره، فلما وصل الأشرف تلقاه إخوته والسلطان الملك المجاهد وأولاده، ووصل الملك المظفر صاحب حماة للقاء الكامل، فلما وصل الأشرف قدم له الملك المجاهد مقدمة حسنة على يد الأمير صفى الدين سودان، وفارق صاحب الجزيرة الأشرف عائداً إلى بلاده، وتحمل للبيكار. ونزل الكامل في هذا الشهر إلى الشوبك، أقام به مدة، ثم وصل إلى دمشق وتلقاه الناس، وأمر المظفر بأخذ ابنته والدخول بها في دمشق، ففعل ذلك. ووصلت ابنته أيضاً زوجة صاحب حلب الملك العزيز، وسار معها قاضي العسكر المصري وفخر الدين البانياسي، وتلقاه عسكر حلب مع بعض أهلها إلى حماة فكان عرساً عظيماً.

وفيها: استبد الملك العزيز صاحب حلب برأيه، ورفع أتابك شهاب الدين يده ولسانه، فقطع العزيز جماعة أمراء وأخذ أخبارهم.

وفيها: صالح صاحب الروم الأشكري، وأخذ أموالاً كثيرة من بلاده بسبب خروج التتر.

ووصل عسكر الكامل، وفي مقدمته ولده الملك الصالح، وكان فوّض ولاية العهد عند نزوله من مصر إلى ابنه الصغير الملك العادل، ورتب وزيره المعين ابن شيخ الشيوخ، ثم صارت العساكر تتبع بعضها بعضاً أولاً فأولاً، فأخذ الملك المجاهد دستوراً وتقدم إلى حمص لإتمام أشغاله. ووصل الكامل إلى سلمية. وحمل له من الإقامات حاجاته، وكذلك حمل إلى سائر الملوك. ثم سار وعيّد في الطريق، ووصل حرّان ونزل بها، ووصل عسكر حلب. هذا والتتر قد أحاطوا بقلعة خلاط ولم يبق إلا تسليمها، فرحلوا عنها يداً واحدة خوفاً من السلطان، ونزل من كان بها مثل شيرون سبع مجانين أحد الأمراء الأشرفية وقال: «لو صبروا يومين ثلاثة أخذوها، وإنما فرّج الله عنا بركات السلطان».

وفيها: سيّر الملك الكامل عماد الدين [ابن] شيخ الشيوخ إلى الخليفة من حرّان.

وفيها: وصل مملوك فخر الدين ابن شيخ الشيوخ من مكة يخبر أن صاحبه أخذ مكة واستحلفها، فما أعجبه وقال: «نحن أمرناه بأن يصل اليّنبع لاغير، من أمره بأخذ مكة؟» فما طاب له ذلك.

وفيها: بحرّان كتبوا مهر ابن سلطان الروم الذي من ابنة العادل على ابنة الأشرف.

وفيها: وصل الخبر بوصول ابن الجوزي من الخليفة، فاهتموا بلقائه. وكان الأشرف غير طيب القلب لصاحب آمد، وقد نزل الكامل على

قصده، وكان قد سير الأمدي وزيره شرف العلاء إلى الملك الكامل بتقدمة، وإلى الأشرف، فقبلها الكامل ولم يقبلها الأشرف، وضبطوا شرف العلاء عندهم بحرّان مدة مقامهم، وصاروا يهتمون بقصد آمد، وشرف العلاء يغلط مخدمه وما يصدقه ذلك. والأمدي يواصل بالهدايا ولا يجترز لنفسه، ووصل إليه رسول الرومي وطيب قلبه وقال: «لا تخف أنا أصل إليك بنفسي» فلما كان قويت عزيمتهم على قصد آمد، فسار السلطان الكامل إلى الرّها، وأمر العساكر بالرحيل أولاً فأولاً على تعبئتها ميمنة وميسرة وقلبا. ثم أمر بتلقي رسول الخليفة ابن الجوزي، وإتيانه إلى أي موضع كان به، وهذا وقع إهانة له، فلم يجتمع به إلا على السويداء على السباط أيضاً، ولم يخرج على الطريق أحد له، وتسحب على السويداء، رحل طالبا آمد، فحيث تحقق الأمدي القصد له. فرتب بلده كما جرت العادة من غير أجناد ولا رجالة ولا من هو طيب قلب منه، ووصل رسوله إلى السلطان الملك المجاهد ليعمل نوبته مع السلطان الكامل، ولم يبذل إلا ذهباً، ولا طلب بعض البلاد ولا نزل عن شيء، ولو كان طلب ذلك لهان، ولم يزل في قلة عقله، إلى أن احتاطت العساكر بها من كل مكان، وحمل شرف العلاء إلى الرها تحت الحوطة، فلما نزل عليها جاءت تقدمة المارديني ورسله، ثم وصل من عسكره ألف فارس كما ينبغي، وبذل من نفسه أشياء، وسيّر دسوس خيم معتبرة من أكسية مغربية ولباد للسلطان والأشرف والملك المجاهد والناصر بدمشق.

ثم شرع الأشرف في عمل آلات الحصار والزحف وكذلك الكامل والملك المجاهد وكل الملوك، وشرعوا في عمارة آدر للكامل والأشرف، وفيما هم في مثل ذلك، وقع عزم السلطان الكامل على الزحف؛ ورتبوا المجانيق واتفق الزحف عليها من كل جانب بعد صلاة الظهر إلى قبل العصر، فأخذت النّقابون النّقوب في الباشورة، وكشف الرماة الأسوار

بنشاب أكثر من المطر، بحيث دخل معظمه في أحجار السور، ثم شرعوا في نقب السور الكبير، فطلب أهل البلد الأمان واستغاثوا فوَقعت الرحمة لهم من الكامل ومن سائر الملوك والناس، فأمنهم وطلب صاحبها الأمان فلم يجبه، ثم بعد ذلك سأل الأمان ليلاً بصاحب حماة المظفر، وشمس الدين صواب على نفسه، فأجابه إلى ذلك وأعطاه منديله. وكان الناس قد هجموا البلد، ونهبوا معظمه، فخرج المسعود صاحب آمد، ومنديل السلطان الكامل في رقبته، ومعه صاحب حماة وصواب، ووصل إلى عند الكامل فأمكنه من النزول، وتلقاه وأنزله عنده أولاً، وصارت الملوك يسلمون عليه عنده، ثم نقله بعد ذلك إلى الخيمة، التي كان سِيرها المارديني للكامل بدهليزها وبيوتها وكان عنده شهاب الدين أحمد، ثم انتقل الكامل إلى البلد، ونزل في آدرها، وكذلك الأشرف وأخلى الملك المجاهد البيارستان، والناصر والعزیز ودخل البلد من قدر على دخوله، ورَّتب لصاحب آمد في الخيم مطبخه، لم يغيره ولا منع منه بعض غلمانِه وجهداريته وأمير جانداره وفرس النوبة في الكرْد آخر، كما جرت عادته، وكتب به خطه وأعطى السلطان أوراقاً بعلائم قلاعِه جميعها بالتسليم، ما خلا حصن كيفا فإنه قال: «ما هو لي ولا في حكمي»، ولا يقبل شيء في أمره» ثم بعد ذلك سَير الكامل إلى القلاع وتسلم بعضها، وخطر له أنه يخرب معظمها ووصل أولاد صاحب ماردین إلى الخدمة، ولي عهده وأخوه، للتهنئة، فتلقاهم وأكرمهم، وأنزلهم عنده في تلك الآدر، ثم نقل الملك المسعود صاحبها إلى البلد وأنزله في طيارته التي يجبها، و[رتب] الجاوش والجاندارية والسنجق والدوشاخ^(٥٥) والجمدارية كعادته. وبالع في إكرامه، وصار له من الراتب جملة، وأطلق له جميع ذخائر القلعة، وكان فيها جملة، فحملها إلى بيته بالقصر، وأباع

نوابه جملة، وكان نازلاً في القلعة صاحب الجزيرة وصاحب حماة، ثم سير الكامل حجَّارين إلى قلعة الجبابرة^(٥٦) خربها، وإلى أكَل خربها، واتفق

أن صاحب [الروم] أفسد عليه قلعة كركر، وعصت بعد أن كان قد سَير إليها مثقال الجمدار وابن قيسوم يتسلماها، فعصت فطلبها^(٥٧) من الأشرف أن يسير إليهم من عنده إلى نائب صاحب الروم بحكم الصداقة، فسير إلى صاحب السويداء مرتين، فما قبلوا منه، وقيل: إن الرومي شراها بألفي ألف درهم وخمسين ألف درهم. فعادوا أشاروا على السلطان الكامل ترك باقي القلاع ولا يخرّبها فتركها وندم على ماخرّبها، وصار الكامل يشرب عند صاحب آمد، ويوعده منه إليه بكل خير ويطيب قلبه، وسير الصلاح الإربلي والبانياسي بألف فارس إلى حصن كيفا وفأوضهم ووعدهم بأشياء يبتغيها عليهم، فلم يقبلوا، وأصرّوا على العصيان، ثم سَير صاحب آمد أمه صحبة قاضي العسكر الحسيني، شتموها وما أجابوها، وعاد قاضي العسكر مريضاً، وصار كلما لجّوا في العصيان، حنق الأشرف والكامل، فاقتضت الحال التضيق على صاحب آمد والإهانة له وعصره، ففعلوا به ذلك، وعصروه وقيدوه. وهم في هذا وصل محيي الدين بن الجوزي من الخليفة يهنئ بآمد ويشفع لصاحب الموصل وإربل، فقبل الشفاعة وحلف لهم، وطلب أبو فراس أمير الحاج العراقي دستوراً إلى بغداد وقال: «أريد تظهر آثار نعمة مولانا عليّ في العراق» وكان قبل ذلك قد عاد والده إلى العراق. وسلم إليه جميع أملاكه، فوعده الكامل عند عوده إلى الشام يعطيه دستوراً، وتجهز رسول الخليفة عائداً إلى بغداد والشيخ عماد الدين ببغداد مريض.

ثم إن السلطان الكامل حنق على الرومي لأشياء منها منعه التركمان من الوصول بغنم أو غلّة، وقضية كركر وكرفازاك، وكان قد عصى مع حصن كيفا عدة قلاع مثل الجديدة، والقرشية، وقلعة نجم والهيشم وباتاسا وغير ذلك. قالوا: «خذوا الحصن ونجم تسلم من غير قتال» فاتفق الحال على الرحيل عن آمد بعد أن رتب الملك الصالح فيها

وصواب وتعيين من عينه من العساكر فيها والذين يستخدمونه عليها، ويتوجه الملك الأشرف بنفسه إلى الحصن يفاوضهم، فإن سلموا فلا كلام، وإلا تركوا عسكرياً ورجالة إلى الربيع. وأعطى السلطان لعسكر ماردین دستوراً قبل باقي العساكر، واتفق أن السلطان الملك المجاهد يرحل أيضاً، أما الأشرف فإنه قطع الشط سائراً إلى الحصن، وبعده إلى سنجار يشتي بها ويعود إلى الحصن، وبات عنده السلطان الكامل، وودّعه ليلة مسيره، وفي بكرة تلك [الليلة] تبعه الملك المجاهد ودّعه، وكان قد سار هو والمظفر والحافظ وابن المغيث إلى الحصن، فلما عاد الملك المجاهد حمل ما يناهز مائة خلعة معتبرة لأصحاب السلطان الكامل بعد إذنه له على يد بهاء الدين مروان بن قابيا، وحملها وودّع الكامل إلى رأس عين الخابور، ومنها قصد الرحبة وأعطى دستوراً بعد أن أطلق لهم وأحسن إليهم وسار هو وجميع أولاده إلى الرحبة. وأما السلطان الكامل فإنه كان قد قدم عليه القاضي شهاب الدين قاضي الرقة، فأحسن إليه غاية الإحسان وفاوضه في أحوال الرقة وظلم الجواد لأهلها، وأنه مابقى فيها خمسمائة نفر، فرفع يد الجواد منها وسلمها إليه، وكتب له توقيعاً بإعادة من كان نزع منها، وفاوضه في كمال الدين بن شيخ الشيوخ، وذكر أنه قد عزله لما قيل عنه من ظلم وجهل بالعمل وأخذ الأموال وغيرها، والله المطلع على صحة ذلك وسقمه. ثم سار الكامل وترك الملك الصالح مريضاً، ورتب عنده أطباء وسار إلى السويداء أبصرها، وتلقاه كمال الدين إليها بالإقامات كما جرت العادة، ثم قصد الرها نظر في أحوالها وولى وعزل ورتب، ثم وصل حران، فقبض على كمال الدين ووكل عليه، ثم نقل بيته إلى الرها، ونقله هو إلى قلعة حران. وقبض وكيل بيت المال النجم الفقيه المغربي، أخذ منه أموالاً وقبض على السامري الذي كان أسلم على يد الملك الأشرف وأخذ منه عشرة آلاف درهم، ثم قطع يده، ثم من الجمال بن الصلاح شيخ الخوانك ومشهد الذهباني، وأخذ منه ستة آلاف درهم، وغير هؤلاء، كل هذا

بسبب كمال الدين. وولى البلاد لتاج الدين بن شكر والتقي بن حمدان مستوفي البلاد.

ومات في هذه السنة فخر الدين عثمان أستاذ الدار بحران بعد مرض طويل.

ومات النجم بن الحمصي مشدّ الديوان بمصر كان ثم بآمد عند فتحها.

وابن الشهاب أحمد.

ومات والي الإسكندرية.

ومات ابن الملك المغيث بن العادل ونقل إلى دمشق.

ومات خلّاق أخر على آمد.

ومات شمس الملوك ابن ابن صلاح الدين، كان الكامل ربّاه، يحبه ويثق به.

ولما دخلت سنة ثلاثين وستائة

كان السلطان الملك الكامل قد رتب ولده الصالح بها كما قد تقدم ذكر هذا، وأما الأشرف فإنه سار إلى حصن كيفا بمن ذكرناهم وتبعه الصلاح الإربلي وصحبته صاحب آمد^(٥٨) مقيداً، فلما حضر عندهم تحت الحصن قال لهم: «سلّموه إلى نواب السلطان الملك الكامل، فقد والله أحسن إلي غاية الإحسان، ووعدي وعوداً جميلة، فلا تحرموني إياها

وبقية إحسانه» فقالوا له: «أنت أحلفتنا لك ولولدك، أحضر لنا فتياً بأن ماتلزمنا اليمين» فأحضر لهم فتياً، فما قبلوا وهم أربعة ولاية، وأركبوا ولده في الحصن، ورفعوا السنجق على رأسه، وسلطنوه ومشوا في ركابه، ثم اختلفوا على التسليم وعدم التسليم، وفتحوا الخزانة، وأخذوا باطية ذهب من ستين ألف دينار مصرية، قطعوا منها قطعاً وتقاسموها بأمر أم ولده. واتفق نزول واحد من الحصن حضر عند الأشرف فأعطاه عطاء كثيراً وخلع عليه خلعة عظيمة، فسار تحت الحصن ورأوها عليه فرمى الناس أنفسهم من الحصن، وعلقوا الملك المسعود فقام قبالتهم، فأجابوا إلى التسليم وحشوا الأشرف على جمع ما للمسعود فيها من أموال وعيال وأن يرتبهم على أخبازهم، ففعل وحلفوا هم، وفتحوا الحصن وأنزلوا جميع أصحابهم وطلع الأشرف إليها دارها. ومابات بها ليلة، وتسلمها صواب، وكذلك بقية الحصون وولوا فيها كما جرت العادة. ووصلت كتب الأشرف إلى السلطان الكامل بذلك، فتوقف إلى أن وصل الأشرف، وطلع هو وهو إلى دمشق، فأقام يَويَيات، ثم سار إلى مصر.

وكان قد وصل رسول من الفرنج يقال له سير ريمون على يده طير يقال سنقر قال: إنه شراه من داخل البحر بثلاثمائة أوقية ذهب بأمر الكامل، والعهد عليه في قوله. وخبر أن كسرة الأميرطور كانت صحيحة، غير أنه مابالي بها، وأنه قوي على البابا وغيره. والبابا في طلب مراضيه.

ثم وصل الصلاح الإربلي وصحبته صاحب آمد، أقام بدمشق أياماً، وشرى الآمدي فيها داراً وبستاناً وأباع بقية تيك الباطية، وقال صاحب آمد: «والله إن السيف الآمدي رجل عالم، كان قد عزم على الوصول إلينا» فلما سار عن دمشق، عزل الأشرف السيف الآمدي وأمر بخروجه من دمشق فشفع في حقه، فبقي فيها معزولاً وسكن المزة لا يدخل البلد.

وفيها: كان مانع بن حديثة قد خاف على نفسه من الكامل وتسحب إلى العراق وعمل معه الخليفة من المكارمة مالا عمله مع غيره.

وفيها: كان السلطان الكامل قد أمر الملك المظفر صاحب حماة بأخذ بارين وهم في آمد، فلما وصل إلى حماة اتفق نحس صاحبها الناصروسوء نخيلته وبخله، نفر من سائر جماعته ونفروا منه، وانقضوا كلهم عليه مع أخيه المظفر وعملوا العملة ثم سيروا إلى المظفر فحضر ليلاً وما أصبح الصبح إلا وهو محاصرها، ونصب المجانيق عليها، ورتب الرجالة، وراسله المظفر بالتسليم، فأبى وعصى تسعة أيام ثم لما عاين الظفر به طلب الأمان بنفسه وهم برمي نفسه من القلعة في هلهه، فأمنه المظفر وسكن روعه ووعدته بالإقامة فأبى وقال: «لا بد لي من مصر» فمكنه من أخذ أهله، وسار إلى دمشق فما مكّنه الأشرف من المقام بها ولا رآه، وقال: «يمضي إلى السلطان الكامل مهما رسم عملنا بمرسومه» وقد كان متمياً إلى الأشرف من حيث ملك حماة، وطلع إلى الديار المصرية، وأقام بها ذليلاً حقيراً لا يلتفت إليه ولا يلوى عليه.

وفيها: طلب الملك العزيز بن الظاهر بحلب شيزر، فأنعم بها الكامل عليه على لسان سيف الدين بن قليج، فجاء إليها وحاصرها يومين ثلاثة، فلما وصل العزيز بنفسه طلب صاحبها أمانه على نفسه وجميع الأموال، فأجابه إلى ذلك، فحلفه ونزل منها بجميع الأموال وولى في قلعتها ابن عثمان زردك وفي بلدها ابن دينار الكردي.

وفيها: أخذ الملك العزيز صاحب حلب من أتابك شهاب الدين طنغرل تلّ باشر غصباً ورفع يده من القلعة وولى فيها مملوكاً له، ونزل شهاب الدين إلى المدينة.

وفيها: وصل الخبر بأن صاحب مكة جمع خلقاً من عرب وغيرهم،

وأعانه ابن رسول من اليمن فأخرج ابن شيخ الشيوخ فخر الدين منها هارباً إلى الينبع وماكاد يسلم.

وفيها: مات الملك العزيز بن الملك العادل بدمشق، وطلع ولده الظاهر إلى عمه السلطان الكامل، فأحسن إليه وكتب له بخبر أبيه جميعه وبقي عنده مدة، ثم طلع الملك الناصر من الكرك إلى السلطان الكامل شاكياً فتلقاه، وودع ابن الملك العزيز.

وفيها: جدّد الأشرف داراً للحديث وهي دار قايماز النجمي.

وفيها: قبض على نواب دمشق مثل الشرف يعقوب وعلى القضاة وجمع المتولين وأخذ منهم جملة أموال.

وفيها: عاد مانع من العراق وانصلح حاله مع الأشرف ونزل بأهله الغوطة.

وفيها: عاد الملك المجاهد من الرحبة بأولاده إلى بلده، فمرض بعد وصوله.

وفيها: وصل محيي الدين بن الجوزي من الخليفة إلى الديار المصرية، وتلقاه الملك المنصور بحمص.

وفيها: خرّب الملك المظفر صاحب حماة مدرسة الحنفية التي في سوق الأسفل، وكذلك المسجد المعروف ببني نظيف على العاصي الذي لم يكن مثله في العمائر، وأمر بسد أبواب الأدر النهرية وبني سوراً قدّامها وسدّ باب الجسر الشمالي، وحوّل باب الثقفي من مكانه وبالع غاية المبالغة في الحصانة.

وفيها: شرع يعمل نعمة لقلعة بارين وحسن خندقها وحصنها.

وفيها: شرع المظفر أيضاً يعمل برجاً في الفحيم بوادي البرية من أرض حماة وحلب وسلمية، وكذلك عمل قلعة بالمرّة لم تكن قط وفرغ منها في بقية سنة إحدى وثلاثين وستمائة.

وفيها: صالح المظفر صاحب حماة الفرنج بحصن الأكراد على نصف ماكان لهم على بارين أولاً.

وفيها: وقع الإرجاف بموت مظفر الدين صاحب إربل، وجرى في موته ماقد استوفيناه مشروحاً في تاريخنا الكبير. وعلى الجملة ففتحها عسكر الخليفة بعد عصيانها عنوة. وقتل خلقاً كثيراً، وأحرقوا ونهبوا نهباً عظيماً. وبقي فيها الشراي وقُشْتِمِر وخواص الدولة.

وفيها: كان قد عبر الملك الصالح بن الملك العادل إلى سنجار بعسكر الأشرف ذخيرة لمن هم بآمد، فتلقاه الملك المنصور وإخوته وكان السلطان الملك المجاهد عاجزاً لمرضه عن تلقيه، ثم عاد تلقاه إلى البساتين وأطلعه إلى القلعة بحمص وقدم له أشياء ثم سار.

وفيها: أُلح الأشرف بطلب السلطان الملك المجاهد إلى دمشق. فلما صلح من مرضه طلع إلى دمشق، فتلقاه وقدم كل لصاحبه أشياء وعمل له دعوتين ثلاث في القلعة وفي بستانه وخرج الأشرف إلى الصيد بالحارثية وغيرها. وكان غنّام ومانع ومنيع وجميع العربان نزولاً في الغوطة، عملوا دعوة للأشرف فخرج إليهم بقي أياماً والسلطان الملك المجاهد بدمشق في البلد، واتفق أن خفاجة وغزية نزلوا بتدمير للأذية في البلاد، فاتفق الأشرف والملك المجاهد وأمراء العرب على قصدهم ونهبهم، ففعلوا ذلك، وجّهز الملك المنصور من حصن من كان عنده بها لأنه كان مقيماً بها، ولم يكن مع أبيه بدمشق، فأخذوا ونهبوا نهباً عظيماً من جمال

وغيرها. وكان أعاريب قد أغاروا على عرب الملك المجاهد من خالد، فاستعاد لهم أجهالهم في طلعتة إلى دمشق.

وفيها: مات الأمير مانع بالغوبة فحملوه ودفنوه بسلامية واتفق الأشرف والملك المجاهد على تأمير ابنه مهنًا وخلعا عليه.

وفيها: مات نجم الدين حسن بن الملك الحافظ وأبوه في غاية المرض.

وماتت أم الملك الصالح بن العادل.

وماتت ابنة الأجد زوجة المغيث.

ومات ابن الملك العزيز الظاهر بدمشق، بعد أن كان قد خلع في العيد الكبير على جمع أصحاب أبيه ما يناهز مائتين وأربعين خلعة.

وفيها: عاد ابن الجوزي من مصر، فتلقاء الملك المجاهد وأولاده وأكابر أهل دمشق والقضاة والفقهاء وأنزلوا بدار سامية والأشرف بالحارثية.

وفيها: وردت الأخبار بتمليك الرومي خلط، وأمر بعمارتها ونقل إليها الفلاحين والغلال وزرعها، ومتولى هذا جميعه حسام الدين القيمري، لأن الأشرف كان قد أحرقه لما قطعه ولابن دلدريم وخدمًا لصاحب آمد، فأما ابن دلدريم فمات. وأما القيمري، فأمر الأشرف صاحب آمد أن يمسكه، ثم عاد أطلقه، فسار إلى الرومي وخبره على ما قد فعل وقال: «أنا أفتح لك البلاد» وشرع في شيء بعد شيء، وخاف الناس بعد تمليكه بخلاط من الطمع بغيرها. لأن الرومي أخذ كركر وكُرْفَزَاك وبَابُلُوا^(٥٩) وجميع البحيرات التي لآمد وهذا في غاية القوة، وانضاف إلى ذلك خلط وعنده جماعة من العساكر الشامية وأتباع ابن كريم الدين الخلاطي.

ثم عزم السلطان الملك المجاهد على العود إلى بلده، فركب إلى الأشرف وودّعه في البرية، وقد جمع الخيول للسباق. ولما كان في وادي المضحين استهلّ هلال سنة إحدى وثلاثين وستمائة ليلة الجمعة.

وكان الأشرف بجيرود وفي عزمه لقاء رسول الخليفة بقارا، وكان الكامل والناصر بن المعظم عنده بدمشق، والمظفر غازي والملك الصالح وصواب بآمد، والملك الصالح إسماعيل بسنجار، والملك الحافظ وأخوه مجير الدين وتقي الدين عباس مرضى بدمشق وقد أبلّوا من مرضهم، والملك العزيز بحلب بحارم، والملك المظفر صاحب حماة بالمعرة لعمارة القلعة، والملك المنصور إبراهيم قد تلقى أباه إلى النيك.

وفيها: مات الإبرنس وسيّر الملك المجاهد يعزي ولده ويهنيه.

وفيها: مات للملك المظفر بن الملك المجاهد ابنان، وكان بحمص من الوباء والموت والأمراض مالا يُعبر عنه ولا سمع بمثله.

وفيها: مات أتابك شهاب الدين، طغرل أتابك حلب، وسار الملك العزيز إلى تلّ باشر يعشرها.

وفيها: مرض السلطان الملك المجاهد صاحب حمص وهو بظاهرها وأبلّ.

وفيها: كان قد وصل من السلطان الملك الكامل هدية من قماش وخيل وغيرها للملك المجاهد، فسير بعضها للملك الأشرف وقال: «هذه تصلح لطريق مصر».

وفيها: كان الملك الأشرف قد اجتمع برسول الخليفة ابن الجوزي على قارا.

وفيها: سار الملك المجاهد إلى الأشرف واجتمعا في الوادي الشرقي.

وفيها: وصل بدر الدين قابيا رسولاً من الأشرف إلى الملك المجاهد، بقي عنده أياماً بظاهر حمص ثم توجه.

فهذا جميع ماقد وقع في الاختصار من المتجددات إلى آخر هذا التاريخ وهو في ثاني عشرين صفر من سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ومهما تجدد فالمملوك يذيله ببقاء مولانا السلطان إن شاء الله.

وفيها: توجه الملك الأشرف إلى الديار المصرية.

وفيها: وردت الأخبار بأن ابن الكامل وصواب أغارا على بعض بلد آمد، الذي كان قد أخذه الرومي منه، بلد كركر وبابلوا وكُزفزاك ونهبوا، وكذلك عسكر الرومي أغاروا على بلد الحصن وأرزن وميافارقين، وأن الطائفة التي تأخرت من الخوارزميين عن الخوارزمي وبقوا في البلاد، جاءوا إلى خلاط أخذوا المدينة وشرعوا في حصار قلعتها. والله أعلم.

وفيها: ورد على الملك المجاهد بحمص رسول كيقباز صاحب الروم في شهر ربيع الأول، وكان الملك المنصور في الصيد، فاستدعاه والده بهذا السبب.

وفيها: سير الملك المجاهد هدية للفرننج وللإسماعيلية في الشهر المذكور.

وفيها: وصلت رسل التتر إلى إربل والموصل، واشتروا جمالاً وأقمشة، وأقيم لهم الراتب في الموصل بإذن الخليفة لهم في ذلك.

وفيها: سلطن لؤلؤ بالموصل، لابل أمر بسنجد بعصابتين وخلع عليه.

وفيها: في شهر جمادى الآخرة وصل ابن الجوزي من بغداد وخلع على ابن بدر الدين لؤلؤ وعليه لأنه ماكان خلع عليه مع أبيه أولاً.

وفيها: استخدم الخليفة أربعة آلاف فارس من الخوارزمية كما نقل الناقل.

وفيها: أمر الخليفة قُتُتَمِر أوقع ببني خفاجة وشاح بن درّاح فأغار عليهم وأخذ بقية رحلهم ونقله إلى بغداد، ثم ساروا طالين الشام، فانصلح لهم الخليفة وسير إليهم بأن قال: «نعتقد لكم جسراً بين الحديثة وعانة». فخافهم بقية العربان، آل عضية وآل يسار وزُبَيْد والحريث، واندفعوا إلى الجزيرة وغيرها. ولقد وقعت الإغارة على أسامة بن إبراهيم أمير بني كلاب في جسر الرقة، لأنهم عقدوه لهؤلاء العربان من خوف خفاجة.

وفيها: صالح الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب الفرنج الديوية على نصف قطعة بلد شيزر، على يد سيمون كاتب الأسبتار.

وفيها: كان قد جاء لهذا العزيز بنت من ابنة السلطان الكامل، فما طاب له، وسار من حلب يومين ثلاثة من حنقه ثم عاد.

وفيها: مات بهاء الدين مروان بن قابيا أحد أكابر أصحاب السلطان الملك المجاهد بالقاهرة.

وفيها: وصل السلطان الأشرف إلى دمشق من الديار المصرية إلى دمشق مهتما بالحركة

وفيها: خاف صاحب خرثبرت من الرومي، وسير إلى صواب بآمد يستصلحه.

وفيها: كان الصالح بن السلطان الكامل قد وصل من آمد إلى الزرّاعة
بحرّان قاصداً الرقة للتفرّج، فوصل كتاب السلطان الكامل أعاده
وكتاب صواب، فعاد وأقام أياماً برأس عين الخابور.

ثم لما أراد التوجه إلى آمد عبر بحرّان وأخذ قماشاً كثيراً وفراء وغيرها
نهباً من غير ثمن، وغلقت الأسواق وانتقل إلى الرها وفعل كذلك، وأخذ
قماشاً، أخذه له الوالي بها، ثم سار إلى آمد.

انتهى التاريخ المبارك بحمد الله وله الحمد والمنة

تمّ

من

التاريخ الصالحى — لابن واصل الحموي

.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كان استيلاء الفرنج على القدس، وكان من حديث ذلك أن الفرنج لعنهم الله خرجوا إلى بلاد الإسلام في ألف ألف فيما قيل، فملكوا أنطاكية وهجموا معرة النعمان بعد حصار شديد، وقتلوا أكثر أهلها، ولم تزل بأيديهم إلى سنة ست وعشرين وخمسمئة، فاستنقذها منهم أتابك الشهيد رحمه الله، ثم ساروا إلى الرملة فملكوها، وكان ابتداء خروجهم سنة إحدى وتسعين، ولما ملكوا الرملة خيّموا على بيت المقدس وقاتلوا أهله أشد قتال ثم ملكوه، وجمعوا من فيه من اليهود إلى بيعة لهم وأضرموها ناراً عليهم وقتلوا بها من المسلمين ما يزيد على سبعين ألف إنسان، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، ونيفاً وعشرين قنديلاً من ذهب، فما رزء المسلمون بأعظم من ذلك، ولم يزل القدس بأيديهم إلى أن استنقذه منهم الملك الناصر في سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة على ما سنذكره مبشروحاً في موضعه إن شاء الله تعالى، فكان مدة مقامه بأيديهم إحدى وتسعين سنة.

ابتداء أمر السلطان غياث الدين محمد بن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي

وكان من خبر ذلك أن السلطانين محمد وسنجر، كانا أخوين لأب وأم، فلما توفي السلطان جلال الدولة كما ذكرناه، خرج محمد مع أخيه السلطان محمود، فلما اقتتل السلطانان محمد وبركيا روق كانت أم محمد في عسكر السلطان بركيا روق، فخرج محمد إلى أمه مختفياً، فأكرمه أخوه السلطان بركيا روق فأقطعه كنجة وأعمالها، ولما دخل السلطان بركيا روق إلى بغداد وملكها توجه محمد إلى كنجة عامداً إليها، فاستولى على

إقليمها، واجتمع إليه خلق عظيم، وخطب لنفسه، وطمع في السلطنة، وعظم شأنه، وخرج إليه أكثر عسكر السلطان بركياروق فصاروا معه، فلما بلغ السلطان بركياروق ذلك خرج لقتال أخيه محمد، وبعث السلطان محمد إلى بغداد رسولا يطلب الخطبة له فخطب له في ذي الحجة من هذه السنة، وجرت له مع أخيه السلطان بركياروق وقائع نذكرها واحدة واحدة إن شاء الله تعالى.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة قدم السلطان بركياروق بن ملكشاه بغداد، وقُطعت خطبة أخيه محمد وخطب له بها، وحشد واجتمع إليه خلق كثير، وخرج للقاء أخيه السلطان محمد فالتقيا بمكان بقرب همدان، وكان الظفر للسلطان محمد، وانهزم السلطان بركياروق في خمسين فارساً، فقُطعت خطبة بركياروق وأعيدت خطبة السلطان محمد، وذلك في رابع عشر رجب، ثم اجتمع إلى السلطان بركياروق خلق كثير فلقية أخوه سنجر بعسكر فانهزم سنجر وأسر السلطان بركياروق أم أخويه محمد وسنجر، وكان سنجر قد أسر جماعة من أصحاب بركياروق فقال بركياروق لأُم أخويه: إنما أسرتك ليطلق أخى من عنده من الأسارى من أصحابي فأطلق سنجر من كان عنده، وأطلق بركياروق أم سنجر.

سنة أربع وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة التقى بركياروق ومحمد، فانهزم محمد وأصحابه، وعاد السلطان إلى بغداد فأعيدت خطبته وقُطعت خطبة أخيه السلطان محمد.

وفيها تسلمت الفرنج حيفا بالسيف وأرُسوف بالأمان، وصارت بأيديهم أكثر البلاد الساحلية.

سنة خمس وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستعلي بالله صاحب مصر، وذلك سبع عشر صفر، وكانت مدة ملكه سبع سنين وأشهرًا وأيامًا، ولما تولى المستعلي هرب أخوه أبو المنصور نزار بن المستنصر بالله إلى الاسكندرية وواليها يومئذ أفتكين مملوك الأفضل أمير الجيوش فادعى نزار بالاسكندرية الإمامة وتلقب بالمصطفى لدين الله، وبإيعه أفتكين على ذلك، فتوجه إليه الأفضل، فحاصره إلى أن فتح الاسكندرية، وعاد نزار وأفتكين فحبسهما ولم يظهر بعد ذلك لهما خبر، وإلى نزار هذا نُسب النزارية من الإسماعيلية.

بيعة الأمر بأحكام الله

هو أبو علي المنصور بن المستعلي بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم، بُويع له بالخلافة بمصر يوم توفي والده المستعلي، وعمره يومئذ خمس سنين، والقيّم بأمره ووليّه الأفضل أمير الجيوش، وإليه الحرب والأموال، وجميع الممالك.

وفي هذه السنة نازلت الفرنج طرابلس فحاصروها أشد حصار وصاحبها يومئذ فخر الملك ابن عمار، فاستصرخ بالمسلمين، فنهض إليه عسكر دمشق مع الملك شمس الملوك دُقاق، وجناح الدولة حسين

صاحب حمص، فالتقوا بالفرنجة، فكانت الغلبة للفرنجة، وانهزم المسلمون أقبح هزيمة.

سنة ست وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة نازل السلطان بركياروق أخاه السلطان محمد بأصفهان وحاصره بها، وكان قد توجه إليها عقب الواقعة التي كانت بينه وبين أخيه، فاشتد عليه وعلى أصحابه الحصار، وضائق عليهم الأمور، لقلة الميرة، فخرج السلطان محمد سراً في بعض أصحابه من بعض الأبواب، فأصبح على فراسخ من أصفهان، فبلغ السلطان بركياروق ذلك فجهز ورياءه رجلاً من غلمانه يقال له إياز فلحقه وقد نزل لضعف خيله من قلة العلوفة فذكره محمد اليمين الذي له في عنقه فتركه، ومضى السلطان محمد فحشد وجمع واستخدم ثم كانت وقعة بينه وبين أخيه السلطان بركياروق فانهزم إلى بعض بلاد أرمينية، ثم سار إلى أخلاط، واستمرت الخطبة للسلطان بركياروق ببغداد.

وفيهما كان استيلاء الملك شمس الملوك دقاق على حمص، وحدث ذلك أنه كان بـحمص رجل يقال له جناح الدولة حسين، وكان من أصحاب الملك فخر الملك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب ونائباً عنه بـحمص، ثم تغير عليه الملك رضوان فصار مع الملك دقاق وأتابك طغتكين، وانتسب إليهما، وخلع طاعة الملك رضوان، وكان مع الملك رضوان بحلب رجل من الباطنية فندب ثلاثة من أصحابه لقتل جناح الدولة، فقدموا إلى حمص في زي الصوفية، ووثبوا على جناح الدولة وقد جاء إلى الجامع لصلاة الجمعة فقتلوه ثم قتلوا.

ولما قُتل جناح الدولة بلغ الخبر إلى أتابك طغتكين، والملك شمس

الملوك دقاق، وكاتبهما أكابر أهل حمص بأن يُنفِذا من يتسلم حمص قبل انتهاء خبر قتل جناح الدولة إلى الفرنج، فسارا من فورهما إلى حمص، وتحصنا بقلعتها ووافق ذلك وصول الفرنج إلى الرستن قاصدين أخذ حمص، فلما بلغهم وصول الملك دقاق والملك طغتكين إلى حمص واستقرارهما بها نكصوا على أعقابهم راجعين.

سنة سبع وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك شمس الملوك أبي نصر دقاق بن تاج الدولة تتش ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ن سلجوق صاحب دمشق، وذلك لاثني عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان، وكان سبب ذلك أنه حدث به مرض تطاول به، وقد ذكر بعض المؤرخين أن وفاته كانت في سنة ثلاث وتسعين وأن أمه زوجة أتابك طغتكين رَتَّبَتْ له جارية فَسَمَّته بعنقود عنب معلق في شجرته، ثقبته بإبرة فيها خيط مسموم، وأن أمه ندمت على ذلك بعد الموت، وأومأت إلى الجارية أن لاتفعل، فأشارت إليها أن قد كان، وتهرَّى جوفه، فمات.

ولما ثوفي دقاق غَلَبَ على الملك بدمشق وأعمالها أتابك طغتكين الملقَّب ظهير الدين، وقد ذكرنا ابتداء أمره وقيامه بتدبير مملكة دقاق.

وفي هذه السنة كان استيلاء الفرنج على عكا، وكان من حديث ذلك أن بادوين ملك الفرنج المتغلب على بيت المقدس سار في جموعه إلى ثغر عكا ومعه الجنوُّيون من الفرنج في المراكب، فأحدقوا بها براً وبحراً، وكانوا في نيِّفٍ وتسعين مركباً، فحاصروها من جميع جهاتها وملكوها بالسيف، وكان مُتَوَلِّئُها يومئذ زهرة الدولة نبا الجيوشي من جهة صاحب

مصر، فخرج منها من خوفه وعجزه عن ضبطها، وهرب إلى دمشق ثم إلى مصر.

سنة ثمان وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان بركياروق بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق صاحب العراق وبلاد العجم، وكان عمره أربعاً وعشرين سنة، بعد أن عهد بالسلطنة لولده جلال الدولة ملكشاه بن بركياروق بن ملكشاه، وعمره يومئذ أربع سنين وقام إياز مملوك أبيه بتدبير ملكه.

ولما بلغ السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وفاة أخيه السلطان بركياروق، قَدِمَ غياث الدين محمد على أمور جرت بينهما، ودخل السلطان محمد إلى بغداد، واستقرت له بها السلطنة، فلما استتب أمره قبض على إياز فقتله، وَصَفَتْ له الدنيا فلم يبق له منازع، وخلع عليه أمير المؤمنين المستظهر بالله خَلَعَ السلطنة، وقلده العهد على ماوراء بابه.

سنة إحدى وخمسمئة

في هذه السنة كان استيلاء الفرنج على طرابلس بالأمان، وكانت مدة حصارهم لها سبع سنين فإنهم نازلوها في سنة خمس وتسعين، وقد ذكرناه، وذلك بعد أن فَنِيَ من فيها بالجوع والضائقة، وقتل خلق عظيم، وكانت مدينة عظيمة مملوءة من المسلمين والعلماء.

سنة ثلاث وخمسمئة

في هذه السنة جاءت الفرنج لعنهم الله إلى رمنية، وذلك بعد أن فتحوا طرابلس، فسار الأمير ظهير الدين أتابك طغتكين صاحب دمشق بعسكره إليهم، ونزل بإزائهم ثم جرت بينهم موقعة على أن يكون للفرنج ثلث مغل البقاع ويُسلم إليهم حصن عكار وحصن المنيطرة، وأن يكون حصن مصيف، وحصن الطوبان، وحصن الأكراد للمسلمين، ويحمل أهلها للفرنج قطعة مينة، وأقام الفرنج مدة على هذه الموقعة ثم نكثوا وغدروا.

وفيها تسلمت الفرنج بيروت وملكها بعد حصار شديد، وفيها توفي قراجا صاحب حمص فملكها بعده.

سنة سبع وخمسمئة

في هذه السنة تسلمت الفرنج صيدا وزردنا واستفحل أمرهم ببلاد الشام، وصارت بأيديهم جميع السواحل، فجهز السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه لحرهم رجلاً من قواده يقال له مودود، فلما وصل إلى دمشق وثب عليه باطني بالجامع فقتله، وكان قتله في سنة سبع وخمسمئة.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك فخر الدين رضوان بن الملك تاج الدولة تتش^(١) بن رضوان بن تتش المعروف بالأخرس

سنة ثمان وخمسمئة

في هذه السنة قتل تاج الدولة تتش بن فخر الملك رضوان صاحب

حلب بالقلعة، فتسلم البلد والقلعة لؤلؤ خادم تاج الدولة، لكن الخطبة
واسم المملكة لسلطان شاه بن رضوان بن تتش.

سنة تسع وخمسمئة

في هذه السنة سار ظهير الدين أتابك طغتكين صاحب دمشق إلى
بغداد، لخدمة الخليفة المستظهر بالله والسلطان غياث الدين محمد،
فأكرماه وخلعا عليه، ثم رجع إلى دمشق.

سنة عشر وخمسمئة

في هذه السنة قتل لؤلؤ صاحب حلب قريباً من بالس، وكان قد
توجه من حلب مُريداً قلعة جعبر، فجلس بقلعة حلب بعده كاتب
الجيش أبو المعالي ابن الملحي.

سنة إحدى عشرة وخمسمئة

في هذه السنة سُلمت حلب إلى الأمير ايل غازي بن أرتق فأقام
متملكاً لها خمس سنين.

وفي هذه السنة كانت وفاة غياث الدين محمد بن السلطان جلال
الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وذلك بأصبهان في ذي
الحجة، وعمره سبع وثلاثون سنة بعد أن عهد بالسلطنة لولده السلطان

أبي القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وخلف في خزائنه أحد عشر ألف ألف دينار عيناً، ومن العروض مثلها، فخطب لابنه السلطان محمود ببغداد يوم الجمعة لسبع بقين من المحرم.

سنة اثنتي عشرة وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستظهر بالله أمير المؤمنين لسبع سنين بقين من ربيع الآخر، فكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وشهوراً، وكان بين وفاة السلطان محمد ووفاة الخليفة المستظهر أربعة أشهر وأربعة أيام.

سيرته: كان رضي الله عنه كريم الأخلاق، لين الجانب، سخي النفس، مؤثراً للإحسان، محباً للعلماء، حافظاً للقرآن منكراً للظلم، كثير الصدقة، وله شعر من جملته قوله:

أَذَابَ حَرُّ الْهَوَى فِي الْقَلْبِ مَا جَدَا
يَوْمًا مَدَدْتُ عَلَى رَسْمِ الْوَدَاعِ يَدَا
فَكَيْفَ أَسْأَلُكَ تَهْنِجَ الْأَصْطَبَارِ وَقَدْ
أَرَى خِلَاقِي فِي مَهْوَى الْهَوَى قَدْ دَا
قَدْ أَخْلَفَ الْوَعْدَ بَدْرٌ قَدْ شَغَفَتْ بِهِ
مَنْ بَعْدَ مَا قَدَرْتُ فِي دَهْرِي بِمَا وَعَدَا
إِنْ كُنْتُ أَنْقَضُ عَهْدَ الْحَبِّ فِي خَلْدِي
مَنْ بَعْدَ هَذَا فَلَاعِيَّةٌ أَبَدَا

خلافة المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بن المقتدي بن الذخيرة بن القائم ابن القادر، وأمه أم ولد يقال لها طرفة، بويغ له بالخلافة يوم توفي والده المستظهر، ولما بويغ له صلى على المستظهر وعجل في دفنه لأنه رآه في النوم كأنه يقول له: أخرجني من عندك وإلا أخذتك إلى عندي، فعجل في إخراجه.

سنة ثلاث عشرة وخمسة

في هذه السنة انفصل الأمير أبو الحسن علي بن المستظهر بالله من الحلة، وقد هرب من بغداد إليها، فصار إلى واسط ودعا إلى نفسه بالخلافة، فتبعه جماعة كثيرة، فجهز إليه أخوه المسترشد بالله الأمير دُبَيْس ابن صدقة بن مزيد صاحب الحلة في جيش من العرب وغيرهم، فانهزم أبو الحسن منهم وتآه في البرية ثم قبض عليه بعد أن كاد يهلك من العطش وسقي شربة من ماء، وأتي به إلى الخليفة أخيه فحبسه في دار الخلافة، وكان أبو الحسن هذا شاعراً فاضلاً ولما حبسه أخوه المسترشد بالله [قال] يستعطفه:

فَأَشْمَتَ أَعْدَائِي وَأَوْهَنْتَ جَانِبِي
وَهَضَّتْ جَنَاحاً رَيْشُهُ يَدُ الصَّبْرِ
وَمَا كُنْتُ عِنْدِي بِالْمَلُومِ وَلَا الَّذِي
لَهُ الذَّنْبُ هَذَا قَدَرُ حَظِّي مِنَ الدَّهْرِ

ومن جملة شعر أبي الحسن بن المستظهر قوله أيضاً:
قَدْ جَدَّ الدَّهْرُ فِي الْوَرَى مَحْنَا
وَأَوْدَعَ الْهَجْرُ فِي الْحَشَا حَزْنََا

لو كان شخصٌ يموتُ من أسفٍ
على حبيبٍ نأى لكنك أنَا

في هذه السنة ورد السلطان سنجر بن السلطان جلال الدين ملكشاه
الريّ وملكها، وانهزم منه ابن أخيه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه
بعد حرب جرت بينهما، وكان مع السلطان سنجر خمسة ملوك على خمسة
أُسرةٍ منهم ملك غزنة، وكان معه من الباطنية ألف، وكان معه نحو من
أربعين فيلاً، ثم عاد محمد إلى عمه السلطان سنجر فأمنه وخدمه.

سنة أربع عشرة وخمسمئة

في هذه السنة خطب للسلطان محمود بن محمد وعمه سنجر ببغداد
وجميع الممالك وتلقب كل واحد منهما شاهان شاه.

وفيها انضم إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب
أرسلان جماعة كثيرة، واحتشد وأظهر الخلاف على أخيه السلطان محمود
ابن محمد، ثم اقتتلا وكانت الكثرة للسلطان محمود، وانهزم السلطان
مسعود إلى جبل فاخترى به، ثم بعث إلى أخيه محمود يطلب منه الأمان
فأمنه، ولما كان الخلف واقعا بين السلطانين مسعود ومحمود اغتتم سيف
الدولة دبّيس بن سيف الدولة صدقة بن مزيد صاحب الحلة اختلافهما،
فسعى في أذية بغداد، وعصى ونهب وسبى وافترش أصحابه النساء،
وأفسدوا إفساداً كلياً، وجبى أموال السلطان، فلما ظهر السلطان محمود
على أخيه مسعود وكسره، أحرق دبّيس ما استولى عليه من الغلات
والأنهاب خوفاً من السلطان محمود، ومضى إلى بغداد قاصداً للنهب،
وتهدد دار الخلافة بنهبه، ثم عاد إلى الحلة، ولما بلغ السلطان محمود ذلك
أقبل إلى بغداد فدخلها، وسأل الخليفة المسترشد إطلاق أخيه أبي الحسن

- ٩٩٢١ -

ابن المستظهر بالله من الحبس فبذل الخليفة ثلاثمائة ألف دينار ليست
عن هذا ولا يطلبه، فأجابه وسكت.

سنة خمس عشرة وخمسمئة

في هذه السنة وثب ثلاثة أنفس على الأفضل أمير الجيوش بمصر
فقتلوه عند الجسر، وذلك ليلة عيد الفطر، وفيها كسر أتابك طغتكين
صاحب دمشق الفرنج، وقتل منهم مقتلة عظيمة.
وفيها أحرقت الفرنج جرش.

سنة ست عشرة وخمسمئة

في هذه السنة توفي الأمير نجم الدين أيل غازي بن أرتق، صاحب
حلب، وقد ذكرنا تملكه لها، فملكها بعده ابن أخيه بدر الدين سليمان
ابن عبد الجبار بن أرتق. كانت وفاة أيل غازي بمدينة ميافارقين.

سنة سبع عشرة وخمسمئة

في هذه السنة سلم سليمان بن عبد الجبار بن أرتق مدينة حلب
وقلعتها إلى عمه بلك بن أرتق، فتسلمها وملكها.

وفيها ولي وزارة مصر رجل يقال له المأمون بن البطائحي، وكان أول

أمره فراشاً، وشوهد في صغره وهو يرش الماء بين القصرين بالقاهرة.

سنة ثمان عشرة وخمسمئة

في هذه السنة قُتل بلك بن أرتق على منبج، فتسلّم حلب ابن أخيه تمرتاش بن ايل غازي بن أرتق، ثم مضى منها إلى ماردين، فجاء الفرنج لعنهم الله ونازلوها، وصحبتهم الأمير سيف الدولة دبّيس بن صدقة بن مزّيد صاحب الحلة وأشرفوا على أخذ البلد لأنها كانت قد خلّت من الرجال والميرة ولم يبق فيها غير مثنين وستين رجلاً، وأجلّتهم الفرنج عشرة أيام، فلما كان اليوم التاسع عزم أهل حلب على الهزيمة في الليل بالنساء، فأرسل الله تعالى سيلاً عظيماً في قويق وذلك قبل العصر، فاقتلع خيم العدو وأغرق منهم خلقاً عظيماً وأتلف لهم مالا جزيلاً، ولما كان بعد العشاء وصل آق سنقر البرسقي فكسر الفرنج في صبيحة تلك الليلة وملك البرسقي حلب واستقر له الملك، وكانت طائفة من الفرنج في هذه السنة قد نازلوا حماه، فلم يقدروا عليها ورجعوا.

فتحت الفرنج ثغر صور بعد حصار شديد وكان متوليها رجل يقال له عبد الملك من جهة المصريين فباعها للمصريين.

سنة تسع عشرة وخمسمئة

في هذه السنة قبض الأمر بأحكام الله صاحب مصر على وزيره المأمون بن البطائحي وعلى أقاربه واعتقلهم.

نزل آق سنقر البرسقي صاحب حلب علي أعزاز، فرحلتته الفرنج عنها مكسوراً، وقتلوا جماعة من أصحابه، وفيها قتل محمود بن علي بن قراجا صاحب حماه على أفامية في قتال عظيم جرى بينه وبين الفرنج.

سنة إحدى وعشرين وخمسة

في هذه السنة وقعت فتنة عظيمة بين الخليفة المسترشد بالله، وبين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، وجرى بينهما اقتتال كبير ونهب وحروب، ثم وقع الصلح بينهما، واتفق مرض السلطان فرحل إلى بغداد.

وفيها ولي السلطان محمود شحنة بغداد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر، وفيها وثب جماعة من الباطنية على آق سنقر البرسقي صاحب الموصل وحلب فقتلوه بجامع الموصل في يوم جمعة، فولي مكانه ولده مسعود بن آق سنقر، وتسلم حلب رجل يقال له خطلبا، سلمها إليه رئيس حلب فضائل بن بديع فملكها من يده، ثم تسلمها أتابك زنكي وسنذكر ذلك.

ابتداء الدولة الأتابكية

كان جد بني أتابك زنكي: آق سنقر قسيم الدولة المعروف بالحاجب، وكان من أمراء الدولة السلجوقية ومقدميها، وقد ذكرنا استيلاءه على حلب في زمن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان، ثم صيرورته مع تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ومفارقتها له بعد ذلك، وأنه خطب للسلطان بركياروق وانتمى إليه، ثم ذكرنا مقتله واستيلاء تاج الدولة، ثم تَوَلَّى السلطان محمود بن محمد ولده زنكي بن آق سنقر شحنة بغداد.

ولما قُتل آق سنقر البرسقي صاحب الموصل، وولي ولده مسعود، سار القاضي بهاء الدين بن الشهرزوري، ونصير الدين جقر، وصلاح الدين محمد الأغسياني إلى بغداد، وحملوا معهم خزانة مال للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لِيُقَرَّ مسعود بن آق سنقر البرسقي بالموصل، فلما وصلوا ارتأوا في القِصَّة وفكروا فيها وقالوا: هذا مسعود (٢) صبي، وربما لا يقوم بالملك، فاجتمعوا بزنكي بن آق سنقر، وهو يومئذ شحنة بغداد من جهة السلطان محمود، وقرروا معه أنهم يسعون له في تملك الموصل بشرط أن يكون [القضاء] بها وبأعمالها للقاضي بهاء الدين بن الشهرزوري، ويكون النظر في المصالح والخاصة لنصير الدين جقر، والحجبة ونظر العساكر لصلاح الدين الأغسياني، فأجابهم إلى ذلك فقرروا مع الخليفة المسترشد بالله أن يكون زنكي أميراً على الموصل، وأشاروا إليه بأن يطلب ذلك من السلطان، وكتب السلطان إلى الخليفة في تسليم الموصل لسيف الدولة ديبس بن صدقة بن مزيد، فأجابه الخليفة بأن ديبساً ما يصلح أن يكون جاراً لنا، وأظهر له كراهة ذلك، وأنه يختار زنكي بن آق سنقر، وبذل الخليفة المسترشد بالله مئة ألف دينار للسلطان محمود على أن يولي زنكي الموصل، فأجاب السلطان إلى ذلك، ولدين له يقال لهما ألب أرسلان والخفاجي ووقع لهما بالأموال والبلاد، وجعل

زنكي بن آق سنقر شحنة بغداد أتابكاً لهما، ثم قيل لزنكي أتابك، ثم سار أتابك زنكي وولدا السلطان وبهاء الدين بن الشهرزوري وجقر وصلاح الدين الأغسياني جميعاً إلى الموصل في شهر رمضان، وبقي ولدا السلطان بالموصل مع زنكي يخطب لهما ويُظهر أنه قائم بتدبير ملكهما، ثم توفيا ولم يملكا.

سنة اثنتين وعشرين وخمسة

في هذه السنة كان استيلاء أتابك زنكي على حلب، وخبر ذلك أننا كنا قد ذكرنا أنه استولى على حلب بعد قتل البرسقي رجل يقال له خطلبا، ولما كانت هذه السنة واستقرت قدم أتابك زنكي بن آق سنقر بالموصل وملكها سار إلى حلب فسلمت إليه فملكها واجتمعت إليه الموصل وحلب وعظمت مملكته، واتسعت خطته، وقد قيل إن تملك أتابك لحلب كان في سنة إحدى وعشرين، والصحيح ما ذكرته.

وفي هذه السنة كانت وفاة أتابك طغتكين صاحب دمشق، فملك بعده ولده تاج الملوك بوري بن طغتكين.

سنة ثلاث وعشرين وخمسة

في هذه السنة فتحت الفرنج بانياس، وكانت في يد الإسماعيلية، وذلك بعد قتال شديد، وفيها وقعت حرب بين السلطان محمود بن محمد ابن ملكشاه وبين سيف الدولة ديبس بن صدقة صاحب الحلة، وذلك بعد فتن وقعت بين ديبس والخليفة المسترشد بالله، فأفسد وحرق ونهب

وعاث، وأخرب البلاد، فقصدته السلطان فهرب منه ومامر ببلد ولا قرية إلا أفسدها ونهبها، ومضى إلى البصرة ففعل ذلك، ثم مضى إلى الكوفة ففعل مثل ذلك.

سنة أربع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة قصدت الفرنج لعنهم الله دمشق، وصاحبها يومئذ تاج الملوك بوري بن طغتكين، فخرج إليهم بعساكره وبأهل البلد وقاتلهم وكسرههم وقتل منهم زهاء عشرة آلاف نفس ولم يُقِلَّت منهم إلا أربعون رجلاً.

وفيها فتح أتابك زنكي بن آق سنقر مدينة حماه واستولى عليها، وفي هذه السنة كان مقتل الأمر بأحكام صاحب مصر وكان من حديث ذلك أنه وثب عليه عشرة من المماليك ومقدمهم مملوك أرمني فقتلوه ومَلَكَ الأرمني القاهرة، وفرَّق الأموال والعساكر وأراد أن يتأَمَّرَ عليهم فخالفوه ومضى بعضهم إلى أمير الجيوش أحمد بن الأفضل وطلبوا منه أن يقاتل الأرمني، ويملك القاهرة، وهم معه ففعل، وأتى القاهرة، وحاصر القاهرة حصاراً شديداً حتى ملكها، ونهبها ثلاثة أيام، وظفر بالأرمني فقتله، واستقر له الأمر بها وبايع بالخلافة للحافظ. وكان مقتل الأرمني في ذي القعدة فكانت مدة ملكه ثانياً وعشرين سنة، وتسعة أشهر وأياماً.

سنة خمس وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة كانت بيعة الحافظ لدين الله وهو أبو الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم، وغلب على أمره أمير الجيوش أحمد بن الأفضل، ثم قبض على الحافظ من بعد مُدَيِّدَةٍ من توليته، فلم يزل في اعتقاله إلى سنة ست وعشرين.

وفي هذه السنة ضَلَّ الأمير سيف الدولة ديبس بن صدقة عن الطريق، وذلك لما انهزم من الخليفة والسلطان محمود، وكانا قد بَنَّا طائفة من العرب خلفه، فلم يزل يتنقل في حلل العرب فمنهم من يَرُدُّه ومنهم من يُجِيرُهُ ويقوم معه، فلما كان قريباً من أراضي الشام ضَلَّ الطريق فقبض عليه وأُتِيَ به إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق، فقبض عليه تاج الملوك وباعه من أتابك زنكي بن آق سنقر صاحب حلب (٣) والموصل بخمسين ألف دينار فأكرمه أتابك زنكي وأحسن إليه، وَخَوَّلَهُ المال.

وفيها كان مقتل تاج الملوك بوري بن أتابك طغتكين صاحب دمشق، وذلك أنه قفزت جماعة من الباطنية فقتلوه، فملك من بعده ولده شمس الملوك اسماعيل بن بوري بن طغتكين.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، فَقُلِدَّ الملك بَعْدَهُ ولده السلطان داود بن محمود بن محمد وَخُطِبَ له بالجليل وأذربيجان، وجعل أتابكة الأحمديلي، ووزيره أبا القاسم الوزير، فَدَبَّرَا أمره، وقاما بأحوال عساكره، ثم تجملا وحشدا لحرب السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه عم السلطان داود، ولما بلغ السلطان مسعود ذلك تقدم بقطع الجسور التي في طريقهم فقطعت.

سنة ست وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة وثب على أحمد بن الأفضل أمير الجيوش بمصر صبيان من الخاصة فقتلوه، وأخذوا رأسه ودخلوا به إلى القصر، وأخرجوا الحافظ من الاعتقال، وعاد إلى ولايته واستوزر يانس ولقبه باللقاب أمير الجيوش.

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين السلطان سنجر ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان، وبين أخيه السلطان مسعود بن محمد وقراجا الساقى.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة

قيل وصل السلطان مسعود بن محمد إلى بغداد في عشرة آلاف، ووصل قراجا ومعه سلجوق شاه بن محمد وكل واحد منهما أعني السلطان مسعود وأخاه سلجوق شاه يطلب السلطنة لنفسه، وانحدر زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل وحلب ليكون مع السلطان مسعود، فلما بلغ تكريت خلف قراجا سلجوق شاه في عدد يسير ليكون في في مقابلة السلطان مسعود، وأسرى في يوم وليلة إلى تكريت فواقع أتابك زنكي فهزمه، وأسر جماعة كثيرة من أصحابه وعاد ثم دخل السفراء بين الأخوين مسعود وسلجوق شاه فاصطلحا واجتمعا وتحالفا ودخل قراجا معهما في اليمين واستحلفا الخليفة المسترشد بالله على التوافق والتعاقد، وكان قراجا يتحكم على مسعود وسلجوق جميعاً. ولما بلغ السلطان سنجر ذلك قصد بغداد بعساكره فخرج مسعود وسلجوق وقراجا إلى لقائه، وخرج المسترشد بالله بنفسه إلى مضارب ضربت له بظاهر بغداد، وقطعت خطبة السلطان سنجر، ثم ساروا إلى خانقين ووصل السلطان سنجر إلى همدان ومعه مئة ألف وستون ألفاً، ومع مسعود وسلجوق

ثلاثين ألفاً، فالتقوا بموضع قريب من الدينور فاقتتلوا فقتل من الفريقين أربعون ألفاً، وقتل قراجا الساقى، ثم عاد السلطان سنجر إلى بلاده ثم كاتب السلطان زنكي وسيف الدولة ديبس بن صدقة في قصد بغداد وفتحها، فتجمعا وقصدا بغداد في سبعة آلاف فارس، والمسترشد بالله إذ ذاك بخانقين فعاد منها وقد شارف أتابك زنكي بغداد من غربها، فعبر الخليفة إلى الجانب الغربي في ألفي فارس، وضعف عن لقاءها، وانكسرت ميمنته فكشف الطرحة عن رأسه ولبس البردة، وجذب السيف وحمل في عسكره فانهزم زنكي وديبس وقتل من أصحابها مقتلة عظيمة، ثم طلب أتابك زنكي من المسترشد تكريت وطلب ديبس سقي الفرات.

سنة سبع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة دخل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بغداد وخطب له بها بالسلطنة، ولابن أخيه السلطان داود بن محمود بن محمد من بعده، وخلع عليهما الخليفة المسترشد بالله.

وفيها سار المسترشد إلى الموصل لأخذها في اثني عشر ألف فارس، فوصلها في العشرين من شهر رمضان وبها أتابك زنكي بن آق سنقر فحصرها ثمانين يوماً، ثم رحل عنها بغتة، فقبل لأنه بلغه غدر السلطان مسعود به وأنه قد عزم على مصالحة ديبس بن صدقة، وقيل بل كان ذلك لأن أتابك زنكي بذل له الطاعة، وأن يحمل إليه ما غرمة من الأموال.

سنة ثمان وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة مال أكثر الجند والقواد إلى السلطان طغرل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، وتقررت قواعده، وملك همدان وغيرها، وصار أكثر العسكر معه، ولم يبق مع أخيه السلطان مسعود بن محمد إلا القليل، وكان السبب في ذلك أن الخليفة المسترشد بالله بعث إلى خوارزم شاه خِلْعًا، فأشار دبيس بن صدقة على السلطان محمد بن طغرل بن محمد بأن يقطع الطريق على الرسل ويأخذ منهم الخلع ويلبسها، ويُظهِر أن الخليفة بعث إليه بها ففعل ذلك، فمال أكثر العساكر إليه ولم يبق مع السلطان مسعود إلا القليل، فانزعج الخليفة من ذلك وكتب إلى السلطان يستحثه في القدوم عليه ليرفع من قدره، فقدم بغداد متنكرًا خوفًا من أخيه السلطان طغرل، فخلع الخليفة عليه وطوّقه وسوّره، وتَوَجَّه، وبعث إليه ثُحفاً بثلاثين ألف دينار، فلما بلغ السلطان طغرل ذلك أقبل إلى بغداد في جموعه فمات في الطريق وذلك في ثالث المحرم سنة تسع وعشرين.

سنة تسع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل شمس الملوك صاحب دمشق، وكان من حديث ذلك أن والده شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين أتابك طغتكين المسمّاة بياقوت خاتون أمرت بولدها شمس الملوك فقتل بين يديها وهو يستغيث إليها: الصنيعة الصنيعة، زناه زناه، ولما قضى نحبه جعلته في بساط ملفوف ثم أمرت الأمراء بالدخول عليه، فدخلوا فنظروا إليه مقتولاً، فقالت: انظروا إلى سلطانكم وما عمل به من

ظلمه للناس، ثم أحضرت له أخاً له صغيراً يلقب بشهاب الدين، فعقدت له السلطنة، وقامت بتدبير مملكته.

وفي هذه السنة سار السلطان مسعود بن محمد إلى همدان واستقر ملكه بها، ثم عزم على قصد بغداد وتملكها ونفذ مقدمته أمامه، وأظهر التغير الكلّي، ولما بلغ الخليفة المسترشد ذلك جهز العساكر وبعث مقدمته في ألفين وخمسمئة فارس إلى المريج، وتجهز للقاء السلطان مسعود، فبعث السلطان مسعود سيف الدولة دبّيس بن صدقة في خمسة آلاف فارس، فكبسوا مقدمة الخليفة وأخذوا خيلهم وأموالهم فعادوا إلى بغداد عِرة مشاة فكسبهم الخليفة وأطلق لهم ثمانين ألف دينار، وقُطعت خطبة السلطان مسعود ببغداد، وخطب لعمه السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وبعده لابن أخيه السلطان داود بن محمود بن محمد.

ولما كان ثامن شعبان رحل الخليفة في عساكره وهم سبعة آلاف، وكاتبه أصحاب الأطراف بالطاعة، وكان السلطان مسعود بن محمد في همدان في ألف وخمسمئة فارس فما زال يستخدم وئيل إليه العساكر حتى صار في خمسة عشر ألف فارس، وتسلى إليه من أصحاب الخليفة ألف فارس، فصار الخليفة في ثمانية آلاف فارس، ثم التقوا في عاشر رمضان فأسر الخليفة المسترشد بالله، وانهزم أصحابه، واستبيح ما كان معه من الأموال، ونادى السلطان في أصحابه: المال لكم والدم لي فمن قتل أقدته، فلم يقتل من الصنفين سوى خمسة أنفس غلطاً، ونادى السلطان في أصحاب الخليفة: من أقام بعد الوقعة ضربت عنقه فهرب الناس إلى رؤوس الجبال، فتخطفهم التركمان والأكراد وأفلت منهم جماعة عِرة، فتوصلوا إلى بغداد، وقد تشققت أرجلهم من المشي والحفا.

ولما بلغ أهل بغداد أسر الخليفة كسروا المنابر، ومنعوا الخطيب من الخطبة، وحثوا على رؤوسهم التراب، وضجوا بالبكاء والنحيب، فسير

السلطان مسعود شحنة إلى بغداد، فجرى قتال فُقُتِل من العامة مئة وثلاثون ألفاً وخمسون رجلاً، ونادى في الناس: إِنَّا جئنا لنُصْلِح وإن السلطان مسعود قد سار بين أيدي أمير المؤمنين وعلى كتفه الغاشية، فسكن الناس وهجعوا، وسار السلطان مسعود إلى باب مراغة طالباً ابن أخيه السلطان داود بن محمود بن محمد، والخليفة المسترشد بالله معه، وقد ضرب له دهليز خيمة أقعده فيها.

مقتل المسترشد بالله

ثم إنه ورد كتاب من السلطان سنجر بن ملكشاه إلى ابن أخيه السلطان مسعود بن محمد بأن يرُدَّ الخليفة إلى مستقرِّ عزه، ويبلغ في تعظيمه ويفعل في ذلك ما جرت به عادة آبائهم في خدمة هذا البيت، وأن يُسَلِّم إلى الخليفة ديبساً ليرى رأيه فيه، فأمر السلطان مسعود فُضِرَت سرادق للخليفة، ونُصِبَت له سُدَّةٌ عالية، وأحضر إليه مركوب فركب متوجهاً إلى السرادق المضروب له والسلطان بين يديه، وعلى كتفه الغاشية، واللجام بيده، وجميع الأمراء مشاة إلى أن دخل السرادق وبين الموضعين نصف فرسخ، ثم سلم إليه ديبس وهو يتضرَّع ويبكي، فعفا عنه الخليفة، ثم وصلت رُؤُوس السلطان سنجر تَسْتَحِثُّ السلطان مسعود على إعادته إلى داره، ووصل مع الرسل عسكر كثيف ووصل صُخْبَتُهُم سبعة عشر رجلاً من الباطنية، وكان ظاهر الأمر أن السلطان سنجر لم يعلم بهم، وفي الباطن كان ذلك بتدبير السلطان سنجر ومسعود، فخرج السلطان مسعود في عسكره ليلتقي رسل السلطان سنجر فهجمت الباطنية على الخليفة المسترشد بالله فقتلوه وضربوه بالسكاكين إلى أن قتلوه، وقتلوا معه جماعة من أصحابه وذلك يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة، وقُبِض على الباطنية فقتلوا وأظهر السلطان

مسعود القلق العظيم وجلس للعزاء، ووقع البكاء والنحيب وذلك على باب مراغة، فغُسِّلَ وكُفِّنَ، وحُمِلَ إلى بغداد، وكان فيها من البكاء والنحيب والضجيج ما يتجاوز الوصف. وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، وكان عمره خمس وأربعين سنة وشهوراً.

سيرته: كان له همة عالية وشجاعة وافرة وإقدام زائد، وكان له شعر حسن من جملته قوله في قصيدة:

أنا الأشقر الموعود بي في الملاحم
ومن يملك الدنيا بغير مزاحم
ستبلغ أقصى الروم جندي وتنتضى
بأقصى بلاد الصين يئض صوامي

خلافة الراشد بالله

أبو حفص المنصور بن المسترشد بن المستظهر بن المهتدي بن الذخيرة ابن القائم بن القادر، وأمه أم ولد، بويع له الخلافة ببغداد في العشر الأخير من ذي القعدة من هذه السنة، وكوتب السلطان مسعود بن محمد بالبيعة له فأجاب، وأمر شحنته ببغداد بأخذ البيعة ففعل ذلك.

وفيها قتل السلطان مسعود سيف الدولة ديبس بن صدقه، فقيل كان السبب في ذلك أنه وجد له السلطان كتاباً إلى أتابك زنكي صاحب الموصل يقول فيه : لا تجيء إلى السلطان واحفظ نفسك منه.

وكان بين قتل المسترشد وبين قتله ثمانية وعشرين يوماً.

سنة ثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كان خلع الراشد بالله، وكان من حديثه أنه قدّم أتابك زنكي بن آق سنقر ويرنقش الباز دار إلى بغداد واتفقا مع الراشد بالله على محاربة السلطان مسعود، واستخدم الراشد بالله أجناداً كثيرة وتهيأ هو ومن معه للقاء السلطان، ثم كاتب السلطان محمود أتابك زنكي سراً واستماله، وكذلك فعل مع يرنقش، فأشير على الراشد بالتوقف، وأقبل السلطان بجيوشه فدخل بغداد وذلك في ذي القعدة ونهب دواب الجند وأظهر العدل وشحن المحال، ومنع من النهب واستمال الرعية وجمع القضاة والشهود، فقدحوا في الراشد بأنه صدرت منه سيرة قبيحة وسفك الدماء المعصومة، وفعل مالا يجوز، وشهدوا بذلك وحكم قاضي بغداد بخلعه فخلع من الخلافة لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة

بحكم الحاكم، وبويع المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر وهو عم الراشد.

وأما الراشد و أتابك زنكي فإنها هربا إلى الموصل قبل دخول السلطان بغداد، وأقام الراشد بالموصل، فكتب السلطان إلى أتابك زنكي في القبض على الراشد وإرساله إلى بغداد، فامتنع أتابك زنكي من ذلك لكونه ضيفه وجّهزه إلى مراغة، فمضى الراشد إلى مراغة فوصل إليها وملكها وأقام بها أياماً، ثم خرج منها يطلب خراسان، فلما قَرَّب من بلاد الباطنية جرَّد السيف فقتل منهم جماعة، ثم عاد يطلب همدان.

ولما بلغت السلطان أخبار الراشد سار خلفه إلى همدان فاجتمع الراشد ومنكورس صاحب فارس وبزبه صاحب خوزستان على قتال السلطان مسعود وحاربوه فكانت الكثرة على السلطان فقتل من أصحابه خلق عظيم وأسز مثلهم، ثم طعن منكورس اتفاقاً بعد أن كان له الظفر، فانهزم أصحابه، وسار الراشد إلى أصبهان فدخل عليه جماعة من الباطنية فقتلوه وهو مريض، وقيل بل سُمَّ بها ودفن بمكان يقال له شهرستان على فرسخ من أصبهان، وقيل بل دفن في جامع أصبهان بالمدينة العتيقة التي يقال لها جي، وكانت وفاته في سنة اثنتين وثلاثين، وكانت مدة خلافته إلى أن خلع سنة واحدة إلا أياماً، وكان عمره إحدى وعشرين سنة.

صفته: كان أبيض جسيماً تشوبه حمرة، حسن الوجه.

سيرته: كان مَفْوْهًا فصيحاً عنده شهامة ورجلة وكرم، ولم يُخلع بعده أحد من الخلفاء إلى هذه الغاية، وذكر بعض المؤرخين شيئاً عجيباً، وهو أنه كل سادس من خلفاء الإسلام قام بأمر الناس فإنه لا بُدَّ وأن يُخلع أو يُقتل وذلك أنه أول قائم بأمر الناس محمد رسول الله ﷺ، ثم أبو بكر، ثم

عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم كان السادس الحسن بن علي فخلع من الخلافة، ثم ولي معاوية، ثم يزيد بن معاوية، ثم مروان بن الحكم، ثم عبد الملك بن مروان ثم كان عبد الله بن الزبير السادس فخلع وقتل، ثم ولي الوليد، ثم سليمان ثم عمر بن عبد العزيز ثم يزيد، ثم هشام، ثم كان الوليد بن يزيد فخلع وقتل، ولم ينتظم لبني أمية أمر بعده.

وقام السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، ثم الهادي، ثم الرشيد، ثم كان الأمين السادس فخلع وقتل، ثم ولي المأمون، ثم المعتصم، ثم ولي الواثق ثم المتوكل، ثم المنتصر، ثم كان المستعين السادس فخلع وقتل، ثم ولي المعتز، ثم المهدي، ثم المعتضد، ثم المكتفي، ثم كان المقتدر السادس فخلع مرتين ثم قتل،

ثم ولي القاهر، ثم الراضي، ثم المتقي، ثم المستكفي، ثم المطيع ثم كان السادس الطائع فخلع من الخلافة، ثم ولي القادر، ثم القائم، ثم المقتدي، ثم المستظهر، ثم المسترشد، ثم كان الراشد السادس فخلع وقتل.

ثم ولي المقتفي، ثم المستنجد، ثم المستضيء، ثم الناصر، ثم الظاهر ثم مولانا أمير المؤمنين المستنصر بالله وهو السادس، فنسأل الله تعالى أن يخلد ملكه ويحرق به العادة التي ذكرت، فإنه لم يكن مثله في كرمه وعدله واحسانه وقيامه بجهاد الكفرة، وذبي عن الدين الحنيفي.

خلافة المقتفي لأمر الله

هو أبو عبد الله محمد بن المستظهر بن المقتدي بن الدخيرة بن القائم ابن القادر، وأمه أم ولد تُدعى ياغي وتلقب سئ السادة، بويع له بالخلافة يوم خُلع ابن أخيه الراشد بالله، ولُقّب المقتفي وسبب تلقيبه ذلك أن المقتفي رأى رسول الله ﷺ في النوم قبل خلافته بستة أيام وهو يقول له: سيصل هذا الأمر إليك فاقتب بي، فلُقّب لذلك، وخطب لأمر المؤمنين المقتفي، وبعده للسلطان محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان، ونادى السلطان في الناس ببغداد بالعدل ونهى عن النهب، ثم أخذ جميع ما كان في دار الخلافة من خيل وبغال، وآلات وفضة وغيرها، ولم يترك للخليفة في الاصطبل الخاص سوى أربعة أفراس وثلاثة بغال برسم الماء، وكانت البيعة للمقتفي على أن لا يكون عنده ولا له آلة فرس.

سنة إحدى وثلاثين وخمسة

في هذه السنة تزوج أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله بنت السلطان محمد، أخت السلطان مسعود، ونُثرت الجواهر وتمائيل العنبر والكافور.

وفيها قدم السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه لمحاربة عمه السلطان مسعود، فخرج إليه السلطان مسعود من بغداد، وضربا مصافاً بينهما، فقتل من أصحاب السلطان مسعود خلق عظيم، وكانت الغلبة للسلطان داود ثم عاد كل فريق إلى عسكره.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كسر أتابك زنكي بن أقي سنقر [الفرنج] على رمنية، وأخذ منهم بارين، وكان ذلك فتحاً جليلاً.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة توفي شهاب الدين بن تاج الملوك بوري صاحب دمشق فغلب على الأمر الأمير بهرام شاه، ثم قدم أخوه جمال الدين محمد من بعلبك وتسلم دمشق وجعجع بأخيه بهرام شاه، وجمال هذا هو والد مجير الدين ومعين الدين (٤).

سنة أربع وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة توفي جمال الدين محمد صاحب دمشق فملكها بعده ولده مجير الدين [وجعل] إلى أخيه معين الدين التدبير.

سنة ست وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان وخوارزم شاه وهو علاء الدين أتسز، ودخل خوارزم شاه مَرُوءاً وَوَلِيَّهَا.

وفيها كانت الوقعة العظيمة بين السلطان سنجر وكافر ترك، وكان سببها أن السلطان سنجر لما واقع خوارزم شاه قتل أخا خوارزم شاه،

فبعث خوارزم إلى كافر ترك مستنجداً بهم، وكان سير لهم خدمه فأتوا قاصدين السلطان سنجر والتقوا بما وراء النهر فانهزم السلطان سنجر وبلغت هزيمته إلى ترمذ، وأفلت في نفر قليل، ودخل بلخ في ستة أنفس، وقتل من أصحابه مئة ألف أو يزيدون فيقال أنه ممن قتله كافر ترك أحد عشر ألف وأربعة آلاف أمير

سنة ثمان وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه ابن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، قتله جماعة اغتالوه ولم يُعرفوا.

سنة تسع وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كان فتح الرها، وكان من حديثها أنه نازلها أتابك بن آق سنقر، وهي بيد الفرنج على حين غفلة منهم، ونصب عليها المجانيق ونقب سورها، وطرح فيها الحطب والنار فتهدم، ودخلها عنوة، فحاربهم فظفر المسلمون بهم وغنموهم، وكان فيها من أسارى المسلمين أكثر من خمسمئة فاستنقذوهم.

سنة إحدى وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل أتابك زنكي الشهيد رحمه الله، وكان من خبر ذلك أنه نازل قلعة جعبر وكان صاحبها يومئذ علي بن مالك، ولما أشرف على أخذها اتفق أنه توعد بعض غلمانه فخافوا منه، وكان شديد الهيبة مخوفاً فوثبوا عليه وهو نائم فقتلوه، فحمل إلى الرقة، ودفن في مشهد هناك.

سيرته: كان رحمه الله عادلاً مجاهداً في سبيل الله، حسن السيرة، شديد الاهتمام بمصالح الرعية واثراً آثاراً حسنة، ووقف وقوفاً كثيرة بالموصل من المدارس والربط وغيرها، وخلف بنين أربعة هم: الملك العادل نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود، ونصرة الدين أمير أميران.

استيلاء الملك العادل نور الدين على حلب

ولما قتل أتابك زنكي الشهيد بن آق سنقر، سار ولده الملك العادل، ومعه صلاح الدين الأغسياني إلى حلب وكانا عند أتابك لما قتل، فأخذا خاتمه ومضيا إلى حلب فسلماه إلى النائب بها فعرف الخاتم، وسلم حلب إلى الملك العادل، فملكها واستولى عليها.

وأما سيف الدين غازي بن أتابك زنكي فإنه لما قُتل والده، وكان في خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، كتبوا إليه من الموصل يطلبونه لها، فركب من وقته، وسار إليها ودخلها وملكها، وكان بالموصل السبب أرسلان والخفاجي ابنا السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي وقد ذكرناهما فليلهما: إن سيف الدين غازي قد عزم على القبض عليكما، فاجتمعا في مماليكهما واعتدا للقتال، وجرى بينهم وبين غازي وأصحابه حرب كثير، ثم اتفق رأي الجماعة على خديعة السلجوقيين وأحضروا قاضي القضاة فمضى إليهما وقال لهما: البلاد لكما، والمصلحة أن تصعدوا إلى القلعة وتوليا فيها من تريدان فلما صعدا إلى القلعة ضُبطت عليهما وقُيدا أياماً، وبُعِثا إلى قلعة بقرب سنجار فخنقا بِوَتَرٍ قَوَّسٍ، وقيل بل فعل ذلك بالخفاجي فقط (٥).

واستتب الملك بالموصل وأعمالها لسيف الدين غازي بن أتابك زنكي،

وبحلب وأعمالها لأخيه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي.

وأما نصره الدين أمير أميران فحبسه أخوه سيف الدين في قلعة الموصل.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة دخل ثلاثة ملوك من الفرنج إلى بيت المقدس، فصلوا فيه صلاة الموت، ثم انحدروا إلى عكا، فاجتمعوا فيها يقال في سبعمئة ألف وعزموا على قصد بلاد المسلمين، فخافهم أهل الشام خوفاً شديداً، فلما كان سادس ربيع الأول لم يشعر أهل دمشق إلا وعلى بابها ستة آلاف فارس، وستون ألف راجل فخرج إليهم المسلمون وقتلوهم فقتل من المسلمين خلق ومن الفرنج كذلك.

فلما كان خامس يوم نزولهم وصل الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله إلى حماة نجدة للمسلمين في نحو عشرة آلاف فارس، ووصل أخوه سيف الدين غازي صاحب الموصل في قريب من ذلك، ثم أنزل الله نصرته على المسلمين وانهزم الفرنج عن دمشق خائبين، وقُتل من الفرنج ما لا يُحصى.

وكان من جملة من استشهد في هذه النوبة شاهان شاه بن نجم الدين أيوب، أخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله.

وفي هذه السنة تسلم الملك العادل نور الدين رحمه الله حصن أفامية من الفرنج بعد حصار شديد، وقُتل صاحب أنطاكية، واستولى على عسكره، وفتح قلاعاً كثيرة من بلاد الفرنج.

سنة أربع وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل، وكان قد قصد حصار ماردين وهي بيد الأمير حسام الدين تمرتاش بن ايل غازي بن أرتق، وكان سبب ذلك أن أتابك زنكي كان صديقاً لحسام الدين هذا، فاتفق أن حسام الدين عمل لأتابك يوماً ضيافة بقلعة ماردين واجتمعا فيها فقال له أتابك: لا ترجع تصعد إلى قلعتك مثلي فإني أنصحك. فقال له حسام الدين: وأنا أنصحك لا ترجع تسلّم نفسك إلى مثلي، ثم افترقا، فلما قُتل أتابك اشتفى به حسام الدين، فبلغ ابنه سيف الدين ذلك فقصده وأغار عليه، ثم اصطالحا وتزوج سيف الدين غازي بنت حسام الدين، ولم يدخل بها، ثم مرض في عودته فمات في الطريق قريباً من الجزيرة، ف قيل أنه سُمّ، وقيل مات حَتَفَ أنفه.

ولما توفي سيف الدين مَلَكَ الموصل بعد ذلك أخوه قطب الدين مودود بن زنكي.

وفي هذه السنة كانت وفاة الحافظ لدين الله صاحب مصر، فكانت مدة ملكه ثمان عشرة سنة وخمسة أشهر وعشرين يوماً.

بيعة الظافر بالله

هو أبو المنصور اسماعيل بن الحافظ، بويح له بالخلافة في القاهرة يوم توفي والده الحافظ وقام بوزارته سليم بن مصال ويلقب بالأفضل، فخرج عليه الملك العادل أبو الحسن على بن سباسلار الملقب بالمظفر فقتله، وولي الوزارة إلى أن قتله ابن امرأته نصر بن عباس بن تميم المغربي في سادس محرم سنة ثمان وأربعين، وولي الوزارة بعده عباس بن أبي الفتوح وتلقب بالأفضل.

وفي هذه السنة استوزر الخليفة المقتفي لأمر الله الوزير يحيى بن محمد ابن هبيرة، ولقبه عون الدين.

سنة سبع وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وذلك بباب همدان.

سيرته: كان ملكاً شجاعاً بعيد المهمة، أبي النفس، متيقظاً بصيراً بالحروب، ولما مات عقد العسكر السلطنة لابن أخيه السلطان ملكشاه ابن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وقام بأمره خاص بك التركماني.

ولما استقر لها الأمر قال خاص بك لملكشاه: إني أريد أن أقبض على أخيك محمد شاه وأسلمه إليك، فطريقه أن أقبض عليك وأخبره أني قد قبضت عليك لأسلمه إليك، فقال له ملكشاه: إفعل ما تريد، فقبض خاص بك على ملكشاه وكتب إلى محمد شاه يستدعيه إلى السلطنة فجاء

إلى همدان، وتلقاه خاص بك وحمل إليه جُملاً كثيرة من مال وخيل فقبل ذلك، وجاءه الأمراء وغيرهم يخاطبونه في حوائجهم فقال لهم: مالكم معي كلام وإنما كلامكم مع خاص بك فمهما أشارَ به فهو الوالد والصاحب، والكل تحت أمره. فوصل هذا الكلام إلى خاص بك فاسترسل إليه فقبض عليه محمد شاه في الوقت وقتله، واستولى على ذخائره، و«من حفر لأخيه المؤمن قليباً ألقاه الله فيه قريباً».

سنة ثمان وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت الواقعة العظيمة بين السلطان سنجر بن ملكشاه وبين الغُزّ، فكُسر سنجر كسرة عظيمة، واستبيح عسكره قتلاً وأسراً، وهجموا نيسابور فقتلوا معظم من فيها من الجند والعلماء والعوام، ثم توجهوا إلى بلخ فملكوها، وكانت عُدَّتُهُمْ فيها ذكر مئة ألف خركاه.

ثم أسروا سنجر واحتاطوا به، وخطبوا له لما ملكوا بلاده، وقالوا: أنت السلطان ونحن أجنادك ولكننا لانأمنك فبقي في أسره مَحْوَطاً عليه مُقيماً في أيديهم إلى أن مات.

سنة تسع وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل الظافر بالله صاحب مصر، وحديث ذلك أنه وثب به عباس بن تميم وابنه نصر فقتلاه وأخفيا مكانه، وذلك في سلخ شعبان وعمره إحدى وعشرون سنة وأيام.

ولما قتله نصر وعباس أخفيا قَتْلَهُ وأنكراه، وأجلسا ولده أبا القاسم عيسى بن الظافر، ولَقَّبَاهُ الفَائِزَ بالله، ولما بلغ أهل القصر قَتْلُ الظافر كتبوا كتاباً إلى طلائع بن رزيك، وكان بالصعيد وأصبحوه شعور النسوان، فلبس طلائع السواد وحشد حشداً عظيماً، وكاتب أمراء القاهرة في طلب دم الظافر فساعدوه، وتوجه إلى مصر قاصداً إليها.

ولما سمع عباس وابنه نصر بذلك هربا بأموالهما، وكانت عظيمة فلما وصلا إلى مَنْهَلٍ يُعرف بمره وأم العب خرجت الفرنج عليهما فقتلوا عباساً، وأسروا نصرًا.

بيعة الفائز بالله

هو أبو القاسم عيسى بن الظافر بن الحافظ، بويغ له بالخلافة بالقاهرة يوم قتل أبوه الظافر، ولما وصل طلائع بن رزيك إلى القاهرة أجلسه أهلها للوزارة، ولُقِّبَ الملك الصالح، واستقام أمره واشتدَّ بتدبير الدولة ثم بعث إلى الفرنج يطلب منهم نصر بن عباس، وبذل لهم في ذلك أموالاً جزيلة، فسلموه إلى رسوله فجعله في قفص حديد وأتى به إلى القاهرة فسلمه الملك الصالح إلى النساء فَأَقْمَنَ يَضْرِبْنَهُ بالبقايب الأمدية أياماً متوالية وقَطَّعن لحمه وأطْعَمْنَهُ إياه مدة ثم شووه حتى مات ثم صلبوه بباب زويلة ثم حَرَّقُوهُ، وأقام الملك الصالح مدة مدبراً مملكة الفائز.

وكتب الخليفة المقتفي لأمر الله إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يأمره بالمسير إلى مصر، وأخَذَهَا، وكتب له عهداً عليها وولاه الشام ومصر والسواحل.

وفي هذه السنة كان استيلاء الملك العادل نور الدين على دمشق وتملكه لها، فعظم أمره، وقويت شوكته وتأطدت دولته.

سنة خمسين وخمسمئة

في هذه السنة وصل السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه السلجوقي إلى بغداد ضيفاً للخليفة المقتفي ومستجيراً به، فأكرمه ووصله وبجّله وبعث إليه ما يبعث إلى مثله، وإنما استجار به لتغلب إخوته وعمه على البلاد وخوفه منهم.

سنة إحدى وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة خطب الخليفة للسلطان سليمان شاه بن محمد ببغداد بعد خطبته لعمه السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وتوجّه وطوّقه وسوّره، وأعطاه عشرين ألف دينار، وأحلفه على الطاعة والمناصحة وأن لا يقصد بغداد بمكرهه، وأن العراق جميعه يكون بيد الخليفة، وأن له ما يفتحه من بلاد خراسان، فتوجّه سليمان شاه قاصداً البلاد وانضاف إليه ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد، واحتشدوا فسمع بهم السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان فسار إليهم فانهمزوا بين يديه، واستباح السلطان محمد شاه عسكرهم وسلبهم، وعادوا إلى بغداد عراة، ومضى سليمان شاه هارباً إلى بغداد عن طريق الموصل فقبض عليه زين الدين علي كوجك واعتقله عنده وكتب إلى السلطان محمد شاه يحثه على قصد بغداد، فقصدها واضطربت

العساكر بها وبعث الخليفة إلى زين الدين علي كوجك يستدعيه لنجدته فتخلف عنه.

وفي هذه السنة تسلم الملك العادل نور الدين بعلبك وأبا قبيس وملكهما.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة وصل زين الدين علي كوجك صاحب إربل والموصل نجدةً للسلطان محمد شاه بن محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي فنازلاً ببغداد وحاصرها حصاراً شديداً، ونصب الخليفة عليها المجانيق والعرادات، وفرّق الجواشن، فيقال أنه فرّق سبعة آلاف جوشن ونصب مئتين وسبعين عَرَّادَةً، ونصب السلطان محمد شاه خارج البلد أربعمئة سلم ليصعدوا على الأسوار فلم تمكّنهم أهل البلد.

وبينما هم على الحصار إذ وردت الأخبار بدخول السلطان ملكشاه بن السلطان محمود همدان ونهبها، وقتل أصحاب محمد شاه، فضعف أمر محمد شاه، وأقام على الحصار مدة فلم يتحصل على غرض، فرحل طالباً بلاده ورجع زين الدين علي كوجك إلى بلاده.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وبين الفرنج على صفد، فنصره الله تعالى عليهم وبعث برؤوس القتلى وتحفّاً إلى بغداد.

وفيها فتح عسكر مصر غَزَّةً واستعادوها من الفرنج، وفيها كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حماه هدمت ثلاث عشرة مدينة: حماه،

وحلب، والمعة، وشيزر، وكفر طاب، وأفامية، وحمص، وتل عرن، وحصن الأكراد، وعرقه، واللاذقية، وطرابلس، وأنطاكية إلا أن تأثيرها بحماه كان أشد، فأنها أقلبته، ومعظم أهلها، ولم تُبقي منهم إلا القليل.

وفيها كانت وفاة السلطان سنجر بن السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وكانت مدة جلوسه على سرير الملك إحدى وأربعين سنة، وكان قبل ذلك في عز وسلطنة، ومَلَكَ قريباً من عشرين سنة، فذلك قريب من ستين سنة، وخُطِبَ له على أكثر منابر الاسلام، وصَفَتْ له خراسان وملكها وحارب أعداءه حروباً كثيرة إلا أنه في آخر أمره استأسره الغز، وضيقوا عليه وأجروا عليه راتباً لا يصلح لسائسه، وكان يركب معهم بتوكيل وحَفَظَة، ويُسَمُّونه بالسلطان ويقولون: نحن رعيَّتُكَ ويظهرون تعظيمه.

وكانت وفاته لست بقين من ربيع الأول، وكان عمره اثنتين وسبعين سنة وشهوراً وعشرة أيام، ودفن في قبة بناها لنفسه، وسماها دار الآخرة.

سيرته: كان ملكاً عظيماً، جليل القدر، مهيباً كريماً رفيقاً بالرعية حليماً عنهم، وكانت البلاد آمنة في أيامه. ولما توفي السلطان سنجر قُطعت خطبته ولم يُجَلَسَ له في العزاء.

وفي هذه السنة تسلَّم الملك العادل نور الدين بانياس من الفرنج، وفيها تسلَّم أيضاً شيزر، وكانت بيد بني منقذ، وصَفَتْ له البلاد الشامية بأسرها، ثم ملك بعد ذلك الموصل واستتب أمره، ولم يبق له بهذه البلاد كلها منازع.

وفيها نزلت الفرنج على شيزر فحاصروها وقتلوا منها خلقاً عظيماً، ثم عادوا إلى بلادهم.

سنة أربع وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان محمد شاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي بباب همدان، وذلك في ذي الحجة، وكان ملكاً بعيد المهمة شجاعاً.

سنة خمس وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة أفرج الأمير زين الدين علي كوجك عن السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وكان معتقلاً عنده كما تقدم ذكره، وتوجه إلى همدان وملكها وخطب له بالسلطنة، ثم توفي في ربيع الآخر من هذه السنة وهو آخر من بلغني خبره من السلاطين السلجوقية ببلاد العجم، ولاشك أنه ملك بتلك الناحية منهم جماعة بعده، ولم يتصل بي خبرهم إلا أني أعلم أن آخر من ملك منهم هناك السلطان طغرل الأصغر بن السلطان أرسلان شاه بن السلطان طغرل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان بن داود ميكائيل بن سلجوق.

وقُتل السلطان طغرل هذا في سنة ست وتسعين وخمسمئة فكانت مدة ملك السلاطين السلجوقية من حين ظهر السلطان طغرل بك بن ميكائيل إلى أن قتل طغرل الأصغر مئة سنة وأربعاً وستين سنة.

وأما السلاطين المستولون على بلاد الروم فقد رأيت جماعة من المؤرخين أنكروا أن يكونوا من السلجوقية، وقالوا إن نسبهم إلى سلجوق غير صحيح، ورأيت جماعة منهم أثبتوا لهم في السلجوقية، منهم العماد الكاتب، وسنذكر إن شاء الله تعالى شيئاً من أمورهم في مواضعه.

وفي هذه السنة كانت وفاة المقتفي لأمر الله، وذلك في مستهل ربيع

الأول فكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، وكان عمره ستاً وستين سنة إلا ثمانية وعشرين يوماً، وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة، وهو الذي أقام حِشْمَةَ الدولة العباسية، وقطع عنها أطماع السلاطين السلجوقية وغيرهم من المتغلبين، من أيام المقتفي صارت بغداد والعراق بيد الخلفاء، ولم يبق بها منازع، وقبل ذلك من أيام المتقي كان الحكم للمتغلبين وليس للخلفاء معهم إلا الاسم.

سيرته: كان رضي الله عنه كريماً سَمَحاً، محباً لقراءة الحديث النبوي وسامعه معتنياً بالعلم، كثير الإكرام لأهل الفضل، محباً لأهل الخير.

خلافة المستنجد بالله

هو أبو المظفر يوسف بن المستظهر بن المقتدي، وأمه أم ولد تسمى طاووس، بويع له الخلافة لليلتين مضتا من ربيع الأول بعد وفاة والده المقتفي بيوم واحد، وكنم موته، وكان أول من بايعه عمه أبو طالب بن المستظهر، ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفي، ثم الوزير ابن هبيرة، ثم قاضي القضاة وأرباب الدولة والعلماء، واستتب له الأمر.

وحكى الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة قال: حكى لي أمير المؤمنين المستنجد بالله قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم منذ خمس عشرة سنة فقال لي: يبقى أبوك في الخلافة خمس عشرة سنة، فكان كما قال، ورأيت ﷺ قبل موت أبي بأربعة أشهر فدخل بي في باب كبير، ثم ارتقى إلى الجبل، فصلى بي ركعتين وألبسني قميصاً، وقال لي: ألهم اهديني فيمن هديت، وذكر دعاء القنوت.

وفي هذه السنة كانت وفاة الفائز بالله صاحب مصر وعمره عشر سنين وشهوراً، وكانت مدة ملكه ست سنين وشهوراً.

بيعة العاضد لدين الله

هو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، بويع له يوم توفي ابن عمه الفائز، وأجلس على سرير الملك وخطب له بالديار المصرية، وزوجه الملك الصالح طلائع بن رزيك وزيره ابنته، واستولى عليه الملك الصالح استيلاءً كلياً، وولى الصعيد الأعلى شاور البدوي.

سنة ست وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل الملك الصالح بن رزيك، وكان من حديث ذلك أنه قطع أرزاق الحاشية، فتحالفوا على قتله، فقصد القصر قاصداً الاجتماع بالعاضد فوثب عليه سبعة مماليك قبل وصوله إلى العاضد فضربوه بالسيوف، وحمل إلى بيته حياً فمات تلك الليلة.

سيرته: كان جواداً فاضلاً غزير الأدب شاعراً مجيداً، وأكثر أشعاره في مدح أهل البيت، ومن جملة شعره قصيدته التي يعارض فيها قول دعبل ابن علي الخزاعي:

مدارس آيات خلّت من تلاوة
ومنزّل وحي مقيم العرصات

وأول قصيدة الصالح:
أعاذل دغ لومي على صبواتي
فمافات يمحوه الذي هوأت
وماجزعي من سيئات تقدمت
ذهاباً إذا أتبعتهأحسنات
ألا إنني أقلعت عن كل شبهة
وجانبئت غرقى أبحر الشبهات
شغلّت عن الدنيا بحبي لمعشر
بهم يصفح الرحمن عن هفواتي

وأخراها:
أعارض قولاً للخزاعي دعبل
وإن كنت قد أقلت من مدحاتي
مدارس آيات خلّت من تلاوة
ومنزّل وحي مقيم العرصات

ولما قُتل الملك الصالح ولي العاضد وزارته ولده الملك العادل رزيك
ابن طلائع، وخلع عليه خلع الوزارة.

ولما ولي الملك العادل رزيك بن الملك الصالح الوزارة بسط العدل في
الرعية وتمكّن من الدولة.

استيلاء شاور على مصر

ثم أُشير على الملك العادل رزيك بعزل شاور عن ولاية الصعيد،
فكتب إليه يستدعيه، فأوجس في نفسه خيفة، وكتب إلى الملك العادل
كتاباً أظهر فيه الطاعة واستعطفه، وذكره سابق خدمته لأبيه، فعزم الملك
العادل على إبقائه فألح عليه أهله في عزله وقالوا: إن أبقيته طمع فيك.
فولى الملك العادل رزيك الصعيد لنصير الدين ابن شيخ الدولة، وكتب
معه كتاباً إلى شاور باستدعائه إلى القاهرة وتسليم قوص إلى نصير الدين،
فلما وصل نصير الدين إلى إخميم كتب إلى شاور كتاباً وجعل كتاب
الملك العادل رزيك في طيه، فكتب إليه شاور: أنت صاحبي فارجع من
حيث جئت فهو خير لك فعاد نصير الدين إلى القاهرة، وجاهر شاور
بالعصيان، وجمع العرب واستحلفهم وتوجه إلى القاهرة، فانهزم العادل
رزيك ثم قبض عليه فأُتي به إلى شاور مقيداً، ودخل شاور القاهرة،
وحضر بين يدي العاضد فخلع عليه وحنكه واستوزره ولقبه بأمر
الجيوش المظفر واستحلف الناس له، وجلس شاور للناس فدخلوا عليه
ثلاثاً وانشدوه شعراً، ثم حبس العادل رزيك وضيق عليه.

سنة ثمان وخمسين وخمسمئة

ذكر ابتداء الدولة الأيوبية: بَنَتَ اللهُ أركانها وأُطِدَ بنيانها ونَصَرَ أعوانها وخلد سلطانها وما زالت راياتها منصورة ولمعانديها مقهورة مأكراً الجديدان وتعاقب النيران، أمين، وكان من حديثهم فيما بلغني أن والدهم شادي بن مروان رحمه الله كان أميراً عظيم القدر، وكان مقامه بتكريت وبها توفي، وكان له ولدان هما: أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب، فاتفق أن نجم الدين أيوب ولي قلعة تكريت مدة، ثم عُزل عنها وطلب منه المقام بتكريت من غير ولاية فامتنع، وتجهز هو وأخوه وأصحابها وأهل بيتهما إلى الموصل فخدموا بها امراءها.

ولما وصلت المملكة إلى العادل نور الدين محمود بن زنكي قصده نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين وأهل بيتهما، فقر بهم، وأكرمهم غاية الإكرام وقدمهم على غيرهم من الأمراء، وصاروا من أكابر أصحابه وأعظم أرباب دولته.

ولما ملك نور الدين البلاد الشامية، واستولى عليها، كانوا في صحبته وملازمين له في سفره وحضره لا يفارقونه في وقت من الأوقات.

وكان العادل نور الدين رحمه الله إِذَا حَزَبُهُ أَمْرٌ فَنَزَعَ في المشورة إلى نجم الدين أيوب رحمه الله وتيمن برأيه.

وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب يقوم يومئذ على رأس نور الدين رحمه الله في الخدمة مع جملة خواصه وأولاده، وكان نور الدين يعظمه ويكرمه، وينزله منزلة الولد، وينزل أباه وعمه منزلة الإخوة والأهل لما كان يعرفه منهم من جميل الطريقة ومحمود السيرة وطهارة الأصل وشرف المحتد، واقتبس صلاح الدين من نور الدين من مبادئ الخيرات وجميل الصفات ما اتصف بها، وزاد عليها وجاوزها.

ولما كانت هذه السنة قَدِمَ شاور وزير العاضد صاحب مصر إلى دمشق، وذلك لستّ مضين من ربيع الأول واجتمع بالملك العادل نور الدين رحمه الله، ووصف له الديار المصرية، وَضَعَتْ أهلها، وضمن له أنه إن بعث معه عسكرياً أخذها له.

وكان السبب في قصد شاور إلى الشام وإطاعه نور الدين بديار بمصر أن شاور كان لما استقل بالملك بمصر نَقَصَ أرزاق الجند وعَسَفَهُم فتعاقدوا على قتله ومن حملتهم رجل يقال له الضرغام، فبلغ شاور ذلك فخرج ليلاً طالباً الشام، فخرج الضرغام وجماعة خلفه ليقبضوا عليه فلم يدركوه، وعاد الضرغام إلى مصر فخلع عليه العاضد واستوزره ولقبه الملك المنصور، واستحلف له الأمراء، فَقَتَلَ الضرغام من الأمراء الذين كانوا مع شاور وكاتبوه مايزيد على سبعين أميراً سوى اتباعهم.

مسير أسد الدين شيركوه الأول إلى مصر

ثم إن الملك العادل نور الدين رحمه الله جهز جيشاً كثيفاً لفتح مصر وقَدِمَ عليهم الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادي رحمه الله، فتوجه إلى مصر وفي خدمته شاور، ولما وصلوا إلى مصر علم الضرغام أنه قد أحيط به فأتى إلى قصر الخلافة ونادى: يامولانا يامولانا، فلم يُجِبْ، ووردت إليه رقعة مكتوب فيها خذ لنفسك وانج بها. فَيَسَّ من الحياة وخرج هارباً فأدركه غلمان شاور فقتلوه وقتلوا معه أخويه ملهماً والحسام، ولم يَتَأَتَّ لأسد الدين الاستيلاء على مصر في هذه السنة، وأعاد العاضد شاور إلى وزارته، فانحرف عن أسد الدين وَبَايَنَهُ، واستنصر بالفرنج عليه، فلما رأى ذلك أسد الدين كَرَّ راجعاً إلى الشام.

سنة تسع وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة كسر الملك العادل نور الدين رحمه الله الفرنج على حارم، وتسلّمها وأخذ القومص والإبرنس أسيرين، وكان ذلك من فتوح الإسلام الجليّة.

سنة اثنتين وستين وخمسمئة

في هذه السنة كان مسير أسد الدين الثاني إلى مصر، وكان من حديث ذلك أن الملك العادل نور الدين رحمه الله جهز أسد الدين شيركوه بن شادي في عسكر كثيف من العساكر النوريّة إلى مصر، وذلك في ربيع الأول فسار إلى مصر، ونزل بالجيزة وأقام محاصراً لها نيفاً وخمسين يوماً ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، فاستنجد شاور بالفرنج وأذن لهم في دخول مصر لنجدته، فقدموا طالين مصر، فلما عرف أسد الدين بمجيئهم رحل من بين أيديهم إلى موضع يعرف بالباين، فعبأ أصحابه وجرى بينه وبين المصريين حرب نصر الله فيها أسد الدين وقتل من الفرنج ألوف وأسر منهم سبعون فارساً من بارونيتهم، ثم سار أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين رحمهما الله تعالى إلى الاسكندرية فملكها، وولى فيها أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين، وخرج أسد الدين إلى الصعيد فأقام به يجبي الخراج.

وأقام الفرنج بالقاهرة حتى استراشوا وجددوا آلات الحرب، ثم قصدوا الاسكندرية وبها صلاح الدين يوسف بن أيوب فحاصروها أربعة أشهر، وكان أهل الاسكندرية مؤثرين للغز كارهين للدولة المصرية، لميل الاسكندرانيين إلى السُّنة وكراهيتهم للبدعة، فقاموا بنصرة صلاح الدين أحسن قيام.

وسارأسد الدين من الصعيد بجموعه طالباً للفرنج، فلما قرب منهم رحلوا، ثم وقعت هدنة بين أسد الدين وشاور على أن ينصرف أسد الدين إلى الشام، ويحمل إليه شاور عوض ما أنفقه فبذل له خمسين ألف دينار، فأخذها ورحل بجموعه إلى الشام.

سنة ثلاث وستين وخمسمئة

في هذه السنة أنعم الملك العادل نور الدين على أسد الدين شيركوه ابن شادي بحمص وأعمالها، فتسلمها وصار فيها.

سنة أربع وستين وخمسمئة

في هذه السنة كان مسير أسد الدين الثالث إلى مصر، وخبر ذلك أن الفرنج قصدت الديار المصرية، وذلك لأنهم دخلوها مرتين، كما سبق ذكره، واطَّلَعُوا على عوراتها، وعرفوا جهاتها، وطمعوا في أخذها، فجمعوا جموعاً عظيمة، وأظهروا أنهم قاصدين حمص، وكان الملك العادل مشغولاً بجهة الفرات والشمال، فتوجهوا من عسقلان في المحرم فوصلوا إلى بلبس فحاصروها وملكوها، واستولوا على أهلها قتلاً وأسراً.

ثم نزلوا على القاهرة فحاصروها، فأحرق شاور مصر خوفاً من الفرنج، فلما ضايقوا القاهرة بعث شاور إلى ملك الفرنج مُري يطلب منه الصلح على ألف ألف دينار، بعضها مؤجل وبعضها معجل فأجابه مُري إلى الصلح، وحلف له عليه، فحمل إليه شاور مئة ألف دينار، وماطَلَهُ بالباقي، وكتب إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يستصرخ

به، وسَوَّدَ كتبه، وجعل في طيِّها ذوائب النساء، وواصل كتبه إلى الملك العادل نور الدين، وكان مقيماً بحلب، فسار أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلة واحدة فجمع العساكر وسارا إلى دمشق وعرضا العساكر على الفور، ثم سار أسد الدين إلى مصر في سبعين ألف فارس وراجل (٦) فلما بلغ الفرنج قدومه رحلوا عن مصر راجعين إلى الساحل.

استيلاء أسد الدين على مصر

ثم دخل أسد الدين القاهرة لثلاث عشرة مضي من ربيع الآخر، وجلس في الإيوان وخلع عليه خلع السلطنة، ثم ولاه العاضد وزارته وكتب له عهداً نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله ووليّه أبي عبد الله بن يوسف، الامام العاضد لدين الله، أمير المؤمنين، إلى السيد الأجلّ الملك المنصور سلطان الجيوش، ولي الأئمة مُجِير الأئمة أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأُمْتَعَ بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته، سلام عليك فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ونسأله أن يصلي على عبده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين ويسلم تسليماً .

ثم اتبع ذلك خطبتين فيهما مواعظ ووصايا، وأنه قد قلده الوزارة وفوض إليه تدبير الدول، بألفاظ راقية ومعان فائقة كرهنا ذكرها مفصلة خيفة من التطويل.

وكتب العاضد بخطه على أعلى المنشور ماصورته:

هذا عهد لم يعهد بمثله، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها،
والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبله، فخذ كتاب أمير
المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بك بتوة النبوة واتخذهُ
للفوز سبيلاً، (ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليها
كفيلاً (٧)).

مقتل شاور

وكان مقتله قبل أن يستوزر العاضد أسد الدين، وحديث ذلك أن
أسد الدين لما دخل القاهرة قام شاور بضيافة عسكره وأكثر من التردد
إلى خدمة أسد الدين، فطلب منه أسد الدين مالاً ينفقه على الأجناد
فماطله شاور به، فبعث إليه الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد المهكاري
يقول له: إن العسكر طلبوا نفقاتهم وقد مطلتهم بها وتغيرت قلوبهم
عليك، فإذا أتيتني فكُنْ على حذر منهم. فلم يؤثر ذلك عند شاور شيئاً
وأتى أسد الدين مسترسلاً فاعترضه صلاح الدين يوسف بن أيوب
وجماعة من الأمراء النورية فقبضوا عليه، فجاءهم رسول العاضد يطلب
رأس شاور فقتل وحمل رأسه إلى العاضد وذلك في اليوم الذي دخل فيه
أسد الدين القاهرة، فقلد العاضد حينئذ أسد الدين الوزارة كما ذكرناه
وولاه ماوراء بابه.

وفاة الملك المنصور أسد الدين رحمه الله

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور أسد الدين أبو الحارث شيركوه بن
شادي قدس الله روحه، وذلك يوم الأحد لثمان بقين من جمادى الآخرة
فكانت مدة استيلائه على الديار المصرية خمسة وستين يوماً.

استيلاء الملك الناصر صلاح الدين على مصر

ولما توفي الملك المنصور أسد الدين قلّد العاضد الوزارة بموافقة من الأمراء النورية للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ابن شادي، ولقبه الملك الناصر، وخلع عليه، وكتب له منشوراً بخط القاضي الفاضل وإنشائه، فقام الملك الناصر بالوزارة وتدير الممالك أحسن قيام، واستمال قلوب الناس بالخلع والهبات وجهاز الكتب والخلع إلى الشام، وساس الناس أحسن سياسة.

نوبة السودان وقتلهم

وكان من حديثهم أن خصياً يقال له مؤتمن الخلافة، كان زمام القصر بمصر، فاجتمع بمن في القصر وحالفهم، وكاتبوا الفرنج ليساعدوهم على إخراج الملك الناصر، فظفر الملك بالكتاب ووقف عليه فأنهض إلى مؤتمن الخلافة جماعة فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوه به، فغضب السودان لذلك واجتمعوا فيما يزيد على خمسين ألفاً، فقاتلهم الملك الناصر بعساكره، فكسروهم واستباح دماءهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وهرب من سلم منهم.

وكانت لهم محلة كبيرة على باب زويلة فأمر الملك الناصر بتعفيثها فحرثها بعض الأمراء وجعلها بستاناً، وضعف أمر العاضد من حيثئذ.

سنة خمس وستين وخمسمئة

في هذه السنة نزلت الفرنج على دمياط في مستهل صفر فحاصروها وأحدا وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها خائبيين.

قدوم نجم الدين رحمه الله إلى مصر

في هذه السنة قدم الملك الأوحى نجم الدين أيوب بن شهابي قدس الله روحه إلى مصر، فخرج العاضد إلى لقائه بنفسه ومعه الملك الناصر صلاح الدين ومَنْ دُونَهُمَا، وكان يوماً مشهوداً، وكان ذلك لستّ بقين من رجب.

استيلاء الملك العادل نور الدين على سنجار والموصل

وفي هذه السنة توجه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر إلى سنجار فحاصرها حصاراً شديداً ثم تسلمها بالأمان، ثم توجه إلى الموصل فحاصرها وقطع الميرة عن أهلها فوقع الصلح بينهم على تسليمها لنور الدين فدخل نور الدين الموصل ورتب أمورها وبني بها الجامع النوري، ووقف عليه الوقوف الجليلة.

وفيها كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حلب وذلك لاثنتي عشرة ليلة مضت من شوال، فيقال أنه هلك بها تحت الروم خمسة عشر ألف إنسان، ذكر أنها عمت معظم البلاد حتى جاءت في سبته من بلاد المغرب.

سنة ست وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستنجد بالله وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وأياماً، وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة.

سيرته:

كان رضي الله عنه محباً للعلم منكراً للظلم كثير الصدقات مهيباً

مخوفاً، ذا سطوة وعزيمة، وبأس شديد، وله شعر جيد من جملة قوله في الشمعة:

وصفراء مثلي في القياس وذمُّها
سجامٌ على الخدين مثل دموعي
تذوب كما في الحبِّ ذُبْتُ صَبَابَةً
وتحوي حشاها ما حَوَتْهُ ضلوعي

خلافة المستضيء بنور الله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي ابن الذخيرة بن المنذر بن القائم بن القادر، وأمه أم ولد أرمنية تدعى غَضَّة، بويع له بالخلافة يوم توفي والده المستنجد بالله، ومدحه الحيص بيص بقوله:

أقول وقد تولى الأمر خيرٌ
ولِّي لم يزل بَرّاً تَقِيّاً
وقد كُشِفَ الظلامُ بمستضيء
غداً بالخلق كلهم حفيّاً
وفاض الجود والمعروف حتى
حسبناه عُبَاباً أو أَرِيّاً
بَلْغُنَا ما كنّا نَرْجِي
هنيئاً يا بني الدنيا هنيئاً
سألنا الله يرزقنا إماماً
نُسَرُّ به فأعطانا نبيّاً

ولما استوسق الأمر لأمير المؤمنين المستضيء، بعث رسله إلى الأقطار مبشرين بخلافته، ومهنتين بإيالته.

إقامة الدعوة العباسية بمصر

في هذه السنة خطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر لأمر المؤمنين المستضيء بنور الله رضي الله عنه في أول جمعة من المحرم والعاظم حي، ثم كانت وفاة العاضد لدين الله في يوم عاشوراء بعد إقامة الخطبة بأيام قلائل، وهو آخر خلفاء مصر.

فلما كانت الجمعة الثانية خطب بالقاهرة للمستضيء ورجعت الدعوة العباسية بمصر بعد أن كانت قطعت بها أكثر من مئتي سنة (٨) ، وتسلم الملك الناصر قصر الخلافة بالديار المصرية، واستولى على ما كان به من الأموال والذخائر، وكانت عظيمة الوصف، جليلة القدر، وقبض على أولاد العاضد وأهل بيته واعتقلهم في مكان واحد بالقصر، واحتاط عليهم وأجرى عليهم ما يمتنونهم، وعفا آثارهم وقمع مواليتهم وسائر أسبابهم.

قلت: وكانت هذه الفعلة من أشرف أفعال الملك الناصر رحمه الله، وأقربها إلى الله تعالى، فلنعم مافعل فإن هؤلاء القوم كانوا باطنية زنادقة (٩) دعوا إلى مذهب التناسخ واعتقاد حلول الجزء الإلهي في أشباحهم.

وقد ذكرنا أن الحاكم قال لداعيه: كم في جريدتك؟ قال: ستة عشر ألفاً يعتقدون أنك إله. وقد مدح بعض الشعراء بعضهم، وأظن الممدوح الحاكم (١٠)، حكم الله عليه بالنقمة بقصيدة أولها:
ما شئت لا ما شئت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

فلعن الله المادح والممدوح وليس هذا في القبح إلا كقول فرعون: (أنا ربكم الأعلى) (١١)

وقال بعض شعرائهم يذكر ظهور مهديهم فيما يزعمون، الذي هو في الحقيقة مُضِلُّهُمْ وقائدهم إلى النار برقادة (١٢) من عمل القيروان:
حَلَّ رَقَادَةُ الْمَسِيحِ حَلَّ آدَمُ وَنُوحٌ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ فِي عُلَاةٍ وَمَا سَوَى اللَّهِ فَهُوَ رِيحٌ

وهذا أعظم كفرًا من النصارى بكثير؛ لأن النصارى يزعمون أن الجزء الإلهي حل بناسوت ابن مريم فقط، وهؤلاء يعتقدون حلوله في جسد آدم ونوح وسائر الأنبياء وجميع الأئمة فلعن الله قائل هذه المقالة لعنة لاتفارقه إلى يوم الدين.

هذا اعتقادهم، فأما نسبهم فَأَئِمَّةُ النِّسْبِ يَجْمَعُونَ عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَا مِنْ قُرَيْشٍ أَصْلًا، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيْمَا مَضَى أَنَّ الْقَادِرَ بِاللَّهِ كَتَبَ مُحْضَرًا يَتَضَمَّنُ الْقَدْحَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ، وَأَنَّهُ شَهِدَ فِي ذَلِكَ الْمُحْضَرِ خَلْقَ مِنَ الْأَكَابِرِ مِنْهُمْ الشَّرِيفَانَ الرِّضِيِّ وَالْمُرْتَضَى وَأَبُو حَامِدٍ الْأَسْفَرَايْنِي، وَأَبُو جَعْفَرٍ الْقُدُورِيِّ وَغَيْرِهِمْ.

وكان عمارة الشاعر اليميني متواليًا لهم، فلما زالت دولتهم قال يرثيهم بقصيدة أولها:

رَمَيْتَ يَادْهَرَ كَفَ الْمَجْدِ بِالْشَّلَلِ
وَجِيئَ بِهِ بَعْدَ حُسْنِ الْحَلِيِّ بِالْعَطَلِ
سَعَيْتَ فِي مَنْهَجِ الرَّأْيِ الْعَثُورِ فَإِنْ
قَدِرْتَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّهْرِ الْجَلِيِّ فَاسْتَقْبَلِ
جَدَعْتَ مَا رَنَكَ الْأَقْنَى فَأَنْفُكَ لَا
يَنْفُكَ مَا بَيْنَ أَمْرِ الشَّيْنِ وَالْخَجَلِ
هَدَمْتَ قَاعِدَةَ الْمَعْرُوفِ عَنْ عَجَلِ
سُقَيْتَ مُهْلًا أَمَّا تَمْشِي عَلَى مَهَلِ
لَهْفِي وَلَهْفِ بَنِي الْأَمَالِ قَاطِبَةً
عَلَى فَجِيعَتِهِمَا فِي أَكْرَمِ الدُّوَلِ

وان تضاعفت الأقوال واستبقت
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
بان النجاة فهُم دُنْيَا وَآخِرَةٌ
وَحُبُّهُمْ فَهُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَالْعَمَلِ
أَيُّمَّةٌ خَلَقُوا نَوْرًا فَتُورُهُمْ
من نور خالص نور الله لم يُفَلِ
نور الهدى ومصاييح الدجى ونَحْـ
لُ الْغَيْثِ إِنَّ وَتَّ الْأَنْوَاءِ فِي الْمَحَلِ
والله لو زلت عن جبي لهم أبدأ
مَا آخَرَ اللَّهُ لِي فِي مُدَّةِ الْأَجَلِ

سنة ثمان وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك الأوحـد نجم الدين أيوب بن شادي رحمه الله، وذلك بمصر في سابع عشر من ذي الحجة، ودفن إلى جانب أخيه الملك المنصور قدس الله روحهما، وأدام النعمة على خلفهما، ثم نقلّا بعد سنين إلى المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فدفنّا بها قريباً من الحجرة النبوية.

سنة تسع وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك العادل نور الدين رحمه الله ورضي عنه، وذلك بمدينة دمشق في شهر شوال بعد أن عهد بالسلطنة إلى ولده الملك الصالح اسماعيل بن محمود زنكي.

سيرته:

كان رحمه الله ملكاً عابداً زاهداً ورعاً مجاهداً في سبيل الله، كثير الصدقات والبر والاحسان، بنى الجوامع والبيمارستانات في أكثر بلاد الشام والموصل، وبنى الرباطات للصوفية والفنادق في المنازل، وأثر في الاسلام أثراً لم يسبقه أحد من الملوك إليها، وكان سخياً كريماً صالحاً معدوداً من الأبدال، وانتزع من الكفار نيفاً وخمسين مدينة رحمه الله، ورضي عنه.

ولما توفي أجلس في الملك بعده ولده الملك الصالح اسماعيل بن محمود، ثم مضى بجموعه إلى حلب ومعه الأمير كمشتكين وسابق الدين عثمان واسماعيل الخازن، واستخلف بدمشق الأمير شمس الدين محمد ابن المقدم.

سنة سبعين وخمسمئة

في هذه السنة كان استيلاء الملك الناصر على دمشق، وحديث ذلك أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سار من الديار المصرية بجموعه إلى دمشق، فوصل إليها وتسلمها بغير قتال، وكان ذلك بوضع من شمس الدين ابن المقدم وبطانته، ثم خرج منها الملك الناصر متوجهاً إلى حمص فعصت عليه قلعتها، فتوجه إلى حماه، وملكها في مستهل جمادى الآخرة، ثم سار إلى حلب حاصرها جميع هذا الشهر، واشتد على الملك الصالح وأصحابه الحصار فاستغاثوا بالباطنية وواعدوهم بالأموال، فجاء نفر منهم فعرفهم الأمير ناصح الدين خمارتكين صاحب أبي قيس فقتلوه وقتلوا عن آخرهم.

ثم عاد السلطان الملك الناصر إلى قلعة حمص فحاصرها بقية رجب، وتسلمها بالأمان في شعبان بعد قتال شديد، ثم توجه إلى بعلبك فتسلمها في شهر رمضان، ثم عاد إلى حمص.

كسرة المواصلة على القرون:

ثم اجتمع الحلبيون والمواصلة، وتوجهوا إلى حماه فحاصروها حصاراً شديداً، وتقدم الملك الناصر إلى حماه فنزلها والتقى الفريقان بقرني حماه فكانت الكثرة للسلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله، وانهمز المواصلة أقبح هزيمة فحقن السلطان دماءهم ونهب أموالهم، ثم تقدم إلى قرا حصار من عمل حلب، ثم وقع الصلح بين السلطان والمواصلة والحلبين على أن يكون له ما بيده من الشام إلى آخر بلد حماه والمعرة وكفر طاب، مضافة إليه، وحلفوا له على ذلك وعاد فنزل على حماه ووصلته رسل أمير المؤمنين المستضيء رحمه الله بالتهنئة والتحف الجليلة والتشريفات، ثم تجهز السلطان إلى حصن بارين ففتحه بعد حصار شديد وأقطع حماه خاله شرف الدين محمود، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيزكوه ثم توجه إلى دمشق.

سنة إحدى وسبعين وخمسة

في هذه السنة كانت كسرة المواصلة على تل السلطان، وحديث ذلك ان المواصلة نكثوا عهدهم وحشوا في يمينهم التي حلفوها للسلطان الملك الناصر ووافوا من الموصل في جموع كثيرة فخرج إليهم السلطان الملك الناصر في جمع قليل، والتقوا بتل السلطان يوم الخميس العاشر من شوال، فكسر المواصلة فولوا مدبرين لا يلوون على شيء واستولى عليهم السلطان أسراً ونهباً، وحقن دماءهم، واستولى على خيمهم وأمتعهم، ثم أحضر الأمراء الذين أسرهم، فخلع عليهم وأطلقهم، ثم صار إلى بزاعه فتسلمها، ثم إلى منبج ففتحها واستولى عليها، ثم سار إلى حصار عزاز.

سنة ثلاث وسبعين وخمسة

في هذه السنة حاصر السلطان الملك الناصر صلاح الدين حلب مدة، ثم وقع الصلح بينه وبين الحلبيين، وأبقى على الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل نور الدين، ودّ عليه حصن عزاز، وعاد السلطان إلى مصيف بلاد الباطنية، فنصب عليه المجانيق وأباح قتلهم وتخريب بلادهم فتضرعوا إلى شهاب الدين صاحب حماه خال السلطان فسأل فيهم فرحل عنهم إلى دمشق، ثم توجه إلى مصر، فأمر ببناء السور الأعظم المحيط بالقاهرة ومصر، وبإنشاء القلعة بجبل المقطم، فشرع فيه، ثم توجه إلى الاسكندرية لسماع الحديث على الحافظ السلفي فكان يتردد إليه الخميس والسبت، ثم عاد إلى مصر وبني تربة الشافعي رضي الله عنه، ثم خرج إلى الفاقوس فخيّم بها إلى أن دخلت سنة ثلاث وسبعين (١٣).

سنة ثلاث وسبعين وخمسة

في هذه السنة كانت وقعة الرملة وكان من حديثها أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله خرج من القاهرة لثلاث مضي من جمادى الأولى لجهاد العدو، وخيّم ببليس، ثم سار إلى عسقلان فسبى وغنم وأسر من الفرنج جماعة، وضرب أعناقهم، ثم مضى إلى الرملة فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت أثقال عساكر المسلمين في العبور عليه، وبينما هم كذلك وإذا الفرنج قد أشرفت على المسلمين بأطلاها، وحملوا على المسلمين فانهزموا وتفرقوا وثبت السلطان الملك الناصر وابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب، وأبليا بلاء حسناً واستشهد من المسلمين جماعة منهم شهاب الدين أحمد ولد الملك المظفر رحمه الله، ثم جاء الليل وقد احتوت الفرنج على أثقال المسلمين، فلم

ييق لهم قدرة على ماء ولا زاد ودليل، وتعسفوا في تلك الرمال حتى وصلوا إلى مصر، وقد هلك خلق من الناس والدواب، وضلَّ خلقٌ فأخذهم الفرنج أسرى، وجملة الأمر أنها كانت نوبة صعبة على المسلمين.

في هذه السنة نزلت الفرنج على حماء، وهي يومئذ بيد الأمير شهاب الدين محمود بن تكش خال السلطان، وكان مريضاً مجهداً، وكان الأمير سيف الدين المشطوب قريباً من حماء فدخلها واجتمعت إليه رجال، وزحفت الفرنج إلى حماء فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً مدة أربعة أيام ثم رحلوا عنها، فنزلوا على حارم ونصبوا عليها المجانيق والسلام وحاصروها حصاراً شديداً مدة أربعة أشهر، ثم رحلوا عنها إلى بلادهم.

ولما عاد السلطان من الرملة إلى مصر بمن معه أقام بها إلى السادس والعشرين من شعبان ثم خرج منها بعد أن استخلف على مصر أخاه الملك العادل، فأقام مخيماً على البركة بقية شعبان وجميع شهر رمضان حتى تكاملت عنده العساكر وعيّد بالبركة عيد الفطر.

وكان قد بلغه نزول الفرنج على حماء، فأسرع في السير رجاء أن يدركهم فيوقع بهم، وكان وصوله إلى دمشق ليست بقين من شوال فأقام بها إذ تحقق رحيل الفرنج عن حماء.

وفي هذه السنة عصى الأمير شمس الدين محمد بن المقدم بعلبك، وامتنع من الحضور عند السلطان، فكاتبه السلطان ورّقق به فلم يُجِب، ولم يزل على امتناعه إلى أن دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمئة.

وفي هذه السنة سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى حصن ليكون في مقابلة الفرنج لأنه بلغه أنهم اجتمعوا تحت حصن الأكراد وعزموا على الغارة، ولما أمِنَ من غارتهم سار إلى بعلبك ونزل بظاهرها

على رأس العين التي بها، فأقام عليها شهراً يُراوِدُ شمس الدين على الرجوع إلى طاعته، وهو يأبى عليه، ولا يزداد إلا عصياناً ولجاجاً، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن دخل شهر رمضان، فأجاب شمس الدين بن المقدم لتسليم بعلبك إلى السلطان على عَوَضٍ طلبه، فتسلمها السلطان، وأنعم بها على أخيه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب.

ثم سار السلطان إلى دمشق في شهر شوال، ثم رَغِبَ السلطان أخاه الملك المعظم في إقطاع أَقْطَعَه إياه بالديار المصرية، فمضى إلى مصر وتسلم السلطان بعلبك وذلك في ذي القعدة.

وفي هذه السنة أنعم السلطان الملك الناصر على ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب بحماه، والمعرة، وأفامية، ومنبج، وقلعة نجم، فتسلمها، وبعث نوابه إليها، وذلك بعد أن توفي شهاب الدين خال السلطان.

سنة خمس وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وقعة مرج العيون، ومن حديثها أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب كان نازلاً بتل بانياس، يبعث سراياه إلى الفرنج، ولما كان ثاني شهر المحرم ركب السلطان في جمع يسير ووقف في بعض الطرق، فرأى راعي أغنام وأبقار قد جفلت، فسأله السلطان عن الفرنج فأخبره بقربهم، فعاد السلطان إلى مخيمه، وأمر العسكر بالركوب فركبوا، وسار بهم السلطان إلى أن أشرف على الفرنج وهم ألف قنطارية، وعشرة آلاف مقاتل مابين فارس وراجل وفيهم بارزان وابنه بادين وأود مقدم الداوية، وجماعة فحملوا حملة عظيمة على المسلمين فثبتوا لهم، ثم حمل المسلمون عليهم فولوا الأدبار

منهزمين، وركب المسلمون أكتافهم فقتل أكثرهم، ونجا منهم الأقل وأسر منهم مئتان وثيقت وسبعون أسيراً، منهم بادين بن بارزان، وأود ابن القومصية وأخوها صاحب جليل، فحملوا إلى قلعة دمشق فاعتقلوا بها، فأما ابن بارزان فاستنق نفسه بجملة عظيمة وبألف أسير من المسلمين، واستنق ابن القومصية نفسه أيضاً بجملة، ومات أود في السجن.

وفي هذه السنة كانت وفاة المستضيء بنور الله، وذلك لليلتين مضتا من ذي القعدة، وكانت خلافته تسع سنين وأشهرًا.

سيرته: كان رضي الله عنه عادلاً جواداً، مؤثراً للخير بعيداً، عن الشر، كثير الصدقات والمعروف، متكثراً من العلماء محباً لهم، وحُطِبَ له بالديار المصرية واليمن، وكانت الدعوة العباسية منقطعة بهما من زمن المطيع، وقد ذكرنا ذلك.

ولما ولي المستضيء بالخلافة أظهر من العدل والكرم ببغداد ما لم يُرَ مثله في السنين المتطاولة، ونادى برفع المكوس والمظالم، وردَّ أملاكاً كثيرة كانت غُصبت من مُلّاكها إليهم، وفرَّقَ أموالاً جزيلة على بني هاشم والفقهاء والصوفية وغيرهم.

خلافة الناصر لدين الله أمير المؤمنين

هو أبو العباس أحمد بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر، وأمّه أم ولد يقال لها [زمرد خاتون] بويغ له بالخلافة ببغداد يوم توفي والده المستضيء وكان عمره يوم بويغ له ثلاثاً وعشرين سنة وشهوراً.

ولما بويغ مدحه أمين الدولة أبو الفتح [سبط] ابن التعاويذي بقصيدة أولها:

طاف يسعياً بها على الجلائس
كقضييب الأراكسة الميَّاس
ورأى الغانيات شيبى فأعزَّض
من وقلَّس الشباب خير الناس
كيف لا يفضِّل السواد وقد أضح
حى شعاراً على بني العباس
أمناء الله الكرام وأهل الجـ
ود والخلع والتقوى والباس
ولقد زُيِّنَتِ الخلافة منهم
بإمام الهدى أبي العباس
مليك جَلَّ قُدْسُهُ عن مثال
وتعالىتْ الأؤة عن قياس
يا لها ببيعة أجَدَّتْ من الاسـ
لام بـالي رسومـه الأدراس
ولي الله أمره فآله المنـ
ة فيها عليه لا للناس (١٤)

سنة ست وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة بسط الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين العدل، وأمر بإزالة الخمر، وكسر الملاحى وإزالة المكوس والضرائب، فعمرت البلاد، وكثرت الأرزاق، وقصد الناس بغداد من أقطار الأرض، وتيمّن الناس بخلافته وتبركوا بإياله.

وفيها توجّه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله إلى بلاد الأرمن فنزل على حصن المناكير ففتحته وهدمه، وكان صاحب الأرمن يومئذ ابن لاون، ثم وقع الصلح بين السلطان وابن لاون على خمسمئة أسير من المسلمين أطلقهم ابن لاون، ثم عاد السلطان إلى حمص فنزلها، وأتته رسل الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بالتقليد والتشريف له بالسلطنة والزعامة، وركب السلطان في الخلعة، وكان يوماً مشهوداً، ثم سار السلطان إلى الديار المصرية.

سنة سبع وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب حلب، فوصل إلى حلب ابن عمه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل، واستولى على خزائنها، ثم علم أن الأمر بها لا يتم له مع وجود السلطان الملك الناصر، فطلب من أخيه عماد الدين زنكي ابن مودود بن زنكي صاحب سنجار أن يعطيه سنجار ويعوضه عنها حلب ففعل، وأقام عماد الدين زنكي بحلب، ومضى عز الدين إلى سنجار فتسلمها.

وفي هذه السنة بعث السلطان أخاه ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب إلى اليمن، فملكها واستولى على بلادها.

سنة تسع وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك الناصر من مصر إلى دمشق، ثم خرج إلى بيسان وطبرية غازياً، وجرى بينه وبين الفرنج قتال، ثم سار السلطان إلى البيرة وقطع منها الفرات، وسار إلى الرها ففتحها، ثم مضى إلى الرقة ففتحها ثم إلى نصيبين ففتحها، ثم سار إلى الموصل فنازلها وصاحبها عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، فاستشفع عز الدين بالخليفة الناصر لدين الله فشفع فيه فرحل عنه السلطان ونزل على سنجار فحاصرها، ثم تسلمها وأسقط عنهم المكوس.

ثم عاد السلطان إلى حران فأقام بها، ثم توجه إلى حرزم وكتب إلى الخليفة يطلب منه تقليداً شريفاً بآمد، فوصله التقليد في ذي الحجة، فسار السلطان إلى آمد فنازلها لثلاث بقين من ذي الحجة.

سنة ثمانين وخمسمئة

في هذه السنة فتح السلطان آمد، وذلك بالأمان في العشر الأول من المحرم وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، لأنه كان وعده بها، وكتب له بها وبأعمالها تقليداً، فتسلمها بها فيها من الدخائر.

وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهان شاه بن أيوب ابن أخي السلطان، فاشتد حزن السلطان عليه وكان نائبه بدمشق، فقوض السلطان نيابته بها إلى شمس الدين محمد بن المقدم.

استيلاء الملك الناصر على حلب

ولما فتح السلطان آمد ووهبها لنور الدين محمد سار إلى حلب فحاصرها أشد حصاراً، ثم وقع الصلح بين صاحبها عماد الدين زنكي والسلطان على أن يُعَوَّضَهُ السلطان عن حلب سنجار ونصيبين والخابور والرقّة وسروج وتسلم السلطان رحمه الله حلب في ثاني عشر صفر من هذه السنة، فامتدحه القاضي محيي الدين بن القاضي زكي الدين قاضي القضاة بدمشق بقصيدة منها:

وَقَتَحَكُمْ حَلَبًا بِالسَّيْفِ فِي صَفَرٍ
مُبَشِّرٌ بَفَتْحِ سُوحِ الْقُدْسِ فِي رَجَبٍ

فتفاءل السلطان بذلك، واتفق وقوع الأمر على ما أخبر، فإن القدس فتح في سنة ثلاث وثمانين في شهر رجب كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ولما فتح حلب واستولى على معاقلها جميعها، ولم يبق منها معقل غير حارم مع أحد المماليك النورية، فسار إليها السلطان وتسلمها، ثم أنعم السلطان بحلب على أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب.

ثم جمع السلطان وسار إلى الكرك فحاصره، ونصب عليه المجانيق، ثم وردت الأخبار إلى السلطان باجتماع الفرنج فترك الكرك وسار إليهم بعد أن كان قد أشرف على أخذه فخالفوه الطريق إلى الكرك، وأتوا إليه بجموعهم ففات على الناس أمر الكرك فسار إلى نابلس ثم إلى الفوار ثم دخل دمشق.

سنة إحدى وثمانين وخمسة

في هذه السنة سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قاصداً الموصل، ولما قارب حلب تلقاه صاحبها أخوه الملك العادل سيف الدين رحمه الله، ثم توجه إلى حرّان وكان صاحبها الملك المعظم مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك قد بذل خطه بخمسين ألف دينار يوم وصول السلطان إلى حرّان تكون برسم النفقات، ولما وصل السلطان وأقام أياماً لم ير لذلك أثراً، فغضب على مظفر الدين واعتقله ثم عفا عنه بعد أن تسلم منه قلعتي الرّها وحرّان، ثم أعادهما إليه في آخر السنة.

ثم صار السلطان إلى الموصل فحاصرها وضايقها، ثم وردت الأخبار على السلطان ب وفاة شاه أرمن صاحب أخلاط، و وفاة نور الدين محمد بن أرسلان، فتقسّم فكر السلطان فيما يفعله، واختلفت آراء أصحابه اختلافاً كثيراً، فمنهم من أشار عليه بالمقام على حصار الموصل ومنهم من أشار عليه بقصد تلك البلاد.

وبيناهم على ذلك إذ وصلت إلى السلطان رُسل أمراء أخلاط وأكابر دولتها بتعجيل السير إليهم، فرحل قاصداً أخلاط وقدّم في مقدمته ابن عمه ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ومظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، فمضى الأميران ناصر الدين ومظفر الدين إلى أخلاط فوجدا بكتمر أحد ممالك شاه أرمن قد دخل إلى أخلاط وملكها وعصى بها.

ووصل شمس الدين البهلوان محمد بن ايلدكز في عساكر أذربيجان وغيرهم قاصداً أخلاط فنزل قريباً منها، وكان الوزير مجد الدين بن الموفق بن رشيق بأخلاط فجعل يكاتب البهلوان مرة والملك الناصر مرة

أخرى، ولما وصل السلطان إلى ميفارقين نازلها وكتب إلى مظفر الدين وناصر الدين يأمرهما بالعود إليه فعادا إليه، واجتمعوا على منازل ميفارقين، ثم تسلمها بالأمان وسلمها إلى مملوكه سنقر الخلاطي وذلك في أول جمادى الأولى، ثم رحل عنها السلطان فنزل على القرماني، وأتته رسل البهلوان بما فيه من الصلاح، وأن يرجع السلطان عن أخلاط، فأجاب السلطان على أن يرحل البهلوان عن أخلاط إلى بلاده.

ثم رحل السلطان إلى الموصل فحاصرها وضايقها، فخرج إليه جماعة من النساء الأتابكيات فخضعن له وسألنه الصلح فأنزلهن في خيمة وأكرمهن وقيل شفاعتهن، واستقر الأمر على أن يكون في المتوسط عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار، فتوسط بين السلطان والمواصلة على أن تكون بلاد شهرزور وحصونها وضياعها والبوازيج والريستاق للسلطان، وضربت السكة في الموصل باسمه وخطب له بها وأقر الموصل على صاحبها، ثم رحل إلى حران فأقام بها مريضاً إلى آخر السنة.

وفي هذه السنة كانت وفاة ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص، فأنعم السلطان بحمص وبلادها بعده على ولده الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد، وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة يقيناً.

سنة اثنتين وثمانين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر رحمه الله بحرّان، وقد صح مزاجه فرحل منها ومعه أخوه السلطان الملك العادل رحمه الله، والملك الظاهر، والملك العزيز ولدا السلطان، فتوجهوا إلى دمشق.

استيلاء الملك الظاهر على حلب

وكنا قد ذكرنا أن السلطان الملك الناصر لما فتح حلب أنعم بها على أخيه الملك العادل، ولما كانت هذه السنة وصل السلطان إلى دمشق ومعه الملك العادل، نزل الملك العادل عن حلب وبذلها لأحد أولاد أخيه السلطان الملك الناصر، فشكره السلطان على ذلك وسلمها وبلادها إلى ولده السلطان الملك الظاهر غياث الدين ايلغازي بن يوسف بن أيوب رحمه الله.

ثم خرج السلطان إلى نواحي البلقاء فخيم بالزرقاء، وذلك في جمادى الآخر، ثم سیر أخاه الملك العادل رحمه الله إلى مصر لتدبير أموالها والقيام بأحوالها، ثم عاد السلطان إلى دمشق فأقام بها متهيئاً للجهاد الفرنج، مستعداً لقتالهم إلى أن خرجت السنة.

سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة كتب السلطان الملك الناصر إلى الأقطار يستدعي الأجناد إلى الجهاد، وخرج من دمشق في مستهل المحرم ونخيم على قصر سلامة من بصرى مرتقباً وصول الحاج خوفاً عليهم من الفرنج، فوصلوا بصرى في أول صفر فأمر السلطان ولده الملك الأفضل نور الدين رحمه الله بالنزول على رأس الماء لتجتمع العساكر عنده، فتوجه إليه ونزل به.

ومضى السلطان إلى الكرك والشوبك فأحرق كرومهما وضياعهما، وأقام هناك شهرين، واجتمعت الأمراء برأس الماء عند الملك الأفضل نور الدين، فجهز السرايا والغارة على طبرية، وقَدَّم على العساكر الشرقية مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ثم على عسكر

حلب الأمير بدر الدين دلدردم، وعلى عسكر دمشق قاياز النجمي، فسروا مدبلجين حتى صَبَّحُوا صفورية.

وعلمت الفرنج خبرهم فخرجوا إليهم والتقوا فنصر الله تعالى المسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة منهم: [مقدم] الاسبتار، وأسر منهم خلق، ثم سار السلطان من الكرك مُجِدًّا حتى خَيَّم بعشتر، واجتمعت إليه بها العساكر جميعها فعرض العسكر وبذل فيهم، ثم سار بهم وَقَدْ ملأ الفضاء حتى أتوا الأردن، فنزل على ثغر الأقحوانة، وقد اصطفت الفرنج بصفورية فرَّتَب السلطان جُمَّلَةً من العساكر في قبالتهم، ومضى إلى طبرية فتسلمها عنوة، ولما علمت الفرنج تَسَلُّمُها لها تهيأوا لقصده، فعلم السلطان ماقد أجمعوا عليه، فسار بجموعه إليهم، ورَّتَب أطلابه في مقابلتهم ثم صابحهم وبايتهم وضيَّق عليهم فأووا إلى جبل حَطَّين.

وقعة حطين

فأحاط المسلمون بهم من كل جانب وصاروا في قبضتهم، وهرب القومص لعنه الله لما أيقن بالهلكة، واستمرَّت الحرب فكانت الدائرة على الفرنج، فأخذوا أخذًا باليد، وحصل في الأسر الملك كي وأخوه جَفْرِي، وصاحب جبيل، وهنفري والإبرنس أرناط صاحب الكرك، فقتل السلطان أرناط صاحب الكرك بيده، ثم كُبِّل جميع الأسارى وحملوا إلى الحصون الإسلامية، والحبوس السلطانية، وأخذ السلطان من الفرنج يومئذ صليب الصليبوت، وهي الخشبة التي تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام صُلب عليها.

وكانت هذه الموقعة يوم السبت نصف شهر ربيع الآخر، ولم يُقْلِت من الفرنج فيها إلا آحادٌ، وكانت من أعظم فتوح الاسلام وأشرفها.

ثم بعث السلطان من تسلم حصن طبرية وكان بيد امرأة فأومنت على مالها ورجالها وتسلم الحصن منها .

فتح عكا : ثم رحل السلطان رحمه الله الى عكا فوصلها يوم الخميس لعشر بقين من ربيع الآخر فتسلمها بالأمان وملكها .

ولما نصر الله تعالى السلطان على الفرنج كتب الى اخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر وهو بمصر بالبشرى فخرج من مصر بجنوده قاصداً السلطان، فاجتاز بمجدل يابا ويافا ففتحها عنوة، وغنم من الأموال ما يعظم قدره، ثم فتح الله سبحانه الناصرة وصفورية على يد مظفرالدين بن زين الدين عنوة، وقيسارية على يد الأمير بدر الدين دلدوم والأمير غرس الدين قلعج عنوة، ونابلس على يد الأمير حسام الدين لاجين بالأمان بعد قتال كثير، ثم فتح حصن الفولة بالأمان، ثم نازل السلطان تبين ففتحها، وفتح صيدا ثم بيروت ثم جبيل.

فتح عسقلان

ثم سار السلطان الى عسقلان فحاصرها حصارا شديدا ونصب عليها المجانيق ثم فتحها بالأمان.

ذكر الفتح القدسي

ثم سار السلطان رحمه الله إلى البيت المقدس فنزل غَزِيَّه، وذلك يوم الأحد لخمس عشرة ليلة مضت من رجب، وكان في القدس يومئذ ستون ألف مقاتل فقاتلهم المسلمون أشد قتال، ثم انتقل السلطان إلى الجانب الشمالي من القدس وَخِيَمَ هناك ونصب المجانيق، وطلب الفرنج الأمان فأومنوا بعد امتناع كان من السلطان، وقرر على كل رجل منهم عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمسة دنانير، وعلى كل صغير دينارين، وشرط عليهم أن من عجز عما وجب عليه بعد أربعين يوماً ضُرب عليه الرُّق، فأجابت الفرنج إلى ما قُرِّرَ عليهم.

وتسلم السلطان البيت المقدس، وذلك لثلاث ليال بقين من رجب، وكانت مدة مقامه بيد الفرنج إحدى وتسعين سنة.

ولما كان يوم الجمعة لأربع مضيّن من شعبان أُقيمت الجمعة بالمسجد الأقصى، وخطب بالناس القاضي محيي الدين بن زكي الدين، ثم شرع السلطان في إصلاح المسجد الأقصى والصخرة حتى أعادهما على ما كانا عليه قبل استيلاء الفرنج عليهما، وأزال ما كان فيهما من آثارهم.

ثم تنافست ملوك بني أيوب فيما يؤثر عنهم من المآثر الحسنة، ففعل السلطان الملك العادل كل فعل جميل وصنع جليل، وأتى الملك المظفر تقي الدين عمر بما عَمَّ به العُرف، وعمر فبنى ونهى وأمر .

وفعل الملك الأفضل كل فعل مُفَضَّل، وفعل أخوه الملك العزيز من المآثر الحسنة ما استنطق به ألسنة الشُّكر وَحَازَ بِهِ جَمِيلَ الأجر، رحمهم الله أجمعين، وقدّس أرواحهم.

منازلة صُور

ثم تَوَجَّه السلطان إلى صور فنازلها ونصب المجانيق عليها، وذلك لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر رمضان، وكان قد اجتمع في صور خلق لا يحصون من الفرنج، فقاتلهم السلطان قتالاً شديداً، وبقي محاصراً لها إلى أن انقضت السنة.

وفي هذه السنة فُتحت هونين على يد الأمير بدر الدين دلدرد بالأمان.

سنة أربع وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة رحل السلطان الملك الناصر عن صور، وذلك لأنه تعذر عليه فتحها لكثرة من فيها وقوة شوكتهم، فنزل على حصن كوكب، وذلك في العُشْر الأوسط من المحرم، فوجده حصناً لا يُرام، فرتَّب قايماز النجمي في خمسمئة فارس، ثم رحل السلطان إلى دمشق فدخلها وأقام بها مُدَيِّدَةً يسيرة، ثم رحل منها إلى بعلبك فرتب أمورها، ثم سار إلى الزراعة، فوصل الخبر أن عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار قد وصل إلى بحيرة قدس قاصداً خدمة السلطان لأجل الغزاة، فسار السلطان ملتقياً له وعانقه، ثم نزل ببحيرة قدس وخيما عليهما، ثم سار السلطان بالعساكر حتى نزل البقيعة تحت حصن الأكراد وذلك في أول ربيع الآخر، وبث العساكر في تخريب بلاد الفرنج وقطع أشجارهم ونهب أموالهم، ثم رحل السلطان إلى طرطوس ففتحها عنوة وقتل من ظفر به فيها.

فتح جبلة واللاذقية

ثم مضى السلطان إلى جبلة فتسلمها بالأمان وذلك لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ثم رحل منها إلى اللاذقية فحاصرها حصاراً شديداً إلى أن طلب أهلها الأمان فأمنهم وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى. ثم رحل منها إلى صهيون ففتحها بالأمان على قطيعة قررها عليهم، ثم توجه إلى الثغر فتسلمه بالأمان، ثم تسلم أيضاً بكاس وسلمها إلى الأمير غرس الدين قليج الساقى والد الأميرين سيف الدين وعماد الدين، ثم سار السلطان ولده الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب قلعة سرمانه فهدمها وقرر على أهلها قطيعة أخذها منهم.

ثم سار السلطان لست بقين من جمادى الآخرة فخيّم على حصن برزّة وضربه بالمجانيق، فطلب أهله الأمان، فأمنهم وسلم هذا الحصن إلى الأمير عز الدين بن شمس الدين بن المقدم، ثم رحل السلطان إلى دريساك فتسلمها، ثم رحل إلى حصن بغراس فتسلمه أيضاً، ثم عزم على قصد أنطاكية فرغب الإبرنس صاحبها في الهدنة فهادنه السلطان، ثم رحل السلطان لثلاث مضين من شعبان على سمت حلب فودعه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار وعساكر الشرق، وعادوا إلى بلادهم.

ودخل السلطان إلى حلب فأقام بقلعتها أياماً، ثم سار إلى حماه فأقام بها يوماً، ثم سار إلى دمشق فأقام بها أياماً، ثم خرج منها في أوائل شهر رمضان طالباً للغزاة.

وفي هذه السنة كان فتح الكرك والشوبك، وكان من حديث ذلك أن السلطان الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب كان مقياً بتبنين في عساكره متحرزاً على البلاد من غائلة العدو، وكان صهره كمشبه الأسدي

موكلاً بحصار الكرك، فضاقت الميرة عليهم ويئسوا من نجدة تأتيهم، فتوسلوا إلى الملك العادل وتضرعوا إليه، وما زالت الرسائل تتردد بينهم وبينه حتى دخلوا تحت حكمه، وخرجوا من الحصن وسلموه إلى المسلمين، ووردت البشائر بفتحه على السلطان الملك الناصر وقد برز من دمشق، ثم تسلم أيضاً الشوبك.

فتح صفد

ثم سار السلطان إلى صفد فنازلها، ووصل إليه أخوه الملك العادل واجتمعوا على حصارها ودار الحصار والقتال إلى ثامن شوال، فطلبوا الأمان فأمنوا ودخلها المسلمون وتسلموها.

فتح كوكب

ولما فتح السلطان صفد سار إلى حصن كوكب، ونازله ونصب عليه المجانيق، فطلب أهل الحصن الأمان، وتسَلَّم الحصن منهم، وذلك في منتصف ذي القعدة.

ثم سار السلطان ومعه أخوه الملك العادل قاصداً بيت المقدس، فوصله في ثامن ذي الحجة فَعَيَّدَ به، ثم سار إلى عسقلان فرتب أمورها وجهز أخاه الملك العادل إلى مصر، ثم رحل صوب عكا فوصلها في آخر ذي الحجة.

وفي هذه السنة كان مقتل شمس الدين محمد بن المقدم غَلَطاً في فتنة وقعت بينه وبين أمير الحاج العراقي بالموسم، وكان سببها أن شمس الدين أراد تقديم طبوله على طبول الخليفة الناصر لدين الله، فَمُنِعَ من ذلك، وجرى ما ذكرناه.

سنة خمس وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة صار السلطان الملك الناصر رحمه الله من عكا متوجهاً إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر، ثم رحل منها لثلاث مضي من ربيع الأول متوجهاً إلى شقيف أرنون فأقام بمرج برغوث حتى اجتمعت إليه عساكره، ثم رحل حتى أتى مرج عيون وذلك لاحدى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، فخيم بمرج عيون على قرب من شقيف أرنون، وهو يومئذ بيد أرناط صاحب صيدا، فنزل إلى خدمة السلطان وأظهر الطاعة وسأل أن يُمهّل ثلاثة أشهر ليتمكن فيها من بَصُور من أهله، فأجابه السلطان إلى ذلك، وخلع عليه وأكرمه، فشرع أرناط في إصلاح الحصن وترميمه، والمسلمون في غفلة عنه، فلما بلغ السلطان ما هو بصدده من عمارة الحصن وتقويته انتقل من المرج إلى سطح الجبل ليلاحظ أرناط ويطلع على حاله، وأظهر إنما هو انتقل لأن المرج وَخِيمٌ، فعلم أرناط بذلك فنزل إلى السلطان طائعا متذللاً متضرعاً فكذب السلطان ما قيل عنه، ثم دَنَتْ المدة فسأل السلطان أن يزيده في مدة الإمهال، فعلم السلطان غَدْرَهُ وَنَكْثَهُ فقبض عليه وسيره إلى دمشق فحبس بها، ووكل بالحصن يحاصره صيفاً وشتاء.

ثم بلغ السلطان أن الفرنج قد حشدوا وجمعوا وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، فرحل السلطان إليهم فكانت بينهم وبينه وقعة كانت الكرة فيها للفرنج، واستشهد من المسلمين جماعة، ثم كَرَّ المسلمون عليهم فَرَدُّوهُمْ حتى ازدحموا على جسر هناك، فغرق منهم مئتا رجل، ثم سار السلطان إلى تبين فرتب أمورهما، ثم سار منها إلى عكا ورتبها، ثم عاد إلى معسكره فأقام به.

نزول الفرنج على عكا

وفي هذه السنة قصدت الفرنج عكا، ونازلتها فرحل السلطان الملك الناصر رحمه الله حتى نزل قبالتهم بمكان يقال له الخروبة، ثم وقعت الحرب بينهم وبينه إلى أن انقضت السنة، وكان فيها وقعات بين المسلمين والفرنج يطول الكلام بذكر تفصيلها ويخرج الكتاب عن حَدِّهِ.

سنة ست وثمانين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والفرنج يمدقون بعكا محاصرون لها، والقتال مستمر بين الفريقين فتارة يظهر المسلمون وتارة يظهر الفرنج.

وفي هذه السنة قَدِمَتْ العساكر من جميع الأقطار مدداً للسلطان الملك الناصر رحمه الله، فكان أول واصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، والأمير عز الدين بن المقدم وغيرهم، فكثرت العساكر واشتدت الحرب بين الفريقين، ثم وصل مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ثم عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار، ومعز الدين سنجر شاه بن غازي، ثم علاء الدين خُزَّ مشاه بن مسعود في عساكر الموصل، ثم وصل زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل في جنود كثيرة، واشتدت الحرب، وضايقت الفرنج عكا، وجاءتهم الأمداد من البحر.

وفي هذه السنة توفي زين الدين يوسف بن علي كوجك، ففوض السلطان مملكة إربل إلى أخيه الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين.

سنة سبع وثمانين وخمسمئة:

دخلت هذه السنة وقد اشتدت مضايقة العدو خذله الله لعكا، والقتال بينهم وبين السلطان الملك الناصر رحمه الله مستمر، وأمداد الفرنج من البحر متواصلة، ولما اشتد الحصار على أهل البلد وأحيط بهم ولم يبق الا تسلّمه، وضعفت قوة المسلمين به وقلت منعتهم، ونقبت بدنه من الباشورة، ويثس الناس من بقاء البلد، خرج الامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري الى ملك الفرنج وطلب منه الامان فأبى ملك الفرنج الا النزول على حكمه، فقال له المشطوب: نحن لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ورجع عنهم مغاضباً.

ولما كان يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة زحف الفرنج الى عكا زحفا شديداً، وأشرفوا على الاستيلاء عليها فطلب المسلمون منهم الامان على ان يسلموا اليهم البلد، ويعطوهم: مئتي الف دينار، ومئة أسير من المعروفين، وخمسمئة أسير من المجهولين و صليب الصليبوت وعشرة آلاف دينار للمركيس وأربعة آلاف لحجابه، فأجابهم الفرنج الى ذلك وتسلموا البلد واحتاطوا على من كان بها رهينة على القطيعة المقررة.

فلما كان ثامن من رجب جاءت رسل الفرنج الى السلطان لأخذ القطيعة، فأحضر السلطان مئة ألف دينار وصليب الصليبوت والأسارى المطلوبين، وشرط عليهم أن يطلقوا جميع من أخذوا من المسلمين وأن يأخذوا على بقية المال رهائن، فأبوا الا الجميع ومازال الأمر يختلف بينهم ويتردد تتمه شهر، ثم حضرت رسل الفرنج فوجدوا المال موقوراً، ووجدوا صليب الصليبوت، وقد كانوا ظنوا أن السلطان قد سيره الى الخليفة ولاوجود له عنده، فخروا له سجداً حين رأوه، ثم ظهر للسلطان مكربهم وغدرهم فتوقف في اعطاء المقرر، وكان من جملة ما بان له من غدرهم ان

ملك الانكتير ركب بالفرنج الى البحر، فركب السلطان قبالتهم فأحضر الفرنج جماعة من أسارى المسلمين وحملوا عليهم فقتلوهم أجمعين، فحمل المسلمون عليهم فأزالوهم عن مواقعهم وقتلوا منهم جماعة، واستشهد من المسلمين جماعة، ثم تصرف السلطان في ذلك المال المقرر.

ولما دخل شهر شعبان رحلت الفرانج بخيلهم ورجلهم، فعرف السلطان ان مقصدهم عسقلان فرحل بالمسلمين في قبالتهم، ومازال يترك المسلمين يقاتلونهم مرحلة مرحلة، ثم كانت وقعة بينهم وبين السلطان بنهر القصب واستشهد من المسلمين في هذه الوقعة إياز الطويل، وكان شجاعاً مقداماً.

ثم كانت وقعة بأرسوف كانت الكرة فيها على الفرنج ووصل السلطان عسقلان فشرع في هدمها وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان، ثم رحل السلطان الى يبنى، فأمر بتخريب حصنها، وتخريب لُدّ، ثم مضى جريدة الى القدس فزاره ثم عاد.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المظفر تقي الدين أبي الفتح عمر بن شاهان شاه بن أيوب رحمه الله، وهو على محاصرة ملازكرد من عمل أرمينية.

سيرته: كان ملكاً شجاعاً عادلاً كريماً بطلاً كميّاً ضرغاماً، ولما توفي فوض السلطان الملك الناصر عمه الملك بحماه، والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، الى ولده الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب وبعث اليه منشوراً بذلك فتسلم هذه البلاد وملكها.

وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين لاجين وهو ابن أخت السلطان، وكانت وفاته لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان، وهو اليوم الذي توفي فيه الملك المظفر، فأصيب في يوم واحد بابن أخيه وابن

اخته، وكان هذا حسام الدين أميرا عظيم الشأن عاقلاً عادلاً شجاعاً، وهو الذي تولى فتح نابلس من الفرنج فأقطعه السلطان إياها، فكانت في يده الى أن مات.

سنة ثمان وثمانين وخمسمئة:

في هذه السنة قسم السلطان الملك الناصر رحمه الله عمارة سور بيت المقدس على أخيه واجناده واولاده، ولم يزل رضي الله عنه جادا مجتهدا في عمارتها حتى علت وارتفعت، شكر الله سعيه وأحسن جزاءه.

وفيها كان خلاص الأمير سيف الدين المشطوب من أسر الفرنج على مال قرره لهم، فأقطعه السلطان نابلس، ثم عاش سيف الدين الى آخر شوال من هذه السنة ثم توفي فعين السلطان ثلث نابلس لمصالح البيت المقدس، وأبقى باقيها على الأمير عماد الدين احمد بن سيف الدين المشطوب.

وفيها قصد الفرنج قلعة الداروم فحاصروها ثم فتحوها عنوة، وقتلوا من أهلها جماعة، وأسروا جماعة، وذلك في شهر جمادى الأول، ثم كانت في هذه السنة وقعات بينهم وبين المسلمين في كلها يكون الظفر للمسلمين إلا وقعة واحدة كان مقدم المسلمين فيها فلك الدين أخا السلطان [العادل] فإن الفرنج دهموهم على غرة فهزموهم واحتوا على أنقاهم.

وفيها نزل السلطان على يافا ففتحها عنوة ونهبها وقتل جماعة منهم بها، وامتنعت عليه قلعتها فطلب أهلها الأمان أن ينزلوا تحت حكم الأسر، ويسلموا جميع الأموال والذخائر على أن يطلق كل واحد منهم بأسير من المسلمين فأجيبوا الى ذلك، وخرجوا آحادا وعشرات، وطولوا ساعات الانتقال، حتى دخل الليل، فاستمهلوا الى الصباح ومازالوا في التسويف

حتى وصل اليهم ملك الانكتير ليلا من جانب البحر، ودخل القلعة
فنادوا بشعار الغدر، فاكتفى المسلمون منهم بمن حصل في أسرهم،
ورحل السلطان الى الرملة.

ذكر الهدنة: ثم وقعت الهدنة بين السلطان والفرنج مدة ثلاث سنين
وثمانية اشهر، وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور، وأدخلوا
في الصلح طرابلس وانطاكية، واستعاد منهم الداروم.

ثم رحل السلطان رحمه الله الى البيت المقدس فأقام به منشغلاً باتمام
أسواره، ثم رحل الى دمشق فدخلها في أول ذي القعدة.

وفي هذه السنة قتل سلطان الروم قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج
أرسلان وهو من السلاطين السلجوقية على ما ذكره العماد الكاتب، وكان
أولاده غالبين عليه، وليس له معهم الا مجرد الاسم، فلما مات ملك ولده
غياث الدين كيخسرو بن قلعج أرسلان.

سنة تسع وثمانين وخمسمئة:

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شادي، رحمه الله، وقدس روحه، وذلك بكرة يوم الاربعاء لثلاث بقين من صفر، فكانت مدة عمره ستاً وخمسين سنة وشهوراً فمات بموته الرجال، وفات بوفاته الافضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الارزاق، وادهمت الآفاق وخاب الراجون، وغاب اللاجون، وخاف الآمن، وخاب الآمل، وطردت الضيوف، ونكر المعروف، وفجع الزمان بواحدته وسلطانه، ورزىء الاسلام بمشيئد أركانه.

سيرته رضي الله عنه: كان رضي الله عنه خائفاً من ربه تعالى، شديد التمسك بالشريعة، محباً للعلم والعلماء، مواظباً على الجهاد في سبيل الله، مقبلاً على تحصيل ما يقربه من الله زلفى، مقيلاً للعثرات، متجاوزاً عن السيئات، كريماً لين الجانب متواضعاً، حسن الاخلاق طيب الاعراق، ضحوكاً بمهابة، مخوفاً بجلالة، يغضب للكبائر، ولايسامح بالصغائر، غزير البذل كثير العطاء، وأقل شاهد على صحة ذلك أنه كان جامعاً بين مملكة الشام واليمن وديار مصر وبلاد المشرق، ومات وليس في خزانته درهم ولاديناره، ومات دفن بالقلعة المحروسة في داره وأظلم الدهر بعد ضياء أنواره، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الفردوس الأعلى مأواه.

خبر أولاده وأهل بيته بعد وفاته رحمه الله:

ولما توفي السلطان الملك الناصر رحمه الله استقر في الملك بعده بدمشق وأعمالها ولده الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن أيوب، وبالديار المصرية ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن يوسف ابن أيوب وبحلب وأعمالها ولده الملك الظاهر غياث الدين، إيل غازي ابن يوسف بن أيوب. وكانت حران والرها وكل ما هو شرقي الفرات من الولايات بيد السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وحماه والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم بيد الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب، وبعلبك وأعمالها بيد الملك الأجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهان شاه بن أيوب. وحمص وأعمالها بيد الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن شاذي.

وكان السلطان الملك العادل رحمه الله حين بلغه وفاة أخيه الملك الناصر بالكرك وهي حصنه ومستقرة، فقدم الى دمشق وأقام بها العزاء، ثم توجه الى قلعة جعبر حذراً على البلاد الشرقية من غائلة العدو، فأقام بقلعة جعبر، وبعث النواب الى حران، والرها، وميفارقين، وحاني، وسميساط، ورتب امورها.

ولما بلغ عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة السلطان الملك الناصر خرج بالعساكر الكثيرة الى نصيبين وبها أخوه عماد الدين زنكي، واجمعوا على حرب الملك العادل واخراجه من البلاد، وكان الأمير بكتمر صاحب أخلاط قد ضرب البشائر حين بلغه موت السلطان، وعظم سروره بذلك، وتسمى بالملك الناصر، وكاتب صاحب الموصل وصاحب سنجار، وصاحب ماردين، لينجدوه على حرب الملك العادل، فبينما هو في تيهه وطغيانه وقد حدثته نفسه بما لم يظفره القدر به اذ وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه، وكفى الله السلطان الملك

العادل شره، وكان هذا عنوان السعادة ودليلها، وكان مقتله لست عشرة ليلة بقيت من جمادى الاولى.

وكتب الملك العادل الى بني أخيه: الملك الافضل، والملك العزيز والملك الظاهر يستصرخ بهم، فأنجدوه بالأمداد والعساكر، وجاءته عساكر: بعلبك، وحمص، ودمشق، مع الملك الظافر خضر بن الملك الناصر.

وأما المواصلة فإنهم وصلوا الى رأس عين، ومضى الملك العادل الى حران وخيم بها، فاتفق مرض عز الدين مسعود صاحب الموصل فحمل اليها في محفة، وعاد عماد الدين صاحب سنجار راجعاً، وراسل صاحب ماردين الملك العادل في الصلح فرضي عنه.

ثم أمر الملك العادل ابن أخيه الملك الظافر بمنازلة سروج، وكانت لعماد الدين صاحب سنجار، فنازلها وجهز اليه الملك العادل مدداً الملك المنصور صاحب حماه، والأمير عز الدين ابراهيم بن المقدم، فنازلوها وفتحوها لثلاث مضي من رجب، ثم رحل السلطان الملك العادل رحمه الله في منتصف رجب الى الرقة فحاصرها وتسلمها في العشرين منه، ثم رحل الى الحابور فملكة، ثم رحل الى نصيبين فنزل بظاهرها، وأتته رسل صاحب سنجار في طلب الصلح.

واتفقت وفاة عز الدين صاحب الموصل في هذا الشهر، فملك بعده ولده نور الدين رسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي، وجرى الصلح بينهم وبين الملك العادل، ثم قصد السلطان العادل أخلاط، فخاف من البرد إن نازها فأخر أمرها الى الربيع وعاد الى الرها وحران.

ذكر ابتداء الوحشة بين الاخوين الملك الافضل والملك العزيز:

كان للملك الافضل وزير من أهل الجزيرة غاش، فأشار عليه بإبعاد أمراء أبيه وأكابر أهل دولته، وحمله على ان يستجد أمراء وأصحابا من مماليكه المستجدين، واخبره ان أمراء أبيه يشتطون عليه ولا يرضون منه إلا بالكثير، وأعمال دمشق لاتسعهم، وانما تسعهم أعمال مصر، وان الغرباء والمستجدين من مماليكه يرضون منه بالقليل وأي شيء أعطاهم استكثروه، فاغتر الملك الأفضل بقوله، وكان ذلك من الخطأ البين والتدبير الفاحش السيء، فلبعد أمراء أبيه والعظماء من أتباعه حتى أبعد القاضي الفاضل مع جلالة قدره وغزارة فضله، والعماد الكاتب مع فصاحته وبراعته واستخدم أمراء مجهولين وممالিকা خاملين.

وأشار عليه ايضا باخلاء البيت المقدس، وتسليمه الى نواب اخيه الملك العزيز، وأخبره أنه يحتاج الى مؤن عظيمة وكلف كثيرة ففعل ذلك الملك الافضل، وكاتب أخاه في تسلم القدس فقبله الملك العزيز وسربه وشكره على فعله، وكان السلطان الملك الناصر رحمه الله قد جعل ثلث ارتفاع نابلس وقفاً على عمارة القدس ومصلحه، فخان الولاة بنابلس وأكلوا، ولما بلغهم عزم الملك الافضل على تسليم القدس الى الملك العزيز خافوا منه أن يحاققهم ويحاسبهم ويصرفهم عن ولاياتهم، فكتبوا الملك الأفضل ييذلون له القيام بسائر مصالح القدس من وقفه، وأنهم لا يجوزون الى بذل شيء آخر من ماله.

فأجابهم الملك الأفضل الى ملتسمهم، وبدا له فيما كان كاتب الملك العزيز به، فتألم الملك العزيز من ذلك واستوحش بسببه.

وكان الملك الافضل كلما أبعد أميراً وكبيراً من أصحاب أبيه، أدناه الملك العزيز، وقربه، وفسح أمله، وأجزل عطائه، وأقطعه الاقطاعات

الكثيرة، وأحسن الى أمراء أبيه وأصحابه المعتبرين، وحفظ عهودهم القديمة فأحبوه ولاذوا بكنفه وعاضدوه فتمكنوا دولته وتشدت مملكته، وكانت سيرته بالعكس من سيرة اخيه.

وكان من جملة الأمراء الذين صاروا الى الملك العزيز، وفارقوا أخاه الملك الأفضل الأمير فخر الدين جهاركس، فجعله الملك العزيز استاذ داره، وقدمه على أمرائه، والأمير فارس الدين ميمون القصري، والأمير شمس الدين سنقر الكبير، وهؤلاء الثلاثة من عظماء الدولة وأكابرها.

وقويت الوحشة بين السلطانيين الأفضل والعزيز، واجتمعت كلمة الامراء الصلاحية على أن يكون الأمر مجتمعاً للملك العزيز إذ هو محيي سنة والده وسالك طريقته، فاختلت امور الملك الأفضل واضطربت أحواله، ولو كان مع تقدير الله سبحانه، سلك طريق الرأي والحزم لكان الأمر بخلاف ماوقع، لكن لكل مقدر سبب.

سنة تسعين وخمسمئة:

في هذه السنة خرج السلطان الملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر الى البقاع وخيم بها، فقبل للسلطان الملك العزيز: ان توانيت ذهبت بلادك، فبرز الى البركة وبذل الاموال وقصدته الرجال وعظم أمره، وسار في الارض ذكره، فخاف الملك الأفضل لما بلغه ذلك، واستشعر ونزل برأس الماء، واستشار أصحابه فاختلعت آراؤهم واضطربت، وفارقه الأمير صارم الدين قايباز النجمي، وصار الى الملك العزيز، فجعله من أكبر امرائه، فكاتب الأفضل اخاه الظاهر صاحب حلب وحالفه على الاتفاق والمعاضدة، وكاتب عمه السلطان الملك العادل يستنجد به ويستصرخه.

حصار دمشق: وقدم الملك العزيز في جحافله فلما وصل الى الفوار ، وكان أخوه الأفضل نازلاً بها، خالطت مقدمته ساقه عسكر دمشق، فولوا منهزمين لا يلوون على شيء، ودخل الملك الأفضل دمشق على أقبح صورة، ونزل الملك العزيز بالكسوة، وذلك لست مضين من جمادى الآخرة، ثم نزل في سابع جمادى على دمشق محاصرها، والأفضل يدافع ويمنع الى أن وصل عمه السلطان الملك العادل رحمه الله، وكتب الى ابن أخيه الملك العزيز يسأله الاجتماع به فاجتمعا راكبين بصحراء المزة، وسأله الاقلاع عن قتال أخيه، وإن يكف عنه، فأجاب الى ذلك وامتنل أمره.

وقوع الاتفاق بين الملوك: ثم تأخر الملك العزيز مرحلة الى صوب داريا والاعوج، وكان بدمشق عند الملك الأفضل الملك المنصور صاحب حماه، والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، والملك الامجد بهرام شاه صاحب بعلبك.

ثم وصل الملك الظاهر بن الملك الناصر صاحب حلب الى دمشق، ووقع الاتفاق على عقد الصلح بين الجميع، ورحل الملك العزيز الى مرج الصفر فنزل به، وكتبت نسخة يمين مضمونها: أنه يكون كل واحد من الملك الأفضل والملك العزيز، والملك الظاهر، والملك العادل ببلاده وأجناده آمناً من أن يقصده صاحبه، وإن الملك المجاهد أسد الدين، والملك الامجد يكونان مع الملك الأفضل مؤازرين له، وأن الملك المنصور صاحب حماه يكون مع الملك الظاهر مؤازراً له.

وحلف الملك العزيز بمقتضى هذه النسخة وزال الخلاف وسكنت الدهماء، وخطب الملك العزيز ابنة عمه الملك [العادل] فأجيب الى ذلك، وعقد عقد النكاح وكان متوليه القاضي محيي الدين بن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق، وحلفت الملوك، ورجع الملك العزيز الى

مصر بعد ان خرج الناس من دمشق لوداعه، وذلك في شهر شعبان ورجع كل ملك الى بلده.

ورجع السلطان الملك العادل الى البلاد الشرقية، وأقبل الأفضل على الشرب واللهو وأعرض عن الاشتغال بمصالح الرعية، والامور كلها معذوقة بوزيره الجزري، وكان الجزري هذا سيء الرأي، فاسد التدبير، ردىء السيرة، فتشعنت بسببه الأمور، وفسدت المملكة، ففارق الملك الأفضل الأمير عز الدين سامة، وشمس الدين ابراهيم بن السلار، ومن الأعيان جمال الدين بن الحسين، والقاضي محيي الدين بن زكي الدين لما شاهدوه من الأحوال الفاسدة، وحررض الأمير عز الدين سامة وابن السلار الملك العزيز على محاربة الملك الأفضل، والمسير الى الشام واستحثاه استحثاءً شديداً، وكذلك فعل غيرهما من أكابر الأمراء والملك الأفضل مع ذلك غافل عن صلاح حاله مستهتر بلهوه، وبينما هو على ذلك إذ أصبح ذات يوم مظهراً للتوبة، من غير سبب، ونادى بذلك، وأراق الخمر، ولازم الاعتكاف والصلوات والعبادات والصدقات ولبس القطن والكتان، ونهى عن المنكر، وأمر بالمعروف، وجالس الفقراء، وآكلهم وبالغ في التقشف الى ان صار يصوم النهار ويقوم الليل.

سنة احدى وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنة وردت الاخبار الى دمشق بعزم السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب مصر على قصد دمشق وحصارها، فأشار العقلاء على الملك الأفضل بمراسلة اخيه الملك العزيز واستعطافه وملاطفته، وأشار عليه وزيره الجزري بأن يتوجه الى عمه الملك العادل، ويستنصر به ويستنجد به على أخيه الملك العزيز، فأصغى إليه ومال الى قوله، ورحل من دمشق لأربع عشرة ليلة مضت من جمادى الأولى في خواصه متوجها الى الرقة، فلتقاه عمه السلطان الملك العادل رحمه الله

بصفين، فسأله الملك الأفضل المعاضدة والمساعدة، وإن يصير معه الى دمشق ليمتنع أخوه من قصده، فأجابه الملك العادل الى ذلك، وسار من صفين متوجها الى دمشق، وكان دخوله اليها لليلة بقيت من جمادى الآخرة ومضى الملك الأفضل الى حلب مستنصرا بأخيه الملك الظاهر، فتحالفا على الاتفاق والمساعدة.

ثم توجه الملك الأفضل الى حماه فأضافه صاحبها الملك المنصور وتحالفا، ثم صار الى دمشق فدخلها وأقام بها هو وعمه الملك العادل رحمه الله، متوافقين متعاضدين.

ورأى السلطان الملك العادل من قبح سيرة الملك الأفضل، وسوء تدبيره ما اشتدت كراهيته له، وكان ينهيه عن أفاعيله فلا ينتهي، ويعظه فلا يتعظ. ولم يأل الملك العادل رحمه الله جهده في الذب عنه، ودفع ما يقال فيه، فلم يجد ذلك كله ولا أثر شيئا.

ولما تطاول ذلك وكثر تغير عليه رحمه الله وتنكر، وظهر ذلك عليه، وكنتم الملك الأفضل سببه، وصار الملك الأفضل تحت يد الملك العادل وتحكمه، متصرف فيه أمره ونهيه، فنفذت فيه سهام الملك العادل، وعلم أن ملكه صائر إليه لاحالة، فكاتب الأمراء ولاطفهم واستمالهم.

وكانت الأمراء الأسدية مائلة الى عثار الأمراء الصلاحية، مؤثرة بوارها وهلاكها، وكان السبب في ذلك تقدم الصلاحية عليهم عند الملك العزيز، فاستمالهم الملك العادل، وكاتبهم سرا، وكاتب الملك العزيز بالتحذير والتحذير منهم، وكانوا إذا ركبوا الى خدمة الملك العزيز رأى التنكر في وجوههم منه، ورأوا منه مثل ذلك، فتنافرت القلوب، وتم للملك العادل في تدبيره ما أراد.

ولما اطلعت الأمراء الأسدية على نفرة الملك العزيز منها خافوه،

وحسنوا للأكراد مخالفتهم، وكان أميرهم المقدم عليهم أبا الهيحاء السمين، فوافقوه سرّاً على المصير إلى الملك العادل، والملك الأفضل، وأن يقاتلوا معها الملك العزيز ويحاربوه، وخوفوه إن لم يفعل ذلك أن تفسد الصلاحية عليه قلب الملك العزيز، ويكون ذلك مؤدياً إلى هلاكه، فحالفهم هو ومن تبعه من الأكراد على ذلك.

ولما عيد الملك العزيز عيد الفطر بمصر توجه يريد الشام لحصار دمشق وتملكها، فحين بعد عن الديار المصرية فارقه أبو الهيحاء السمين والأكراد والمهرانية والأسدية، ولحقوا بالملك العادل، وذلك ليلاً لأربع خلون من شوال، وأصبح الملك العزيز في قلة من العدد فرجع إلى مصر على طريق اللجون والرملة، وخاف من بقية الأسدية الذين معه الاقتداء بمن فارقه وأن يكونوا عيناً لهم، وكان من الأمور المولدة للاضطراب أن الملك الظاهر صاحب حلب كان لما صالح عمه السلطان الملك العادل وأخويه الأفضل والعزيز، شرط أن يكون الملك المنصور صاحب حماه والأمير عز الدين بن المقدم صاحب بارين، والأمير بدر الدين دلدرد صاحب تل باشر ومن معه من الياوقية في خدمته، ووقع الحلف على ذلك.

وكان الملك الظاهر قد اعتقل بدر الدين دلدرد بذنب نسبه إليه، واعتقل معه جماعة من أهل بيته ومضى إلى تل باشر فحاصرها فلم يقدر عليها، فلما اجتمع الملك العادل بالملك الظاهر شفع في دلدرد وأهل بيته، وضمن له أنهم يكونون في خدمته، فشفع الملك الظاهر عمه فيهم وأفرج عنهم، وعاد من حصار تل باشر، واستصحبهم الملك العادل ليكونوا في نجده.

فلما صار الملك العادل بدمشق وجرى مآذركناه من استمالته أمراء

مصر ومكاتبتهم استخدم بدر الدين دلدرم وأصحابه لنفسه، واقتطعهم عن الملك الظاهر.

وكان الملك المنصور صاحب حماه، قد حلف لابن عمه الملك الظاهر على البلاد التي في يده، وهي: حماة، والمعرّة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، وزاده الملك الظاهر جبلة واللاذقية وبلاطنس، وبكسرايل، وصهيون، وحلف له على ذلك كله، وأنه يستخلص هذه البلاد التي وهبها للملك المنصور ممن هي في يده، وإن احتاجت إلى حصار حاصر، فلما جرى من اضطراب الحال بين الملك العزيز والملك الأفضل وعمهما الملك العادل ما وصفناه، خاف الملك المنصور، والامير عز الدين بن المقدم من اجتماع الملك الأفضل والملك العادل، فوصلت كتبهما إلى الملك العادل بالاعتصام به، والتمسك بخدمته، وفارقا الملك الظاهر، فوافقهما الملك العادل وتحالفوا على ذلك.

ولما رأى الملك الظاهر أن عمه الملك قد استجلب إليه من كان في خدمته، كاتب أخاه الملك العزيز يستحثه على الخروج إلى الشام، ومقابلة الملك العادل والملك الأفضل، فخرج من مصر كما ذكرناه، وفارقه الأسدية والمهرانية وغيرهم وصاروا إلى الملك العادل، وعاد العزيز إلى مصر كما سبق ذكره لقلّة عدده، وحرص أبو الهيجاء السمين والأسدية الملك العادل على قصد مصر وأخذها، وهو نوا عليه أمر الملك العزيز.

قصد الملك العادل والملك الأفضل مصر: فتحالف الملك الأفضل وعمه الملك العادل على قصد مصر وتملكها، وإن يكون للأفضل الثلثان وللملك العادل الثلث، وكان ذلك سرّاً، ولم يصح ولم يتثبت وإنما حدس وظن.

ثم رحل السلطانان العادل والأفضل بجموعهما قاصدين الديار المصرية، واستخلف الملك الأفضل بدمشق أخاه قطب الدين موسى،

وحرصت الأسدية على أن تسبق الملك العزيز الى الديار المصرية ليمنعوه منها فلم يقدرؤا على ذلك، واجتهدوا فلم يدركوه.

وسر السلطان الملك العادل بوصول العزيز واستقراره بمصر، لأنه في الباطن لم يكن من رأيه محاصرة الملك العزيز ولأخذ مصر، وإنما قصده خوفا من شولة (١٥) الأمر ان لم يوافقهم على قصده وحربه أن يصيروا الى الملك العزيز ويستولوا على الديار المصرية، ولا يبقى للعزيز معهم إلا مجرد الاسم، لحدائثة الملك العزيز وصغر سنه، وعدم تجربته للأمور، فكان يصعب انتزاع مصر من أيديهم، فأجابهم الى قصدهم وقال في نفسه: إن غلب القوم الملك العزيز فمصر لي وللملك الأفضل، وإلا فهي للملك العزيز على مانوثره، فكان هذا رأيه، غير أنه أبطنه وكتمه، فسار بجموعه الى مصر، ونزلوا على بلبيس محاصرين لها، وكان بهامن الأجناد الصلاحية والعززية خلق كثير.

وكان نزول الملك العادل والمك الأفضل عليها في وقت زيادة النيل، وكانت الأسعار غالية، والعلف معدوم، ومنعت الزيادة من نقل المؤن والعلوفات إليهم، فغلت الأسعار، وارتفعت أثمانها، وبذل الملك العزيز الأموال واستخدم الرجال وحصن البلاد.

وقوع الاتفاق بين الملك العادل وابني أخيه العزيز والأفضل: ثم ندم الملك العادل على ما فعل، وكذلك الأسدية، وأخذوا في إصلاح الأمر وتلافيه، وبعث السلطان الملك العادل الى القاضي الفاضل رحمه الله يستدعيه ليستشيره، فامتنع حتى أذن له السلطان الملك العزيز، فخرج الى الملك العادل فاحترمه غاية الاحترام واستشاره فيما يفعل، فأشار بصلاح ذات البين فاصطلحوا ووقع الاتفاق، وعفا الملك العزيز عن الأمراء الأسدية وطيب قلوبهم ورد إليهم اقطاعاتهم وأجازهم وحلف لهم وحلفوا له، وحلف كل من الملوك الثلاثة: الملك العادل والمك

الأفضل والملك العزيز لصاحبه، وتوثقوا بالايان، وعادت الأسدية الى خدمة الملك العزيز، وعاد الملك الأفضل الى دمشق ومعه الأمير أبو الهيجاء السمين، وكان قد ولاه بيت المقدس.

وأقام السلطان الملك العادل بمصر، واستوطن القصر، وأخذ في اصلاح الديار المصرية جندها وأرباعها وضياعها، وأظهر من محبته لابن اخيه الملك العزيز وشفقته شيئا كثيرا، وقام بأموره كلها صغيرها وكبيرها.

سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنة وصل السلطان الملك الأفضل علي ابن الملك الناصر الى دمشق، وكان دخوله اليها في غرة المحرم. وفي هذه السنة خرج السلطانان الملك العادل والملك العزيز متوجهين من الديار المصرية الى دمشق لأخذها من الملك الأفضل، وكان السبب في ذلك انه اتصل بالملك العادل أخبار الجزري وزير الملك الأفضل، وفساد دولة الملك الأفضل بسوء تدبيره وكثر شاكوه، وقل شاكروه، واختلت الامور بذلك غاية الاختلال، وتخوف الملك العادل اضطراب المملكة بسبب ذلك، وأداء ذلك الى مايكره، فحملته الحمية على الخروج لتمهيد البلاد، وضبط الأمور وإزالة ماعرض من المفاسد، فسار الملك العادل والملك العزيز من مصر، وقد امتلأ الفضاء بعساكرهما كثرة، وصارا الى الدواوروم وغزة فنزلا بها.

وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد بعث أخاه الملك الزاهر محيي الدين داود بن الملك الناصر الى مصر لإصلاح أحوالهم، وبعث أيضا قاضي القضاة بهاء الدين يوسف بن شداد رحمه الله، ولما رجعا من مصر اجتازا بدمشق وأخبرا الملك الأفضل بعزم الملك العادل والملك العزيز

على قصده، فضاق بذلك ذرعاً، وأشار عليه عقلاء أهل دولته بملاطفة أخيه وعمه ومكاتبتهم، إلا وزيره الجزري فإنه بجهله أشار بمقابلتهما ومقاومتهما، وقال له: إن دمشق حصينة لا ترام وأهلها يحبونه، وكذلك أشار عليه أخوه الملك الظافر خضر ابن الملك الناصر وقال له: لا تحزن فالباديء أظلم والمسلم إلى الله أسلم.

وتولى الملك الظافر تهئية أسباب الحصار واستشكر من العدد والعدة، ووافقت رسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل بالصبر والمصابرة، ووعدته بالمؤازرة والمظاهرة والنجدة والمساعدة، وبعث الملك الأفضل الأمير فلك الدين أخا الملك العادل رسولا إلى السلطانين الملك العزيز، والملك العادل يدعوهم إلى الصلح فأجابا بشروط التماسها.

وعاد فلك الدين إلى دمشق مسرورا بالتثام الشمل وإذا الجواب قد عاد بأن الملك الأفضل امتنع من الصلح وأنه لا يجيب إلى ما اشترط، وأنه قد سور بلده وخندقه، فعجب الملك العادل والملك العزيز وتألما له، وسارا من منزلتهما إلى دمشق.

بمنازلة الملك العادل والملك العزيز دمشق: فوصلا إليها ونازلاها. أقاما شهرا لم يحدثا قتالا ولا احراقا ولا افسادا، رجاء وقوع الألفة وانتظام الشمل، وأكابر الدولة يشيرون على الملك الأفضل بالخروج إلى عمه وأخيه واستعطافهما، فيأبى ذلك ويعمل برأي وزيره وأخيه الملك الظافر، فلما رأى الأكابر ذلك فسدت نياتهم وكاتبوا الملك العزيز سرا واصلحوا أمورهم معهما، ووصلت كتبهم إليهما بتعجيل القتال وانتهاز الفرصة.

استيلاء الملك العزيز على دمشق: فركب الملك العادل والملك العزيز، وضرب البوق، وقصدا دمشق وذلك لأربع بقين من رجب فما ردهم راد

ولاصدهم صاد الا الملك الظافر خضر بن الملك الناصر فإنه قاتلهم
فهزموه.

ووصل الملك العزيز الى الميدان الأخضر، ووصل الملك العادل الى
باب توما ففتحه له أمير كان عليه، فدخل الملك العادل وأصحابه منه
ومن باب شرقي، ودخل الملك العزيز من باب الفرج وبات عند عمته
الحسامية، وبات الملك العادل في دار عمه أسد الدين.

ولما دخل الملك العزيز خرج اليه أخوه الملك الأفضل فتلقاها، وأقام
الملك العزيز بمخيمه في الميدان الأخضر الى أن انتقل الملك الأفضل من
القلعة بأهله وأصحابه، ونزل بمسجد خاتون وما يجاوره من الدور، ومعه
وزيره الجزري خائفا على نفسه.

ووقعت واقعة عجيبة لو أحسن فيها الملك الأفضل التدبير لحمد
العاقبة لكنه فرط فجنى ثمرة تفريطه، وهي أنه كان استقر من الملك
العادل والملك العزيز أن الملك العزيز يقيم بدمشق ويكون الملك
العادل نائباً عنه بمصر، فلما فتحت دمشق ندم الملك العزيز على ما قرر
وخاف من استيلاء الملك العادل على الديار المصرية، فبعث الى الملك
الأفضل سرا يعتذر اليه ويشير عليه بما هو عين المصلحة، وهو أنه إذا
طالبناك فامتنع ولا ترض الا بالسكة والخطبة لك، فإني أجيبك اليهما
ولا أمنعك منهما وأعطيك ما تريده، ويكون امتناعك لي عذرا لي عند
عمي، فأظهر الملك الأفضل هذا السر لأصحابه وأفشاه، وقالوا: لا تخدع
بهذا القول واطلع عمك الملك العادل عليه فإنه كأبيك في الشفقة،
فأرسل الملك الأفضل الى عمه فعرفه بذلك فقامت قيامته، وعتب بسببه
على الملك العزيز، وقال له: أنا أبني وأنت تهدم فأنكر ذلك الملك
العزيز، وحلف على بطلانه.

وبعث الملك العزيز الى الملك الأفضل فأزعجه بالعتب والخصومة

وأخرجه من دمشق الى صرخد فسكنها بعائلته، وكانت بصرى بيد الملك الظافر فأخذها منه أخوه الملك العزيز مقابلة له على ما فعله من المقاتلة والمحاربة، فسار الى أخيه الملك الظاهر فأكرمه.

استيلاء السلطان الملك العادل رحمه الله على دمشق: ولما ملك السلطان الملك العزيز دمشق جلس في دار العدل، فكشف المظالم، وأبطل المكوس، فظن الناس أنه يقيم بدمشق ويستوطنها فلم يشعروا به إلا وقد أزمع الرحيل فبرز الى مسجد القدم، ثم الى الكسوة، وقرر عمه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب رحمه الله في دمشق وبلادها، وسلمها اليه، فملكها السلطان الملك العادل رحمه الله، وأحسن القيام فيها، وكان أحق بها وأهلها، لما كان رحمه الله مختصا به من حسن السياسة وصواب التدبير، فابتهجت به الممالك الشامية، وأشرق نورها واستبشرت بتملكه الرعايا، وتضاعف سرورها، لازالت الرحمة مضاعفة له من الرحيم الغفور، ولا برحت ذريته ملوك هذه الأمة الى يوم البعث والنشور أمين.

ثم سافر السلطان الملك العزيز متوجهاً الى الديار المصرية وودعه عمه السلطان الملك العادل وذلك لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان وكانت مدة ملكه لدمشق عشرين يوماً.

ولما عاد السلطان الملك العادل الى دمشق بعد وداعه لابن أخيه السلطان الملك العزيز، قرأ منشوره على رؤوس الاشهاد، وأبقى الخطبة والسكة للملك العزيز، وأظهر أنه نائبه.

سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنة وردت الأخبار بعزم الفرنج خذلهم الله على قصد بيروت، فخرج السلطان الملك العادل رحمه الله من دمشق في عساكره، فخيم قريبا من صور، وبعث الى بيروت من تولى اخراب مدينتها دون قلعتها ليكفي المسلمون عاقبة أمرها، فخربت المدينة حتى بقيت بقية كأن لم تكن، وأمر بتحصين قلعتها فتولى ذلك الأمير عز الدين سامة، وبالغ في تحصينها، وترك فيها جماعة من مماليكه وأصحابه.

استيلاء الفرنج على بيروت: ولما انفصل عز الدين سامة عن بيروت، خافت الجند المرتبون بها من الفرنج، فخرجوا منها منهزمين، ووصلت الفرنج فملكوها، واستولوا عليها، وعزموا على قصد جبلة واللاذقية، فبعث السلطان الملك العادل الى ابن أخيه الملك الظاهر صاحب حلب يعلمه بما عزمته الفرنج عليه، فوصلت كتبه بأنه قد جمع خلقاً من التركمان، وبرز لحفظ البلاد الساحلية، وطلب من عمه نجدة ليقوى بهم على العدو.

وأما الفرنج فإنهم رحلوا من بيروت الى صيدا، فنزلوا عليها، ونزل بعضهم على تبين فحاصروها وضايقوها مضايقة شديدة، فسار السلطان الملك العادل الى تبين، وأقام بها في مقابلة الفرنج، وكتب الى ابن أخيه السلطان الملك العزيز يخبره بذلك، فبرز من مصر وجهاز من عساكره مقدمة، وسار في إثرها بجحافلها، ثم رحلت الفرنج خذلهم الله عن تبين، ورجع الملك العزيز الى مصر.

سنة أربع وتسعين وخمسة

في هذه السنة سار السلطان الملك العادل رحمه الله الى الشرق، ونازل حصن ماردين وصاحبها يومئذ أرتق بن ارسلان بن ايل غازي بن أرتق، فملك السلطان العادل الرض بعد حصار شديد وقتال كثير، ثم شرع في حصار القلعة وذلك في العشر الاوسط من ذي الحجة، ولم يزل محاصرها الى ان خرجت السنة.

وفي هذه السنة كانت وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بن شادي صاحب اليمن رحمه الله، وكان ملكا جليلا عظيم القدر، فقام بالملك باليمن بعده ولده الملك المعز اسماعيل بن طغتكين، بن أيوب.

سنة خمس وتسعين وخمسة

دخلت هذه السنة والسلطان الملك العادل رحمه الله محاصر قلعة ماردين ومضايقتها وقد اشرف على اخذها.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، وحديث ذلك انه عزم على المضي الى الاسكندرية للاشراف على احوالها ثم المضي منها الى دمياط، وكان ذلك في شهر ذي الحجة من السنة الماضية، فاتفق انه خرج من مخيمه عازما على التصيد في الفيوم ثم العودة الى مخيمه، والرحيل بعد ذلك الى الاسكندرية فتوجه الى الفيوم فوصله في مستهل المحرم من هذه السنة ونزل بقرية يقال لها ذات الصفا، فاقام بها متصيدا الى سابع المحرم فرحل منها وهو يتصيد في طريقه فاتفق ان ذبأ خرج فركض في اثره فعثر به فرسه فسقط، ثم ركب وهو محموم، فعاد الى مخيمه وقد قويت

حماء، ودخل القاهرة في عاشر المحرم فبقي مريضاً الى ليلة الحادي والعشرين من المحرم فانتقل فيها الى رحمة الله ورضوانه.

سيرته رحمه الله

كان رحمه الله ملكاً كريماً رحيماً حسن الأخلاق طيب الأعراق، شجاعاً، حسن العقيدة جميل الطوية، شديد الخوف من الله تعالى، محباً للعلماء، متكثراً بالفضلاء، كثير الاحسان اليهم والاستحضار لهم الى مجالسته، واستماع كلامهم، والعمل بما يشيرون به، سريع الانقياد الى الخير، كثير البذل مفرط السخاء تغمده الله برحمته، واسكنه الفردوس من جنته.

ولما توفي اجلس في السلطنة بمصر ولده الملك المنصور محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب، واجتمعت عليه كلمة الأمراء، وامتنع عماه الملك المؤيد، والملك المعز من الحلف إلا بشرط أن يكون الملك المؤيد أتابكهم.

وعزم الملك المؤيد على المخالفة، واشترى اسلحة في الباطن فعقدت الأمراء مجلساً وحضر فيه: الملك المؤيد، والملك المعز، والملك الظافر، ثم طولب الملك المؤيد بالحلف، فامتنع فأغلظ له أخوه الملك الظافر وتهدده، فحلف كارهاً، وحلف أخوه الملك المعز، واستتب الأمر، واجتمعت الكلمة على أن يكون مدبر الأمر الأمير بهاء الدين قراقوش الى أن يصل السلطان الملك العادل فيفعل ما يراه.

استيلاء الملك الأفضل على الديار المصرية

ثم إن الأمراء كاتبوا الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك الناصر صلاح الدين ليصل اليهم، ويرتب أتابكا لابن أخيه الملك المنصور ابن الملك العزيز. فساق الملك الأفضل من صلخد الى مصر سَوَقاً حثيثاً، ودخل القاهرة لسبع مضيمن من ربيع الأول، فحلفت له الأمراء، ولم يبق لولد الملك العزيز معه إلا بالإسم؛ ومعنى السلطنة له.

ولما استقرت تقدم الملك الأفضل بالديار المصرية كتب الى عمه السلطان الملك العادل، وهو على محاصرة قلعة ماردين يعزيه بالملك العزيز ويخبره أنه قد صار الى مصر، واستقل بتدبير أحوالها حفظاً لدولة ولد الملك العزيز.

قصد الملك الأفضل والملك الظاهر دمشق وحصارهما لها

ثم إن الملك الأفضل والأمراء اتفقوا على قصد دمشق وأخذها لغية الملك العادل عنها، وكاتبوا الملك الظاهر بذلك، فوافقهم وصار معهم، وأيضاً الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماه.

وتوجه الملك الأفضل من مصر بعساكره طالباً دمشق، ووصلت الأخبار بذلك الى السلطان الملك العادل رحمه الله، وهو على محاصرة قلعة ماردين، فرتب على حصارها ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد، سار الى دمشق محثاً ليسبق الملك الأفضل إليها، فوصلها لإحدى عشرة

ليلة مضت من شعبان، وذلك قبل وصول الملك الأفضل إليها بيوم واحد.

ونازلها الملك الأفضل في ثالث عشر شعبان وفي رابع عشر زحف إليها، وكانت الغلبة له أولاً، وكاد أن يملك البلد، وفتح له باب السلامة مخامرة من الأمير الذي كان يتولاه، فدخل جماعة من أصحاب الملك الأفضل المدينة من جملتهم الفقيه مجد الدين أخو الفقيه عيسى، ثم خرجوا من باب الفراديس ولم يحصل غرضهم، والسعادة إذا كانت مقبلة لم يضر صاحبها شيء، ولو اتفق أهل الأرض قاطبة عليه.

وفي شعبان وصل الملك الظاهر من حلب، واتفق مع أخيه الملك الأفضل على حصار دمشق، ثم وصل المجاهد صاحب حمص وعسكر من عند الملك المنصور صاحب حماه نجدة للملك الأفضل، ونازل الملك المنصور في شهر رمضان حصن بارين وصاحبه الأمير عز الدين إبراهيم ابن شمس الدين بن المقدم، وكان في خدمة الملك العادل ومن أصحابه، فنصب عليه المجانيق، وحاصره بقية شهر رمضان وشوال وذو القعدة، وفتحه ليلة بقيت من ذي القعدة، بعد أن جرح الملك المنصور جراحة مشخنة.

سنة ست وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والملك الأفضل نور الدين وأخوه الملك الظاهر محاصران مدينة دمشق، وبها عمهما السلطان الملك العادل رحمه الله، ولما كان اليوم العاشر من شهر ربيع الأول وصل السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العادل بمن معه من العساكر الى دمشق، فاستظهر به أبوه السلطان الملك العادل، وضعف بذلك قلب الملك الأفضل والملك الظاهر، ثم تأخرا عن دمشق. رحلة، ثم رحل

الملك الظاهر جريدة الى حلب في البرية، وذلك لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، لشغب واختلاف وقع بينه وبين أخيه.

ولما رحل الملك الظاهر رتب السلطان الملك العادل ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى نائباً بها، وأعاد ولده الملك الكامل في عساكره إلى حران، ثم رحل السلطان الملك العادل رحمه الله متبّعاً لابن أخيه الملك الأفضل، فكان كلما رحل الملك الأفضل من منزلة، نزها السلطان الملك العادل.

كسرة الملك الأفضل بالسايح

ثم التقى العسكران عسكر الملك العادل وعسكر الملك الأفضل بموضع يقال له السايح، وكانت أكثر العساكر الأفضلية مخامرين على صاحبهم في الباطن، فلما وقع القتال انهزموا وولوا الأدبار، وركب الملك العادل أقفيتهم الى أن وصل البركة فنزل بها نخباً ثمانية أيام، والرسل تردد بينه وبين ابن أخيه الأفضل.

استيلاء الملك العادل على مصر

وآخر الأمر أنه تقرر أن السلطان الملك العادل يملك مصر، وينعم على الملك الأفضل بميفارقين وحاني وجبل جور وغيرها.

ثم دخل السلطان الملك العادل القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر، واستتب له الأمر، وصفت له المملكة بالديار المصرية

ودمشق وأعمالها، وتوجه الملك الأفضل بأهله الى صرخد، فأقام بها وبعث نوابه ليتسلموا ديار بكر فتسلموا ماوقع الاتفاق عليه، إلا ميفارقين، فإن الملك الأوحى نجم الدين أيوب بن الملك العادل لم يوافق على تسليمها إليه، وظن الملك الأفضل أن ذلك بمواطأة من عمه، فتوجه الى حلب مستصرخا بأخيه الملك الظاهر.

ولما ملك السلطان الملك العادل مصر. كرهت الأمراء الصلاحية ذلك، وشق عليهم خروج الأمر عن ولد الملك الناصر صلاح الدين، فكاتبوا الملك الأفضل سرا، ووعدوه القيام معه وبذل الجهد في نصرته.

وكان الأمير عز الدين سامة أميراً على ج في تلك السنة، فلما عاد اجتمع به الملك الأفضل وأخبره بمكاسة الامراء له، واستحلفه فحلف له كرهاً، وكتب الى الملك العادل يخبره بموقفه الأمراء الصلاحية للملك الأفضل ومكاتبتهم له، فشكره العادل على ذلك

سنة سبع وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والملك العادل بالديار المصرية متملك لها، وبدمشق ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى نائباً عنه، والملك الأفضل بحلب عند أخيه الملك الظاهر مستنصراً به على عمه العادل، ووصلتهما كتب الأمراء الصلاحية يستحثونها على قصد دمشق، وأخذها ويعدونهما بالنصرة والمعاضدة، ومن جمعتهم الأمير فخر الدين جهاركس، والأمير زين الدين قراجاء، والأمير عماد الدين ابن المشطوب وميسون القصري، وغيرهم، وتحالف هؤلاء الامراء سراً على رد الأمر الى أولاد الملك الناصر وتمليكهم ماأخذ منهم وشاركهم في سرهم الأمير عز

الدين سامة وأوهمهم أنه من جملتهم، وجعل يكاتب السلطان الملك العادل بأسرارهم وما يتجدد لهم.

ثم سار الملك الظاهر الى منبج وصاحبها شمس الدين عبد الملك بن شمس الدين بن المقدم، وكان في خدمة الملك العادل، فتسلمها وقبض على صاحبها شمس الدين، ثم سار الى قلعة نجم، وكانت لشمس الدين أيضاً فتسلمها، وراسل الملك المنصور صاحب حماه، وطلب منه أن يكون معه فلم يجبه الملك المنصور الى ما طلب، وأبى إلا الانتفاء الى السلطان الملك العادل، والاستمرار على طاعته ومتابعته، فسار الملك الظاهر الى المعرة واستولى على ما كان بها من الخواصل ثم مضى الى كفرطاب فنزل بها وسير الى نائب شمس الدين بن المقدم بأفاميه يتهدهد ويتواعده إن لم يسلم إليه الحصن فلم يفعل، فسار الملك الظاهر إلى أفامية فنزلها واستحضر شمس الدين بن المقدم، وأمر به فضرب ضرباً مبرحاً بمرأى من أهل الحصن ليسلم نوابه الحصن، فلم يجد ذلك شيئاً، فرتب على حصارها عماد الدين بن المشطوب، ثم سار الى حماه فنازلها مدة، ثم وقعت بينه وبين صاحبها الملك المنصور هدنة على شيء بذله له الملك المنصور، أن الملك الظاهر والملك الأفضل إذا أخذا دمشق كان الملك المنصور في خدمتهما.

منازلة الملك الظاهر والملك الأفضل دمشق

ثم رحل الملك الظاهر ومعه أخوه الملك الأفضل الى دمشق فنازلاها، وبلغ ذلك السلطان الملك العادل وهو بالديار المصرية، فسار منها الى نابلس فأقام بها.

وبينما الملك الظاهر والملك الأفضل محاصران لدمشق إذ قفز الأميران

- ١٠٠١٥ -

فخر الدين جهاركس، وزين الدين قراجا، وكانا في عسكر الملك الظاهر الى الملك العادل، فتناقصت عند ذلك أمور الملك الظاهر والأفضل.

وكاتب الملك العادل في السر أكابر الأمراء الذين معهما، فوعدهم السلطان الملك العادل، وسوفهم، وأصلح قلوبهم له وأفسدها على الملك الظاهر والملك الأفضل.

سنة ثمان وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والملك الأفضل والظاهر محاصران مدينة دمشق، وبها السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل، ووالده العادل نازل بنابلس، وقد تحذل أصحاب الظاهر والأفضل وضعفت شوكتهم، وكلّ حدهما، ووقع الخلفُ بينهما، وذلك أن الملك الظاهر قال سرّاً: إن أخذت دمشق أخذتها لنفسي ولا أعطيها لأخي الملك الأفضل، فراسل الملك الأفضل عمه السلطان الملك العادل ما كان عينه له من البلاد الشرقية، وإن يعطيه في كل سنة مئة الف دينار، نصفها عينا، ونصفها عروضاً، فتحالفا على ذلك سرّاً، وشاع في العسكر أمر الصلح من غير وقوف على حقيقة تفصيله فتخاذلوا وضعف أمرهم.

ثم رحل الملك الظاهر لما رأى اضطراب الأحوال وذلك في أول محرم ومعه فارس الدين ميمون القصري، وعماد الدين بن المشطوب، وسراسنقر. ورحل الملك الأفضل الى الشرق، ودخل السلطان الملك العادل رحمه الله دمشق، وكان يوماً مشهوداً. وكان الملك الفائز إبراهيم ابن الملك العادل قد تسلم منبج في غيبة الملك الظاهر، فتسلمها الملك الظاهر لما عاد، واقطعها لعماد الدين بن المشطوب، وتسلم أفاميه من نواب شمس الدين بن المقدم على عوض اقطاعها.

سنة تسع وتسعين وخمسمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل رحمه الله من دمشق الى حماه فتنزلها، وجرت بينه وبين ابن أخيه الملك الظاهر مراسلات آخرها أنه وقع الصلح بينهما وتحالفا على أن يكون للسلطان الملك العادل دمشق والسواحل وأعمال البيت المقدس، والديار المصرية، ومابيده، وببدا أولاده من بلاد الشرق، وأن يكون للملك الظاهر مدينة حلب وأعمالها، وللملك المنصور حماه والمعرة، وسلمية، وبارين، وللملك المجاهد أسد الدين حمص والرحبة وتدمر، وللملك الأجدد بعلبك وأعمالها.

ولما وقع الاتفاق على ذلك عاد السلطان الملك العادل الى حمص ونزل على بحيرة قدس وعين لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى حرّان والزّها، ولولده الملك الأوحده نجم الدين أيوب ميفارقين، ولولده الملك المعظم شرف الدين عيسى السواحل وأعمال البيت المقدس، ولولده السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد الديار المصرية.

وكان في اليمين المقترحة على الملك الظاهر ان يقطع خبز عماد الدين ابن المشطوب ولا يستخدمه، فقطع الملك الظاهر خبزه، فصار الى السلطان الملك العادل فلم يستخدمه، وقال تخدم بعض أولادي، فقصد الملك الأوحده فلم يستخدمه واستخدمه الملك الأشرف وحلف له على أربعمئة فارس وخبزها من بلاد ماردين إذا فتحها، فقصدها عماد الدين، واستحضرها الملك الأفضل نور الدين وأخذوا رأس عين من صاحب ماردين، وسلمها ابن عمه الأشرف إليه، وساروا الى ماردين، فبعث صاحب ماردين الى الملك الأشرف خمسين الف دينار ليرحل عنه، وعاد الى حران وأعطى الملك الأفضل جملين، ثم أخذ منه كل موضع وقع التقرير عليه، ولم يترك له غير سميساط، فأقام بها الى أن مات.

وفي هذه السنة كان مقتل الملك المعز إسماعيل بن سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بن شادي صاحب اليمن، وكان قد ادعى الخلافة، وتسمى بأمر المؤمنين، وزعم أن نسبه ينتهي الى بني أمية، وجرى له مع مماليك أبيه خبط كثير، وتحزبوا عليه، وآخر الأمر أنه وثب عليه جماعة من الجند، فحمل عليه أحدهم، وكان راكباً على بغلة وعليه ثياب الخلافة طول الكمّ قريباً من عشرين شبراً وسعته قريب من ستة، فنفرت البغلة ورمته فتخبط في ثيابه وأكمامه، فنزلوا إليه فقتلوه، ورفعوا رأسه على رمح وداروا به في بلاد اليمن وملكوا عليهم سيف الدين سنقر، مملوك سيف الاسلام، فجند الجنود وحشد الرجال وقصد من خالفه، فأعطي النصر عليه، وتمهدت له بلاد اليمن وقتل جماعة كبيرة من الأمراء.

وكان الملك المعز قد خلف ولداً صغيراً، فلقبه سيف الدين سنقر الملك الناصر، وخطب له بالسلطنة في بلاد اليمن، وتزوج أمه، وأظهر أنه أتاكبه وحافظ دولته، فبقي كذلك مدة اربع سنين، ثم توفي سيف الدين سنقر، وخلف ولداً صغيراً من أم الملك الناصر بن الملك المعز، فتزوج بها بعد وفاة سيف الدين غازي بن جبريل أحد امراء تلك الدولة، وغلب على البلاد.

وبقي الملك الناصر مدة، ثم سمّ في كوز فقاع، فمات وبقي غازي ابن جبريل مدة بعد ذلك، ثم قتلته حمير وخولان وجماعة من العرب، وذلك لأنهم اتهموه بأنه هو الذي قتل الملك الناصر، فقتلوه به، وبقيت بلاد اليمن بغير سلطان.

وكانت أم الملك الناصر حاكمة على زبيد، فقصدها الشريف عبد الله ابن عبد الله الحسني، وكان متغلباً على بعض تلك البلاد، فلم يظفر بطائل، ورجع الى بلاده، واتفق أنه قدم الحاج وفي جملتهم الأمير سليمان شاه بن سعد الدين شاهان شاه بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن

شاهان شاه بن أيوب بزي الفقراء، فأعلمت به أم الملك الناصر فخلعت عليه وتزوجته، وسلمت اليه البلاد فملأها ظلماً وجوراً وفسقاً وتجبراً.

وكتب الى السلطان الملك العادل رحمه الله كتاباً يقول في أول: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)^(١٦).

واهتم السلطان الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل بأمره، فسير الى اليمن ولده الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب في سنة اثنتي عشرة وستمئة بعسكر، ففتح بلاد اليمن، وقبض على سليمان شاه وبعث به الى مصر تحت الحوطة فاعتقل بها، ثم أفرج عنه بعد مدة.

ودوخ الملك المسعود بلاد اليمن حتى أطاعه أهلها، وكان شجاعاً أبي النفس عالي الهمة، وأعلم ان هذه الحوادث وإن وقع أكثرها بعد هذه السنة أعني سنة تسع وتسعين فإنما قصد سياقة الحديث دعانا الى ذكرها كراهة أن يتبت.

سنة ستمئة

في هذه السنة كانت كسرة الموصل على يد السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن السلطان الملك العادل رحمهما الله، وحديث ذلك أنه خرج نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل الى قتال الملك الأشرف، ولما بلغ الملك الأشرف ذلك كتب الى والده الملك العادل، وكان نازلاً بخربة اللصوص يستشير فيه يفعل، فكتب اليه يشير عليه بأن لا يضرب مع صاحب الموصل مصافاً وحذره من ذلك غاية التحذير، وسار السلطان الملك الأشرف رحمه الله

الى داراء، فنزل بها واستدعى اخاه الملك الأوحى من ميفارقين، وصاحب آمد وصاحب الجزيرة، ورحلوا قاصدين باشزى^(١٧) ووصل نور الدين الى باشزى بجموعة قبلهم، وبعث إلى السلطان الملك الأشرف رسولا يطلب منه المصاف.

ثم وقع القتال فحملت المواصله على عساكر الملك الأشرف فزحزحتها قليلاً، وحملت عساكر الملك الأشرف بعد ذلك عليهم فكانت الهزيمة، وأباح الله تعالى الملك الأشرف أكتافهم فاستولوا عليهم قتلاً وأسراً، ودخل نور الدين الموصل هزيماً، ثم جرت بينه وبين الملك الأشرف مصالحات واتفاقات.

وقد كان الملك الأشرف رحمه الله مقرونة براياته السعادة أين توجه، وكانت هذه الوقعة أول سعاداته وعنوانها.

سنة ثلاث وستمئة

في هذه السنة نزل السلطان الملك العادل رحمه الله على البحيرة بظاهر مدينة حمص، واستدعى ابن اخيه الملك المنصور صاحب حماه، وابن أخيه الملك الأجد صاحب بعلبك، ووصل عسكر آمد وسنجان وحلب، ودخل الساحل فأخرب القليعات وأحرق ونهب للفرنج شيئاً كثيراً.

سنة أربع وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل الى دمشق، فأقام بها وأمر

- ١٠٠٢٠ -

بتجديد عمارة قلعتها، ووظف على كل ملك من ملوك أهل بيته وأكابر أمرائه برجاً، فعمروها بأموالهم خدمة له.

سنة ست وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل رحمه الله الى سنجار، ومعه ملوك أهل بيته بعساكرهم فأقام محاصراً لها مدة طويلة ثم عاد عنها ولم يظفر منها بشيء، ودخر الله تعالى فتحها لولده الملك الأشرف، فإنه فتحها سنة سبع عشرة وستمئة، وبعد رحيل السلطان عنها سير ولده الملك الأشرف، وفي خدمته ابن عمه الملك المنصور صاحب حماء الى نصيبين ففتحها، واستولى عليها، وكانت لصاحب الموصل.

سنة سبع وستمئة

في هذه السنة قبض السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل على الأمير عز الدين سامة واعتقله بحصن الكرك، ونازل حصنیه عجلون وكوكب، وكان قبل ذلك قد طلبها منه على أن يُعَوِّضَ عنها الفيوم من أعمال مصر فامتنع ففتح الملك المعظم حصنیه واستولى عليها.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك الأوحـد نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك العادل بأخـلاط، وكان قد استولى عليها وعلى حصونها ومعاقلها.

استيلاء الملك الأشرف على أخلاط

وكان الملك الأوحده رحمه الله لما احتضر كاتب أخاه السلطان الملك الأشرف ليحضر عنده، فمضى إليه وأقام عنده مدة، فاتفق أن الملك الأوحده تعافى من مرضه، وتكامل برؤيته. فودّعه الملك الأشرف عازماً على العود، فأخبره منجم أخلاطي، كان عند الملك الأوحده بأن الملك الأوحده يموت لامحالة ونهاه عن المضي، فأقام اسبوعاً فمات الملك الأوحده في ذلك الاسبوع، فاستتب الملك بأخلاط للسلطان للملك الأشرف شاه أرمن موسى بن الملك العادل، وأقبلت السعادة له من كل جانب.

سنة عشر وستمئة

في هذه السنة ولد السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر، وأمه خاتون ابنة السلطان الملك العادل.

سنة ثلاث عشرة وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك الظاهر غياث الدين ايل غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قدس الله روحه، وذلك لعشر بقين من جمادى الآخرة وعمره أربع وأربعون سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه بحلب إحدى وثلاثين سنة.

سيرته:

كان رحمه الله ملكاً جليلاً القدر، حسن السيرة، عادلاً في رعيته، كثير الإحسان إليهم والمحبة واستجلاب قلوبهم، والتكثر بأمانتهم وأكابرهم،

- ١٠٠٢٢ -

حتى أنه كان إذا مرض أحد من أكابر أهل بلدة ومعمميهم عادة بنفسه وافتقده بالنفقات، ومتى عوفي من المرض خلع عليه.

وكان له سماط في شهر رمضان يحضره غالب فقهاء البلد، وكان في الأعياد يجلس في الهناء، ويسمع من الشعراء مدائحهم، ويمد سماطاً عظيماً، يحضره غالب الناس، ويخلع على الأعيان والأمراء وأرباب البيوتات.

ولما توفي الملك الظاهر رحمه الله عقد الملك بحلب لولده السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر، وعمره يومئذ ستان وكسر بوصية أبيه إليه في ذلك، وترتب أتاكاً له الأمير شهاب الدين طغريل خادم أبيه، فضبط المملكة، ونشر العدل، وأكثر من الإحسان إلى الرعايا، وقام بحفظ مملكة الملك العزيز أحسن قيام.

ذكر بدء ظهور التتر لعنهم الله

كان السلطان خوارزم شاه محمد بن السلطان خوارزم شاه تكش قد تملك ماوراء النهر، وكان هؤلاء الطائفة المعروفون بالتتر مقيمين بصحراء متاخمة بلاد الصين، يقال لها جين ماجين، فاتفق أنهم ملكوا من : بلاساغون، مدينتي طمغاج وكاشغر، فقويت شوكتهم بذلك، وكانت هذه البلاد متاخمة لسمرقند وهي يومئذ بيد خوارزم شاه، ف وقعت الحرب بينهم وبين خوارزم شاه مدة قبل هذه السنة، فقلت عندهم المون والنفقات ومنع خوارزم شاه من نقل شيء منها إليهم، فبعث ملك التتر واسمه جنكيزخان رسلاً ثلاثة، وصحبهم تجار منهم على خوارزم شاه، وبعث الى خوارزم شاه فأعلمه بهم، فبعث خوارزم شاه من قتلهم سوى رجل واحد، وأظهر خوارزم شاه أن ذلك وقع بغير أمره. ونهب متولي أطرار ماكان مع أولئك التجار، وكانوا أربعين تاجراً ومعهم مئة وخمسون فرساً عليها فضة نقرة لبيتاعون بها ما يحتاجون اليه من السلع والبضائع.

ولما بلغ ذلك ملك التتر بعث الى خوارزم شاه ينكر عليه هذا الفعل ويتهدده إن لم يبعث اليه بأولئك الرسل والتجار أحياء، فقطع خوارزم شاه أطراف رسله، وقال: مالكم عندي إلا هذا الفعل. فاجتمعت التتر في عالم لا يحصى، وقصدوا بلاد الاسلام وهؤلاء القوم كفار يعبدون الشمس، ولا يعتقدون صحة شيء من الشرائع، وقد ذكر أن عدة جمعهم كان يومئذ أربع مئة ألف مقاتل، وافترقوا ثلاث فرق، فخرج خوارزم شاه في سبعين ألفاً فضرب مع ملك كاشغر، وهو احد ملوكهم مصافاً وكان عدة من معه أربعين ألفاً، فهزم أصحاب ملك كاشغر وأسر خوارزم شاه وقتله.

ثم طلب خوارزم شاه من ابن ملك التتر جنكيزخان أن يضرب معه مصافاً فامتنع وقال: مامعي أمر من والدي بذلك، فألح عليه خوارزم

شاه فاندفع ابن كشلو خان قدامه مسيرة ثلاثة أيام، ثم ردت التتر على خوارزم وأصحابه فهزموهم أقبح هزيمة، وطمعت التتر عند ذلك في البلاد الإسلامية، فبعثوا الى بخارى عشرة آلاف فارس فنازلوها وحاصروها حصاراً شديداً ثم فتحوها بعد ثلاثة أيام وبذلوا السيف في أهلها فأبادوهم وعصت القلعة عليهم خمسة أيام ثم فتحوها وقتلوا من كان بها وهدموها، وكان ببخارى من العلماء والأكابر مالا يحصى كثرة، فذهب أكثرهم تحت السيف، ثم مضوا الى سمرقند فأخذوها بالسيف وقتلوا جميع اجنادها وعوامها وفقهائها، وهذه مدينة لم يكن بها وراء النهر مدينة أعظم منها.

وأما خوارزم شاه فإنه صار الى ترمذ، فاختلفت أصحابه، وتحالفوا على قتله لما رأوا من استيلاء الكفار عليه وغفلته عنهم، وعزموا على تملك شخص منهم يقوم بذب الكفار عن حوزة المسلمين، فاطلع خوارزم شاه على ما أجمعوا عليه، فانهزم الى نيسابور واتبعه أجناده يطلبون قتله، ثم انهزم الى همدان وهم في أثره، ثم انهزم منها وساق سوقاً حثيثاً في البرية فأدرسته منيته على شاطئ البحر فدفن هناك لأحسن الله عن الاسلام جزاءه، فلقد كان هلاك معظم بلاد الاسلام على يديه وبسببه، وقصد ولده جلال الدين منكبرتي بن محمد مدينة خوارزم فلم يفتح له بابها، فعاد الى نساوور، وأقام بها أياماً فالتقاه التتر فكسروه كسرة قبيحة، وأخذوا ما كان معه، وانهزم الى هراة وهم في أثره فمضى الى غزنة فلقيه رجل من أهل بلخ فسأل جلال الدين أن يعطيه العسكر ليصاف بهم التتر فأعطاه إياه، فصاف البلخي التتر فهزمهم، فحسده جلال الدين على ذلك فقتله، فسلط الله تعالى الكفار على جلال الدين فهزموه الى ما وراء السند، واستولى الكفار على بلاد العجم، واستباحوا أهلها قتلاً وأسراً، فهذا ما بلغني من ذكر ابتداء أمرهم.

ثم إن جلال الدين بعد ذلك عاد الى بلاد العجم وجمع خلقاً عظيماً،

ثم إنه قصد أخلاط وملكها علي ماسنذكره إن شاء الله تعالى، فقصده السلطان الملك الأشرف وكسره وفلّ جمعه، ثم كانت بعد ذلك بينه وبين التتر حروب كان الظفر فيها للتتر، وانهمز منهم جلال الدين نحو آمد، ودياربكر، فقيض الله من اغتاله وأراح المسلمين منه، فإنه وأياه كانا على الناس شراً من التتر لما كان يبدو منها من الظلم الفاحش وسفك الدماء، وانتهاك الحرمات وإخراب البلاد واهلاك الحرث والنسل.

ولم تزل شوكة التتر تعظم وأمرهم يتفاقم إلى أن ملكوا أصبهان، وكانت قد امتنعت عليهم مدة طويلة، فقتلوا من أهلها مقتلة عظيمة، ثم قصدوا إربل فحاصروها، ثم ملكوها وقتلوا جميع أهلها، ثم قصدوا العراق فقام الخليفة الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين أعز الله نصره بقتالهم، وتشمر لحربهم والأمر على ذلك إلى وقتنا هذا، فنسأل الله تعالى أن يعجل دمارهم وهلاكهم، وينزل جنود النصر على مولانا أمير المؤمنين وأن يحسم بطول بقائه مادة الكافرين آمين.

ولولا خشية خروج هذا المختصر عن حدّه لذكرنا أمورهم جميعها، لكنّا كرهنا ذلك لطولها، ولأنها أيضاً معلومة لقرب العهد بها.

سنة خمس عشرة وستمئة

في هذه السنة خرج سلطان الروم عز الدين كيكاوس بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان طالبا بلاد الشام ليملكها، وظهر أنه إنما خرج نجدة للملك الأفضل نور الدين ابن الملك الناصر صلاح الدين، فوصل إلى تل باشر، وكانت بيد الأمير بدر الدين دلدردم الياروقي فنازها وفتحها وتسلمها لنفسه، وكان الملك الأفضل يعتقد أنه كلما استولى سلطان الروم على بلد سلمه إليه، فلما

تسلم تل باشر لنفسه اعتذر إلى الأفضل بأن تل باشر ليست من بلاد
الظاهر ولا من بلاد إخوته.

ولما بلغ شهاب الدين أتابك الملك العزيز صاحب حلب أمر سلطان
الروم، بعث إلى السلطان الأشرف موسى ابن الملك العادل يستنصر به،
وكان يومئذ بظاهر مدينة حمص في مقابلة الفرنج، فتوجه رحمه الله
بعساكره للقاء سلطان الروم، فانهزم منه سلطان الروم طالباً بلاده.

وساق السلطان الملك الأشرف تبعاً له إلى أن أخرجه من بلاد الشام،
وتسلم تل باشر، ورعبان، وسلمها إلى شهاب الدين أتابك، وكانت هذه
النوبة من سعادات الملك الأشرف العجيبة ووقعاته الغريبة، فإن الملك
الأشرف يومئذ كان في جمع قليل، وكان سلطان الروم في جموع كثيرة العدد
غزيرة المدد، ولم يكن في ظن أحد أنه يقل حدهم بهذا الجمع بل
ولابأسعافه.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي
بكر بن أيوب قدس الله روحه بمخيمه بخربة اللصوص، وذلك بعقب
خروج الفرنج خذلهم الله تعالى ووصلهم إلى الغور قاصدين الاستيلاء
على البيت المقدس واسترداد ما أخذ منهم من البلاد الساحلية.

ولما توفي السلطان الملك العادل كُتِم موته إلى أن أدخل في محفة إلى
قلعة دمشق، ودفن بها، ثم أظهر موته، وجلس ولده الملك المعظم
للعزاء، وكانت مدة عمره ثلاثاً وسبعين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه
من حين ملك مصر واستتب له الأمر ثمان عشرة سنة وشهوراً، وكانت
وفاته في جمادى الآخرة.

سيرته رضي الله عنه:

كان رضي الله عنه جميل السيرة، حسن الطويّة، وافر العقل حازم الرأي، كثير التجارب، ذا معرفة بدقائق الأمور، مواظباً على أداء المفترضات والنوافل، محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متبعاً لأوامر الشرع المطهر منزجراً بزواجه، حسن العقيدة محباً للدين وأهله، متبعاً للسنّة كارهاً للبدعة، مبالغاً في إطفاء نارها وإخفاء منارها، كثير التلاوة والصيام والقيام على كبر سنه، مجاهداً في سبيل الله عز وجل، ذاباً عن دينه، مائلاً الى العلماء وأهل الخرق، وكان مع ذلك مسعوداً في جميع أموره مظفراً على من ناوأه منجحاً في كل أمر قصده ونواه.

ومن جملة سعادته أنه خلف أولاداً لم يخلف أحد من الملوك مثلهم في بسالتهم وإقدامهم، وعظم شأنهم، وجلالة قدرهم وبعد صيتهم، وعلو هممهم، وهيبة أهل الأرض قاطبة لهم، كل منهم إذا جرد النظر إليه ظن أنه أفضل أهل دهره، وأنه لا شبه له في عصره:

من تلق منهم ثقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها الساري

ولما توفي السلطان الملك العادل استقر في السلطنة بعده ولده السلطان الكبير الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب، فخطب له إخوته وهم أهل بيته، في بلادهم، وضربوا السكة باسمه.

وأما الذي كان يختص به من البلاد عند موت والده فالديار المصرية، وبلاد اليمن، ونائبه بها ولده السلطان الملك المسعود وقد ذكرناه.

واستقر في الملك بدمشق وأعمالها السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى، وبلاد الشرق السلطان الملك الأشرف مظفر الدين شاه أرمن موسى.

نزول الفرنج على دمياط

وفي هذه السنة نزلت الفرنج على دمياط، وزحفوا إليها براً وبحراً فخرج السلطان الملك الكامل رحمه الله لقتالهم فنزل في دمياط المقابل لها إلى بورة^(١٨)، ونزل الفرنج في الجانب الآخر والنيل بين الفريقين.

وكان نزول الفرنج على دمياط لثلاث مضيّن من شهر ربيع الأول، وذلك قبل وفاة السلطان الملك العادل بثلاثة أشهر وأربعة أيام.

واشتد زحف الفرنج على دمياط ومحاصرتهم لها، وكانت أكثر عساكر المسلمين قد جهزوا خيولهم إلى الربيع، وبقي أكثرهم رجالةً فضعفت نفوسهم بسبب ذلك، وخافوا من عدوهم، وجرت أمور مع ذلك أوجبت خروج السلطان ومن معه من المخيم ليلاً إلى أشمون، ولما أصبح الصباح دخل الفرنج مخيم المسلمين واستولوا عليه، واحتاطوا بدمياط وأحرقوا بها براً وبحراً، فعظم البلاء واشتدت الرزية.

وأما السلطان رحمه الله فإنه لما وصل إلى أشمون أخرج الأموال وأنفقها في الناس، وعوضهم عما ذهب منهم، ثم وصل أخوه السلطان الملك المعظم صاحب دمشق بعسكر كثير من فارس وراجل، فاجتمعت العساكر الإسلامية، وعادت الخيول من الربيع فعاد السلطان رحمه الله فنازل الفرنج، والفرنج منازلون دمياط.

ونشب القتال بين الفريقين، وحفر الفرنج عليهم خنادق يمتنعون بها من السلطان، وجدوا في حصار البلد ومضايقته إلى أن خرجت السنة.

سنة ست عشرة وستمئة

دخلت هذه السنة والمسلمون محققون بالفرنج محاربون لهم، والفرنج محاصرون لدمياط، وقد اشتدت مضايقتهم لها، فقلَّتِ الأقوات بدمياط حتى هلك أكثر أهلها، وضعفوا ووقع فيهم الوباء والفناء.

استيلاء الفرنج على دمياط: ولما طالت مدة الحصار على دمياط، وعدمت عندهم الميرة، وكثر الوباء عندهم حتى هلك أكثر مقاتليهم لم يبق لأهل البلد منعة، ولا بمصايرة العدو طاقة، وزحف الفرنج إليها فملكوها واستولوا عليها، واسترقوا من وجدوه بها وذلك يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان فكانت مدة حصار الفرنج لها ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً .

ولما ملك الفرنج دمياط تأخر السلطان رحمه الله بالمسلمين إلى جوجر^(١٩) فنزل هناك وبنى بها دوراً وأمر الناس بالبناء فصارت هناك مدينة عظيمة وسماها المنصورة، وأعطى أخاه الملك المعظم دستوراً بالمضي إلى الشام، وبيجمع العساكر للجهاد العدو.

سنة سبع عشرة وستمئة

دخلت هذه السنة والفرنج خذلهم الله متملكون لدمياط، والسلطان رحمه الله بمنزلته المسماة بالمنصورة.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماه، وذلك لثلاث بقين من ذي القعدة، فكانت مدة عمره خمسين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه تسعاً وعشرين

- ١٠٠٣٠ -

سنة وشهوراً، فعقد الملك بحماه بعده لولده الملك الناصر صلاح الدين قلعج أرسلان بن محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب، ولم تكن الوصية بالملك إليه، وإنما كانت لأخيه الملك المظفر تقي الدين محمود الذي هو ملكها اليوم، لكنه كان عند وفاة أبيه بمصر عند خاله السلطان الملك الكامل رحمه الله، وكان الملك الناصر قلعج أرسلان بدمشق، فاستحضره زين الدين وزير صاحب حماه، واستحلف الناس له، وملكه على بلاد أبيه وهي حماه والمصرة وسلمية وبارين.

سنة ثمان عشرة وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق الى أخيه السلطان الملك الأشرف مظفر الدين رحمه الله مستنجداً به على الفرنج خذلهم الله، فجمع السلطان الملك الأشرف العساكر، وجاءتهما نجدة صاحب ماردين، ثم سار الى حمص مخيماً على البحيرة، ووصلهم عسكر حلب، والملك الناصر قلعج أرسلان بن الملك المنصور صاحب حماه والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، ثم توجهوا قاصدين الديار المصرية نجدة للسلطان رحمه الله.

وأما الفرنج فلم يخرجوا من دمياط ونازلوا السلطان في المنصورة وبينهم وبينه بحر أشمون، واستمر القتال بين الفريقين براً وبحراً.

فتح دمياط

ولما وصل السلطان الملك الأشرف والملك المعظم بمن معها من

العساكر، بعث السلطان في بحر المحلة أسطولاً فدخلوا الى بحر دمياط ليمنع المسيرة عن الفرنج، وأمر السلطان فبنيت الجسور عبر عليها المسلمون الى جزيرة شر مساح التي الفرنج يخيمون عليها.

وكان الفرنج قد عزموا على الرحيل في الليل، فأحاطت بهم العساكر وقد دخلوا أرض السرمون، ودارت الحرب بينهم وبين المسلمين، ووقع أسطول المسلمين من كل جانب على أسطول الفرنج خذلهم الله وشوانيتهم، وقُتل منهم خلق عظيم حتى لم يبق لهم سبيل الى الهرب بوجه من الوجوه، وأيقنوا بالهلكة فراسلوا السلطان الملك الكامل رحمه الله يبذلون له النزول عن دمياط على أن يؤمنهم، فأجابهم الى ذلك وشرط عليهم اطلاق من في أيديهم من أسرى المسلمين، وأخذ منهم رهائن ملوكهم على تسليم البلد وتقرر بينهم صلح عام مدة ثمان سنين.

وتسلم السلطان دمياط لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب، فكانت مدة تملك الفرنج لها سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، وكان هذا الفتح أعظم الفتوح وأجلّها، فإنهم لو استمر تملكهم لها لكان ذلك سبباً لاستيلائهم على أكثر البلاد الاسلامية، لكن أبى الله تعالى إلا إعزاز هذه الملة ونصرها، وجعل ذلك على يد أهل البيت الأيوبي الذين استنقذ الله تعالى بسلفهم بيته المقدس من أهل الطغيان، وترجو أن يقر بفتحه على أيدي خالفهم عيون أهل الإيثار آمين.

ولما تسلم السلطان رحمه الله دمياط دخلها المسلمون وأقيمت الجمعة بها يوم الجمعة لسبع بقين من رجب، فَصَحَّ المسلمون بالبكاء من فرحهم، وأكثروا من الثناء على الله سبحانه شكرياً على ما أولاهم من هذه النعمة التي يعجزون عن بلوغ شكرها، وتكلّ ألسنتهم عن وصف كُنْهِ قدرها.

سنة تسع عشرة وستمئة

في هذه السنة قصد السلطان الملك المعظم صاحب دمشق حماءه، فأغلق صاحبها الملك الناصر أبوابها وحفظ أسوار بلده بالمقاتلة.

وكان الملك المعظم قد أظهر أنه لم يأت للمحاربة وإنما أتى طلباً للمجاهد إقبال، وهو أمير من أمراء السلطان الملك الكامل كان قد هرب منه، وتقدم إلى أخيه الملك المعظم بطلبه.

ولما جرى ما ذكرناه من احتفاظ الناصر صاحب حماءه بالأسوار، وغلقه الأبواب في وجه خاله الملك المعظم، اتخذ ذلك الملك المعظم حجة وسيلة إلى الاستيلاء على بلاده، فمضى إلى سلمية وشحنها، ثم مضى إلى المعرة وقبض ما كان بها من الخواصل وشحنها أيضاً، ثم مضى إلى سلمية فأقام بها إلى أن خرجت السنة.

سنة عشرين وستمئة

في هذه السنة وصلت كتب السلطان الملك الكامل والملك الأشرف إلى أخيهما الملك المعظم، وهو بسلمية، ينكران عليه ما فعل من قصده صاحب حماءه وتشجينه على بلاده، فاعتذر إليهما، ثم عاد إلى دمشق وفي قلبه أثر من ذلك، فكاتب أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل صاحب ميافارقين، وكان نائب أخيه الملك الأشرف بأخلاط يدعوه إلى مخالفة الملك الأشرف والعصيان عليه، وكاتب أيضاً مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك أيضاً واستماله إليه.

سنة إحدى وعشرين وستمئة

في هذه السنة عصى الملك المظفر شهاب الدين غازي على أخيه السلطان الملك الأشرف بأخلاط، وجمع عسكرياً كثيفاً فقصده الملك الأشرف، وخرج السلطان الملك المعظم في عساكره الى العطنة^(٢٠) فنزل بها طالباً أن يمنع الملك الأشرف من قصد أخيه شهاب الدين غازي فلم يقدر على ذلك، والتقى الملك الأشرف وأخوه شهاب الدين غازي فكسره الملك الأشرف رحمه الله تعالى كسرة قبيحة وتسلم أخلاط، وعفا عن أخيه الملك المظفر شهاب الدين وأبقى عليه ميافاارقين، ثم عاد السلطان الملك المعظم الى دمشق وسير ولده الملك الناصر صلاح الدين داود الى إربل، وتحالف هو وصاحبها مظفر الدين بن زين الدين واتفقا.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله بسميساط رحمه الله، مولده في سنة أربع وستين وخمسة فكان عمره قريباً من سبع وخمسين سنة.

كان عنده رحمه الله فضل وأدب، غير أنه كان فاقداً للسعادة، ناقص الحظ، وله أشعار حسنة جيدة من جملتها قوله يخاطب الخليفة الإمام الناصر لدين الله في أول كتاب كتبه إليه يشكو إليه فيه عمه السلطان الملك العادل، وأخاه الملك العزيز عثمان حيث أخذ منه دمشق.

مولاي إن أبابكر وصاحب
عثمان قد أخذ بالسيف إرث علي
فانظر الى حظ هذا الاسم كيفلقى
من الأواخر مالقى من الأول

فأجابه الخليفة الإمام الناصر عن كتابه بكتاب كتب في أوله:

- ١٠٠٣٤ -

وإني كتابك يا ابن يوسف معلناً
بالصدق يُخبر أن أصلك طاهر
غضبوا علياً حقه إذ لم يكن
بعد النبي له يثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم
وابشر فناصرك الإمام الناصر

وللملك الأفضل رحمه الله في هذا المعنى:
أما أن للسعد الذي أنا طالب
لإدراكه يوماً أيدي وهو طالب
تُرى يريني الدهر أيدي شيعتي
تمكن يوماً من نواصي النواصب

سنة اثنتين وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة الإمام الناصر لدين الله، وذلك في ليلة عيد
الفطر، وكانت خلافته ستاً وأربعين سنة وأحد عشر شهراً إلا يومين،
وكان عمره نحواً من سبعين سنة.

سيرته: كان صاحب رأي وتدبير وسياسية، وكان فاضلاً متميزاً أدبياً
جيد الفكرة حاضر البديهة، فيروى أن وزيره نصير الدين العجمي
لما حبسه في داره ومنع من الوصول إليه، وأجرى عليه ما يقوِّثه كتب إلى
الخليفة كتاباً يقول في أوله:

أَلْفَنِي فِي لَظَى فَإِنْ غَيَّرْتَنِي
فَتَيْتَنِي أَنْ كُنْتُ بِالْيَقْوَتِ

- ١٠٠٣٥ -

عَرَفَ النَّسِيجُ كُلُّ مَنْ حَاكَ لَكَ
— نَسِيجُ دَاوُدَ لَيْسَ بِالْعَنْكَبُوتِ

فأجابه الخليفة بخطه:
نَسِيجُ دَاوُدَ لَمْ يَفِدْ صَاحِبَ الْغَا
— رٍ وَكَانَ الْفَخَارُ لِلْعَنْكَبُوتِ
وَيَقْدَاءُ السَّمْنَدِ فِي لَهَبِ النَّ
— رٍ مَزِيلٌ فَضِيلَةُ الْيَاقُوتِ

خلافة الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين

هو أبو محمد بن الناصر بن المستضيء بن المستنجد بن المقتضي بن المستظهر بن المقتدي وأمه أم ولد، بويع له يوم توفي والده الإمام الناصر، وكان والده قد خطب له بولاية عهده في سائر المنابر الإسلامية، ثم نقم عليه بعد ذلك لشيء بلغه عنه فأسقط اسمه من ولاية العهد وحبسه وضيق عليه تضيقاً شديداً، ومال إلى ولده الأصغر علي وعزم على الخطبة له ونقش السكة باسمه، فاتفقت وفاة الأمير علي في حياة أبيه وخلف أولاداً أطفالاً فبعث بهم الإمام الناصر إلى سينيز (٢١) فأقاموا بها، ثم رضي الخليفة عن ولده الظاهر فعهد إليه وبايع له الناس، وكتب إلى سائر الآفاق بإعادة الخطبة له إلا أنه لم يخرج من محبسه خوفاً منه، فإنه كان أيداً شديداً القوة عالي الهمة.

ولما توفي الناصر لدين الله أخرج الظاهر بأمر الله من محبسه، وبويع له بالخلافة البيعة الخاصة، ثم بويع له البيعة العامة لليلتين مضتا من شوال من هذه السنة فأظهر العدل ونشره، وأزال الظلم ودحضه وردّ على الناس أموالاً جزيلة كانت قد أخذت منهم، وأزال مكوساً كثيرة كانت قد جددت عليهم.

وفي هذه السنة قصد السلطان الملك المعظم صاحب دمشق حمص، ونزل عليها فشعث بلدها، واستغل منه جملة، فجاء الملك الأشرف إليه وسأله أن يرحل عنها، فرحل عنها راجعاً إلى دمشق ومعه أخوه الملك الأشرف رحمها الله، فأقام عنده مدة بدمشق ثم رجع إلى بلاده.

سنة ثلاث وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة الإمام الظاهر بأمر الله، وذلك لأربع عشرة ليلة مضت من شهر رجب، وكانت مدة خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوماً، وكان عمر نيفاً وخمسين سنة.

وقد روي أنه لما بُويع قال: كيف يليق أن يفتح دكانا بعد العصر من قد نيف على الخمسين سنة وتقلد الخلافة^(٢٢).

سيرته: كان رحمه الله عادلاً حسن السيرة، كارهاً للظلم، وكان شجاعاً بعيد المهمة ذا رغبة في الخير، عقد على دجلة ببغداد جسراً عظيماً، فأنفق عليه أموالاً عظيمة، فصار لبغداد جسران، ولم يكن لها قبل ذلك من مثلي سنة وكسور غير جسر واحد.

ويروى أنه كتب إليه بعض أصحاب الأخبار بحادثة وقعت فيها سعاية ببعض أرباب الدولة، فكتب بظاهرها إلى الوزير: إن عاد صاحب خبر كتب مطالعة ضربت عنقه، فامتنع المفسدون من السعيات، ولم يزل رحمه الله متمسكاً بالعدل، سالكاً طريق الخير إلى أن توفي.

خلافة الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين

خليفة الوقت وإمام العصر خَلَدَ الله دولته وأعلى كلمته هو أبو جعفر المستنصر، بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد، بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد، بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن، بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف، بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد، بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد، بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله، بن ذخيرة الدنيا والدين أبي عبد الله محمد، بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله، بن القادر بالله أبي العباس أحمد، بن اسحاق، بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر، بن المعتض بالله أبي العباس أحمد، بن الموفق بالله أبي أحمد طلحة، بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر، بن المعتصم بالله أبي اسحاق محمد، بن الرشيد أبي جعفر هارون، بن المهدي أبي عبد الله محمد، بن المنصور أبي جعفر عبد الله، بن محمد الإمام، بن علي السجاد بن عبد الله الحبر، بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي بن كلاب، بن مرة بن كعب، بن لؤي بن غالب، بن فهر - وهو قريش في قول الأكثر - بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن الياس، بن مضر، ابن نزار، بن معد، بن عدنان. بويح أعز الله أنصاره بالخلافة يوم توفي والده الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين وعمره يومئذ عشرون سنة أو إحدى وعشرون سنة، وأول كلمة سمعت منه لما ولي: «نستمد المعونة بالله تعالى» فأظهر من حسن السيرة والعدل أضعاف ما أظهره والده، وأفاض من الصدقات، وأجزل من العطاء والأنعام مافاق به على من سبقه من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، فلا تجد أحداً ممن ورد بغداد في أيامه إلا ناشراً لفضله، شاكراً لبرّه، داعياً إلى الله تعالى في تخليد دولته وتشديد مملكته راغباً إليه في أن يتمتع المسلمون بطول بقائه، وأن يجعل النصر والتأييد من قرنائه آمين.

سنة أربع وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وذلك يوم الجمعة بدمشق سلخ ذي القعدة، فكان عمره تسعاً وأربعين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه لدمشق تسع سنين وشهوراً.

سيرته: كان رحمه الله شجاعاً عالي الهمة أبي النفس غزير الفضل عالماً. ولما توفي استقر في الملك بعده بدمشق وأعمالها ولده السلطان الملك صلاح الدين أبو المظفر داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب.

وكان عمه الملك العزيز قد قصد بعلبك ليأخذها من صاحبها، فمنعه من ذلك الملك الناصر، وبعث إليه يتهدده إن لم يرحل عنها فتوغل قلبه بسبب ذلك، واستوحش منه وفارقه وصار إلى أخيه السلطان الملك الكامل.

سنة خمس وعشرين وستمئة

في هذه السنة خرج السلطان الكبير الشهيد الملك الكامل قدس الله روحه من الديار المصرية في عساكره، فوصل إلى نابلس ونزل بها، ووصل إليه أخوه السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل صاحب بانياس رحمه الله متلقياً له، فأكرمه غاية الإكرام وأحسن إليه.

وكان ملك الألمان المعروف بالانبرطور قد وصل مدينة عكا في جمع من الفرنجية طالباً بلاد الاسلام، قاصداً الاستيلاء عليها، ولما صار السلطان الملك الكامل بنابلس خاف الملك الناصر ابن الملك المعظم منه، فبعث

إلى عمه السلطان الملك الأشرف يستنجد به ، ويسأله المصير إليه، فوصل السلطان الملك الأشرف إلى دمشق، ودخلها في العشر الأخير من شهر رمضان، فاجتمع بالملك الناصر، وقال له: لا يمكنني مقابلة السلطان وإنما أنا أتوجه إليه وأصلح الحال معه، فتوجه إليه واتفق رحيل السلطان من نابلس إلى تل العجول ليكون في مقابلة الفرنج، وأما الانبرطور فإنه نزل بجموعه إلى يافا، والرسل تتردد بينه وبين السلطان.

وصل السلطان الملك الأشرف إلى أخيه السلطان الملك الكامل، ثم وصل بعده الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، ووصل الملك الناصر داود إلى نابلس فنزل بها وجرى بينه وبين عز الدين أيدير مملوك أبيه أموراً أوجبت أن عز الدين فارقه وصار إلى السلطان فاستخدمه، وأحسن إليه، وأقطعته أقطاعاً كثيراً.

سنة ست وعشرين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان بتل العجول والملك الناصر داود بنابلس والرسل تتردد بين السلطان والفرنج في أمر الهدنة والصلح.

ذكر الهدنة

واقضى الحال أن الأمر انبرم بين السلطان رحمه الله والفرنج على أن يُسَلِّمَ إليهم البيت المقدس داخل الخندق فقط، ولا يكون لهم من بلده إلا قريات معدودة، وإنما فعل ذلك لأن الفرنج كانوا في كثرة من العدد وأمدادهم متواصلة إليهم من البحر، وخاف على البلاد من غائلة العدو، فرأى تسليمه إليهم إلى أن تقوى كلمة الإسلام ويحصل الاتفاق بينهم، وكان ذلك من المصلحة فإن الإمام يجوز له تسليم بلد من البلاد

الإسلامية الى الكفار إذا رأى في ترك التسليم إليهم ضرراً ظاهراً لا يمكن تلافيه.

منازلة السلطانين الأشرف والكامل دمشق

ثم إنه استقر الحال بين السلطان الملك الكامل والسلطان الملك الأشرف على أن يؤخذ من الملك الناصر دمشق وأعمالها، ويعوض عنها: حران، والرقعة، والرهاء، وسروج، ورأس عين، وغيرها، وأن تكون دمشق وما يتصل بها من الأعمال الى عقبه فيق للملك الأشرف، وأن يكون للسلطان الملك الكامل من فيق الى العريش، وأن تؤخذ حماه من صاحبها قلج أرسلان ابن الملك المنصور، وتعطى للملك المظفر تقي الدين ابن الملك المنصور، إذ هو وصي أبيه، والمعهود إليه بالسلطنة، وأن تؤخذ بعلبك من صاحبها الملك الأحمـد وتعطى للملك العزيز عثمان ابن الملك العادل صاحب بانياس، وأن يعطى الملك المجاهد أسد الدين سلمية، فإنها كانت اقطاعاً لأبيه ناصر الدين.

ولما وقع الاتفاق على ذلك توجه السلطان الملك الأشرف، ومعه الملك المجاهد نحو الملك الناصر فاجتمعوا به بالقصر وخاطباه فيما وقع الاتفاق عليه، وأخبراه أن السلطان غير قانع منه إلا بتسليم ما في يده، وأخذ ما بذل له عوضاً عن ذلك، فحمله أمراؤه وأصحابه على المخالفة، وأن لا يجيب الى ما طلب منه، وحملوه على الرحيل الى دمشق والتحصن بها، فرحل في أصحابه الى دمشق وساق إليها سوقاً حثيثاً.

ورحل السلطان الملك الأشرف في إثره، وفارق الملك الناصر عمه الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل صاحب بصرى وابن عمه الملك المغيث شهاب الدين ابن الملك المغيث ابن الملك العادل، وصارا

مع الملك الأشرف، ودخل الملك الناصر دمشق فستر أسوارها، وحفظ أبوابها، واستحصن بها، ونزل الملك الأشرف بمرج الصفر، فبعث إليه السلطان رحمه الله الأمير فخر الدين عثمان في ألف فارس، ثم بعث مع الملك المظفر تقي الدين ابن الملك المنصور ألف فارس أخرى، فوصلوا إلى الملك الأشرف، وقد نزل بجسر الخشب، وتواصلت إليه الأمداد بعضها يتلو بعضاً، ثم سار السلطان إلى خربة اللصوص فنزل بها، ثم إن السلطان الملك الأشرف بعث إلى أخيه السلطان الملك الكامل يستحثه على القدوم فبعث إليه يقول له: تعلم أن الكرك والشوبك وهي من جملة البلاد التي تعينت لي حصينة فإن تعسر أخذها كيف يكون الحال؟ فاتفق الحال بينهما على أنه إن تعذر أخذهما بعد فتح دمشق كان للسلطان الملك الكامل البلاد التي كانت عينت للملك الناصر عوضاً عن دمشق، فرضي السلطان بذلك وقدم إلى دمشق، واتفق هو وأخوه الملك الأشرف على محاصرتها، وضايقوها مضايقة شديدة، وآخر الأمر أنهما تسليهاها صلحاً في مستهل شعبان.

استيلاء السلطان الملك الأشرف على دمشق: ولما ملك السلطان الملك الكامل رحمه الله دمشق سلمها إلى أخيه السلطان الملك الأشرف، وأخذ منه عوضاً عنها من بلاد الشرق: حران، والرقعة، والرها، وسروج، ورأس عين، وجميلين، والموزر، وأبقى على ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم: الكرك، والبلقاء، ونابلس، والأغوار، وأعمال القدس، وبيت جبريل، والصلبت.

وتسلم السلطان الكامل رحمه الله البلاد الساحلية جميعها: طبرية، وكوكب، والخليل، والشوبك، ثم برز السلطان الملك الكامل إلى القابون، متوجهاً نحو البلاد الشرقية، فسار إلى سلمية ونزل بها، وسير السلطان الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور خلد الله ملكه إلى حماه في شعبان ليأخذها من أخيه الملك الناصر، فسار إليها ومعه خاله الملك

العزیز عماد الدین عثمان بن الملک العادل، والملک المجاهد صاحب حمص، فنازلها مستهل شهر رمضان، ونصبوا علیها المجانیق.

ولما كان الیوم السادس عشر من شهر رمضان، نزل الملک الناصر صاحب حمه بنفسه جریدة، ومضى إلى خاله السلطان الملک الكامل وهو بسلمیة، وبذل له مالاً عینه لیبقي علیه حمه، فلم یجبه إلى ذلك، فسأله أن لا یعطي حمه لأخیه الملک المظفر بل يأخذها السلطان لنفسه، فأظهر له الإجابة إلى ذلك، وبعث السلطان نوابه لیتسلموا البلد فامتنع النواب بحماه من ذلك، ونصبوا الملک المعز ابن الملک المنصور للسلطنة، وقالوا: لانسلم البلد لغير أولاد الملک المنصور.

ولما رأى السلطان ذلك رحل إلى الشرق واستصحب معه الملک الناصر قلج أرسلان تحت الحوطة مضيقاً علیه، إذ ظنَّ السلطان أن امتناع النواب من التسليم بمواطأة منه، وأذن السلطان للملک المظفر فی تسلّم البلد إذ هو المعهود الیه بالسلطنة من أبیه، فراسل الملک المظفر النواب فی ذلك، فأجابوه وسلموا البلد إلیه، وكان أحق به من أخیه، وأولى إذ هو أكبر أولاد أبیه سناً وقدرًا، ووصی أبیه بالملک دونهم.

وكان تسلّمه لحماه للیلتین بقیتنا من شهر رمضان، ثم توجه السلطان الملک الكامل رحمه الله إلى الشرق، فرتبَ أمورها ثم عاد إلى مصر.

ولما فتحت حمه رحل العسکر الذی كان مرتباً لحصارها إلى بعلبك فنازلوها، وأقاموا على حصارها إلى أن تسلّموها.

سنة سبع وعشرين وستمئة

دخلت هذه السنة والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محاصر قلعة بعلبك، وكان قد استقر أن الملك الأشرف يأخذها لنفسه، وكنا قد ذكرنا مسير عسكر السلطان الملك الكامل إليها، ونزولهم عليها، وتسلمهم لها، ولم يبق إلا القلعة فنزل العسكر المصري إلى الديار المصرية، وتولى الملك الصالح محاصرة القلعة بمن معه من عساكر السلطان الملك الأشرف، ولم يزل مضايقاً للقلعة محاصراً لها إلى أن تسلمها صلحاً، وعوّض صاحبها الملك الأجد بهرام شاه خيراً من عمل دمشق، وسلم إليه كل ما في القلعة وتسلم ذلك، ومضى إلى دمشق، ودخل نواب السلطان الملك الأشرف إلى القلعة واستولوا عليها.

منازلة خوارزم شاه أخلاط وأخذه لها

وفي هذه السنة نزل خوارزم شاه منكبرتي بن خوارزم شاه تكش على أخلاط، وحاصرها وضايقها مضايقة شديدة، وشتا عليها، وحديث ذلك أن خوارزم شاه بعد أن هزمته التتر، وكان من أمره ماقد ذكرناه في موضعه عاد الى بلاد العجم وجمع جمعاً عظيماً، وقوي أمره، وطمع في الاستيلاء على بلاد العراق، وقصده سنة اثنتين وعشرين وستمئة قبل وفاة الإمام الناصر، ولما علم الخليفة به خاف منه فبعث أبقاراً كثيرة فحرثت المراعي التي في طريقه وقلبت الزراعات، ولما وصل خوارزم شاه الى أطراف العراق لم يجد مرعى، فتوجه الى دقوقا فذهب وسفك وأفسد، ثم مضى الى مرج شهرزور فصالحه الملك المعظم مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ووصلت إليه كتب الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق يظهر فيها الميل إليه والانتماء إلى طاعته، واستحثاته على أخذ البلاد من الملك الأشرف.

وكان سبب ذلك ما كنا ذكرناه من الوحشة التي وقعت بينه وبين أخويه: الملك الأشرف والملك الكامل، فراسل خوارزم شاه الملك المعظم ومال إليه، وبعث إليه خلعة فلبسها وركب بها.

ولما توفي الملك المعظم، وجرى من تفاصيل الأمور ما ذكرناه قصد خوارزم شاه أخلاط ونازلها، وكان نائب الملك الأشرف بها عز الدين أيبك مملوكه، وكان بها أيضاً أخو الملك الأشرف الملك المعز مجير الدين يعقوب، وتقي الدين عباس ابنا الملك العادل.

وطالت مدة الحصار بأخلاط وقلّت بها الأقوات حتى أكل أهلها لحم الكلاب، وبلغ الرطل الشامي من الخبز بها ديناراً مصرياً، وكان بأخلاط

جماعة من اللاوية، فأخذوا سناجق خوارزم شاه ورفعوها على الأسوار على حين غفلة من أهلها، فخذل الناس عند رؤيتها وانهمزوا يقتل بعضهم بعضاً، ودخل جلال الدين المدينة وملكها، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، ثم حاصر القلعة حتى تسلمها بالأمان، واحتاط على أخوي السلطان الملك الأشرف، وعز الدين أيبك.

كسرة الخوارزمي جلال الدين

ولما طارت الأخبار إلى السلطان الملك الأشرف باستيلاء خوارزم شاه على أخلاط، وتملكه لها، توجه إلى بلاد الروم مستنصراً بصاحبها السلطان علاء الدين كيقيباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان، فاجتمع به بإبلستين^(٢٣)، ثم خرج هو والسلطان علاء الدين بجموعهما إلى آق شهر فنزلا بها.

وكان لعلاء الدين عشرة آلاف فارس في ارزنكان، فبعث إليهم يستدعيهم، فوقعوا على ألف فارس كان خوارزم شاه قد جهزهم للغارة وقتلهم، فقتل من عسكر الروم أربعة آلاف فارس، وامتلات الأدوية والجبال منهم، ثم تقدم خوارزم شاه في عساكره ووقعت الحرب بين الفريقين في يوم الجمعة، واستمرت الحرب إلى أن حجز بينهم الليل، وباتوا على تعبثهم، والتقوا يوم السبت فأنزل الله تعالى نصره على السلطان علاء الدين صاحب الروم والملك الأشرف، وانهمز خوارزم شاه أقبح هزيمة وقتل من أصحابه ما لا يحصى كثرة وأسر مثلهم، وتوجه خوارزم شاه هزيماً إلى خوي، وبعث تقي الدين عباساً أخا السلطان الملك الأشرف إلى الخليفة مقيداً هدية، فأكرمه الخليفة وخلع عليه، وبعث به إلى أخيه، ثم أطلق خوارزم شاه مجير الدين بعد ذلك، وأما عز الدين أيبك فقتله.

ثم قصدت التتر بعد هذه الكسرة جلال الدين طمعاً فيه فكسروه،
وقدم الى ديار بكر هارباً، وهم في إثره الى أن اغتاله بعض الأكراد، وكان
من أمره ما ذكرناه، وكان مقتله في سنة ثمان وعشرين او تسع وعشرين.

سنة ثمان وعشرين وستمئة

في هذه السنة وثب على الملك الأجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه
ابن شاهان شاه بن أيوب صاحب بعلبك، كان بعض مماليكه فقتله،
وذلك في داره بدمشق، وكان عالماً فاضلاً أديباً شاعراً، وله ديوان مشهور
في أيدي الناس كثير.

سنة تسع وعشرين وستمئة

في هذه السنة خرج السلطان الملك الكامل رحمه الله من الديار
المصرية متوجهاً الى الشرق لأخذ آمد من صاحبها، فإنه كان ظالماً سيئ
السيرة كثير العسف للرعايا، فوصل اليها السلطان رحمه الله، ونازلها في
شهر ذي الحجة، وزحف اليها فأخذها في يوم واحد، ووقفت على رسالة
لبعض الفضلاء تتضمن كيفية أخذها فكتبت المقصود منها وهو:

«فان السلطان أعز الله أنصاره لم يقصده إلا غضباً لله، لما انتهكه من
محارمه، وإقامة لمنار العدل الذي شرع في هدم معالمة، وشفقة على خلق
الله الذين بسط عليهم، منذ وليهم، أيدي مظالمة، ولما أبى إلا التماهي في
الطغيان، والإيغال في مهالك العصيان، وظنَّ ان الثلوج تنجده، وأن
السلطان يفي له بوعده، وطال ما أخلف من يعهده، وأغر بأصحابه الذين

وقعوا معه بذنوبهم، أمر السلطان أعز الله أنصاره، أبطاله بالزحف فتقدمت وزحفت، وعساكره بالتحرك فتزلزلت الأرض لحركتهم، ورجفت، ودنا الجيش المنصور من السور فدنا وتدلّى، ورأى الخصم عين القصر فعبس وتولى، وأطلق الجاليس عقائل التراكيش فكسفت السور وهتكت حجابيه، وأماط الزراقون لثامه، وسفر النقابون نقابه، وأرسلت عليهم الحنايا رسل المنايا، وخرجت لهم خبايا البلايا من الزوايا، وأوردتهم الرماح السريع مسارع الختوف، وتفرقت منهم الصفوف لما سلت عليهم السيوف، وطلعت على الأسوار المنيقة من الأعلام الشريفة كل راية صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين».

سنة ثلاثين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان رحمه الله ببلاد الشرق، وقد استولى على آمد وبلادها، ومعه ملوك أهل بيته وهم: السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى، والملك الناصر داود، والملك المظفر تقي الدين صاحب حماه، والملك العزيز عثمان، وأخوه الملك الصالح اسماعيل، والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهم، ثم توجه السلطان راجعاً إلى الديار المصرية، ورجع كل ملك إلى بلاده.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، وذلك في شهر رمضان، وكان ملكاً شجاعاً كريماً كثير البر والاحسان والصدقات.

ولما توفي أقر السلطان بلاده على ولده الملك الظاهر نجم الدين أيوب، ثم توفي بعد والده بمدة يسيره، فعين السلطان الصبيبة^(٢٤) قلعته لأخيه الملك السعيد بن الملك العزيز، وهي بيده الآن.

سنة إحدى وثلاثين وستمئة

في هذه السنة خرج السلطان الملك الكامل قدس الله روحه من الديار المصرية، متوجها الى دمشق، فوصلها واجتمعت إليه بها الملوك والعساكر، ثم برز منها طالباً لبلاد الروم لقتال السلطان علاء الدين والاستيلاء على بلاده.

وكان سبب ذلك تعدّي علاء الدين باستيلائه على أخلاط، وتملكه لها فعزم السلطان أولاً على دخول بلاده من جهة الدربندات، فقطع بعضها ثم رأى أن في ذلك خطراً لا تؤمن غائلته، فرجع منها ونزل بالسويداء، ونزل صاحب خرتبرت الى خدمته، وسأله أن يُسيّر معه عسكرياً إلى خرتبرت ليمنعوا صاحب الروم من أخذها، فسّير السلطان الملك المظفر صاحب حمّاه، وشمس الدين صواب في جماعة من الأمراء، فذهبهم عسكر علاء الدين في عالم لا يحصى، فثبت لهم الملك المظفر، وقاتل قتالاً شديداً غير أنه كان في قلعة من العدد، وذلك بالقرب من خرتبرت، فأسر أكثر أصحابه وقتل منهم جماعة، وصعد الملك المظفر في بقية من معه الى قلعة خرتبرت في حمية، وحاصره سلطان الروم مدة، ثم طلب الملك المظفر الأمان فأمنه وأصحابه، وتوجه راجعاً الى السلطان.

سنة اثنتين وثلاثين وستمئة

في هذه السنة رجع السلطان الملك الكامل رحمه الله الى الديار المصرية، وذلك لأنه دخل الشتاء، وحال الثلج بينه وبين بلاد الروم وفي هذه السنة جهز سلطان الروم عساكره الى الشرق، فنازلوا قلعة الرها ونصبوا عليها المجانيق وضايقوها مضايقة شديدة حتى فتحوها، وأخذوا ماكان بها للسلطان الكامل من الذخائر والاموال، وسيروا ذلك

- ١٠٠٥٠ -

الى سلطان الروم، وفتحوا أيضاً قلعة حران، وولوا عليها وحفظوها بالرجال والعدد.

ولما بلغ السلطان ذلك خرج من مصر في عساكره، فقدم الى دمشق، ثم خرج منها هو وأخوه السلطان الملك الأشرف رحمهما الله متوجهين الى المشرق، ولما بلغ عساكر الروم قدوم السلطان كروا راجعين الى بلادهم، ومضى السلطان الى الشرق، ونازل قلعتي حران والرها.

سنة ثلاث وثلاثين وستمئة

في هذه السنة فتح السلطان رحمه الله قلعتي الرها، وحران، وقبض على من كان بها من أصحاب سلطان الروم، فبعث بهم مقيدين الى الديار المصرية، ثم رجع السلطان رحمه الله الى دمشق فأقام بها.

وفي هذه السنة سير سلطان الروم عسكرياً كثيفاً إلى آمد فنازلوها، وصاحبها مولانا السلطان مالك الرق الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل خلد الله ملكه، فلم يظفروا منها بشيء، وقتلهم السلطان الملك الصالح، فأنكى فيهم نكايه عظيمة.

ولما بلغ ذلك السلطان الكامل رحمه الله خرج من دمشق في عساكره، ودخل الشتاء فرجعت عساكر الروم الى بلادهم.

سنة أربع وثلاثين وستمئة

في هذه السنة رجع السلطان رحمه الله الى دمشق، وكان قد بُعد عنها

مقدار ثلاث مراحل، ثم خرج من دمشق متوجهاً الى الديار المصرية.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر غياث الدين ايل غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب، وذلك لعشر مضي من ربيع الأول، فكانت مدة عمره ثلاثاً وعشرين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه عشرين سنة وشهوراً.

سيرته: كان عادلاً كريماً حسن الاعتقاد، لين الجانب، كارها للظلم، متجنباً لسفك الدماء، مائلاً إلى الخير وأهله رحمه الله ورضي عنه.

ولما توفي أُجلس في الملك بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن ايل غازي بن يوسف بن أيوب، وقام بتدبير ملكه وحفظ دولته جدته خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة وقعت وحشة بين السلطانين: الملك الكامل والملك الأشرف رحمهما الله لأشياء باطنة كانت بينهما، لم تقع الاحاطة بتفصيلها، فأدى الأمر في ذلك إلى أن اتفق مع السلطان الملك الأشرف الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص واستمالا الملك الناصر داود صاحب الكرك فمال اليهما أولاً وكاتبهما، ثم فارقهما وتوجه الى السلطان الكامل فالتقاء وأكرمه.

واستمال السلطان الملك الأشرف الملك المظفر صاحب حماه، والحلبين، وعلاء الدين صاحب الروم، والأمير عز الدين ايبك المعظمي صاحب صرخد، فاتفق هؤلاء كلهم وتحالفوا، وتوجهت الى مصر رسل الملك الأشرف، والملك المجاهد، والملك المظفر، والحلبين، فاجتمعوا بالسلطان الملك الكامل وأنهوا إليه رسالة مضمونها أنهم في خدمته،

وتحت طاعته ما أقام بالديار المصرية، ولم يخرج الى الشام لفتح شيء من البلاد.

ثم اتفقت وفاة علاء الدين سلطان الروم في شهر شوال من هذه السنة، فقام بالملك بعده ولده السلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ ابن كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، فسير اليه السلطان الملك الأشرف القاضي شمس الدين الخوئي رسولاً، وسير اليه الملك المظفر صاحب حماه أيضاً رسولاً، وكذلك الملك المجاهد والحلبيون، وتوجه هؤلاء الرسل الى الروم جملة، ومضمون رسالتهم واحدة، وهي: التعزية بأبيه، والتهنئة بملكه، وتجديد ما كان قد تقرر بينهم وبين أبيه، مع الاتفاق عنهم، والحلف لهم.

وفي هذه السنة مرض السلطان الملك الأشرف ولم يزل مرضه في تزَّيُّد الى [أن] خرجت السنة.

سنة خمس وثلاثين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان الملك الأشرف مريض مثقل في مرضه، وقد عهد بالملك بعده إلى أخيه الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل، واستحلف له الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، وعز الدين ايبك المعظمي، وكانا يومئذ بدمشق واستحلف له أيضاً الملك المظفر صاحب حماه والحلبيين، ثم كانت وفاة السلطان الملك الأشرف رحمه الله مظفر الدين أبي الفتح موسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وذلك بكرة يوم الخميس لأربع خلون من المحرم، فكانت مدة ملكه لدمشق ثمان عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام، ومدة ملكه من حين مات أبوه تسع عشرة سنة وشهوراً.

سيرته رحمه الله: كان رحمه الله جواداً مفرط السخاء غزير البذل، كثير الصدقات والبر والاحسان لاسيما في آخر عمره، فإنه أوقف بدمشق وقوفاً جليلة وأثر آثاراً حسنة، ولو لم يكن إلا الجامع الذي أسسه بالعقبة لكان عظيماً قدره، نبيلاً أمره، فإنه رحمه الله عمد إلى خان يعرف بخان ابن الزنجاري تشرب فيه الخمر، وتوَجَّر فيه القيان، فهو من أشهر المواضع بالفسق والفساد وانتهاك الحرمات، فهدمه وصيرهُ جامعاً تقام فيه الصلوات في أوقاتها، ويواظب فيه بقراءة القرآن، وتقام فيه الجمعة، وصار يُعرف بجامع التوبة، ووقف أيضاً داراً لسماع الحديث النبوي، وأوقف عليها، وعلى جامعته وقوفاً عظيمة، إلى غير ذلك من الآثار الحسنة.

ولما مرض مرض وفاته لم يزل ذاكراً الله تعالى بلسانه وقلبه، مستغفراً لما سلف من ذنبه، تائباً متضرعاً مكثراً من تلاوة القرآن إلى أن توفاه الله إلى رضوانه، ونقله إلى ما أعده له من جنانه.

ولنشرع في ذكر الحوادث الكائنة بعد وفاة السلطان الملك الأشرف معتمدين في ذلك على ما نقلناه من رسالة ألفها الفقيه الفاضل العالم عفيف الدين عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلي الحنفي، فإنه لم أكن حاضراً بدمشق يومئذ.

لما توفي السلطان الملك الأشرف تقرر في الملك بعده أخوه الملك الصالح اسماعيل، وتواترت الأخبار بعزم السلطان الملك الكامل قدس الله روحه على التوجه من الديار المصرية إلى الشام، فأخذ الملك الصالح في تحضير دمشق وتهيئة أسباب الحصار، وتوجه الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص إلى بلده، والتزم بإنفاذ الأموال والرجال، ونزل بدمشق ولده الملك المنصور ابراهيم، وتوجه نجم الدين خليل قاضي العسكر رسولاً من الملك الصالح إلى الروم لطلب النجدة والمساعدة،

وتوجه عز الدين أيبك المعظمي إلى صرخد لتدبير أمورها ويعود.

وتزايدت الأخبار بوصول السلطان رحمه الله أن تحقق نزوله بعجلون، فجدد الملك الصالح في تحصين البلد وقطع الأخشاب وعمل السائر.

وكان قد وصل من حلب ستة من أمرائها نجدة للملك الصالح، منهم الناصح الفارسي، وأما الملك المظفر صاحب حماه فإنه راسل السلطان الملك الكامل ورجع إلى طاعته، ووردت إليه كتب السلطان يتطبيب قلبه ووعدته فيها كل وعد جميل.

ولما كان مستهل ربيع الأول تقدم الملك الصالح بأن لا يبقى أحد من الأجناد بظاهر دمشق، وتقدم بأخذ دور كل من هو من أصحاب الملك الكامل، ودور جماعة أيتام وغيرهم، ونودي بأن لا يبقى أحد بالعقبة ولا قصر حجاج وتهددوهم بالنهب، فلقي الناس من ذلك شدة، ثم أمر الملك الصالح بأن يعمل في كل مكان سد وأمامه خندق، واستخدم رجاله كثيرة، وفرق السلاح ورتب الأجناد والأمراء على الأسوار.

منازلة السلطان الملك الكامل دمشق وتملكه لها

ثم وصل السلطان رحمه الله إلى دمشق ونازلها لعشر بقين من ربيع الأول، وعمل اليزك عند مسجد القدم، وشرعت اللاوية في النهب والخراب، ووصل عز الدين أيبك المعظمي من صرخد، ودخل البلد في تلك الأيام، وكان دخوله في يوم شديد على الناس، قال عفيف الدين المقدم ذكره: فلقد رأيت يوم دخوله من باب الفراديس وهو قائم حائر لا يستطيع العبور من الزحمة وشدة الغلبة وأقمشة الناس بعضها على بعض والخيل تدوسها، ولا يستطيع أصحابها منعهم من ذلك.

ودخل عز الدين وحده بعد الشدة ولم يقدر الجمدار الذي له من الدخول معه لفرط الزحمة، وضافت لذلك صدور الناس وأيقنوا بالحصار الشديد، ولزوا في الدخول إلى المدينة وشرعوا في اخراب الخانات بظاهر البلد.

وبقي الأمر على ذلك أياماً، ثم ضرب البوق وخرج العسكر فالتقوا عند ميدان الحصا وأخذ من كل واحد من الفريقين جماعة، وخرج من الرجالة خلق، ثم بعث الملك الصالح يستدعى الملك المجاهد صاحب حمص فاعتذر بأنه خائف على بلاده من صاحب حماه ولم يأت، وسير مئتي رجل نجدة فأخذ بعضهم في البساتين، وسيروا إلى الملك الكامل فشنق منهم في يوم واحد نحواً من خمسين رجلاً، ووصل بعضهم وهم مجروحون، واستمر الخراب والقتال بظاهر دمشق من الدور والخانات والجواسق والقنى، وقطع الأشجار، وصار كل من له غرض مع أحد وهو غائب، خرج إلى داره فأخربها وربما حرقها.

ثم ضرب البوق وخرجت المفاردة فالتقوا عند الميدان من بعد الظهر إلى صلاة المغرب، وأخذ مملوكان من مماليك السلطان وشيخ يقال له الشخوصي، وأصبح الناس يخربون وينهبون، ثم ضرب البوق بعد أيام وخرج جميع العسكر إلى قصر حجاج والتقوا، فكانت الغلبة للدمشقين وأخذوا من العسكر المصري خمسة عشر فارساً من جملتهم سيف الدين ابن الغول، صورة أخذهم أنهم دخلوا خاناً ليأخذوا جمالاً كانت فيه، فغلق عليهم الباب وأخذوا وعُثروا، وعرضوا على الملك الصالح، ولما عرضوا عليه ابن الغول كان عرياناً مكشوف الرأس في أقبح صورة، أنشد:

لا تزدريني بأن ترى خلقي
فلما الدُّرر داخل الصدف

فضحك منه الملك الصالح وأمر بحبسه، ثم أمر جماعة فضمنوه وأخرجوه وأنعم عليه بعد ذلك بخلعه وعشرة دنانير وثلاث، وأعجب شيء جرى لابن الغول هذا أنه لما أغلق عليه وعلى من معه الخان، كان معه كيس فيه دراهم فحلّه من وسطه ودفنّه في الخان، فلما خرج من الحبس وضمنه الجماعة ذهب ونبشه وأخذه.

ولما كان السادس والعشرون من ربيع الآخر ضرب البوق وقت صلاة المغرب الى الصبح، وفُتحت الأبواب، وخرج العسكر فالتقوا في الميدان الى ارتفاع النهار.

وفي ذلك اليوم قتل سيف الدين بن شجاع الدين جلدك من أمراء ديار مصر، وجاؤوا به الى القلعة وبه رمق يسير، فكلمه الملك الصالح فلم يقدر على رد الجواب، ومات في تلك الليلة فغُسل وكُفّن، ثم سُيّر الى العسكر فدفن هناك رحمه الله، وأحرقت في ذلك اليوم مدرسة عز الدين أبيك الورّاقه وتلك الأماكن كلها.

ولما كان مستهل جمادى الأولى ضرب البوق، وزحف الملك الناصر داود صاحب الكرك من العقبية الى أن قارب باب الفراديس، وزحف الأمير ركن الدين اليحياوي من جهة باب توما، ووصلوا الى جسر الباب بحيث كان الشباب يقع في المدينة، وربما قتل بعض العامة في المدينة، ولم يشك أحد في أن المدينة تهجم.

واستمر القتال الى الليل، وفي وسط الليل بعث السلطان الكامل فرحل الملك الناصر من العقبية، ولما أصبح الصباح خرج الملك الصالح بالحجارين والزارقين والحرافشة فحرقوا ونهبوا وخربوا وردموا: العقبية، وقصر حجاج، والشاغور، وباب توما، وباب السلام، واضطرب الناس في

المدينة اضطراباً شديداً خوفاً من أخذها بالسيف، وكان أشد ما على الناس بدمشق الطحين فإن الانسان كان يشتري غرارة القمح بخمسة وعشرين درهماً ويطحنها بثلاثين درهماً، فمنَّ الله سبحانه بالرحمة ودخل محيي الدين بن الجوزي وكلم الملك الصالح في الصلح فأجاب الى ذلك، وعوّضه عن السلطان رحمه الله بعلبك وأعمالها، مضافاً الى ما كان بيده من بصرى وأعمالها، وجمع الله الكلمة، وتم الصلح يوم الثلاثاء لتسع مضيئ من جمادى الأولى، ودخل السلطان رحمه الله الى القلعة في الساعة السادسة من يوم الاثنين منتصف جمادى الأولى، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً مارأى الراؤون مثله في عظمته وجلالته.

ثم تقدم السلطان الى عسكر حلب بأن لا يقيموا بدمشق غير ثلاثة أيام، وعفا عمن خامر عليه، ودخل الى دمشق.

ولما ملك السلطان الكامل دمشق بعث الى الملك المظفر صاحب حماه منشوراً بسلمية، وكانت للملك المجاهد، وأمره بالتبريز إلى جهة حمص لتصل إليه العساكر ويجمعوا على أخذها، فبرز إلى الرستن ونزل به وبعث نوابه الى سلمية فتسلموها، وأمر السلطان الملك الكامل عساكره بالنزول في ظاهر حماه، فنزلوا بالقابون، وبعث الملك المجاهد أهله الى دمشق يلتمس الصلح وبذل جملة عظيمة من المال فنزل أهله بالقصر، ولم يؤذن لهم في الدخول الى دمشق، وكان المتولي لأمرهم والساعي في الصلح بينهم الأمير سيف الدين بن قليج.

وجهز السلطان رحمه الله في تلك الأيام العساكر الى خدمة مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين خلد الله ملكه، نجدة له على حرب التتر، وجعل المقدم عليهم الملك المظفر تقي الدين بن الملك الأجد صاحب بعلبك وأخاه الملك السعيد.

وفاة السلطان الملك الكامل رحمه الله

واتفق مرض السلطان الملك الكامل قدس الله روحه، وتمادى به المرض واشتد إلى أن اختار الله له ما عنده، وقبضه إليه، وتوفاه، وكانت وفاته يوم الأربعاء آخر النهار، ودفن في غده يوم الخميس في الساعة الثانية منه، وذلك لتسع بقين من شهر رجب وإحدى عشرة ليلة مضت من آذار، ولست عشرة ليلة مضت من برمهات، وكانت مدة ملكه لدمشق شهرين وإحدى عشرة ليلة، ومدة ملكه من حين توفي أبوه عشرين سنة وشهراً، وكان بين موته، وموت أخيه الملك الأشرف رحمه الله ستة أشهر وستة عشر يوماً، وكانت مدة ملك الملك الصالح اسماعيل من هذه المدة أربعة أشهر وخمسة أيام، ومن العجب أنه ملك دمشق في هذه المدة أربعة ملوك أولهم الملك الأشرف، وآخرهم الملك الجواد بن مودود.

سيرته رحمه الله:

كان السلطان الشهيد الملك الكامل رحمه الله ملكاً عظيماً، حسن التدبير جيد السياسة، فاضلاً عالماً محباً لأهل العلم مائلاً إليهم، وكانت له هبة عظيمة في قلوب أعدائه، وكانت السبل في أيامه آمنة لكثرة قمعه المفسدين، وردعه لهم ومعاقبتهم بأشد العقوبة بحيث كان المتوجه إلى الديار المصرية والخارج منها يمر في تلك الرمال المقفرة والبراري الموحشة مع بعدها عن العمارة من غير حاجة إلى أنيس أو خفير، ويحمل معه من الذهب والفضة ما أراد فلا يتعرض له أحد من قطاع الطريق، ولا يخاف إلا الله تعالى، وليس سبب ذلك إلا حُسن سياسة السلطان وجودة ضبطه للأمور، وآتاه الله ما لم يؤت أحداً من ملوك أهل زمانه، وخافته ملوك الأرض قاطبة، ثم زال ذلك كأن لم يكن فسبحان الباقي في ملكه الدائم في سلطانه.

- ١٠٠٥٩ -

ولو خَلَدَ الملك العقيم حُلاًحلاً
حوى الملك وانقادت الى أمره الأمم
لَخَلَّدَ فينا الكامل الملك الذي
له خضعت غُلُبُ الممالك والقمم
وحسن قضاء الله ماعنه معدلاً
ولا موجدل مما به الله قد حكم
فمن بعده حار الدليل وأظلمت
مسالك آمال العزائم والهمم
ونادى لسان الحال جهراً وقد دجى
صباح المعالي وانقضت دولة الكرم
فمن لبني الآمال بعد محمد
فقلت لهم أيوب قالوا: نَعَمْ نَعَمْ
صدقنا وأبداً فرحةً ومسرَّةً
وعادوا الى ما عودوه من النعم
وما كان إلا الشمس غابت وقد بدا
لنا بعده بُدْرٌ جالاً الشك والظلم
فحُسْنٌ وحُزنٌ ترحمةً قبل فرحة
بذل الملك الباقي وذاك الذي انصرم
فلا بَرَحَ الباقي سعيداً مُخَلِّداً
وجاء ثرى الماضي حياها طِلَّ الدَّيَمِ

فرحم الله السلطان الملك الكامل وقدس روحه، فلقد رزىء الاسلام
بمماته، وفات الأمن بوفاته، وأبقى ولده مولانا السلطان العالم العادل
مالك الرق الملك الصالح نجم الدنيا والدين، ما اختلف العصران،
وتعاقب الحديدان، مظفراً على أعاديه، وأضداده، فائزاً بمتهى أربه،
وغاية مراده.

ذكر الحوادث الكائنة بعد السلطان الملك الكامل قدس الله روحه

ولما توفي السلطان الملك الكامل رحمه الله كان ولده مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبو الفضل أيوب أعز الله أنصاره بالبلاد الشرقية، وهي البلاد التي كانت بيده في حياة والده، وكان ولده الملك العادل سيف الدين أبو بكر بالديار المصرية، وكان بدمشق ابنا أخيه الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل، والملك الناصر، فاجتمعت كلمة الأمراء على أن يقرر الملك الجواد بدمشق نائباً عن الملك العادل وقائماً مقامه بالبلاد الشامية، فدخل القلعة وأحضر الأمراء واستحلفهم قاطبة للملك العادل، وبذل فيهم أموالاً كثيرة، وكان الملك الناصر بداره المعروفة بعز الدين سامة، فخرج منها إلى قصره بالقابون، فأقام به مديدة، ثم توجه إلى بلاده، وسير الملك الجواد الحلقة وأكثر الأمراء إلى الديار المصرية، وترك بقية العسكر عنده مع عسكر دمشق.

واتفق أن الملك الناصر نزل إلى البلاد الساحلية، ووضع يده على غلاتها وشحنها، وجمع العساكر واستخدم وانضمت إليه طائفة عظيمة من العربان والألوية، وعزم على قصد دمشق وتملكها، ونزل بغزة.

ولما بلغ ذلك الجواد خرج من دمشق فيمن كان عنده من العساكر المصرية والدمشقية، وأمد الملك الصالح صاحب بعلبك بعسكر، ونزل إليه عز الدين أيوب بنفسه، ومضى الملك الجواد إليه إلى عين جالوت فنزل بها، فقصده الملك الناصر في جمع قليل من أصحابه، وأكثر عسكره متفرقون في أخبازهم، فأوقع بهم عسكر دمشق على غرة قريباً من سبسطية في العشر الأوسط من ذي الحجة، فهزموهم وأخذوا جميع ماكان معهم من الأثقال والأموال.

ووصل الملك الجواد الى نابلس فنزل بها خجياً وشحن عليها، ولم يزل مقيماً بها الى آخر السنة، وفارقتة العساكر المصرية وتوجهوا الى الملك العادل.

وأما الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور صاحب حمه أبقاء الله فإنه بلغه وفاة خاله السلطان الملك الكامل قدس الله روحه، وهو مقيم بالرستن في مقابلة الملك المجاهد صاحب حمص، فرجع الى حمه وأقام بها العزاء بالجامع الأعلى، وظهر عليه من الحزن والأسف ما يتجاوز الوصف والحد، إذ كان الملك المظفر للسلطان رحمه الله بمنزله الولد حنواً عليه واشفاقاً به ومحبة له.

ولما بلغ الملك المجاهد وفاة السلطان رحمه الله، بعث ولاته الى سلمية فوضعوا أيديهم عليها، وشرع في الإغارة على بلد حمه واخلاب ضياعها، واراد قطع النهر العاصي عنها فلم يتمكن إلا من قطع بعضه مدة ثلاثة أيام، ثم رجع قسراً بعد أن خرب لصاحب حمص مواضع كثيرة من أراضيه وضياعه.

ولما بلغ الحلبيين وفاة السلطان رحمه الله وصل عسكرهم الى المعرة، فاستولوا عليها، وأخذوا ما وجدوه بها من الخواصل، وإنما فعلوا ذلك لميل الملك المظفر عنهم الى السلطان رحمه الله، ونصرته له، وانتمائه اليه، ثم نازلوا قلعة المعرة وحاصروها حصاراً شديداً وضربوها بالمجانيق ثم فتحوها بالعشر الأخير من شهر شعبان بعد أن قتل من الحلبيين عليها جماعة كثيرة.

وقبيل فتحهم لها أوقع أصحاب الملك المظفر بجماعة من عسكريهم المقيمين بشيزر بين شيزر وكفر طاب وقعة عظيمة، أخذ فيها منهم جماعة كبيرة أسرى، وأدخلوا الى حمه في أقبح صورة، وقد أثخن فيهم الجراحات، وانهزم الباقون الى شيزر، وقد كاد الرعب أن يقضي عليهم.

ولما دخل شهر رمضان اجتمعت العساكر الحلبيون كلهم بشيزر، وأخذوا في الإغارة على بلد حماه، وإخراجه ضياعها ونهب زراعاتها، وفي كل مرة يقتل منهم الملك المظفر قتلاً عظيماً، ويهزمهم أقبح هزيمة، ثم يشن الغارات على بلادهم ورساتيقهم فينال منهم أضعاف ما نالوا منه.

ولم يزل الأمر مستمراً على ذلك إلى آخر شهر رمضان، ولما دخل شهر شوال جاء العسكر الحلبي إلى حماه فنزلوا قريباً منها من جهة الشمال، واستمر القتال بينهم وبين الملك المظفر، وفي كل وقعة ينتصف منهم ويظهر عليهم هذا مع ضعف جنده، وقلة عددهم وقوة عدوه، وكثرة مددهم، ولو كان معه مثل ربيعهم لم يثبتوا قط في مقابلته.

واستمرت الحرب والمقاتلة بين الفريقين إلى آخر السنة، ثم رجعوا عنه إلى بلادهم وقد يشوا من بلوغ مرادهم وأما الجواد^(٢٥)... لكائنة بالشرق في هذه السنة، فإن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قصد سنجار مريداً حصارها، وبها مولانا السلطان مالك الرق الملك الصالح خلد الله ملكه، فنازلها عسكر الموصل وزحف إليها.

وبينما هم في ذلك وقد حدثتهم أنفسهم بما لم يظفروهم القدر به إذ أتت إليهم عساكر مولانا السلطان المعروفون بالخوارزمية، وهم عالم لا يحصى ولا يعد ولا يحصر ولا يحد، فرحل عسكر الموصل خائبين وولوا على الأعقاب منهزمين، واستأذنت الخوارزمية مولانا السلطان في قصدهم ومقابلتهم ومفاجأتهم بالمحاربة ومناجزتهم، فأذن لهم فأوقعوا بهم وقعة طبق آفاق الدنيا ذكرها، وطاب خبرها للأسماع، كما راق الأخبار بصرها، فاستولوا على جميع ما كان معهم من الأثقال ونفائس الذخائر والأموال.

ثم جرت بين المواصلتين وبين مولانا السلطان مراسلات آخرها أنهم انقادوا لأوامره ومراسمه تابعين، ودخلوا في الطاعة فظلت أعناقهم لها

خاضعين، وكانت هذه الواقعة من الوقائع الغريبة، بل من أقوى الدلائل على سعادات مولانا العجيبة، وكانت نفوس أوليائه أعز الله نصره متحقة من لطف الله أنه ولا بد وأن سينصره، ومستشهدة بما سلف لهم من معجزات سعه الباهر أنه على أعدائه انه سيظهره، لكنهم أحبوا تعجيله ليجتمع لهم مع رؤية القلب رؤية البصر فإن الاعتقاد وإن كان يقيناً، لكنه ليس كالنظر.

سنة ست وثلاثين وستمئة

في هذه السنة ورد الأمر من مصر الى الملك الجواد بالرحيل عن نابلس [فقام] بالرحيل عنها متوجها الى دمشق، ورجعت إلى نابلس ولاية صاحبها الملك الناصر داود، ووصل الملك الجواد الى دمشق في مستهل صفر.

كسرة الروم

وفي هذه السنة خرجت عساكر سلطان [الروم] في عالم عظيم مُدِيلين بزعمهم الإيقاع بالخوارزمية ليمنعوه من إنجاد الملك المظفر صاحب حماه، فأوقعت بهم الخوارزمية وقعة عظيمة، أقر الله بها عيون أولياء مولانا السلطان بما منحه فيها من الظفر والفتح، وشرح قلوباً من أوليائه استعجم عليها الأمر، فاحتاجت إلى الشرح، وأوضح للراسخين في العلم بسعادة مولانا الفراسة ونسج آمال الأضداد فنسوها فاعجب لقلوب تنسيها الدراسة.

وفي هذه السنة قدم الأمير عماد الدين ابن شيخ الشيوخ من مصر

رسولاً الى الملك الجواد، فأنزل بالقلعة بدار المسرة، وكان مضمون رسالته فيما شاع على الألسنة طلب تسليم دمشق الى نواب الملك العادل على أن يعوض الملك الجواد خبزاً بمصر، وأن يخرج الملك المجاهد صاحب حمص من دمشق وكان بها، وأن يُطالب بحمل ماكان بذلة للسلطان الملك الكامل قدس الله روحه، فلم تقع الإجابة إلى ماطلب.

- وكاتب الملك الجواد ابن عمه مولانا السلطان مالك الرق الملك الصالح خلد الله ملكه، وسأله سرعة القدوم، فسار إليها خلد الله ملكه، والتقاء الملك المظفر صاحب حماه في عسكره، وسار في خدمته الى دمشق، وذلك في العُشر الأخير من جمادى الأولى.

وفي يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الأولى وثب على الأمير عماد الدين بن الشيخ ثلاث نقر، وقد خرج من دار المسرة يريد التنزه بظاهر البلد فقتله أحدهم غيلة، ثم قبض عليهم بعد أن جرح القاتل جراحة مشخنة، واعتقلوا وذلك وقت العصر من اليوم المذكور.

وفي غدوة هذا اليوم، توجه صاحب حمص الى بلده وكانت مدة مقامه بها قريباً من ستة أشهر، ولما كان يوم الجمعة لليلة بقيت من الشهر وهو السابع من كانون الثاني أقيمت الخطبة بدمشق لمولانا السلطان الملك الصالح مالك الرق خلد الله ملكه، ونثر نثراً كثيراً، فتزينت بذكره المنابر وانجلت بملكه ظلمات الظلم، وشمس العدل تجلت.

**استيلاء مولانا السلطان الملك الصالح العالم العادل
مالك الرق خلد الله ملكه على دمشق**

ولما كان يوم الأحد مستهل جمادى الآخرة وصل السلطان الملك

الصالح الى دمشق ودخلها في الساعة الخامسة من النهار في أكمل زي وترتيب، وزينت البلدة لقدمه بكل نفيس من الزينة وغريب، فالحمد لله على مامن به من هذه الدولة التي شيّد بها منار الكرم والعدل ونفقت في زمنها بضائع الأدب والفضل.

وكان يوم دخوله الى القلعة يوماً مشهوداً، أقرّ الأعين، وأبهجها وشرح الصدور وأثلجها، فياله من يوم ماكان أحسن موقعه من قلوب الأولياء وأشدّه إرغاما لمعاطس الأعداء، فتشرفت بملكه أعز الله نصره الممالك وزاد بهاؤها وتشربت به السلطنة وأشرق ضياؤها.

ذكر بعض مناقب مولانا السلطان الملك الصالح خلد الله ملكه، وفضائله

إن الله تعالى وَلَهُ الْمُنَّةُ، قد جمع لمولانا السلطان الملك الصالح العالم العادل نجم الدنيا والدين أعز الله أنصاره، وضاعف اقتداره، من الصفات الجليلة، والأفعال الجميلة، وكرم الاخلاق، وطيبة الأعراق، وفرط السخاء، والبذل، وحسن السياسة والعدل، وصحة الطويّة، وخلاص النية، والشجاعة التي تضرب بها الأمثال، وتفرّق لها في حومة الوغى الأبطال، مافاق به سائر ملوك العصر، بل جمع من سلف من الملوك على تقادم الدهر فهو أحق بقول السلامي:

يزورنالك العافي وصارمك الـ

عاصي فتحويها أيـد وأعناق

في كل يوم لبيت المجد منك غنى

وثرورة وليست المال إملاق

كم خُفت من لجة للنقع زاجرة

ماء المنون بها حاشاك دفساق

في فتية من ليوث الحرب قد حفظت
بالمهفات لهم في الروع أرماق،
من كل يعمل حياة ولا يعاقدها
إلا على أنسه في الحرب مطلاق
إمام كل خميس يوم كل وغى
كانه في سطور الخيل إلحاق
ثم أين شئت من الدنيا تنله فما
للبر عرض ولا للبحر أعماق
من شك أنك مخلوق لتملكه
كمثل من شك أن الله خلاق
فللسماء سماء من علاك ولألف
ساق من ذكرك المحبوب آفاق

فأما الكرم فقد جدده بعد أن درس معناه واعتقد أنه لفظ لم يخرج إلى
الوجود قط معناه، فأفاض عليه الدعة منذ وليهم سيب نواله، وعمهم
بمترادف برده وجزيل أفضاله، وأما الشجاعة فقد بلغ منها أعز الله نصره
غاية لا يبلغ قط مداها ولا يدرك أبد الدهر متهاها.

وأما العدل فقد أنسي به كسرى صاحب الايوان، وأما حسن السياسة
فقد نسخ بها ماسطر في الكتب عن ملوك الزمان، فهو خلد الله ملكه إذا
كان غيره من الملوك مستغرقاً في القيان والمعاظف كان مشغولاً بالعلوم
والمعارف، وإن أفنوا أوقاتهم بالخمر والقمر، أنهى أوقاته بالنهي والأمر.
ملك إذا ألهى الملوك عن النهى
خمار وخمرها جر الدل والدنا
ولم تنسه الأوتار أوتار فتنة
إذا مادعاه السيف لم يدعه المشى
ولو جاد بالدنيا وعاد بضعفها
لظن من استصغارها أنه ضنا

- ١٠٠٦٧ -

ولا عيب في أنعامه غير أنه
إذ آمن لم يتبعه - وأهبطه ربنا
ولا عيب في إقدامه غير أنه
لبس إلى أعدائه الضرب والطعنا

ولو لم يكن من صفاته الحسنة الحميدة ومآثره الرضية السديدة إلا
مواظبته على الصلوات المفترضة ومحافظته على آدابها في جميع الحالات،
وتجنبه لارتكاب الفواحش المحرمات، وعفته التي توجب له عند خالقة
تعالى أسنى الرتب وأرفع الدرجات، لكفى بذلك سؤدداً، ونبلًا وشرفاً
وفضلاً، فلقد حدثني لخير واحد ممن أثق به أنه خلد الله ملكه ما ترك
صلاة مفترضة ولا آخرها عن وقتها، ولو كان في مجلس لهوه، ولا ارتكب
فاحشة مذنباً إلى يومنا هذا، فأوجب لي هذا والله لما سمعته طرباً،
وقضيت لما حكى لي عجباً، إذ لم أسمع بمثل ذلك عن ملك شاب من
الملوك الماضين، ولا أحد من السلاطين المتقدمين، فله هو ما أشرف هذه
الحالة الرضية، وما أشد صفاء هذه النفس الزكية، واعلم إننا إن رمنا
استقصاء مآثر مولانا السلطان خلد الله ملكه لكنا قد رمنا حصر
مالانهاية لعدده ولا مطمع في بلوغ غاية أمدده، فليكن هذا آخر ما أردنا
اثباته في هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد
 وآله وسلم

وكان الفراغ من....

حواشي وفيات الأعيان

- ١- أي كيس للذهب أو الفضة
- ٢- ديوان ابن عنين - ط. دار صادر بيروت ص ٣ - ٨
- ٣- توفي أتر قبل استيلاء نور الدين على دمشق.
- ٤- ديوان البحري - ط. دار صادر - بيروت ج ١ ص ٤٣٥
- ٥- اديم مقروظ : دبغ أو صبغ بالقرظ، وهو ثمر السنط. أو ورق السلم القاموس
- ٦- مشهورة قصة مؤامرة الخوارج لاغتيال كل من الامام علي كرم الله وجهه، ومعاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص، وفي الموعد المحدد لاغتيال عمرو لم يخرج الى المسجد وناب عنه القاضي خارجه، فتعرض للاغتيال، وحين واجه الخارجي عمرو بن العاص، وعرف ما حدث قال : اردت عمراً ، واراد الله خارجة.
- ٧- ليست في ديوانه المطبوع
- ٨- ديوان سبط ابن التعاويذي - ط. دار صادر بيروت ص ٤٧١ - ٤٧٣
- ٩- ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤٢٠ - ٤٢١ .
- ١٠- ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٢ - ٢٣ .
- ١١- ديوان النابغة الذبياني - ط. دار صادر بيروت ص ١١ .
- ١٢- ديوان بهاء الدين زهير - ط. دار صادر بيروت ص ١٩٠ ،
- ١٣- ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٣ .
- ١٤- ديوان بشار بن برد - ط. بيروت ١٩٩٣ ص ٦١٢ .
- ١٥- ديوان المتنبي - ط. بيروت ١٩٦٩ ص ٢١٣ .

- ١٠٠٦٩ -

١٦-ديوان ابن عبدون - ط . بيروت ١٩٨٨ ص ١٣٩ - ١٤٤ هذا وشرح قصيدة ابن عبدون أكثر من شارح، ولعل أهم الشروح وأوفاهها، ما قام به ابن الأثير الحلبي، وحمل شرح ابن الأثير عنوان « عبدة أولي الأبصار في ملوك الأمصار » وجرى تحقيق هذا الشرح في رسالة ماجستير قدمت باشراف في كلية الآداب في جامعة دمشق عام ١٩٩٢ .

حواشي تاريخ المنصوري

- ١- المرجع عدم التقاء ابن تومرت بالغزالي.
- ٢- تفاصيل ذلك لدى ابن القلانسي ص ٣٥١-٣٥١ .
- ٣- سونج بن بوري اعتقله زنكي ثم أطلقه مقابل تسليمه ديبس بن صدقة. ابن القلانسي ص ٣٦٦-٣٦٧ .
- ٤- كذا وهو وهم، فنور الدين بدأ نشاطه بعد مقتل أبيه في العام التالي.
- ٥- كذا وهو وهم، حيث أسر سنجر من قبل كافر ترك سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م في خراسان، وبقي في الأسر ثلاث سنوات، هرب بعدها، ووصل إلى مرو حيث توفي بعد وقت قصير. انظر زبدة التواريخ لأبي الحسن علي بن ناصر الحسني - ط لاهور ١٩٣٣ م ص ٨٤-٩٦ .
- ٦- بويج المستنجد في سنة خمس وخمسين وخمسة.
- ٧- أي التراب والغبار.
- ٨- بركة ألجب خارج القاهرة في الجبهة البحرية منها.
- ٩- أي على ماردين لمتابعة حصارها.
- ١٠- حصن منيع في اليمن هو ومدينة دملوه خرائب وأطلال. معجم المدن والقبائل اليمنية. ط. صنعاء ١٩٨٥.
- ١١- حب حصن من أمنع معاقل اليمن وأصعبها مرتقى. معجم المدن والقبائل.
- ١٢- مدينة تهامية كانت قائمة بالشرق من الزيرية على شط ميزاب وادي سرود، وكانت تعد قديماً عاصمة تهامة الشمالية. معجم المدن والقبائل اليمنية.
- ١٣- بلدة وناحية دون زبيد. معجم البلدان.
- ١٤- كذا بالأصل، وفي معجم ياقوت «الجنابذ ناحية من نواحي نيسابور» ولعل الاسم تصحيف «الجنات» وهي بلدة في جبل الصلو شمال الدملوه. معجم المدن والقبائل اليمنية.
- ١٥- لم أقف على معنى هذه الكلمة، ولعلها بعض الأشياء المصنعة من الجلد.

- ١٠٧١ -

١٦- باشزا بين جزيرة ابن عمر ونصيبين. معجم البلدان.

١٧- هي نيسابور الايرانية.

١٨- هي عند ياقوت «اندخوذ» بين بلخ ومرو.

١٩- السلامية أكبر قرى الموصل ينسب إليها أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن أحمد السلامي المعروف بضياء الدين ابن شيخ السلامية، ولد بها بسنة ٥٤٦ أو ٥٤٥، ونشأ بالموصل وتفقه بها وحفظ القرآن، عمل وزيراً لصاحب آمد، وكان حياً سنة ٦٢١. معجم البلدان.

٢٠- بلد بين الساحل وحصن. معجم البلدان.

٢١- كانت قلعة رياح من أعمال طليطلة. معجم البلدان.

٢٢- هي تستر أكبر مدن خوزستان. معجم البلدان.

٢٣- هي في أطراف شمال الصين.

٢٤- عند النسوي في سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٣٩ «الترجمي» هو اسم قبيلة جنكيز خان، ويتضح من سياق رواية المؤلف بعض التداخل في الأسماء.

٢٥- الجتر كلمة فارسية تعني المظلة، وكانت تشبه القبة من الحرير الأصفر المزركش على رأسها طائر من الفضة طلي بالذهب، وهي شعار السلطنة. النسوي ص ٥٤.

٢٦- فراغ بالأصل، استدرك من سياق ماتقدم من أخبار سنة سبع عشرة وستمائة.

٢٧- كذا بالأصل وهو تصحيف صوابه «التهتائي». انظر الحلل الموشية ص ١٦٠.

٢٨- البشنوني هو يسدرو الثاني ملك أراغون. والنبري هو سانجو السابع. وولد الرنك هو ألفونسو هينر بكيز ملك البرتغال، والبابوج هو ألفونسو التاسع ملك ليون.

٢٩- من أنواع الياقوت الفاخر.

٣٠- فخر الدين بن تيمية، له ترجمة في وفيات الأعيان لابن خلكان.

٣١- الأشكري هنا هو الامبراطور البيزنطي.

٣٢- قلعة شرقي حلب، وهي الكختا.

٣٣- من الملك المعظم والملك الأشرف.

- ٣٤- الامبراطور فردريك الثاني.
- ٣٥- كذا بالأصل وهو وهم لأن جلال الدين حسن توفي سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م وخلفه علاء الدين محمد [٦١٨-٦٥٣/١٢٢١-١٢٥٥].
- ٣٦- لعلها سكبا ناباذ التي ذكر النسوي في سيرة جلال الدين ص ٢٦٠ وصول الحاجب علي إليها.
- ٣٧- من قلاع أرمينية. معجم البلدان.
- ٣٨- نخوي من أعمال أذربيجان. معجم البلدان.
- ٣٩- وظيفته أمير جاندار تشبه وظيفة الحاجب فهو الذي كان يستأذن للأمراء بالدخول على السلطان.
- ٤٠- أرزنجان بلدة قرية من خلطاط. معجم البلدان.
- ٤١- هو يوهان دي أبلين.
- ٤٢- بلدة من أعمال خلطاط.
- ٤٣- الدويدار هو حامل الدواة وحافظها لدى السلطان أو الخليفة أو الملك.
- ٤٤- حماسة أبي تمام. ط. القاهرة ١٣٢٩ ج ١ ص ١٠ .
- ٤٥- قلعة حصينة في أذربيجان. معجم البلدان.
- ٤٦- قلعة قطور قرب تبريز.
- ٤٧- رخت كلمة فارسية معناها المتاع.
- ٤٨- بلدة بالجزيرة. معجم البلدان.
- ٤٩- ديوان المتنبي. ط. بيروت ١٩٥٨ ص ٣٣٣ .
- ٥٠- إحدى قرى حلب. معجم البلدان.
- ٥١- أي الذي يضرب له الطبل، أي القيادة له.
- ٥٢- التلاكش فارسية معناها الجمعاب.

- ١٠٠٧٣ -

٥٣- بلد من نواحي خلاط. معجم البلدان.

٥٤- هي عند النسوي في سيرة جلال الدين ص ٢٧٥ «نوشهر» أي المدينة الجديدة، والمقصود بها نيسابور.

٥٥- الدوشاخ قائد قطعة عسكرية.

٥٦- قلعة قرب آمد.

٥٧- طمس بالأصل والقراءة تقديرية.

٥٨- في هامش الأصل: «وكان الملك الكامل قد عزم على إخراج الحصون التي تسلمها لآمد، فخرّب قلعة الجبابة وأكل، فلما اتفق قضية كركر مع الرومي، رأى ترك الحصون إلى وقت آخر، وصوب الناس رأيه في ذلك. صح».

٥٩- بابلوا من القلاع التابعة لآمد.

- ١٠٠٧٤ -

حواشي التاريخ الصالحى

- ١ - كذلك المعروف ان الذي خلف رضوان هو ابنه ألب أرسلان المعروف بالأخرس.
- ٢ - المرجح أن مسعودا كان قد توفي وأنها ذهبا للسعي بثبيت جاولي
- ٣ - بالأصل «حلب» وهو خطأ صوابه الذي أثبتناه.
- ٤ - المراد بمعين الدين هو «أنر» الذي دبر أمور دمشق، وليس هناك ما يؤكد وجود أخوة بينه وبين مجير الدين.
- ٥ - هذا هو الصحيح، لأن ألب أرسلان، كان قد قتل إثر فتكه بجقر أيام زنكي.
- ٦ - كذا بالأصل، وهو رقم خيالي، ولعل العدد لم يتجاوز السبعة آلاف.
- ٧ - سورة النحل - الآية: ٩١.
- ٨ - في هامش الأصل: قال الناظر في هذا الكتاب كانت دولة خلفاء بني فاطمة بالمغرب ومصر مائتي سنة وست وستين سنة، بمصر مائتي سنة وثمانين سنة.
- ٩ - في هامش الأصل: كذبت في لحيتك يا كافر يا فاسق آل بيت الرسول زنادقة ١٩ لا والله ما فعل خير في حق أهل البيت، ولكن الله هو الفاعل المختار، والله أعلم.
- ١٠ - الممدوح هو الخليفة المعز لدين الفاطمي، والممدوح هو ابن هانيء الأندلسي. انظر ص ١٤٦ من ديوانه - ط . دار صادر بيروت.
- ١١ - سورة النازعات - الآية: ٢٤.
- ١٢ - تبعد بقايا رقاد عن القيروان قرابة العشرة أميال.
- ١٣ - طمست جل مواد هذه الصفحة بالأصل المخطوط.
- ١٤ - ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٣٦ - ٢٣٩.
- ١٥ - أي تفرق الكلمة وذهاب العز. القاموس.
- ١٦ - سورة النمل - الآية: ٣٠.
- ١٧ - باشزى: بلدة من كورة بقعاء الموصل، قرب برقعيد، بين جزيرة ابن عمر ونصيبين. معجم البلدان.

- ١٠٠٧٥ -

١٨ - كانت بورة حصننا على ساحل البحر من عمل دمياط، اسمها الآن كفر البطيخ. معجم البلدان، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية لمحمد رمزي - ط. القاهرة ١٩٩٤ ج ٢ ق ٢ ص ٧٨ - ٧٩.

١٩ - بلدة بمصر من جهة دمياط. معجم البلدان. رمزي ج ٢ ق ٢ ص ٨٦.

٢٠ - كذا بالأصل، وفي مفرج الكروب ج ٤ ص ١٣٨ «قطنه» وفي كل من ذيل الروضتين ص ١٣٣، ومرآة الزمان ج ٢ ص ٦٢٥ «ضمير» وهذا أقرب إلى الصواب، وعندهما كان ذلك سنة ٦٢٠.

٢١ - سنيذ: بلد على ساحل بحر فارس أقرب إلى البصرة من سيراف، وتقرب من جنابة. معجم البلدان.

٢٢ - في مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٣٦: «أفضت الخلافة إليه وله اثنتان وخمسون سنة إلا شهوراً، فقليل ألا تفتتح [أي تزوج]؟ فقال: قد فات الزرع، فقليل له: يبارك الله، فقال: من فتح دكانا بعد العصر [يش يكسب].»

٢٣ - إبلستين: مدينة مشهورة ببلاد الروم (سلاجقة الروم) معجم البلدان.

٢٤ - هي قلعة بانياس الداخل، ويطلق عليها الآن اسم «قلعة النمرد»

٢٥ - سقط - كما يبدو - من الأصل مالا يقل عن ورقة. انظر مفرج الكروب ج ٥ ص ١٧٤ - ١٨٧.

- ١٠٠٧٦ -

المحتوى

توطئة	-٣
من وفيات الاعيان	-١٠
أرقق بن أكسب	-١٠
أرسلان البساسيري	-١١
أرسلان شاه بن مسعود	-١٣
آق سنقر قسيم الدولة	-١٤
آق سنقر البرسقي	-١٥
تتش بن ألب أرسلان	-١٧
توران شاه بن أيوب	-٢٠
داود بن صلاح الدين يوسف	-٢٤
دبيس بن صدقة	-٢٥
زنكي بن آق سنقر	-٢٨
زنكي الثاني	-٣٠
شيركوه بن شادي	-٣١
طغتكين بن أيوب	-٣٤
طلائع بن رزيك	-٣٦
عثمان بن صلاح الدين	-٤١
الظاهر الفاطمي	-٤٤
القائز الفاطمي	-٤٦
المعظم الأيوبي	-٤٩
عيسى الهكاري	-٥٢
غازي بن زنكي	-٥٤
غازي بن قطب الدين	-٥٥
غازي بن صلاح الدين	-٥٧
قراقوش الأسدي	-٦٣
كوكبري بن علي	-٦٥
العادل الأيوبي	-٧٣
الكامل الأيوبي	-٧٨
محمود بن محمد بن ملكشاه	-٨٨
نور الدين الشهيد	-٩٠
مسعود بن قطب الدين	-٩٤
الأمر بأحكام الله الفاطمي	-١٠٠
مودود بن زنكي	-١٠٣
الأشرف الأيوبي	-١٠٥

- ١٠٠٧٧ -

ياروق بن أرسلان	-١١١
بهاء الدين ابن شداد	-١١٢
صلاح الدين يوسف بن أيوب	-١٣١
من تاريخ ابن أبي الدم	-٢١٠
سنة ٤٩٠	-٢١٢
سنة ٤٩١	-٢١٢
سنة ٤٩٢	-٢١٢
سنة ٤٩٣	-٢١٣
سنة ٤٩٤	-٢١٣
سنة ٤٩٥	-٢١٣
سنة ٤٩٦	٢١٣
سنة ٤٩٩	-٢١٤
سنة ٥٠٠	-٢١٣
سنة ٥٠١	-٢١٥
سنة ٥٠٣	-٢١٥
سنة ٥٠٥	-٢١٥
سنة ٥٠٧	-٢١٦
سنة ٥٠٨	-٢١٧
سنة ٥٠٩	-٢١٧
سنة ٥١٠	-٢١٧
سنة ٥١٢	-٢١٧
خلافة المسترشد بالله	-٢١٨
سنة ٥١٣	-٢١٨
سنة ٥١٤	-٢١٨
سنة ٥١٥	-٢١٩
سنة ٥١٦	-٢١٩
سنة ٥١٧	-٢١٩
سنة ٥١٨	-٢٢٠
سنة ٥٢٠	-٢٢١
سنة ٥٢٢	-٢٢٢
سنة ٥٢٣	-٢٢٢
سنة ٥٢٤	-٢٢٣
سنة ٥٢٥	-٢٢٣
سنة ٥٢٦	-٢٢٤
سنة ٥٢٧	-٢٢٤
سنة ٥٢٨	-٢٢٥
سنة ٥٢٩	-٢٢٦
خلافة الراشد بالله	-٢٢٧
سنة ٥٣٠	-٢٢٧
خلافة المقتفي لأمر الله	-٢٢٨
سنة ٥٣٢	-٢٢٩

- ١٠٠٧٨ -

سنة ٥٢٢	-٢٢٩
سنة ٥٢٤	-٢٢٩
سنة ٥٢٥	-٢٢٩
سنة ٥٣٧	-٢٣٠
سنة ٥٣٨	-٢٣١
سنة ٥٣٩	-٢٣١
سنة ٥٤١	-٢٣١
سنة ٥٤٣	-٢٣١
سنة ٥٤٤	-٢٣١
سنة ٥٤٥	-٢٣٢
سنة ٥٤٦	-٢٣٢
سنة ٥٤٧	-٢٣٣
سنة ٥٤٨	-٢٣٣
سنة ٥٤٩	-٢٣٣
سنة ٥٥٠	-٢٣٤
سنة ٥٥٢	-٢٣٤
سنة ٥٥٣	-٢٣٥
سنة ٥٥٤	-٢٣٦
سنة ٥٥٥	-٢٣٦
خلافة المستنجد بالله	-٢٣٧
سنة ٥٥٦	-٢٣٨
سنة ٥٥٧	-٢٤٠
سنة ٥٥٨	-٢٤٠
سنة ٥٥٩	-٢٤١
سنة ٥٦٢	-٢٤٢
سنة ٥٦٣	-٢٤٢
سنة ٥٦٤	-٢٤٣
سنة ٥٦٥	-٢٤٦
سنة ٥٦٦	-٢٤٦
خلافة المستضيء بأمر الله	-٢٤٧
سنة ٥٦٧	-٢٤٧
سنة ٥٦٨	-٢٤٨
سنة ٥٦٩	-٢٤٨
سنة ٥٧٠	-٢٤٩
سنة ٥٧١	-٢٥٠
سنة ٥٧٢	-٢٥١
سنة ٥٧٣	-٢٥١
سنة ٥٧٥	-٢٥٢
خلافة الناصر لدين الله	-٢٥٢
سنة ٥٧٦	-٢٥٣
سنة ٥٧٧	-٢٥٤

- ١٠٠٧٩ -

سنة ٥٧٨	-٢٥٥
سنة ٥٧٩	-٢٥٦
سنة ٥٨٣	-٢٦٠
سنة ٥٨٤	-٢٦٥
سنة ٥٨٥	-٢٦٧
سنة ٥٨٦	-٢٦٩
سنة ٥٨٧	-٢٧١
سنة ٥٨٨	-٢٧٢
سنة ٥٨٩	-٢٧٣
سنة ٥٩٠	-٢٧٦
سنة ٥٩١	-٢٧٦
سنة ٥٩٢	-٢٧٧
سنة ٥٩٥	-٢٧٧
سنة ٥٩٦	-٢٧٨
سنة ٥٩٧	-٢٧٨
سنة ٥٩٩	-٢٨٠
سنة ٦٠٠	-٢٨١
سنة ٦٠٥	-٢٨١
سنة ٦٠٦	-٢٨١
سنة ٦٠٧	-٢٨٢
سنة ٦٠٨	-٢٨٢
سنة ٦١٢	-٢٨٣
سنة ٦١٣	-٢٨٣
سنة ٦١٤	-٢٨٣
سنة ٦١٥	-٢٨٣
سنة ٦١٦	-٢٨٤
سنة ٦١٧	-٢٨٤
سنة ٦١٨	-٢٨٥
سنة ٦٢٢	-٢٨٥
خلافة الظاهر بأمر الله	-٢٨٦
سنة ٦٢٣	-٢٨٧
خلافة المستنصر بالله	-٢٨٧
سنة ٦٢٤	-٢٨٧
سنة ٦٢٥	-٢٨٧
من التاريخ المنصوري	-٢٩٣
خطبة الكتاب	-٢٩٥
سنة ٤٨٩	-٢٩٦
سنة ٤٩٠	-٢٩٦
سنة ٤٩١	-٢٩٦
سنة ٤٩٢	-٢٩٦
سنة ٤٩٣	-٢٩٦

- ١٠٠٨٠ -

سنة ٤٩٤	-٢٩٦
سنة ٤٩٥	-٢٩٧
سنة ٤٩٦	-٢٩٧
سنة ٤٩٨	-٢٩٧
سنة ٤٩٩	-٢٩٧
سنة ٥٠٠	-٢٩٧
سنة ٥٠١	-٢٩٧
سنة ٥٠٢	-٢٩٨
سنة ٥٠٣	-٢٩٨
سنة ٥٠٤	-٢٩٨
سنة ٥٠٥	-٢٩٨
سنة ٥٠٦	-٢٩٨
سنة ٥٠٧	-٢٩٨
سنة ٥٠٨	-٢٩٩
سنة ٥٠٩	-٢٩٩
سنة ٥١٠	-٢٩٩
سنة ٥١١	-٢٩٩
سنة ٥١٢	-٢٩٩
سنة ٥١٣	-٢٩٩
سنة ٥١٤	-٢٩٩
سنة ٥١٥	-٣٠٠
سنة ٥١٦	-٣٠٠
سنة ٥١٧	-٣٠٠
سنة ٥١٨	-٣٠٠
سنة ٥١٩	-٣٠١
سنة ٥٢٠	-٣٠١
سنة ٥٢١	-٣٠١
سنة ٥٢٢	-٣٠١
سنة ٥٢٣	-٣٠١
سنة ٥٢٤	-٣٠٢
سنة ٥٢٥	-٣٠٢
سنة ٥٢٦	-٣٠٢
سنة ٥٢٧	-٣٠٢
سنة ٥٢٨	-٣٠٢
سنة ٥٢٩	-٣٠٢
سنة ٥٣٠	-٣٠٣
سنة ٥٣١	-٣٠٣
سنة ٥٣٢	-٣٠٣
سنة ٥٣٣	-٣٠٣
سنة ٥٣٤	-٣٠٤
سنة ٥٣٥	-٣٠٤

- ١٠٠٨ -

سنة ٥٣٦	-٣٠٤
سنة ٥٣٧	-٣٠٤
سنة ٥٣٨	-٣٠٥
سنة ٥٣٩	-٣٠٥
سنة ٥٤٠	-٣٠٥
سنة ٥٤١	-٣٠٥
سنة ٥٤٢	-٣٠٥
سنة ٥٤٣	-٣٠٥
سنة ٥٤٤	-٣٠٦
سنة ٥٤٥	-٣٠٦
سنة ٥٤٦	-٣٠٦
سنة ٥٤٧	-٣٠٦
سنة ٥٤٨	-٣٠٦
سنة ٥٤٩	-٣٠٧
سنة ٥٥٠	-٣٠٧
سنة ٥٥١	-٣٠٧
سنة ٥٥٢	-٣٠٧
سنة ٥٥٣	-٣٠٧
سنة ٥٥٤	-٣٠٨
سنة ٥٥٥	-٣٠٨
سنة ٥٥٦	-٣٠٨
سنة ٥٥٧	-٣٠٨
سنة ٥٥٨	-٣٠٨
سنة ٥٥٩	-٣٠٩
سنة ٥٦٠	-٣٠٩
سنة ٥٦١	-٣١٠
سنة ٥٦٢	-٣١٠
سنة ٥٦٣	-٣١٠
سنة ٥٦٤	-٣١١
سنة ٥٦٥	-٣١١
سنة ٥٦٦	-٣١١
سنة ٥٦٧	-٣١٢
سنة ٥٦٨	-٣١٢
سنة ٥٦٩	-٣١٢
سنة ٥٧٠	-٣١٣
سنة ٥٧١	-٣١٣
سنة ٥٧٢	-٣١٤
سنة ٥٧٣	-٣١٤
سنة ٥٧٤	-٣١٥
سنة ٥٧٥	-٣١٥

- ١٠٠٨٢ -

سنة ٥٧٦	-٣١٥
سنة ٥٧٧	-٣١٦
سنة ٥٧٨	-٣١٦
سنة ٥٧٩	-٣١٦
سنة ٥٨٠	-٣١٧
سنة ٥٨١	-٣١٧
سنة ٥٨٢	-٣١٧
سنة ٥٨٣	-٣١٨
سنة ٥٨٤	-٣١٩
سنة ٥٨٥	-٣٢٠
سنة ٥٨٦	-٣٢٠
سنة ٥٨٧	-٣٢٢
سنة ٥٨٨	-٣٢٢
سنة ٥٨٩	-٣٢٩
سنة ٥٩٠	-٣٣٠
سنة ٥٩٣	-٣٣١
سنة ٥٩٤	-٣٣١
سنة ٥٩٥	-٣٣١
سنة ٥٩٦	-٣٣٣
سنة ٥٩٧	-٣٣٤
سنة ٥٩٨	-٣٣٨
سنة ٥٩٩	-٣٤٤
سنة ٦٠٠	-٣٤٥
سنة ٦٠١	-٣٤٦
سنة ٦٠٣	-٣٤٨
سنة ٦٠٤	-٣٤٩
سنة ٦٠٥	-٣٥١
سنة ٦٠٧	-٣٥٣
سنة ٦٠٨	-٣٥٤
سنة ٦١١	-٣٥٦
سنة ٦١٢	-٣٥٧
سنة ٦١٤	-٣٥٨
سنة ٦١٥	-٣٥٨
سنة ٦١٦	-٣٦٠
سنة ٦١٧	-٣٦٠
سنة ٦١٨	-٣٦٥
سنة ٦١٩	-٣٦٦
سنة ٦٢٠	-٣٦٨
سنة ٦٢١	-٣٧٠
سنة ٦٢٢	-٣٧٢
سنة ٦٢٣	-٣٧٦

- ١٠٠٨٣ -

سنة ٦٢٤	-٢٨٢
سنة ٦٢٥	-٣٩٢
سنة ٦٢٦	-٤٠٢
سنة ٦٢٧	-٤٠٩
سنة ٦٢٨	-٤٢٥
سنة ٦٢٩	-٤٣٠
سنة ٦٣٠	-٤٣٦
من تاريخ الصالحى	-٤٤٦
سنة ٤٩٢	-٤٤٨
السلطان محمد بن ملكشاه	٢٤٤٨
سنة ٤٩٣	٢٤٤٩
سنة ٤٩٤	-٤٤٩
سنة ٤٩٥	-٤٥٠
بيعة الامر الفاطمى	-٤٥٠
سنة ٤٩٦	-٤٥١
سنة ٤٩٧	-٤٥٢
سنة ٤٩٨	-٤٥٣
سنة ٥٠١	-٤٥٣
سنة ٥٠٣	-٤٥٤
سنة ٥٠٧	-٤٥٤
سنة ٥٠٨	-٤٥٤
سنة ٥٠٩	-٤٥٥
سنة ٥٠٩	-٤٥٥
سنة ٥١٠	-٤٥٥
سنة ٥١١	-٤٥٥
سنة ٥١٢	-٤٥٦
خلافة المسترشد بالله	-٤٥٧
سنة ٥١٣	-٤٥٧
سنة ٥١٤	-٤٥٨
سنة ٥١٥	-٤٥٩
سنة ٥١٦	-٤٥٩
سنة ٥١٧	-٤٥٩
سنة ٥١٨	-٤٦٠
سنة ٥١٩	-٤٦٠
سنة ٥٢١	-٤٦١
ابتداء الدولة الاتابكية	-٤٦٢
سنة ٥٢٢	-٤٦٢
سنة ٥٢٣	-٤٦٣
سنة ٥٢٤	-٤٦٤
سنة ٥٢٥	-٤٦٥
سنة ٥٢٦	-٤٦٦

- ١٠٠٨٤ -

سنة ٥٢٧	-٤٦٧
سنة ٥٢٨	-٤٦٨
سنة ٥٢٩	-٤٦٨
مقتل المسترشد بالله	-٤٧٠
خلافة الراشد بالله	-٤٧٢
سنة ٥٣٠	-٤٧٢
خلافة المتقي لأمر الله	-٤٧٥
سنة ٥٣١	-٤٧٥
سنة ٥٣٢	-٤٧٦
سنة ٥٣٣	-٤٧٦
سنة ٥٣٤	-٤٧٦
سنة ٥٣٤	-٤٧٦
سنة ٥٣٦	-٤٧٧
سنة ٥٣٨	-٤٧٧
سنة ٥٣٩	-٤٧٧
سنة ٥٤١	-٤٧٨
استيلاء نور الدين على حلب	-٤٧٩
سنة ٥٤٣	-٤٨٠
سنة ٥٤٤	-٤٨١
بيعة الخافر بالله	-٤٨١
سنة ٥٤٧	-٤٨٢
سنة ٥٤٨	-٤٨٢
سنة ٥٤٩	-٤٨٣
بيعة الفائز بالله	-٤٨٤
سنة ٥٥٠	-٤٨٤
سنة ٥٥١	-٤٨٥
سنة ٥٥٢	-٤٨٧
سنة ٥٥٤	-٤٨٧
سنة ٥٥٥	-٤٨٩
خلافة المستنجد بالله	-٤٨٩
بيعة العاضد لدين الله	-٤٩٠
سنة ٥٥٦	-٤٩١
استيلاء شاور على مصر	-٤٩٢
سنة ٥٥٨ - ابتداء الدولة الأيوبية	-٤٩٣
مسير شيركوه الأول إلى مصر	-٤٩٤
سنة ٥٥٩	
سنة ٥٦٢	-٤٩٥
سنة ٥٦٣	-٤٩٥
سنة ٥٦٤	-٤٩٦
استيلاء أسد الدين على مصر	-٤٩٧
مقتل شاور	-٤٩٧

- ١٠٠٨٥ -

وفاة شيركوه	٤٩٧-
وزارة صلاح الدين	٤٩٨-
نوبة السودان	٤٩٨-
سنة ٥٦٥	٤٩٨-
قدوم نجم الدين أيوب الى مصر	٤٩٩-
استيلاء نور الدين على سنجار	٤٩٩-
سنة ٥٦٦	٤٩٩-
خلافة المستضيء	٥٠٠-
اقامة الدعوة العباسية بمصر	٥٠١-
سنة ٥٦٨	٥٠٤-
سنة ٥٦٩	٥٠٤-
سنة ٥٧٠	٥٠٥-
كسرة المواصلة على قرون حماء	٥٠٦-
سنة ٥٧١	٥٠٦-
سنة ٥٧٣	٥٠٧-
سنة ٥٧٥	٥٠٩-
خلافة الناصر لدين الله	٥١١-
سنة ٥٧٦	٥١٢-
سنة ٥٧٧	٥١٢-
سنة ٥٧٩	٥١٣-
سنة ٥٨٠	٥١٣-
استيلاء صلاح الدين على حلب	٥١٤-
سنة ٥٨١	٥١٥-
سنة ٥٨٢	٥١٦-
استيلاء الظاهر على حلب	٥١٧-
سنة ٥٨٣	٥١٧-
وقعة حطين	٥١٨-
فتح عسقلان	٥١٩-
الفتح القدسي	٥٢٠-
منازلة صور	٥٢١-
سنة ٥٨٤	٥٢١-
فتح جبلة واللاذقية	٥٢٢-
فتح صفد	٥٢٣-
فتح كوكب	٥٢٣-
سنة ٥٨٥	٥٢٤-
نزول الفرنج على عكا	٥٢٥-
سنة ٥٨٦	٥٢٥-
سنة ٥٨٧	٥٢٦-
سنة ٥٨٨	٥٢٨-
ذكر الهدنة	٥٢٩-
سنة ٥٨٩	٥٣٠-

- ١٠٠٨٦ -

اولاد صلاح الدين	٥٣١-
الوحشة بين الافضل والعزیز	٥٣٣-
سنة ٥٩٠	٥٣٤-
سنة ٥٩١	٥٣٦-
قصد الملك العادل مصر	٥٣٩-
الاتفاق بين العادل والعزیز	٥٤٠-
سنة ٥٩٢	٥٤١-
استيلاء العادل على دمشق	٥٤٤-
سنة ٥٩٣	٥٤٥-
استيلاء الفرنج على بيروت	٥٤٥-
سنة ٥٩٤	٥٤٦-
سنة ٥٩٥	٥٤٦-
وفاة الملك العزیز وسيرته	٥٤٦-
استيلاء الافضل على مصر	٥٤٨-
قصد الافضل دمشق	٥٤٨-
سنة ٥٩٦	٥٤٩-
كسرة الافضل بالسايح	٥٥٠-
استيلاء العادل على مصر	٥٥٠-
سنة ٥٩٧	٥٥١-
منازلة الظاهر والافضل دمشق	٥٥٢-
سنة ٥٩٨	٥٥٣-
سنة ٥٩٩	٥٥٤-
سنة ٦٠٠	٥٥٦-
سنة ٦٠٣	٥٥٧-
سنة ٦٠٤	٥٥٧-
سنة ٦٠٦	٥٥٨-
سنة ٦٠٧	٥٥٨-
استيلاء الاشرف على خلاط	٥٥٩-
سنة ٦١٠	٥٥٩-
سنة ٦١٣ وفاة الملك الظاهر	٥٥٩-
ذكر بدء ظهور التتر	٥٦١-
سنة ٦١٥	٥٦٣-
نزول الفرنج على دمياط	٥٦٦-
سنة ٦١٦	٥٦٧-
سنة ٦١٧	٥٦٧-
سنة ٦١٨	٥٦٨-
فتح دمياط	٥٦٨-
سنة ٦١٩	٥٧٠-
سنة ٦٢٠	٥٧٠-
سنة ٦٢١	٥٧١-

- ١٠٠٨٧ -

سنة ٦٢٢	-٥٧٢
خلافة الظاهر العباسي	-٥٧٤
سنة ٦٢٣	-٥٧٥
خلافة المستنصر	-٥٧٦
سنة ٦٢٤	-٥٧٧
سنة ٦٢٥	-٥٧٧
سنة ٦٢٦	-٥٧٨
منازلة الاشرف والكمال دمشق	-٥٧٩
استيلاء الاشرف على دمشق	-٥٨٠
سنة ٦٢٧	-٥٨٢
منازلة خوارزم شاه خلاط	-٥٨٣
كسرة الخوارزمي	-٥٨٤
سنة ٦٢٨	-٥٨٥
سنة ٦٢٩	-٥٨٥
سنة ٦٣٠	-٥٨٦
سنة ٦٣١	-٥٨٧
سنة ٦٣٢	-٥٨٧
سنة ٦٣٣	-٥٨٨
سنة ٦٣٤	-٥٨٨
سنة ٦٣٥	-٥٩٠
منازلة الكامل دمشق	-٥٩٢
وفاة السلطان الكامل	-٥٩٦
الحوادث الكائنة بعد الكامل	-٥٩٨
سنة ٦٣٦	-٦٠١
كسرة الروم	-٦٠١
استيلاء الصالح أيوب على دمشق	-٦٠٢
بعض مناقب الصالح	-٦٠٣
الحواشي	-٦٠٦